محمد المنسي قنديل

أنا عشقت

رواية

دار الشروق

محمد المنسي قنديل

أنا عشقت

رواية

دار الشروق

أنا عشقت

أنا عشقت

محمد المنسي قنديل

تصميم الغلاف: أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢١٥٤٧/ ٢٠١٢
ISBN 978-977-09-3097-7

آه.. أنا عشقت وشفت غيري كتير عشق

عمري ما شفت المر إلا في هواك

أغنية للشيخ سيد درويش

من كلمات يونس القاضي

إلى أماني درويش.. زوجتي

كل الجهد الذي احتجت إليه.. وجدته عندها.

كل المحبة التي ابتغيتها.. وهبتها لي.

محمد المنسي

الواقعة

(كما عايشها ورواها أهل مدينتنا)

أمر غريب أن يكون هناك شارع خالٍ في مدينتنا؛ فالحركة فيها لا تهدأ، ولا يكف الناس عن الاصطدام بعضهم ببعض، بلا سبب ومن دون حاجة إلى الاعتذار، والأكثر دهشة أن الشارع كان أيضا صامتا، لا تسمع فيه إلا أصوات الريح، والعصافير وهي تنفض البلل من على أجنحتها، والصوت الواهن لاصطدام رذاذ المطر بالأرض،ولكن لمزيد من الدقة، لم يكن الشارع خاليا تماما، فعلى الرصيف كانت تسير ورد وبجانبها حسن وقد أدخلت أصابعها بين أصابعه، تلتمس منه الدفء في تلك الصبيحة الباردة، وبعد ليلة مثقلة بالمطر، كانت بلدتنا نصف نائمة، فوق أسرة ممتلئة بالبراغيث، وتحت سقوف تنز بالماء كحالها دوما، ولم أكن أنا موجودا، كما يحدث غالبا.

كانت هي فتاة رقيقة، كأن العشق قد شفّ جسدها، أما حسن فقد كان أكثر طولا، وجسده صلد برغم نحوله، ولم يكن وجهه، على الرغم من وسامته، خليقا بهيام المحبين، ولكن الشارع كان يعيش لحظة من عشق نادر لم يجرؤ أحد على مقاطعتها، حتى الذين شاهدوا العاشقين من خلف جدران المقهى الزجاجي لم يتحركوا

من أماكنهم، ولم يصدر عنهم أي نوع من الجلبة، ظلوا فقط يحدقون فيهما بعيون فارغة، عافت نفوسهم أكواب الشاي والقهوة وشيشة المعسل، وظلت أنفاسهم تتكاثف على الزجاج البارد حتى حجبت عنهم الرؤيا تماما.

كان الشارع طويلا وبلا نهاية؛ لأن الغيوم الكثيفة نامت على حافة الأفق وأخذته في طياتها. كانت ورد هي التي تتحدث أحيانا، كانت حزينة حقا، وكلماتها تتحول إلى بخار أبيض رقيق، تتطاير بسرعة قبل أن يسمعها حسن، كان يحس بقليل من الزهو وكثير من الإحراج؛ فقد كان مثل اسمه، شابا تقليديا، بالرغم من أنه متعلم، متحفظا لا يجرؤ على إخراج لحظات عشقه للعلن، ولا يتصور أن تسير ورد بجانبه هكذا وقد شبكت أصابعها به أمام الجميع، برغم أنهم لم يكونوا تقريبا موجودين.

من شارع جانبي، خرجت فجأة عربة صغيرة للزبالة، ملأت الشارع بضجيج عجلاتها، يقودها رجل عجوز غارق في السبات، لا يشعر بما حوله ربما بتأثير الروائح المخمرة التي تفوح من حمولته، بدا أنه سيواصل السير هكذا من دون أن يجد مستقرا، لم تحس ورد بالعربة ولم تشم رائحتها، وظل حسن يحدق أمامه في سهوم وهو متشبث بالحقيبة الصغيرة التي يمسكها باليد الأخرى، ولكن الحمار هو الذي أحس بهما، حدق فيهما بعينيه الواسعتين الحزينتين، ثم توقف فجأة، كأنه خجل من أن يواصل السير بجوارهما بما يجر من حمولة عفنة وعجوز يشخر، توقف «حرنان» في مكانه حتى بعد أن استيقظ العجوز وشهق فجأة كأنه يسترد أنفاس الحياة، أوشك أن يرفع العصا ويهوي بها على ظهر الحمار، لكنه توقف حين شاهد العاشقين

سائرين بأصابعهما المتداخلة كأنها كف واحدة تشبه القلب. شعر هو أيضا ـ كالحمار ـ بالخجل فنهض وأخرج من تحت المكان الذي كان يجلس عليه قطعة من القماش المتسخ، أخذ يحاول أن يفردها، برغم ما فيها من ثقوب؛ ليداري بها حمولته، فعل ذلك وهو يتلفّت حوله كأنه يخفي جرما، ثم عاد إلى مجلسه وابتسم في رضا، ولكن العاشقين كانا قد ابتعدا، لم يسمع صوت ورد وهي تقول فيما يشبه التوسل:

أريد فقط أن أعرف إلى متى سيطول بي الانتظار هذه المرة؟ في المرة السابقة غبت فجأة لعدة أشهر، بلا تفسير ولا رسالة واحدة، هل تتخيل مدى الرعب والافتقاد اللذيْن عشت فيهما هذه الأيام؟

كان واضحا أن كل كلمة تقولها كانت تؤلمها، لكنها سرعان ما عدلت من لهجتها، وحاولت أن تكسب صوتها مسحة من المرح:

على أي حال لن أنتظرك، سأتظاهر أنك دوما معي، وسأتحدث معك كما لو أنك بجانبي. وسأرتدي كل الثياب التي تحبها وكأنك تنظر إليَّ.. هكذا سيمر الوقت وكأنك لم تغب قط.

كل هذا وحسن صامت، لم يفتح الله عليه بأي كلمة، ولكن صمت المدينة انتهى فجأة، ارتفعت صفّارات المصنع تعلن خروج وردية الليل ودخول وردية الصباح.

دعوني أحدثكم قليلا عن صفارة المصنع، فلو كان للمدينة قلب، فإن الصفارة هي إيقاع دقاته، تدوي ثلاث مرات في اليوم في صوت يشبه نعيق جوقة من الغربان، تسمعها بيوت المدينة فتدب في شوارعها حركة صاخبة، تظهر حشود من الوجوه المغبرة خارجة من

بوابات المصنع، ويمتلئ الجو برائحة العرق والغبار وبقايا الكلور والأصباغ العالقة في الأثواب، وتسبح في الهواء فتائل من القطن الممشط، ويسمع الجميع صيحات الباعة وهم يحاولون تصريف مأكولاتهم التي عكفوا على إعدادها منذ الفجر. في هذا الصباح حدثت اللحظة السحرية التي دائما ما تحدث في مدينتي كل صباح، وبرغم تكرارها على مدى الأيام والشهور والسنوات، لم تفقد سحرها، ومازالت تملأ شوارعنا القديمة بالتوهج. تخرج وردية الليل من المصنع، كل أفرادها من الرجال، يسيرون وهم يقاومون إعياء قلة النوم والجوع، ويحنون إلى لمسة من الدفء في بيوتهم، أما وردية الصباح التي تأتي من الاتجاه المضاد فكلها من النساء؛ مازالت أجسادهن تحمل نعاس الفراش وبقايا شهوة الليل، وعندما تتداخل خطوات الورديتين عند نقطة تقاطع ما، يتحول الأمر إلى رقصة متداخلة الخطى، تنبعث موسيقاها من همهمات الإعجاب والتحيات المضغوطة وصيحات الاعتراض والضحكات الخجولة والاحتكاكات العفوية والابتسامات المتواطئة والوعود المغطاة. يصبح الهواء فجأة وكأنه خال من الأكسجين، كل ما فيه من ذرات قد تشبعت بنبضات الرغبة، ومثل كل حفلات الرقص الكبرى، يلبس الرجال ثيابا ـ ليست رسمية ـ ولكن متشابهة، «عفريتة» من القماش الأزرق عليها بقع من بقايا الشحم وخيوط القطن وزيت الفول، أما النساء، فهن أميرات منسيات، يضعن على رءوسهن مناديل ملونة شفافة، حوافها مطرزة بالترتر، ويحملن على أذرعتهن معاطف، ليست من الفراء أو المنك، ولكن من قماش رمادي خشن الملمس، يؤجّلن ارتداءها للحظة الأخيرة قبل دخولهن للمصنع، في تلك

اللحظات الحميمة كان تعب الليل وضآلة الأجر وهموم الديون وكآبة العيش وتأخر سن الزواج ومخاوف الفصل التعسفي والتوق إلى عمل آخر في مدينة أقلّ شقاء، كل هذه الأشياء تذوب وسط هذه الدوامات الراقصة، وهي تمضي مبتعدة تاركة الشارع الممتد للفتاة المتشبثة بأصابع حبيبها.

دخلا إلى الشارع المؤدي للمحطة، سارا وسط صفين من باعة الفاكهة والمأكولات والحقائب المستعملة، من دون مبالاة بالنظرات المحملقة ولا الهمسات الخافتة حتى خرجا إلى الميدان، كان خاليا إلا من بضعة حناطير، أغطيتها السوداء لامعة ومكسوة ببقايا المطر، والدرج المؤدي إلى رصيف المحطة مرصوف ببلاطات صغيرة، ناعمة وزلقة؛ من كثرة الذين سافروا، والذين ودعوا، والذين عادوا خائبين، كلهم صعدوا وهبطوا على هذا الدرج، مثقلين بمشاعر الحنين والأسى التي تثيرها دوما لحظات السفر، في الصالة الداخلية أمام شباك التذاكر، تكلم حسن أخيرا، قال:

انتظري هنا.. سأعود إليك.

تمنت لو أنه كان يعني العودة إليها دائما وأبدا، أخرج من جيبه بضع أوراق مالية، ومن الجيب الآخر بضع قطع معدنية، أحصاها بعناية، ثم ذهب إلى الشباك، وفكرت ورد في حسرة، لا بد أنه كان متشوقا للسفر. تلفتت حولها لتمنع نفسها من البكاء، لم يكن هناك كثير من الركاب، ولكن المكان كان مزدحما برزم الجرائد والمجلات التي تركها قطار الصحافة، والمعلم حزام متعهد توزيع الصحف والمجلات يقوم بفك الربطات وإحصاء النسخ وتقسيمها على

الصبيان الصغار الذين يزوّدون أكشاك التوزيع، كانوا جميعا يقفون مترقبين من دون أن يجرءوا على لمس ورقة واحدة قبل أن يأذن لهم المعلم، وكان هو يتحرك بخفة برغم حجمه الضخم، ويلف حول وسطه حزاما جلديا اشتق منه اسمه، يضع فيه حصيلة اليوم من غلة توزيع الصحف. كان الحزام هدفا واضحا، وبرغم ذلك لم يجرؤ أي من اللصوص أو النشالين المهرة على الاقتراب منه، مع العلم أن المحطة كانت المجال الأساسي لنشاطهم، ويقال إنه يضع ثعبانا يدور حول وسطه كما يدور الحزام، ويلدغ كل من يحاول الاقتراب منه.

تأملت ورد الرزم المختلفة، لدهشتها الشديدة وجدت الصحف كلها بيضاء، من دون صور أو عناوين أو أخبار، التفتت للناحية الأخرى حيث توجد رزم المجلات، كانت أوراقها أكثر لمعانا، ولكنها أيضا خالية من أي علامات، أخرجت ورد نظارة صغيرة من حقيبتها ومسحت زجاجها في كم ثوبها وارتدتها، عاودت التحديق، كل واحد من الصبيان يتسلم حصته بطريقة آلية، لا أحد منهم يلاحظ أنه يتسلم صحفا خالية، أوشكت أن تصيح فيهم محذرة ولكنها كانت أيضا تخشى أن تنفجر في البكاء. تطلعت بيأس في اتجاه حسن الواقف أمام الشباك، والرجل الجالس خلف الزجاج، لعله يهزّ رأسه رافضا أن يعطيه التذكرة، ولكنها رأته يتسلم النقود بطريقة عادية، تماما كما يتسلم الباعة الصحف الممحاة من الكلمات، كلهم يقومون بالأفعال المستحيلة بطريقة اعتيادية.

عاد حسن وأمسكها من مرفقها، وعبرا البوابة الحديدية متجهين إلى رصيف المحطة، ولكن المطر عاود السقوط، أصبح النهار رماديا داكنا، كأن السحب الثقيلة قد امتصت ضوء العالم، وتركته في عتمة

شحيحة، هل يرى أحد ما تراه؟ لم يكن مسار القطار إلا حفرة غائرة، تتألق فيها أربعة خطوط من القضبان، يتناثر حولها الحصى، وتثبتها فلنكات من الخشب، متآكلة ومشبعة بالزيت الأسود، كل شيء يبدو خطرا، يكفي أن ينزلق القطار على هذه القضبان حتى يصل إلى لا مكان ولا يعود حسن من خلف أستار الغياب.

توقفا تحت إحدى المظلات الخشبية، كانت قطرات المطر تتسلّل من بين شقوقها، ولكن لم يكن هناك مكان أفضل. كانت ورد قد أُرغمت على أن تترك يده ولم يعد لديها ما تتشبث به، إحدى يديه تحمل الحقيبة، والأخرى تمسك بالتذكرة، لم يكلف خاطره أن يضعها في جيبه، وقف حمّال عجوز على مبعدة منهما ونظر نحوها في إشفاق، كان من خلال خبرته قد أدرك أن الطرف المسافر هو الأقل تأثرا، فهو يسعى إلى دنيا جديدة لا تترك له فرصة للتأسي على ما فات، أما المودع فهو الأكثر حزنا، فالحسرة تبقى دائما من نصيبه. أدرك أيضا أن الشاب بقدر ما هو متعجل في الرحيل، فلن يتعجل في العودة، فكر في ذلك متأملا الحقيبة الصغيرة التي يحملها، الذين يسافرون بلا متاع، هم أقل الناس رغبة في العودة، لا يتمسكون بشيء، ولا ينظرون خلفهم.

قالت له فجأة بصوت مرتعد:

أرجوك يا حسن..لا تسافر..أنت تغيب طويلا..سيكون هذا قاسيا عليَّ.

التفتَ إليها مستغربا، كأنه يستكثر عليها هذا الضعف المفاجئ، همهم بكلمات غامضة عن مشاغله في الكلية التي يعمل بها، عليه أن

يعد بحثا مهما، ولكنه سيعود قريبا، لم يقدم لها شيئا قاطعا، يحاول فقط أن يخفي رغبته في الفرار خلف هذه الهمهمات التي تختلط بصوت قطرات المطر، هل أصبح يضيق بها، أو بهذه المدينة المبللة التي يكسو الطين شوارعها لأيام طويلة؟ كانت مثله تكره أيام الوحل، ولكنها لم تفكر في الفرار، سمعت صوتا يهتف من على الرصيف:

أبو علي.

التفتت في رعب، اقترب النداء منهما، ظهر ثلاثة من الرجال، أحاطوا بحسن وهم غير مصدقين أنهم قد عثروا عليه أخيرا،وقفوا بينها وبينه حتى عزلوه عنها تماما، أعطوها ظهورهم كأن لم تكن، أخذوا يعانقونه بشوق ويربتون على ظهره بمودة، كان قد وعدها أن تكون لحظة الوداع لها وحدها من دون أن يصحبه أحد؛ لا أهل ولا أصدقاء، فكيف أفشى سر هذه اللحظة؟ هل كان يعرف أنهم سيجيئون، كما عرف مقدما بثمن التذكرة؟ كانت تعرف الثلاثة؛ الرجل الأنحف بين الجميع والذي لا يكف عن تقبيل رأس حسن، هو عزّوز مهرج السيرك، لم يكن هناك سيرك في مدينتنا، ولكن ذات مرة حلّت بالمدينة فرقة من المهرجين الجوالين، جاءوا إليها متعبين من كثرة السفر، محبطين من الوجوه الكئيبة التي تحيط بهم وهي عاجزة عن الضحك، أخذوا يؤدون ألعابهم وقفزاتهم البارعة في الهواء الطلق في وقت تبديل «وردية» عمال المصنع، ولكن العمال الخارجين كانوا متعبين، والداخلين متعجلين، لم يبق لمشاهدتهم إلا بضعة من الأطفال المفلسين. فشلت العروض تماما، واضطر المهرجون للرحيل في إحدى شاحنات نقل الخضار، ولكن واحدا منهم لسبب مجهول قرر أن يبقى في المدينة؛ لم يتزوج، ولم ينتظم في

عمل، ظل يهيم في شوارع المدينة، ويقدم عروضا مجانية للجالسين على المقاهي والأطفال الذين يلعبون الكرة في الحواري، لا تدري ورد متى تعرف إليه حسن ولا كيف أصبحا على هذه الدرجة من التقارب، كان الثاني هو عطية الزماني أشهر حلاق في المدينة، هو الذي حلق كل رءوس الأطفال، وجعل رءوسهم رمادية داكنة بلون جلد الفئران، وهو الذي قطع قلفات الأطفال الصغيرة، حتى يطهرهم من النجاسة ويدخلهم عالم الرجال، ولكنه بدلا من ذلك ترك لهم ذكرى مؤلمة تجعلهم يجفلون منه حتى بعد أن كبروا؛ كان هو حامل نمائم البلدة والعارف بأسرارها، منذ المشوار الأول للعشاق الصغار، حتى مواعيد تسلّل الزوجات الشابات إلى أسرة عشاقهن، كان هو أول من حمل الرسائل بينها وبين حسن، وظل يرعى العلاقة حتى توطدت، ولكنه في هذه اللحظة فضل أن يتجاهل وجودها، كان يبدو متودّدا إلى حسن أكثر مما ينبغي، أما الرجل الثالث فهو أغربهم جميعا، ولم تتصور ورد أن يكون هناك أي نوع من الصداقة بينه وبين حسن، لا يتصور أحد أن يكون محروس المخبر صديقا لأي إنسان، كان بطوله الفارع وشاربه الكث ومعطفه الحائل اللون، مصدر كراهية الجميع، ومن المؤكد أنه كان يكره نفسه. كانوا في قسم الشرطة يكلفونه دائما بالأعمال القذرة؛ انتزاع الشباب وسوقهم للتجنيد، مطاردة المديونين والمتخلفين عن السداد، توقيع أوامر الحجز على المفلسين، إرغام الزوجات على الذهاب لبيت الطاعة، وكانت لذّته تبلغ أقصاها، حين يضع ختم الشمع الأحمر ويغلق به مكانا ما، كان جسده كله يهتز وينتفض كأنه قد بلغ ذروة لا يستطيع الوصول إليها مع زوجته الضخمة.

شهقت ورد وأوشكت أن تبكي، لم يستمع أحد إليها، فقط.. نظر حسن إليها من بعيد، لمحت في نظرته نوعا من الحنان المفاجئ، أخيرا ظفرت منه بنظرة مختلفة، كانت قد رتّبت نفسها على أن تقبل شفتيه فور قدوم القطار؛ قبلة طويلة وعميقة تضع فيها كل ما تشعر به نحوه، هكذا علانية أمام الجميع، بحيث تتوالى أعمدة التلغراف وتتباعد المحطات من دون أن يستطيع نسيانها، ولكن هؤلاء الثلاثة أفسدوا سحر لحظة الوداع، نزعوا ما فيها من شجن لم يبق منها إلا حزن مبتذل يبقيها ملتاعة وعاجزة، لماذا لا يجد في نفسه الشجاعة ليتركهم ويأتي إليها ويأخذها في أحضانه؟ كيف يتركها هكذا عرضة للهواء البارد والإهمال؟ للحظة اعتقدت أنه على وشك القيام بذلك لولا أن القطار صفّر في هذه اللحظة، ياالله.. لقد جاء برغم كل ما تشعر به من إحباط؛ لم تتكسّر الجسور ولم ترفع القضبان، وازدادت الحركة في المحطة، ظهر فجأة كل الناس الذين كانوا مختفيين من المطر، تدافعوا في كتلة واحدة كأنهم سيركبون العربة نفسها التي سيركب فيها حسن، وعندما دخل القطار بمقدمته السوداء، كأنه لا يرى المحطة ولا ينوي الوقوف فيها، ولكن العجلات أزّت في صوت عال، ثم تجمدت فوق القضبان، توقفت العربات وهي تلهث، ازدادت دوامات الحركة حول حسن وأبعدته رغما عنه، التفت نحوها وحاول التقهقر، ولكن الزحام دفعه في ظهره نحو باب القطار، تطلعت إليه في لوعه، ووجهه متجه إليها ولكنه يواصل الابتعاد، هناك كلمة حب لم يقلها، ولمسة مرتعشة لم تشعر بها، وقبلة مازالت متلهفة إليها. أوشكت أن تصرخ فيه أن يتوقف، أن يبحث عن قطار آخر أقلّ ازدحاما وقسوة، ولكنها لم تعد ترى وجهه، فقط يده

المرفوعة بحقيبته الصغيرة، لم تر حتى الرجال الثلاثة الذين أفسدوا لحظة وداعها، كل ما رأته هو جمعة ناظر المحطة بجسمه الضخم وهو يحاول أن يدفع الركاب بعيدا حتى لا يسقط أحد فوق القضبان؛ أخذ يصفّر في قوة وغضب، اختفت حقيبة حسن داخل القطار ولم يبق أمامها إلا أن تتطلع إلى النوافذ لعلها تلمح وجهه، ربما يلوّح لها بيده ويعطيها وعدا ما، ولكن النوافذ أيضا كانت محتشدة بوجوه العمال المعروقة؛ أجساد متراكمة بعضها على بعض، تلوّح بأيديها للفراغ في بلاهة. صفّر جمعة فرد عليه القطار بصفارة أخرى أعلى وأكثر طولا، ثم بدأ يتحرك تاركا نصف الركاب على الرصيف.

عاد المطر، وواصل القطار التحرك، ولم يظهر حسن. ظلت واقفة عاجزة في مكانها. مرقت العربات أمام عينيها بسرعة أكثر من العادة، كل النوافذ ممتلئة بالناس وخالية من حسن، شهقت ولكنها لم تبك، لم تبق في عينيها دمعة تذرفها، تركت العربة الأخيرة المحطة ولم يبق لها غير الانتظار..هل يجديها ذلك؟

انصرف الذين حرموا ورد من لحظة الوداع من دون أن يأبهوا بوجودها. توافد على المحطة مسافرون جدد، ومودعون أقل لوعة، واستمر مجيء القطارات ورحيلها، ورحل المسافرون من دون مبالاة لدموع المودعين، تكاثفت السحب ولم تتوقف الأمطار، وظلت البرودة تزداد كلما انحسر الضوء، وعندما أضيئت المصابيح أحاط بها ضباب معتم جعلها أكثر حزنا، ولم يفهم الجميع ما حدث إلا بعد أن دوّت صفارة المصنع في منتصف الليل تعلن دخول الوردية الثالثة. غادر القطار الأخير المحطة من أمد بعيد، وتنهّد جمعة ناظر المحطة وهو يجرّ قدمه المتعبة إلى المبنى الحجري المجاور للمحطة الذي يقيم فيه، كانت هذه غرفته في نهاية رصيف المحطة.

ما حدث بعد ذلك ظل غامضا، وبرغم أنني سألت كلّ من حضر هذه اللحظة، بمن فيهم جمعة ناظر المحطة، عن أدق التفاصيل، إلا أن أحدا لا يذكر شيئا مميزا، كأن المطر الذي عاد للتساقط بقوة قد جعل الجو رماديا داكنا، وغيب كل التفاصيل الصغيرة. لم يصدق أحد أنه مرّ نهار كامل من دون أن يفطن أحد إلى الواقعة التي حدثت، وعندما حل الظلام وبدت الأضواء ذائبة ومترددة، كانت قطرات المطر التي لا تتوقف تجعل المعالم باهتة، كأنها على حافة أثيرية بين الحلم واليقظة، وتبدت الحقيقة واهنة لا يمكنها الصمود أمام مواجهة الواقع المرير. لم يكن لجسد بهذه الرقة أن يتحمل كل هذا الإحساس بالافتقاد، كان لا بد أن تتضافر عناصر الكون الأخرى على بعث حياة غير مرئية في داخلها؛ لقد حاول جمعة أن يستعيد اللحظة بأكملها وهو يكرر على مسامعي تفاصيل ما حدث، وظل صابرا على أسئلتي الكثيرة من دون أن يكف عن الارتعاد، لا يستطيع أن يشعل سيجارته بيد ثابتة، وعندما وجد في داخلي تلك الرغبة الحارة في معرفة أدقّ الوقائع، لم يحاول التملص مني، ولم ينشغل بالقطارات التي لم تكف عن الورود للمحطة،كان يعتقد أن كثرة الكلام يمكن أن تريحه، ومن حسن الحظ أن القطارات قد أحسّت برغبتنا القوية في الجلوس للحظات متصلة فتوقفت عن المجيء، ولم تصرخ صفارة الوردية، ولم يزحم العمال الرصيف.

استعاد جمعة بالتفصيل تلك اللحظة التي أستيقظ فيها مذعورا، في وقت متأخر من الليل، وصوت طرقات قوية تدوي على باب غرفته. كانت قطرات المطر التي تتساقط فوق السطح المعدني لغرفته تتداخل مع أحلامه وتجعل نومه متقطّعا، كان قلقا أيضا بسبب الفتاة

النحيفة الراقدة بجانبه، يتنابه هاجس أنه لو استغرق في النوم فسوف يتقلب عليها ويسحق عظامها، كائن نحيف ومتسخ، هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها غرفته وتشاركه فراشه، منذ فترة وهي تشاغله، تتقافز فوق أرصفة المحطة حاملة أوراق اليانصيب، تعترض الركاب وتفلت من أيدي العساكر، وتنظر إليه دوما بعينيها الواسعتين اللتين تحتلان معظم وجهها، نظراتها مليئة بجوع ضار ورغبة حارة، وظل مترددا في أن يصطحبها لحجرته الضيقة التي تغطي جدرانها صور النساء العاريات، كلها مقتطعة من المجلات. لم يكن جمعة يهتم كثيرا بمن تشاركه الفراش، كن كثيرات، بائعات اليانصيب والصحف والمياه الغازية والسميط والجبن والمتسولات، في آخر الليل بعد أن ينهكهن التعب وطول السعي على رصيف المحطة، يشتقن إلى حضن هذا الرجل الضخم الذي يتحملهن كما هن، لايبالي بوسخهن، ولا بثيابهن المفعمة بالتراب والعرق، ولا بالعطن المنبعث من أعضائهن الجنسية، وبرغم جسده الضخم وسلطته على المحطة، كان دوما ضعيفا أمامهن، لا يفرض نفسه عليهن، يعطيهن بالضبط ما يحتجن إليه، دفئًا ومؤانسة وطعامًا، ويبقى مطلب الجنس في نهاية المطاف وفق رغبتهن، المهم أن يتردد نفس غير أنفاسه في الحجرة الضيقة. كانت في آخر المحطة، كانت منعزلة عن بقية المساكن الأكثر ضيقا وفقرا التي يقيم فيها عمال التحويلة والفلنكات، غرفة مميزة تحولت بفضل جمعة إلى مأوى ليس لهؤلاء البنات المتشردات، ولكن للقطط والكلاب أيضا، تربض جميعها بجوار جدران غرفته في وئام في انتظار أن يجود عليها بعطاياه، كان يلقي إليها بنصف طعامه تقريبا، لم تتصارع عليه برغم قلته لأنها تعلم أن هذا كل ما يمكن أن يقدمه.

تواصل الدق على الباب حتى طغى على صوت المطر، ارتجف جسد جمعة، ربما كان الطارق واحدا من مفتشي المحطة، هذه عادتهم، يأتون متأخرين في منتصف الليل وتحت المطر؛ ليتأكدوا من سلوك الموظفين خارج العمل، كان أول ما فعله هو أنه دفع بالفتاة النحيفة التي كانت بجانبه حتى وقعت على الأرض، صاح فيها:

ادخلي تحت السرير.

فتحت عينيها في حيرة، مندهشة وحزينة لأنها انتزعت من دفء جسده؛ ولأنها مازالت جائعة إليه، ولكنها انزلقت في طاعة تحت السرير الواطئ، وبرغم ضيق المكان وخشونة الأرض فقد غرقت في النوم من جديد. لفّ جمعة جسده بالبطانية وسار نحو الباب، لا وقت لارتداء حلة العمل، فتح الباب وتنهد في ارتياح حين شاهد وجه بيومي عامل النظافة بالمحطة، لم يبال بأمارات الفزع التي تبدو على وجهه، ولا بالفانوس الذي يحمله من دون ضوء، كان مبللا ويقول في صوت مرتعد:

يا ريّس..هناك أمر غريب، من الأفضل أن تأتي وترى بنفسك.

لم يفهم ماذا يقصد، ولم يجد مبررا لإفزاعه بهذه الصورة، صاح فيه:

أهذا وقته؟ ماذا حدث؟ هل سرقت المحطة؟ هل تخلصنا منها أخيرا؟

بلع بيومي ريقه وعاد يكرر: من الأفضل أن تأتي وترى.

أخذ جمعة يسبه، حتى بعد أن تراجع من أمامه وتشاغل بارتداء

ثيابه، كانت قدما الفتاة تبدوان واضحتين من تحت السرير، ولكن درجة الفزع التي كان بيومي يعاني منها جعلته لا يلحظهما. فكر جمعة أن يغلق الباب قليلا ويطلب منها الصعود للفراش، ولكنه سمع صوت شخيرها وأدرك أنها لن تهتم كثيرا بتغيير موضعها. سار وراء حمزة، تعثرا معا وسط الحصى المتناثر، ولم يكن المصباح ينير شيئا،حتى وصلا لمنطقة القضبان، برغم الظلام والعوارض الحديدية المتداخلة مع «الفلنكات»، فإنهما كانا يتقافزان بألفة من يعرف كل التضاريس، لم يعق سيرهما إلا حفر الماء. كان رصيف المحطة مظلما؛ الأعمدة مطفأة إلا عمود واحد، ضوؤه ذائب وسط هالة من الضباب المائل للصفرة. لم يتوقف جمعة عن السباب، لا يوجهه إلى حمزة فقط ولكن إلى الليل والمطر والمحطة و«الفلنكات»، ولم يكفّ بيومي عن الارتجاف حتى إن صوت اصطكاك أسنانه كان مسموعا. أحسّ جمعة بالرهبة أمام منظر المحطة التي كانت موحشة بطريقة لم يعتدها من قبل، كأنها تتأهب لحدث جلل، توقف بيومي مد يده التي تحمل المصباح نحوه، وأشار باليد الأخرى إلى المظلة الخشبية وهو يقول له:

اذهب وشاهد بنفسك.

همس جمعة وقد بدأ الخوف يدب في قلبه: أنت خائف يا جبان؟

انتزع منه المصباح وحاول السير في خطوات ثابتة، ثم بدأ يتباطأ حتى توقف تماما. كان هناك شخص ضئيل يقف تحت المظلة الخشبية، بالقرب من الحائط ولكنه لا يستند إليه، غير واضح المعالم، يتطلع إلى رصيف المحطة في نظرة ثابتة، لا يحرك رأسه إلى أعلى،

ولا إلى أسفل، مخيفا برغم ضآلته، ثباته وجموده يجعلان القلب يرتجف، كان جمعة متأكدًا أنه قادر على أن يسحقه إذا دار بينهما أي صراع، ولكنه ظل واقفا مترددا، نظر خلفه، إلى بيومي المرتجف، كان على وشك أن يطلق ساقيه للريح مع أول حركة تردّد، تذكّر أنه الناظر، وعليه مسئولية مواجهة كل الأشباح التي تتجرأ على محطته. رفع المصباح وتقدم خطوتين إضافيتين،استطاع أن يرى الشبح بوضوح أكثر، يا نبي الله يا محمد، إنها امرأة، فتاة، صبية، عروس صغيرة، تقف ثابتة لا يتحرك منها إلا شعرها الذي يتطاير مع الريح، تحدق إلى الأمام بنظرة فارغة وعينين تلمعان مع ضوء المصباح، لكنها لا تراه ولا تحس بوجوده، سلامٌ قولًا من ربٍ رحيم، تعويذة لابدّ منها لمواجهة الإنس والجن، ولكنها الآن ليست كافية، أضاف إليها المعوّذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وبرغم ذلك ظلت ثابتة في مكانها، لم تذُب ولم تحترق، تبدو طبيعية لولا تلك الحالة من الجمود غير البشري، التفت خلفه كأنه يريد أن يشارك بيومي الرأي، لم يجده، فصّ ملح وذاب، اختفى اللعين في لحظة عصيبة، تركه وحيدا في مواجهة هذه الجنية الجامدة، لم يجد بدًا من أن يتكلم، يتحدث إليها ليكتشف هويتها، وليبدأ بالذوق أولا، قال بصوت حاول جهده أن يكون متماسكا:

من أنت يا ست، بحقّ جاه النبي، تكلمي أو تحرّكي، افعلي شيئا.

رنّ صوته في صمت المحطة فارغا، كان خائفا أكثر مما يعتقد، بدا على الفتاة المتصلبة أنها لم تستمع إليه، برغم ذلك ظل صامتا

ليتيح لها فرصة الرد، توقع أن تخرج من جمودها في أي لحظة، أو ربما تتخلى عن هذه الاستكانة، وتنقض عليه، أقل ما يمكن أن تفعله هي أن تغرس أسنانها في عنقه، لم يكن خوّافا بطبيعته، وإلّا كيف استطاع أن يؤوي في غرفته كلّ هذا العدد من الفتيات المتشرّدات؟

رفع المصباح إلى أعلى واقترب أكثر، أصبح وجهها أكثر وضوحا، صغيرا ورقيقا وشاحبا ومشدوها، تحيط به هالة من الشعر المتطاير، عيناها مذهولتان، وعلى شفتيها بقايا ابتسامة منكسرة، تذكّرها من فوره، جاءت قبل أن تزدحم المحطة بالغنم من عمال المصنع، تسير برشاقة، حسبها واحدة من بنات الجامعة وقد أخطأت ميعاد قطارها، في العادة لا تركب البنات في قطارات العمال؛ فهي مزدحمة وخانقة ولا توجد فيها إلا درجة واحدة، ولكن هذه الفتاة لم تكن تحمل كتبا، وكانت على درجة من الجرأة بحيث دخلت وأصابعها متشابكة في أصابع شابّ ما، طويل القامة صلب الملامح، أين ذهب هذا الشاب؟ ولماذا بقيت هي؟ كيف لم يلاحظ وجودها حتى الآن؟

تشجّع على الاقتراب منها أكثر، لم تكن مؤذية، مجرد مسافرة تقف مقهورة وجامدة، مدّ يده نحوها بالمصباح وهو يهتف:

يا آنسة.. تأخر الوقت ولم تعُد هناك أي قطارات.. عودي في الصباح إن شاء الله.

ظلت جامدة، مدّ أطراف أصابعه ولمس ذراعها، لمسة خفيفة، لكنها كانت كافية لعودة الذعر إليه، ذراع باردة وجامدة ومتصلبة، تمثال من لحم بارد، فكر حائرا.. كيف تيبس جسدها إلى هذا الحد؟ هل يمكن أن تموت وهي واقفة هكذا؟ صاح بأعلى صوته:

بيومي.. يا بيومي.. اظهر يا جبان.

كان يرتجف، يحاول أن يتحكم في جسده الضخم حتى لا يتفكّك بعضه من بعضه، وظل الهواء يزوم من حوله مصدرا صوتا كالعويل، والفراغ المظلم يحيط بهما من كل ناحية. لم يكن الموت غريبا على المحطة، فالقطارات لا ترحم من ينزلق في سبيلها، ولكن هذا النوع من الموت كان مختلفا. ظهر بيومي، صعد على الرصيف واقترب منه مترددا، أحس ببعض الاطمئنان لأن رئيسه مازال سالما برغم صوته المذعور، وقف بجانبه، التصق جمعة به من دون أن يشعر، أشار إلى الفتاة وحاول أن يتكلم، لكنه أجهش فجأة بالبكاء وهو يقول من خلال شهقاته:

إنها ميتة.

شهق بيومي: لا إله إلا الله.. سيدنا عزرائيل غريب الشأن حقا.. أخذ روحها وهي واقفة.

لم يجرؤ على الاقتراب ليتحقق من كلام رئيسه، حدّق فيها من بعيد، لم تكن تبدو ميتة بأي حال من الأحوال، صامتة وجامدة، لكنها ليست ميتة، ولكن ربما تنهار في أي لحظة، قال بيومي في همس كأنه خائف أن تسمعه:

لقد أصبحت جثة الآن يا ريّس.. مسئولية سنحاسب عليها.. يمكننا أن ندفنها قبل أن يطلع النهار.

صرخ جمعة في حنق:

يا غبي، ما حدث هو أمر غير اعتيادي، يجب علينا أن نبلّغ الشرطة.

ـ كله إلا الشرطة.. أنت تعرفهم يا ريّس،سوف يتهموننا أننا الذين

قتلناها، مصَصْنا دمها على الأقل، وقبل أي سؤال سينهالون علينا بالضرب، ربما يتركونك لأنك ناظر ومحترم، ولكنهم سيواصلون ضربي أنا بالذات، وسأعترف لهم بكل ما يريدونه وأقر بأنني الفاعل.

بدا بيومي فجأة وكأنه قد أصبح تحت وطأة التعذيب بالفعل، تهدج صوته وأصابه الوهن:

أنت لا تعرف «قسم أول شرطة» وما يحدث فيه، ما إن تدخل من بوابته الحجرية حتى يغرسوا عصا في مؤخرتك، من دون أدنى سبب، ومن دون أن يسألوك عن سبب مجيئك إليهم.

كان يرتجف بشدة وقد تلون صوته بنبرات البكاء، وكان جمعة يعرف جيدا ذلك المبنى الحجري الذي بناه الإنجليز والذي مازال رابضا في قلب المدينة. كان كئيبا، تمتلئ أروقته بروائح من عرق الرجال وقيئهم وبرازهم ودمائهم أيضا، مزيج ثقيل يلتصق بالجسد ويظل ينبعث منه حتى بعد مغادرة المكان، لم يكن مهما في هذه اللحظة، كان الاثنان يرتجفان معا، والريح الباردة تدخل في عظامهما، لم يبق ساكنا وصامتا إلا جسد الفتاة الجامد، قال جمعة:

لن يتهمك أحد بشيء، فلا أحد يعرف ما حدث.

ـ أقسم إنني لم ألمسها، لم أرها إلا بمحض المصادفة، مررت أمامها أكثر من مرة، ولكني لم ألحظها، حين تحقّقت من وجودها أخيرا أصابني الرعب وجئت إليك من فوري.

انفجر بيومي بالبكاء وقد أحس بطريقة أو بأخرى أنه مذنب، ابتعد جمعة عنه، لم يكن في حالة تسمح له بتهدئته، كان هو أيضا يشعر

بالذنب، كان عليه أن يتأكد جيدا من خلو المحطة قبل أن يتركها، دخل إلى مكتبه الصغير وأضاء المصباح ورفع سماعة الهاتف، ولكن قبل أن يدير القرص حرص على أن يزيل أثر الدموع من عينيه، كان يحفظ رقم شرطة الطوارئ، وظل جرس الهاتف يرن طويلا، أغلق الخط وعاد يطلبه من جديد، وأخيرا رد عليه صوت يغالبه النوم. أخذ جمعة يحكي للشاويش المناوب ما حدث في لهجة سريعة لاهثة، لم يفهم الرجل على الطرف الآخر شيئا، أعاد جمعة الكلام نفسه بلهجة أقل انفعالا، وأخيرا فهم الرجل أن هناك جثة ما على رصيف المحطة، وبدأ يتنبه لخطورة الأمر. استيقظ وبدأ يدير الهواتف القريبة منه، وجلس جمعة يحاول استعادة أنفاسه، كلّ ما عليه هو الانتظار حتى يأتوا ويتحملوا عنه المسئولية، ظل يراقبها من خلال النافذة والهواء يحرك شعرها وثوبها. لم يصدق أنها بلا حياة، بدت كأنها تستعد للسير في أي لحظة، تمنى أن تفعل ذلك وتغادر المحطة قبل أن تصل الشرطة.

خفّت حدّة الظلام وتسرب إلى السماء لون من رماد باهت، تشجع بالضوء الواهن وأخذ يتأملها في روية، كانت رهيفة الملامح، كل جزء فيها مصنوع بدقة ومركب بعناية، لم يكن جسدها النحيل يستأهل أن يستولى عليه الموت بغتة، أن يتعامل معها بهذه القسوة، أخذ روحها بلا مقابل، كان هو نفسه قد جرّب موتا من هذا النوع؛ موتا أقلّ حدة، تركه وهو يتحرك وسط الناس ويتكلم معهم ويتظاهر أنه مازال على قيد الحياة، ولكن روحه كانت قد أخذت من دون مقابل. حين غادرته «فاطمة»، قفزت إلى أحد القطارات المغادرة، حيث كان السائق الذي اتفقت معه في انتظارها، لم تترك خلفها ولو خطابا صغيرا توضح فيه لماذا فعلت ذلك. ظل يدور مذهولا

وسط المحطات المتناثرة، من بحري إلى قبلي، ليس بدافع الحنق أو الانتقام، ولكن ليسألها فقط، لماذا فعلت به هذا؟ لماذا تركته ينام في الغرفة المجاورة للمحطة، ويلتقط هؤلاء البنات المتسخات؟

لابد أنه استغرق في النوم وهو يتأملها، فقد استيقظ مذعورا على صوت صفارات سيارات الشرطة. تعكّر السكون الهش للمحطة، نهض ليستقبلهم عند الباب، ولكنه كانوا قد وصلوا إلى مكتبه في لمح البصر، تقدم ضابط نحيف، لم يكن يرتدي ثيابه الرسمية، ولكنه كان يضع على عينيه نظارة داكنة برغم أن الظلام مازال مخيما، يتحرك في إعياء وعصبية من قلة النوم، صاح به من دون تمهل:

أين الجثة؟

بدت الكلمة غريبة على أذني جمعة،كان يدرك أن الفتاة ميّتة، ولكن كلمة جثة لم تكن تليق بهذا الجسد المتصب الجميل، ولكن الضابط المتحفّز، وثلة العساكر الذين يقفون خلفه، بعد أن استيقظوا في هذا الوقت، لم يكونوا يرضون بأقل من جثة، حاول جمعة أن يتقدمهم ليدلّهم على المكان ولكن الضابط أصر على أن يكون في مقدمتهم جميعا، استولى على المحطة في الحال، وأصبح يقود الجميع بمن فيهم الناظر، ركل الباب الحديدي المؤدي إلى الرصيف بقدمه، برغم أنه كان يمكن أن يدفعه بيده، سار بخطوات واثقة، ثم توقّف فجأة وخلفه الجميع، كانت الفتاة تحدّق فيهم بعيون فارغة، نظر الضابط حوله في جزع وهتف مرة أخرى:

أين الجثة؟

أشار جمعة إليها، قلب الضابط نظره بينهما في بلاهة، أحسّ أن في

الأمر خدعة ما، أخرج مسدسه، اقترب منها أكثر وهو يلوح به مهددا، لكنها ظلت على جمودها نفسه، صاح الضابط في حنق:

حركة واحدة واضرب في المليان.

رن صوته أجوف في صمت المحطة، وجزّ جمعة على أسنانه، ازدادت عصبية الضابط أمام الفتاة التي لم تأبه بتهديده، اقترب منها أكثر حتى لامس أنفها بطرف مسدسه، وكان أول ما خطر في ذهنه، وكما هي العادة، أن يصفعها صفعة قوية تخرجها من جمودها، ولكنه تردد بعد أن رفع يده في الهواء، هبط بها ببطء وضعها على كتفيها، وهبط أكثر ليلمس ذراعها، ثم ارتدت فجأة، أخفض المسدس، ونظر إلى جمعة حائرا وهو يقول:

ماذا يحدث؟ لماذا أبلغت أن هناك جريمة قتل؟

قال جمعة: الله وحده يعلم.

استردّ الضابط أنفاسه، أعاد المسدس إلى جرابه، تراجع العساكر، استندوا إلى الجدران كأنهم على وشك معاودة النوم من جديد، ازدادت حيرة الضابط:

فتاة جميلة حقا، ولكن من هي؟ وكيف تجمدت وأصبحت باردة هكذا؟

ـ رأيتها عند قطار وردية الصباح، جاءت برفقة شاب لتودعه، رحل هو وتجمّدت هي.

ـ أي شاب هو السبب بلا شك؟ ربما أعطاها جرعة مكثفة من المخدرات؛ هي فعلت بها ذلك.. يجب أن نعرف من هو.

قال جمعة: لقد رحل.

ـ حتى لو ذهب للمريخ يكفي أن نعرف اسمه، وسنقبض على أهله وأصحابه حتى نعرف أين هو.

كان جمعة يدرك أن الضابط يخرّف بأي كلام.. كانا هما الوحيدين اللذين تجرآ على لمسها، ويعرفان أنه لا الشاب ولا المخدرات لهما علاقة بالموضوع، كان الأمر أكثر غموضا من أي تفسير ساذج، مسح الضابط العرق الذي تجمع على جبهته، كيف يمكن أن يتعرّق في ليلة باردة كهذه؟ قال في عجز:

ليس في يدي شيء، يجب أن تأتي النيابة والطبيب الشرعي لمعاينة الحالة.

قال جمعة فجأة: ربما يستطيع الطبيب الشرعي أن يقدم تفسيرا لما حدث.

لم يكن واثقا، لم يكن هناك تفسير محتمل، تنهد وهو يتراجع بظهره، لحسن الحظ لم تعاود الأمطار السقوط، كان قطار الصحافة على وشك الوصول، وبعده سوف يأتي عمال الوردية، وسوف تصبح المحطة أشبه بالسيرك، قال الضابط كأنه يقرأ أفكاره:

ألا يمكن أن نوقف حركة القطارات؟

قال جمعة: القطارات لا تتوقف إلا إذا توقفت الدنيا عن الدوران.

كلمات بلا معنى، ولكن الضابط اقتنع بها وأومأ في صمت، سار إلى حيث يقف العساكر، طلب منهم أن يحيطوا المكان الذي تقف فيه الفتاة بأجسادهم، أن يحاولوا إخفاءها بقدر الإمكان عن

أعين الفضوليين، ثم انهمك في القيام بعديد من الاتصالات. جلس جمعة على أحد المقاعد، وعندما انتهى الضابط سار إليه وجلس بجانبه ببساطة، نظر جمعة حوله ولكن بيومي كان قد اختفى تماما عن الأعين، أخرج علبة سجائره ومدها نحو الضابط الذي لم يتردد وتناول منها واحدة، أخذا يزفران الدخان معا، لعلهما ينفّسان عن صدريهما، قال الضابط:

أتدري.. إنها جميلة بالفعل، لم أعتقد أنه توجد في هذه المدينة المقبضة فتيات بهذا الجمال، لو كنت قابلتها قبل الآن لافتعلت لها تهمة، تهمة خفيفة على أي حال، ولكنها ستكون فرصة لأقوم بالتحقيق معها والتعرف إليها عن قرب، وستكون ممتنّة لي لأنني سأطلق سراحها في النهاية.

نظر إليه جمعة مستغربا، لم يعد عصبيا ولا قاسيا، كان يتحدث عن الفتاة كفرصة ضائعة، قال:

برغم كلّ شيء، لا زلت غير مصدق أنها ليست على قيد الحياة.

- لقد رأيت في مهنتي عديدًا من الأشياء الغريبة، وهذه ليست أغربها، إنها ميتة بالفعل، وقد تأكدت من ذلك عندما لمستها.

هبطت ذرات الضباب من مكان ما، وأخذت تغلّف كلّ شيء بطبقة شاحبة، أحسّ جمعة أن المحطة قد أصبحت معزولة، وأن كلّ القطارات سوف تضل الطريق إليها. انسحب اللون الرمادي من السماء، خرج عمال التحويلة وهم يحملون معداتهم على عربة الدريسة، وظل جمعة والضابط جالسين متقاربين حتى بعد أن دخل المحطة أوائل الركاب، كانوا ينفخون في أيديهم ويتطلعون إلى

العساكر في استغراب، لكن أحدا منهم لم يجرؤ على التقدم للسؤال، كان جمعة يعرف كثيرين منهم، إنهم الركاب الذين تنتابهم هواجس السفر، لا ينامون الليل ويأتون إلى المحطة مع مطلع الفجر برغم أن قطاراتهم لا تقوم إلا عند الظهيرة، ثم ارتجّت المحطة مع صفارة قطار الصحافة وهو يندفع فوق القضبان. أخذ العمال يلقون برزم الجرائد والمجلات والكتب من النوافذ،كانت قذائفهم محكمة بحيث تتراص الرزم بعضها بجانب بعض، ثم انصرف القطار وساد هدوء مؤقت، من الناحية المقابلة جاء قطار آخر يحمل العمال من القرى والبلدات القريبة، أثاروا صخبهم المعتاد الذي يميز قدومهم كلّ صباح، ولكن حين شاهدوا الضابط والعساكر خفتت أصواتهم فجأة، وانصرفوا سريعا قبل أن تدوي صفارة المصنع.

ما إن ارتفعت الشمس قليلا حتى توافد على المحطة كلّ من يُهمه وجود جثة وحدث غامض، المأمور وكيل النيابة ومعاونوه، وأخيرا الطبيب الشرعي. كان رجلا على حافة الكهولة، غريب التصرفات، تعرفت إليه فيما بعد في المقهى الزجاجي الذي كان يداوم الجلوس فيه، كان قد جاء إلى مدينتنا بعد أن تقلّب في هذا العمل في أمعاء الصعيد الجوّاني؛ لذلك لم يعد يدهشه شيء، أيّ شيء على الإطلاق كما أكّد لي؛ فقد رأى الجسد البشري في أسوأ حالاته، فهو مازال كائنا مجهولا يستمد تصرفاته من غرائز غير سوية، وتحكم طبائعه هرمونات مصابة بالعطب. لذا حين استيقظ من النوم في هذا الصباح وتلقّى إشارة «قسم أول» بأن هناك جثة ماتت وهي واقفة، انفجر في الضحك، فالمدن الإقليمية كلها مليئة دائما بهذا النوع من السخافات. لم يتعجّل ولم يتخلّ عن قهوة الصباح الثقيلة، فالجثث تبقى في

الانتظار مهما كان وصوله متأخرا، على الأقل سيترك الفرصة حتى يشبع الجميع من التحديق فيها، وبعد ذلك لن يبقى إلا هو وهي، وصل إلى المحطة وهو يدندن في سره أغنية: «طلع الصبح.. فتّاح ياعليم»، ولكنه حين شاهد لون وجه المأمور المخطوف، وعمال المصنع وهم يهرعون مبتعدين، ووكيل النيابة الذي يحدق فيما حوله ببلاهة أدرك أن هناك شيئا مختلفا. دخل إلى رصيف المحطة ومرّ من بين صفّ العساكر حتى أصبح في مواجهتها تماما، كانت أجمل جثة رآها في حياته، تأمل فستانها المليء بالزهور، إنها فقيرة بالتأكيد؛ إذ إن الفستان الذي ترتديه لا يتناسب مع هذا البرد. تأمل شعرها المسدل على كتفيها، صبية غريرة، شعرها كان مجدولا فيما مضى، ولابد أنها قد فكّته لأجل هذه المناسبة، عذراء بتول، تضع على كتفيها شالا باهت الزرقة له شراشف رفيعة، تضم أطرافه في حياء حول صدرها بواسطة أصابع يدها المنثنية، كأنه سيحميها من ذئاب العالم، يبدو على ملامحها الشابة نوع من الدهشة والمباغتة، تحدق إلى الأمام بعيون غائمة نصف مفتوحة، فمها منغلق وليس مزموما، عليه ظل من ابتسامة حزينة، أحسّ الطبيب بالدهشة لأنه وجد أخيرا الفتاة التي بحث عنها طويلا، التي لم يتزوج عندما لم يجدها، كان من الممكن أن يتزوجا وينجبا أطفالا، ويكون هو سبب وصل هذا الجسد الجميل بحركة الحياة التي لا تتوقف، كانت ستغيّر حياته كما سيطيل هو أمد حياتها، كان يكره هذه المدينة حقا، وعلى وجه الخصوص كبار موظفيها وما يحتدم بينهم من ضغائن، وكذلك النمائم التي تختلقها زوجاتهم، انقطع عن السهر معهم منذ فترة طويلة، وتعود أن يتسلّل إلى المعمل كل ليلة ليحمل زجاجة من

الكحول الأبيض، يمزجها بالماء، أو يشربها هكذا مركزة، كان هذا هو المشروب الوحيد الذي يتواءم مع خلايا جسده، وعندما تفيض عليه الوحدة كان يجلس منزويا في المقهى الزجاجي، وها هوذا الآن وهو يقف أمامه يتذكر فجأة أن كل حياته كانت صحراء قاحلة، شظفا وانتظارا، يحس بالوخز ينتشر في خلايا جسده، كأنه يعلن عن حاجتها إلى الكحول في وقت مبكر.

مدّ يده في حقيبته وأخرج مرآة صغيرة، وضع سطحها اللامع تحت فتحتي أنف الفتاة، لم يظهر عليه أي نوع من الغبش الذي يسببه بخار الماء، لا يوجد أثر للشهيق أو الزفير، وضع يده على رقبتها، تحسس الشرايين النائمة تحت جلدها الرقيق، كانت باردة، والشرايين ساكنة من دون نبضة واحدة. تأمل المثلث الناصع الذي يكشف عنه ثوبها، نظر خلفه إلى حيث يقف العساكر في صف متصل وظهورهم له، وكان المأمور ووكيل النيابة بعيديْن كأنهما في عالم آخر، جميعهم يهيئون له الفرصة ليودعها بطريقته، مدّ يده وأزاح الشال الأزرق قليلا، فكّ الزر الأول من ثوبها، انكشف جزء أكبر من صدرها الشاحب، لم تكن الزرقة قد تسللت إليه بعد، أخرج السماعة الطبية، نفخ فيها قليلا ليجعلها دافئة، ثم فكر في سخرية: لماذا يدفئ السماعة والجسد تكسوه برودة الموت؟ أزاح الفستان أكثر، ظل يزحف بأصابعه التي تمسك بالسماعة حتى وضعها تحت الثدي الأيسر، سمع أصواتًا واهنة قادمة من خلف حجاب السماعة، التفت إلى الخلف فوجد أن العساكر جامدون في أماكنهم، أعاد وضع السماعة وثبتها في مكانها، الأصوات مازالت موجودة، صادرة من الجسد الميت. استمع إليها وهو مذهول: دب.. لاب.. دب.. لاب.... دب..لاب.. دب..

لاب.. بلا نهاية، ليست لغوشة، ولا عشوائية، ولكنها دقات منتظمة الإيقاع، من دون انقطاع، كما يجدر بالقلب أن يكون، إنه ضعيف وواهن ولكنه موجود ولا يمكن تجاهله ولا إنكاره. لم يحتمل الصمت المطبق على المحطة فصرخ بأعلى صوته:

إنها حية.. لم تمت.. حية.

انهار صف العساكر فجأة والتفتوا جميعا نحوه، وقف بعضهم مدهوشا بينما جرى بعض آخر في خوف، سار الطبيب مذهولا وهو يضرب كفّا بكف، هلّل بعض الركاب الذين كانوا واقفين على الرصيف المقابل، وتعالت أصوات التكبيرات،كانوا يعرفون ويترقبون وينتظرون صامتين، كأن هذا الموت المباغت كان همّا ثقيلا على صدور الجميع.

كان جمعة أول من هرع إليه وأمسك بيده، قبض الطبيب عليها وهو يهتف مرتعدا:

لقد سمعت صوت دقات قلبها.

أجهش جمعة بالبكاء، وهو يردد:

كنت أعرف، والله كنت أعرف، فتاة مثل هذه لا يمكن أن تموت «فطيس» بهذه الصورة.

اقترب الضابط وعاود النظر إلى الفتاة حائرا، هل هي حية فعلا، أو أن الجميع كانوا فقط يتمنون ذلك؟ وهذا الصوت الذي سمعه الطبيب هل هو مجرد صدى لهذه الأمنيات؟ خلع غطاء رأسه، فكر في أن يأمر العساكر بالعبور إلى الرصيف الآخر وضرب هؤلاء الذين يكبرون،

ولكن أعدادهم كانت آخذة في التزايد، ومن الخطر مواجهتهم في مكان مليء بالحصى والزلط كالذي يوجد في العادة بجوار القضبان، توقف منتبها عندما اندفع نحوهم وكيل النيابة متعجلا، كان شبه غاضب، لا يجد معنى لهذا التلكؤ واللعب بعواطف الناس، مرق من بين الضابط والطبيب متوجها إليها، لمس ذراعها ووجهها، ولم يبال بالجزء العاري من صدرها، التفت إلى الدكتور وقال في حزم:

بالتأكيد هي ميتة.. أرجوك يا دكتور.. لا داعي لإضاعة الوقت.. احسم الأمر سريعا.

قال الطبيب في تأكيد من دون أن يبالي بحدته:

بالتأكيد هي ميتة، كل شيء فيها ميت ماعدا قلبها.

زفر وكيل النيابة في ضيق وقد ازداد الأمر غموضا، كان رجلا عمليا لا يؤمن بهذه الخزعبلات، ويدرك أن وراء كل فعل فاعلا، وخلف كل جريمة مجرما، وأن سبب كل ظاهرة غامضة متهم أكثر ذكاء، ولكن الطبيب ظل مصرا على رأيه، أمسك السماعة، وضع القرص المستدير في المكان نفسه تحت الثدي الأيسر، وخلع السماعة من أذنيه وأعطاها لوكيل النيابة وهو يقول:

تفضل سعادتك.. اسمع بنفسك.. لب.. داب.. لب.. داب.

نفخ وكيل النيابة في زهق وعلق السماعة في أذنيه، لم يكن يفهم شيئا في الطب ولكنه على الرغم من ذلك سمع الصوت، ارتد من فوره وقد سرت رعدة في جسده، وهتف الطبيب:

ألمْ أقل لحضرتك، كلّ شيء ميّت فيها إلا القلب..

ـ لم أر شيئا مثل هذا.. أعتقد أن هذا يعني أنه لا توجد جريمة.. ماذا سنفعل الآن؟

ـ لا أعرف.. إنها ميتة وحية في الوقت نفسه.

تنهد وكيل النيابة وهو يقول: مهما كانت حالتها.. إنها من اختصاصك الآن.. انتهى دورنا.

وقبل أن يبدي الطبيب أي نوع من الاعتراض، استدار وكيل النيابة، أشار إلى الكاتب أن يتبعه، سار إلى خارج المحطة كأنه هارب من ذنب ما، ودار الطبيب حول نفسها حائرا، قال الضابط في إشفاق:

من الأفضل أن نتصل بالمستشفى ليرسلوا عربة الإسعاف حتى تحملها.. ومن المؤكد أنها ستكمل موتها هناك.

هذا هو الحل الأمثل، إذا كان مقدّرا لها أن تموت أخيرا، فلتفعل ذلك بطريقة طبيعية بعيدا عن هذا الزحام وتلك الضجة. انشغل الضابط من فوره بالاتصال بمسئول أمن الدولة الموجود داخل المستشفى، كانت هذه هي الطريقة المثلى لتأتي عربة الإسعاف من دون تلكؤ، ولم يملك الطبيب إلا أن يجلس بجانبها، يتأمل الجزء العاري من صدرها من دون أن يجرؤ على ردّ الزرّ إلى موضعه، يتمنى فقط أن يحصل على كأس من الكحول الممتزج بالماء.

قبل أن تصل سيارة الإسعاف كان الخبر قد انتشر في كل أنحاء مدينتنا،لم يكن لخبر مثل هذا أمسى عليه الليل وأصبح عليه النهار أن يبقى محاصرا بين جدران المحطة، كل بيت كان يتحدّث عن ورد

الفتاة الميتة الحية، تعرف إليها جيرانها، وأصبح اسمها معروفا، قالوا أيضا إنها يتيمة الأم، وإنها تعيش أو بالأحرى لا تعيش مع أبيها الدائم الترحال، عرفوا لماذا ذهبت إلى المحطة، وكيف تجمدت حين غادرها حبيبها الذي يدعى حسن. بدءوا جميعا يتدفقون على ميدان المحطة، وفوجئ الضابط والعساكر بصوت همهمات عالية ترتفع من الخارج، أصيبوا جميعا برعب مفاجئ. هكذا الأمر في بلدتنا دائما، عندما يتجمع الناس لأي غرض يتحوّل الأمر إلى مظاهرة، ومادامت هناك مظاهرة فإن كل الجروح القديمة تتفتح وكل المطالب المؤجلة تتأجج، صاح جمعة مرعوبا:

سيقتحمون المحطة.. إنهم يفعلون ذلك كل مرة.

أشار الضابط بسرعة إلى العساكر، أسرعوا بالوقوف عند الباب، خلعوا أحزمتهم الجلدية الغليظة، لفوها حول أيديهم وتركوا الطرف الموجود فيه قطع النحاس، أخذوا يهوون بها ـ كالعادة ـ على رأس كل من يحاول صعود السلالم، تراجع الناس مذعورين والدم يسيل على وجوههم، تعالت أصوات الاحتجاجات والشتائم، ولكن العساكر بطبيعة الحال، ومنذ أن أصبحوا عساكر، لا يعرفون طريقة أخرى للتعامل مع الناس، استبد بهم شعور الاستقواء فأخذوا يهوون على رءوس الجميع، حتى الذين قادهم الحظ السيئ وهبطوا من القطار القادم، تلقفتهم أحزمة العساكر وهم يحاولون الخروج من باب المحطة. وكان الضابط واقفا يأخذ أنفاسا عميقة وعيناه تلمعان، وكانت أصوات طرقعات الأحزمة وصراخ المضروبين تبعث في داخله إحساسا بالنشوة، نظر إلى «جمعة» وهو يقول:

لن نسمح لأحد بالدخول إلى المحطة حتى تأتي عربة الإسعاف.

قال «جمعة»: وماذا عن الركاب الآخرين؟

ـ لينتظروا.. أو يبحثوا عن وسيلة أخرى.. هذه مشكلتهم.

لم تجيء سيارة الإسعاف ولكن جاء المزيد من العساكر، كانوا يحملون الدروع والعصي، كان هناك تاريخ ممتد في بلدتنا من العصيان والإضرابات والاحتجاجات جعلت قوة الأمن في حالة دائمة من التأهب والاستنفار، فما إن يعلو صوت فوق بقية الأصوات الواهنة حتى تطنّ أجهزة الهواتف والفاكس وغيرها من وسائل الاتصال لتعلن لكبار المسئولين أن عمال البلدة المشاغبين قد عادوا إلى التمرد من جديد.

سمع الجميع صوت «سرينة» سيارة الإسعاف وهي تقترب، تراجع الناس وأفسحوا لها ممرا ضيقا، توقفت السيارة أمام سلالم المحطة تماما، هبط اثنان من الممرضين من الباب الخلفي وهم يدفعون أمامهم محفة صغيرة، همهم الناس، تدافعوا أكثر على أمل أن يشاهدوها أخيرا وهي خارجة فوق المحفة.

داخل المحطة أشار الضابط إلى الممرضين، وهو يصيح: خذوها فورا.

كانا أشبه بجنديين في جيش الخلاص، سينقذان الجميع من ورطة خطيرة، ظلا لبرهة مشدوهين من منظرها، ثم بدآ يدوران حولها كصيادين يبحثان عن أنسب الطرق لاقتناص فريستهم. وضعوا المحفة خلف ظهرها، ووقف أحدهم أمامها والآخر في الخلف،

وكان على الأول أن يدفعها دفعة خفيفة وغير مؤذية، ويسرع الآخر بتلقفها، بعد ذلك يضعان جسدها فوق المحفة، ولكن جسد ورد لم يستجب للدفعة. كرر الممرض الأول المحاولة بقوة أكثر، وضع يداه الاثنتان على كتفيها وواصل دفعها، ولكنها لم تكن مجرد فتاة هشة داهمها الموت، بدت كتمثال متخشب، مغروس في الأرض، نظر الممرض حوله في حيرة، تقابلت نظراته مع الضابط الذي كان يضغط على أسنانه في ترقب، عاد الممرض ودفعها بقوة أكثر، ارتج جسدها، كأنه قد تأثر بقوة الدفعة، ولكنها ظلت في مكانها، والأخطر من ذلك أنها بدت على وشك التهشم، دفعة أخرى وستتفتت وهي جامدة في مكانها، تراجع الممرض في خوف، ولكن الممرض الثاني تقدم منها، كان أكثر طولا وأشد وقاحة، لف ذراعيه حول ورد وحاول أن يقتلعها من مكانها، ولكن الجسد انتفض بين ذراعيه، أو هكذا على الأقل خيل له، انتفاضة واهنة ومتواصلة، سرت في بدن الممرض كشحنة كهرباء، تراجع وهو يشهق، وقف لاهثا أمام الضابط وهو يقول:

لا نقدر يا باشا.

قال الضابط وقد انخطف لونه:

ماذا.. إذا لم تقدروا على نقل مريضة إلى المستشفى.. على أي شيء تقدرون إذن؟

قال الممرض الضخم مرتعدا:

ستموت في أيدينا يا باشا.. ولا نستطيع أن نتحمل مسئولية ذلك.

صرخ الضابط: ولكنها ميتة بالفعل يا غبي.

ـ نحن إذن لا نحمل الموتى يا باشا، استدع الحانوتي.

انفجر الضابط فيهما مهددا:

ورحمة أمي سأضعكما معًا داخل السجن المؤبد إذا لم تحملا هذه الجثة من هنا.

كان الاثنان يعرفان ماذا يعني سجن «قسم أول»، ويشمان رائحة العفونة المنبعثة منه على بعد أمتار من أسواره العالية، لذلك نظر الواحد إلى الآخر وبدآ يدوران حولها من جديد لعلهما يستطيعان اقتلاعها، ولكنهما كانا يرتعدان، يدركان أنهما يمكن أن يدمّرا هذا الشيء البالغ الرهافة والجمال، كانت فرصتهما الوحيدة أن يدورا ويدورا حتى يقتربا من باب المحطة، ويواصلا الجري حتى السيارة وينطلقا بها للاختفاء في أي مكان.

في تلك اللحظة، وصل القطار الذي يحمل الطلبة من الجامعة؛ جامعة إقليمية صغيرة لا تبعد عن مدينتنا إلا بحوالي نصف ساعة بالقطار، وكنت أنا من بينهم، طالبا مرتجفا من كلية الطب،يعاني كثيرا من المتاعب في الشتاء لأنه لا يملك الملابس المناسبة، وبخاصة عندما يكون الصباح ماطرا، ونوافذ القطار مكسورة، والمدرجات واسعة وباردة، هبطنا من القطار ونحن نحمل معاطفنا البيضاء، علامة لا تخطئها عين على أننا ننتمي إلى هذه الكلية اللعينة. فوجئنا بالمشهد الذي يدور على رصيف المحطة؛ الضابط الذي يصرخ ويشتم الجميع، الممرضيْن اللذيْن يدوران حول كائن جميل وصامت، وناظر المحطة يبكي من أجلها، والعساكر المتحفزين بالأحزمة والعصي، والناس الذين يهمهمون في الخارج وقد أحسّوا

بالجريمة التي تحدث داخل المحطة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ورد،فقد لفت جمال وجهها الحزين نظري أكثر من مرة، كانت تقريبا أجمل فتاة في بلدتنا الموحلة، ولكني لم أكن أعرف حكايتها على وجه الدقة.

كان الممرضان يستعدان للهجوم الأخير عليها حين صرخنا جميعا في صوت واحد:

اتركوها.

توقف الممرّضان كأنهما كانا في حاجة فقط إلى من ينهرهما، والتفت إلينا الضابط حانقا. سرنا جميعا إلى حيث تنصب ورد، ثلاثة أولاد وبنتان، وقفنا بجانبها، صاح الضابط:

ابتعدوا من هنا.. دعونا ننهِ شغلنا.

قلت: إنها واقفة في حالها ولا تؤذي أحدا.. ما تفعلونه الآن سوف يقتلها.

صاح الضابط: لا شأن لكم بما يحدث.. اذهبوا إلى بيوتكم.

صاحت فتاة معنا اسمها فاتن، كنت معجبا بها ولكنها لم تكن تبالي بي:

نحن أطباء.. وسوف تقتلونها بطريقتكم هذه.

لم نكن كذلك حتى الآن، ولكن كلماتها كانت قوية، لدرجة أن الضابط حدق في هذه الدكتورة المفعوصة التي تتجرأ عليه، أخذنا جميعا نصيح ونلوح بقبضاتنا في الهواء، واحتار الضابط ماذا يفعل

معنا، لم يكن يستطيع أن يأمر العساكر بضربنا كما يفعل مع الجميع. كانت المعاطف البيضاء التي نحملها تعطينا نوعا من الحماية المؤقتة، وبدا واضحا أنه قرر أن يتجاهلنا، والتفت ليأمر المسعفين بمواصلة عملهم، ولكنهما انتهزا فرصة انشغاله عنهما ولاذا بالفرار، وسمع بوضوح صوت «سرينة» الإسعاف وهي تحاول أن تشق طريقها بين الزحام الموجود في ميدان المحطة. تنهد في حنق وقد أصبح الموقف أكثر ضعفا بالنسبة إليه، وأتيحت لي الفرصة أخيرا أن أرى ورد بوضوح وجسدها النحيل منتصبا ويائسا وحزينا، خيل إليَّ أنها ترتجف، أنها لا تستطيع أن تقاوم صهد النهار وبرد الليل وهي وحيدة هكذا، شعرت بحزن وأسى من أجلها، قال الضابط في صوت حاول أن يجعله هادئا:

لقد قضيت يوما من أسوأ أيام حياتي في هذا المكان، أنا أقف هكذا منذ الفجر، والمدينة كلها على كف عفريت، لا طاقة عندي بالجدال معكم، انصرفوا إلى بيوتكم، مهمتي حمايتها وليس إيذاءها.

أصبح رقيقا وحزينا فجأة، وأدركنا أنه خلف مظهره الصارم، يحاول أن يخفي تعاطفه معها وإشفاقه عليها، نظرنا جميعا إليه، ولمحت بريقا من الإعجاب في عيني فاتن، تقدمت من ورد ولم يحاول الضابط منعي، أمسكت بالمعطف الأبيض الذي كان على ذراعي، رفعته إلى أعلى ووضعته على كتفيها، كان واسعا عليها بعض الشيء، برغم أنني كنت نحيلا، وبرغم أن ذراعيها ظلتا جامدتين خارج الأكمام، فقد استطعت أن أثبت أزرار المعطف من الأمام، فعلت ذلك وسط صمت الجميع، ودهشتهم، وظل الضابط واقفا يراقب حركاتي في صمت. كان الجميع يشعرون أنها تحتاج إلى شيء

ما، وأنني بالمصادفة قد اكتشفت هذا الشيء، أحسّوا بنوع من الرضا المفاجئ، ولم يكن هناك مفر من الانصراف. لم أكن أملك معطفا غيره، وسيحدث هذا مشكلة لي في «الراوند» داخل المستشفي، سيبدو مظهري أقرب إلى المرضى منه إلى الأطباء، ولكن لم أبال، ولم أكن أعرف أن هذا المعطف قد أصبح رابطا بيننا، يربط مصيري بمصيرها.

علي ـ نهائي طب

في تلك الليلة.. لم أستطع المذاكرة، ظلت الجمجمة الموضوعة فوق كتبي تتأملني بحدقتيها المجوفتين، كنت قد وضعت فيهما أزهارا ملونة لأخفف من رعب الفراغ الذي يطل منهما، ولكن الأزهار كانت تذبل سريعا، شعرت أن عليًّ فعل أي شيء بدلا من دفن رأسي بين صفحات كتاب الجراحة. لم أذاكر منه إلا أقل من النصف، برغم أن الامتحان قد أصبح قريبا. أغلقت الكتاب وهبطت إلى الشارع المظلم، سرت في جوف الليل الرطب. كانت أعمدة الإنارة تنطفئ لأيام طويلة من دون سبب، ثم تضيء فجأة من دون تدخل من أحد، كأن لها إرادتها الخاصة. سرت على غير هدى، كنت أعرف أن الأمر سينتهي بي إلى الذهاب إلى المحطة؛ حيث تقف ورد مرتدية معطفي، جواز مروري للاقتراب منها. خرجت إلى الميدان الذي يزدحم في النهار بباعة الخضار والنشّالين، كان خاليا إلا من بائع واحد من نوع خاص، المعلم «زلط» الذي يجلس كعادته كل ليلة، بكرشه الضخمة وساقيه القصيرتين، رابضا خلف منضدة صغيرة عليها ميزان صغير، وعلى مسافة قريبة منه يقف عسكري الدورية وهو ينظم حركة الزبائن، كلما فرغ المعلم من زبون أرسل له الآخر، وسأل

المعلم الزبون عن طلبه في رويّة، ثم قطع «الصنف» بدقة، ويضع القطعة على الميزان، وغالبا ما يتوافق الوزن مع طلب الزبون. يشتغل بهدوء وأناقة وبأسلوب يبعث على الثقة، كنت أعرف أن عديدًا من زملائي في الكلية يذهبون إليه، ويشيدون بجودة بضاعته، وأنه يقدم تخفيضا خاصا للطلبة، وكان يعرف وجهي، وكلما مررت من أمامه صاح بي: إحنا في الخدمة يا دكتور، ولكني لم أحتج إلى خدماته، حتى الآن على الأقل.

انطفأ المزيد من أعمدة الإضاءة، ولكني رأيت النسوة الثلاث يقفن في المكان ذاته، يرتدين تقريبا الملابس ذاتها، ويمارسن المهنة نفسها بطبيعة الحال، كن قد أصبحن على أبواب الشيخوخة، ولكن وقفتهن الطويلة في الظلام الرطب أنستهن مرور الزمان. يوقدن أعواد الثقاب على فترات متفاوتة من الوقت، يتظاهرن بإشعال السجائر بعضهن لبعض، لكن سجائرهن لا تشتعل أبدا، تكشف ألسنة اللهب فقط عن مكان وجودهن للراغبين من الزبائن، كم عدد أعواد الثقاب التي عليهن إشعالها قبل أن يأتي زبون واحد؟ تذكرت ورد التي لم أكن قد نسيتها، كم عليها أن تنتظر، وكم عودا من الثقاب يجب أن يشتعل قبل أن ينتبه الآخرون إلى وجودها، وإلى أي مدى من الزمن تستطيع بشرتها الرقيقة أن تتحمل مناخ بلدتنا الرطب وفضول أهلها وافتقاد حبيبها؟

وجدت نفسي أمام المقهى الزجاجي العتيق؛ زجاجه المعتم يحتجز الضوء والضوضاء والأدخنة بداخله، تقدمت ونظرت من فتحة الباب الموارب، شممت روائح البن المحروق والمعسّل وعرق الزبائن، لمحت الدكتور «أمشير» جالسا في أحد الأركان،

يحدق في الجميع بنظرات شاردة، كنت أعرف أنه لا يخرج كثيرا ولا يحب الاختلاط بالآخرين، ولكنه ـ كما يبدو ـ لم يتحمّل وحدته هذه الليلة، سعى إلى المقهى ولكن الزبائن لم يسعوا إليه، ظلوا يجلسون متباعدين عنه؛ ربما لأن رائحة «الفورمالين» التي تنبعث منه تقيم حاجزا بينه وبين الآخرين، وعندما اقتربت منه شممت رائحة أخرى؛ رائحة الكحول التي تنبعث من الكوب المعتم الذي يمسكه في يده، وأمامه على المنضدة زجاجة مياه غازية لم تمس، كان يعتقد أنه بهذا يتخفّى عن أنظار الجميع. تقدمت حتى وقفت أمامه تماما، أحسّ بأنني أحجب عنه الضوء، رفع بصره وتطلع نحوي بلا اهتمام، رفع الكوب وأخذ منه رشفة ثم تجشأ، قال في صوت متقطع:

هل.. أعرفك؟

على الأقل لم يبدُ رافضا لوجودي، قلت:

كلا.. أنا مجرد طالب في نهائي طب لم يتخرج بعدُ.

قال من فوره: لقد أخطأت اختيار المهنة.

بدا تعليقه متسامحا وعلى شيء من المرح، سحبت مقعدا وجلست في مواجهته، أدار وجهه للناحية الأخرى، كأنه لا يريد لأحد أن يرى وجهه عن كثب، قلت:

أعرف أن الطب مهنة غريبة وتقترب من السحر، ولكنها بالغة القدم.. وتتعامل على الأقل مع أسرار الحياة والموت.

ضحك في سخرية من دون أن يدير وجهه ناحيتي:

من الذي علمك هذه الكلمات الضخمة؟ الطب هو مجرد تسكين

لآلام لا تنتهي، مهنة مزيفة، تخادع الإنسان وتعطيه وهم الشفاء، بينما الموت يقف بالمرصاد.. الشفاء الحقيقي هو الشفاء من الموت.. وهو أمر لن يتحقق أبدا.

رفع الكأس مرة أخرى، أخذ رشفة ثم تجشأ، لا بد أنه كان يشرب منذ وقت مبكر؛ لأن وجهه كان شديد الاحتقان وكان جسده على وشك أن ينهار في أي لحظة، دخلت مباشرة في الموضوع:

لقد رأيت الفتاة التي تجمدت اليوم، وأعطيتها المعطف الوحيد الذي أملكه، لا أعرف إن كانت تشعر بالبرد أو لا، ولكنها لم تبدُ لي ميتة بالدرجة الكافية.. أليس كذلك؟

تغيّر وجهه، كان من الواضح أنه لم يكن يستطيع أن يبعدها عن ذهنه، قال:

ربما تستطيع أنت تجيب عن هذا السؤال أفضل مني، أنت مازلت تدرس وسطور الكتب مطبوعة في رأسك، هل هناك تفسير لهذه الحالة في «التكست بوك» التي تذاكر فيها؟

ـ هذه الكتب الضخمة تجعلني في تيه، التفسير الوحيد لهذه الحالة لا يوجد إلا في أفلام الرعب.. في قصص «الزومبي» أو الموتى الأحياء الذين يتجولون ليلا على الشاشة ويمتصون رحيق الحياة من الآخرين.

أخذ جرعة قوية من الكوب، تجشأ بأنفاس خُيّل إليَّ أن كل الجالسين في المقهى يشمونها، قال:

وما أدراك أننا لسنا كذلك؟ ما أدراك أن كل الذين يجلسون حولك

في المقهى ليسوا موتى؟ المصريون الأحياء اختفوا منذ زمن بعيد، لم يعودوا قادرين على بناء المعابد أو زراعة الوادي أو إقامة الجسور، ما الغرابة في أن تتجمد فتاة صغيرة ويُسلب منها رحيق الحياة حين يفارقها حبيبها؟ على الأقل هناك سبب منطقي، نحن جميعا متجمّدون وموتى من دون أي سبب ظاهر.

ارتفع صوته متأثرا ومنفعلا، وبدأ الجالسون ينظرون إلينا وعلى وجوههم ابتسامات متواطئة، كانوا يعرفون أن الدكتور العجوز قد دخل أولى مراحل السُكْر، ولكنني شعرت بأنه منتبه إليّ بكليته. كان الوحيد الذي أخذ وقته في تفحصها، لمس جيدها وسمع وجيب قلبها، بدا أن سؤالي قد أثار أشجانه، أخذ يتكلم بجمل متقاطعة، خرج عن الموضوع، ولكني ظللت أواصل الاستماع إليه، عاد بعيدا إلى الوراء، إلى سنواته الأولى في الصعيد الجوّاني، طبيب أرياف في قرية خانقة لا يوجد فيها إلّا ليل طويل مطبق، كان يكره أهلها لأنهم بُلْه، وكانوا يكرهونه لأنه يقتّر عليهم في الدواء، بالطبع لم يقل لي إنه لم يكن يضع يده على مريض إلا بعد أن يقبض الثمن مقدّما، ولكني استنتجت ذلك، في ذات ليلة استدعته إحدى العائلات لزيارة منزلية، كانوا حريصين على أن ينقدوه أجره مقدما، وقبل أن يغادر الوحدة، حمل حقيبة فيها عدّته الطبية وبعض عيّنات الأدوية. أخذ يتعثر في الظلام حتى يجد طريقه إليهم، قادوه عبر بستان من النخيل والترع الضحلة والجسور، ثم أدخلوه بيتا واسعا مليئا بالأروقة، معتما وخاليا من الهواء النقي، كان يعرف أن هذه هي العادة في أمثال هذه البيوت عندما يكون هناك مريض في داخلها، يطبقون كل النوافذ خوفا من أن تسوء حالته، كأن قطيعتهم عن العالم الخارجي هي الوسيلة لشفائه.

قادوه إلى غرفة علوية، أشعلوا إحدى لمبات الجاز وتركوها أمام سرير واسع من النحاس الأصفر، كان جسد المريضة مغطى بملاءة بيضاء، ساكنا من دون حركة، كأن الموت قد سبقه إليها، تقدم منها وحاول أن يسمع صوت نفس أو تأوه، كانوا قد قالوا له إنها امرأة، لذلك تردد طويلا، أخذ يغمغم ببضع كلمات، يسأل عن اسمها أو علّتها، وعندما لم يسمع جوابا مد يده ليرفع الملاءة البيضاء، وبواسطة الضوء الشحيح، شاهد الشيء المفزع الراقد على الفراش، جمجمة متفحمة، وحدقتين غائرتين وفكا مهشم الأسنان، عدة فقرات من العنق متصلة بجسد ملفوف بشرائح ملفوفة، متفحمة أيضا، تفوح منها رائحة عفونة ثقيلة جعلت معدته تتقلص. تراجع إلى الوراء، أمسك حقيبته وأسرع خارجا من الغرفة، رأى وجوههم بعيون غائمة، ولكنه سمع ضحكاتهم عالية ومتشفية، لم يتذكر في أي شيء أساء إليهم، هل طرد أحدهم من الوحدة الصحية، هل رفض الكشف على واحد من أقاربهم، كان يرتجف بشدة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها الموت الحقيقي، كل الجثث التي رآها من قبل كانت فقط ناقصة الحياة، ولكن هذه المومياء كانت مشبعة الموت. كان يسمع كثيرا عن اكتشافهم «للمساخيط» في جوف الأرض ومغارات الجبل، ولكنه لم يتصور أنها شديدة القرب منهم إلى درجة يضعونها داخل بيوتهم وفي أسرتهم الخاصة، كانت الحياة في القرية جامدة لا تتحرك. لذلك كان يعاملون جمود المساخيط كجزء من جمودهم.

صمت قليلا ليلتقط أنفاسه وليأخذ جرعة أخرى من الكوب المعتم، ظللت أحدّق فيه مذهولا، تلفّت حولي لأرى إن كان هناك غيري من جلوس المقهى قد سمعوا شيئا، تمهل قليلا ثم عاد يقول:

ليست المسخوطة ولا فتاة المحطة فقط، كل شيء جامد، هؤلاء العمال الذين يعملون على الماكينات نفسها ويطالبون بالمطالب نفسها ولا يستجيب لهم أحد، حوادث القطارات والسيارات التي تحدث بالطريقة ذاتها وفي الأماكن نفسها، الرؤساء الذين لا يتغيرون حتى أصبحوا أشبه بالجبال والسحب والأنهار، جزءا من حقائق الطبيعة، كل شيء يتكرّر بالكيفية نفسها والمنوال نفسه. هذه ليست حياة، إنه الجمود الذي يقود إلى التحلّل، لقد استغللنا براعتنا كمصريين وما نملك من مهارات في التحنيط، لنجعل الجمود يدوم طويلا.

نظرتُ إليه مستغربا، ليس هذا هو الطبيب السكّير، لكنه رجل مختلف، ينهكه الكحول كل ليلة لسبب لا أعرفه، لابدّ أنه لم يكن يكره بلدتنا فقط ولكنه أيضا يشعر بكراهيتها له، رفع الكوب ولكنه وجده خاليا، نظرت حولي، هدأت الأصوات فجأة، لم يعد أحد يتكلم ولا يصيح، توقفت الحركة أيضا، هل دخلوا بالفعل في حالة التجمد؟ التفتُ إلى الخلف، رأيت الضابط واقفا على باب المقهى، وكان بقية الزبائن يتطلعون نحوه في رهبة، لكنه لم ير أحدا منهم، ظل يدور بعينيه في المقهى يبحث عن شيء ما، أدركت أنه يبحث عن الطبيب، وبالفعل تقدّم حتى توقف بالقرب منا، نظر إليَّ بامتعاض، ولكنني ظللت جالسا، قرّر أن يتجاهلني وتوجه بالحديث إلى الطبيب:

ذهبت للبحث عنك في نادي الموظفين.. قالوا إنك لم تعد تأتي إليهم.

ردّ عليه في هدوء: لم يعد لي مكان هناك.

لم يقل له أكثر من هذا، لم يرحب به، أو يصافحه أو حتى يدعوه

إلى الجلوس، ولم يطلب مني الانصراف. سحب الضابط كرسيًا وجلس عليه بالعكس، بحيث كان ظهر المقعد إلى الأمام، رمقني بنظرة حادة حتى أشعر بالحرج وأنصرف ولكنني تمسّكت بمكاني. ظل الصمت مخيّما. تقدم الجرسون وهو يحمل زجاجة مرطبات، أخذ يبالغ في تنظيفها بطرف الفوطة، وقال وهو يضعها أمامه إنها على حساب صاحب المقهى. لم يمدّ الضابط يده إليها، نظر نحوي في كراهية واضحة، لم يكن يريد أن يتحدّث في وجودي، ولكنه لم يجرؤ على طردي لأنه لا يعرف مدى صلتي بالطبيب. بدأ رواد المقهى في النهوض والانصراف، نهضت مجموعة العمال من حول المنضدة التي كانوا يجلسون إليها وأسرعوا نحو الباب، نظر إليهم الضابط بحنق وقال للطبيب:

كل هؤلاء مخربون.. لا بدّ أنهم كانوا يدبرون الآن مؤامرة لحرق المصنع، من الأفضل أنني جئت وأجهضت هذا الاجتماع.

لا أعرف كيف توصل إلى ذلك الاستنتاج من مجرد رؤيتهم، ولكنه كان استنتاجا سائدا على أي حال، التفتَ إلى «أمشير» وقال في جدية:

هذه الفتاة الميتة.. أقصد نصف الحية.. لا يمكن أن نتركها هكذا.. يجب أن نجد حلا.

نظر إليه الطبيب بدهاء الكهول وهو يقول: هل أفهم من هذا أن لديك حلا؟

نظر الضابط إليَّ في سخط قبل أن يقول:

أعتقد ذلك.. ليس حلا مثاليا، لكن الظروف التي تحيط بها كلها غريبة، أريد أن أقدم لها الحماية اللازمة، إنها عرضة للإيذاء من أشياء كثيرة.. وتركها في العراء مسئولية؛ لذلك فكرت في أخذها إلى قسم الشرطة.

ـ قسم.. شرطة.. أين؟

ـ فكرت أن أضعها في إحدى الزنازين.

ـ إلى هذه الدرجة.. لا أعتقد أن الموت وقوفا يشكل جريمة تستحقّ السجن.

ـ لن تكون سجينة، وهي لا تشعر بأي شيء بطبيعة الحال، لن أضعها في زنزانة عادية، سيتم تنظيفها وربما نضع فيها فراشا مريحا.

تنهّد الطبيب، ولم أكن أدري هل سيستمرّ في هذه المناقشة أو لا؟ ولكنه قال في بطء:

لقد فشل رجال الإسعاف في نقلها.. كيف ستفعل أنت؟

ـ سأستخدم إمكانات الداخلية.. الوزارة تملك دائما الوسائل اللازمة لمواجهة كل موقف.

قال ذلك بنوع غير خفيّ من التفاخر، زفر الطبيب، حاول أن يتناول جرعة أخرى، ولكن كوبه كان فارغا، ألقاه على المنضدة بإهمال، كان محقّا، لا أحد في حالته الطبيعية يمكن أن يحتمل أمثال هذا الضابط:

إنها فكرة ممتازة.. يبدو أنك أعددتَ كلّ شيء مسبقا.. ماذا تريد مني إذن؟

سلّك الضابط صوته ونظر إليَّ مهددا، ثم قال للطبيب محرجا:

ألا نستطيع أن نتحدث بمفردنا؟

قال الطبيب في برود: لا يوجد سرّ فيما نتحدث فيه.

تنهّد الضابط مغلوبا على أمره، كانت حاجته كبيرة إليه بحيث لم يخاطر بإغضابه، قال:

أريدك أن تقنع الباشا مأمور القسم بهذا الحل، أنت طبيب الصحة المسئول، وسيدرك أن هذا في صالح الفتاة وصالح الأمن العام.

كنت أتوقع أن ينفجر الطبيب ضاحكا ولكنه لم يفعل، ظل يحدق في الضابط مندهشا وقال ببطء:

تريدني أن أطلب سجن مواطنة نصف ميتة.. ماذا تعتقد أن أكون؟ أطبيب أنا.. أم المدعي العام؟ أنتم تقومون بالقبض على الناس يوميا بلا سبب، لماذا لا تقبض عليها هي أيضا؟ لن يعترض طريقك أحد، لن تحدث لك أي مشكلة إلا إذا ماتت.

هتف الضابط في سرعة:

لن تموت.. إذا اعتنينا بها فلن تموت.. ربما تستعيد صحتها وتخرج على قيد الحياة.

ـ كيف؟ عن طريق ممارسة الجنس معها؟

نهض الضابط واقفا، أزاح الكرسي إلى الوراء في حركة عنيفة، اعتقدت في لحظة أنه سيضرب الطبيب أو يضربني أنا على الأقل، ولكنه لم يفعل، قال من بين أسنانه:

لم يكن عليك أن تقول هذا.. لم يكن عليك أن تتهمني بهذا الشكل.

أدار ظهره وركل بحذائه أحد المقاعد الخالية، ظللنا نسمع خطواته وهي تدق أرض الشارع في غضب، أصبح المقهى خاليا إلا من الخوف، ألقى علينا الجرسون نظرات مرعوبة، كان آخر ما يريده أن يخرج الضابط من مقهاه غاضبا، كان سيدفع وحده ثمن هذا الغضب، نهض الطبيب واقفا، نظر إليَّ وهو يقول:

سِرْ معي إلى البيت.. إنها ليلة كئيبة وغير مناسبة للسير وحيدا.

أحسَستُ برابط ما يتخلق بيننا ونحن نسير على أسفلت الطريق، أصبح هواء الليل أقل برودة، كنت معجبا بموقفه، وحزينا لأنه لا يملك إلا سلطة الاعتراض، حاولت أن أستثيره حتى يتكلم:

لعلك تعاملت معه بقسوة؟

كنت فقط أحذّره، لكنه قال: لا أعرف إلى أين مضيت في دراستك في «السايكاتري»، ولكن هناك حالات شبيهة بحالته، ربما يكون مغرما بمضاجعة الموتى، إنه أمر نادر الحدوث ولكنه يحدث، البعض يلجأ إليه ليعزز إحساسه بالتفوق، وعدم مواجهة الرفض من الجنس الآخر، والبعض الآخر.. لا أدري.. ربما يثير الموت داخلهم شهوة خفية.. أجدادنا.. أعني المصريين القدماء الذين لم نعد ننتمي إليهم، كانوا يتركون النساء الجميلات موتى لأربعة أيام كاملة قبل أن يقوموا بعملية التحنيط، هل كانوا في خلال هذه المدة يكتفون بالنظر إلى أجسادهن الساكنة؟ كان البعض يعتقد أن روح الفتاة العذراء لن تستكين في العالم الآخر ما لم تمارس الجنس ولو مرة واحدة على الأقل؛ لذلك كانوا يقيمون حفلة عرس حول جثتها ويقوم رجل

بمضاجعتها، ربما كان الأمر يتعدى الشهوة الشاذة العابرة، وربما كانت تتم المضاجعة كنوع من الاتصال بعالم الموتى؛ إنها الرغبة الأزلية للإنسان كما تعلم.

كلا.. لم أكن أعلم، وصدمتني كلماته بشدة. لا أذكر أنه قد مرت بي في الكتب أشياء مثل هذه، قلت:

إنه أمر مقزّز.

ـ مع نفوس معقدة كالتي تحتويها أجسادنا.. لا يوجد ما يثير الاستغراب، الأمر في حالة هذه الفتاة الجامدة أفضل قليلا من بقية مضاجعي الموتى، فالبعض منهم قتلة، يقتلون ضحاياهم بدم بارد ثم يضاجعون بقايا أجسادهم قبل أن تبرد، ربما لم يكن هذا الضابط قاتلا.. ولا مغتصبا، ولكني لا أعتقد أنني قد ابتعدت عن حقيقته كثيرا، فبقدر اعتداده بنفسه في الشارع وتسلطه على خلق الله، بقدر ما هو ضعيف على الفراش، وربما وجد في هذه الفتاة نصف الحية فريسة سهلة يؤكّد بها تفوقه.

توقفنا أمام باب بيته، مبنى حجري قديم من المؤكد أنه يسكن في حجرة واحدة منه، بينما تشغل أشباح الموتى بقية الغرف، كان يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة، إنه طبيب صحة تقليدي، مثقف ومتعلم، ولكنه لا يتحدث إلّا عن الجثث والانتشاء بالموتى، رائحة الموت تملأ جزيئات الجو من حوله، تكون حاجزا بينه وبين الحياة الحقيقية، إن كان ثمة حياة حقيقية، قلت له:

أنت تشعرني بالرعب، هذا الضابط يمثّل خطرا لم يكن في الحسبان.

تنهد وهو يقول:

تصبح على خير.. سأذهب الآن إلى الكوابيس التي تنتظرني تحت ملاءات السرير.

تركني ودخل إلى بيته، أحسست برجفة من البرد والوحدة، من بعيد سمعت الكلاب وهي تنبح، الكلاب في مدينتنا أشد جوعا وسعارا من المعتاد، فهي تقتات على صناديق القمامة الشحيحة، وفي أثناء النهار لا يكفّ الأولاد في الشارع عن مطاردتها وقذفها بالأحجار، يوجهون ضدها كل ما في داخلهم من عنف مكبوت؛ لذلك كنت أخاف هجومها المفاجئ، وعندما أهبط للتجول ليلا، أحمل في جيبي بعضا من الأحجار حتى أردعها به قبل أن أعدو هاربا، ولكن طريقي إلى المحطة كان آمنا. غادر آخر القطارات، وأطلق المصنع آخر صفارة له، وكان الميدان شبه خال، ولكن ورد لم تكن وحدها، كانت هناك «ركية» من النار موقدة أمامها، وبالقرب منها يجلس شخصان يتحدثان؛ عم جمعة بحجمه الضخم، وبجانبه رجل أشيب بالغ النحول، يقوم جمعة بالحديث بينما أبصار الرجل شاخصة إلى الفتاة الجامدة، ما تزال ترتدي معطفي، ووسط النار «كوز الشاي» يغلي، تطلعا إليَّ وأنا أقترب منهما، تعرف إليَّ جمعة من فوره، قال:

توقّعت أن تجيء. هل تريد أن تستعيد معطفك؟

كانت في صوته رنة من السخرية، ولكني هززت رأسي رافضا، حدقت في الفتاة، نظراتها غائبة، والهواء يهز خصلات شعرها، قال جمعة، مشيرا إلى الرجل الأشيب:

هذا عم «محرّم» أبو «ورد».. نحن نجلس هنا منذ مدة.. هل تريد شايا؟

جلست أمامهما، حدقت فيها، كانت ألسنة اللهب تضيء جانبا من وجهها، تضيف إليه لمسة شحيحة من الحياة، لا بد أنها شديدة الجوع في هذه اللحظة، هل تدري ماذا يدبّر الضابط لها؟ تذكرت كلمات الدكتور «أمشير»، هل يمكن أن يعطيها الجنس لمسة الحياة التي تفتقدها؟ كفّ «محرّم» عن النظر إلى ابنته وأخذ يتأملني مستغربا، ظهر على طرف الرصيف في نهاية المحطة شبح لفتاة أخرى، أكثر نحافة وبؤسا من ورد، ولكنها كانت حية على الأقل، تنقل خطاها على رصيف المحطة وهي تنتظر، ونهض جمعة قائما:

يكفيني هذا القدر من السهر، يجب أن أستيقظ غدا مع قطار الصحافة.

سار متجها إلى نهاية الرصيف، وتبعته الفتاة خافضة الرأس، نظرت إلى الرجل العجوز فوجدته يتأملني مستغربا، قال لي في تشكك:

هل كنت تعرف ابنتي؟

هززت رأسي نافيا:

بالشبه.. كنت أراها من بعيد لبعيد.. هل تعرف أنت هذا الشاب الذي كان معها؟

أسرع يهتف قائلا: كان خطيبها.. طلب يدها مني، ولكنه أجّل الأمر حتى يكمل دراسته.

أدركت من سرعته في الرد أنه يكذب، ينفي ليحافظ على سمعتها، قلت له:

من هو؟ هل هو طالب؟

ـ اسمه حسن وهو ليس طالبا، إنه معيد بكلية هندسة القاهرة، أخبرني بذلك، ولكن من أنت أوّلا؟

لم يكن لديَّ كثير لأقوله، ولم يكن هناك مبرر لوجودي هنا، ولا محاولتي لاستجوابه. لم يقل ذلك في وجهي، استمع لكلماتي المتعثرة عن المعطف، كان في حاجة إلى من يجلس معه ويؤازره، قلت له:

أين كنت عندما حدث كل هذا؟

نظر نحوها بحزن، التفت وهو يقول:

لم أكن موجودا، تركتها وحيدة أكثر مما ينبغي.. كنت بحّارا تائها في كل البحار، ضيعت شبابي وسط المحيط المالح من دون أن أستمتع بطفولتها.

قلت له مستغربا:

بحّار.. كيف ومدينتنا لا يوجد فيها حتى نهر؟!

ـ منذ أن قمت بزيارة قصيرة للإسكندرية وقد فتنني البحر برهبته وجبروته. كنت عاملا في المصنع مثل أغلب سكان البلدة، محبوسًا وسط الجدران طوال اليوم، لا أستنشق سوى الهواء المشبع بالغبار، وفجأة رأيت البحر أمامي، شاسعا وممتدّا وحرّا،مثل حيوان ضار،

متوثب، صافي الزرقة، جسده لا يكف عن التقلب والتلوي، ملأت صدري برائحته المميزة، ظلت معي حتى بعد أن عدت إلى المصنع. لم أعد أطيق الغبار ولو للحظة واحدة، تركت كل شيء ورحلت، تشردت بين السفن والمواني، اشتغلت خادما ومنظّفا وبحّارا، عدت إلى البلدة في إحدى فترات التوقف بين رحلة وأخرى، وألح عليّ أبي حتى أتزوج؛ ربما كان يحاول أن يغريني بالاستقرار، وبالرغم من زواجي لم أكن قادرا على استنشاق هواء هذه المدينة المختنقة. داومت على الرحيل، شاهدت بطن زوجتي يرتفع وأنا أستعد لرحلة أخرى. عدت بعد شهور لأجد في منزلي هذه الفتاة الجميلة، كانت أمها قد اختارت لها اسم ورد، ويا له من اسم، ويا لها من فتاة، وقعت في أسر حبها من فوري، احتضنتها وقبلتها ورتبت خصلات شعرها ولم أتصور أنني أمتلك مثل هذا الكنز. كانت زوجتي مريضة، أنهكتها ليالي الوحدة وأيام الانتظار، لم تعد قادرة على مقاومة صروف الدهر فرحلت وتركتها أمانة في عنقي، قررت البقاء بجانبها، أردت أن أستمتع بزواجها عندما تكبر وبالأولاد الذين ستنجبهم، حتى عندما جاء هذا المدعو حسن، اشترطت عليه أن يتزوجها هنا ولا يأخذها معه إلى القاهرة، كان مجرد كلام وقراءة الفاتحة.. ولكن الزمن لم يعطني الفرصة، ضاعت مني فجأة، فقدتها بهذه الطريقة الغريبة، لا أتصور أنها تتركني فجأة بعد أن أعادتني إلى الأرض التي فقدتها.

صمتَ وهو يلهث، رأيت وجهه لامعا بالدموع، تطلعت نحوها مرة أخرى، لم يبد عليها أنها ستستجيب لهذه الدموع المتأخرة، كنت أريد أن أعرف المزيد، قلت:

هل كانت تحبه؟

هي التي أحضرته إلى البيت؟

كيف تعرفت إليه؟ هل هو جاركم في الشارع؟

ـ كانت قليلة الكلام عنه، هو نفسه لم يكن يتكلم كثيرا، أحيانا كان يشرد بعيدا ويصمت ويصبح وجهه قاسيا، أحيانا كان يغيب لأيام طويلة، ولكنها لم تر ذلك، كان مجرد رؤيتها له يجعلها لا تكف عن الضحك والابتسام؛ وهذا ما دفعني إلى قبوله على الرغم من أنني لا أعرف عنه شيئا. بوجه عام، أنا لا أعرف كثيرًا عن أهل هذه المدينة؛ فقد غبت عنها طويلا، كل ما فعلته أنني سألت عنه الأسطى «عطية الزماني» الحلاق، قال لي إنه شاب طيب ومكافح وله مستقبل مشرق. كان هذا كافيا بالنسبة إليَّ، ولكن الأهم هو أمارات السعادة التي كانت تظهر على وجهها حين تراه أو حتى تسمع اسمه.

خمدت النار وتحوّلت كتلة الخشب إلى جذوات مرتعدة. لم أشعر برغبة في القيام، وبدأت ظلمة الليل في التكشف أخيرا، سَرَتْ في السماء خيوط من ضوء رمادي، حضرت مجموعة من رجال الشرطة، نظروا إلينا في ريبة وأمرونا بالابتعاد، كنت أخشى أن ينفذ الضابط تهديده ويأخذها إلى زنزانة القسم، ولكنهم اكتفوا بالوقوف حولها حتى يحموها من المتطفلين.

نقل الأب جلسته إلى مكان آخر على مبعدة منها، تأمّلت وجهها وهو يضاء بأنوار الصباح؛ شاحبًا ورقيقًا عليه مسحة من غموض الرحيل، كأن جسدها على وشك أن يشفّ ويتحول إلى روح هائمة، تطل علينا بعيون متأملة وحزينة.

لم أذهب إلى الكلية في هذا اليوم، أقنعت نفسي أن من الأجدى أن أنام قليلا ثم أكمل يومي في المذاكرة، ولكني لم أفعل. كان نومي

مضطربا مليئا بالكوابيس، رأيت الضابط وهو يعاود اغتصاب ورد لعدة مرات، نهضت مفزوعا وجسدي يغمره العرق، تركت كتب المذاكرة مكومة على مكتبي وهبطت إلى الشارع، سرت إلى الجزء القديم والبائس من المدينة، خلف صهريج المياه والمحال الواطئة المعتمة التي لا تستطيع أن تتبيّن ما فيها من بضائع، سألت أكثر من واحد حتى وصلت إلى مكان صالون «عطية الزماني»، كان يشرف على ميدان صغير وسط زحام البيوت، مراياه مليئة بالبقع السوداء، والمقعد الوحيد به ممزّق الجلد، تطل منه كتل الإسفنج، كان جالسا على مقعد خارج محله، نهض حين رآني قادما وقد حسب أنني زبون، أخذ فجأة يلعن الزمن والموضة التي جعلت الجميع يطيلون شعورهم من دون رادع، اضطررت إلى أن أخضع له رأسي طائعا، لم أكن في حاجة إلى دفعه للحديث، كان مثل كل الحلاقين ما إن تبدأ أصابعه في التلاعب بالمقص حتى يبدأ لسانه في التحرك بالكلام، كأن هناك عصبا واحدا يربطهما معا، يفعل ذلك وهو ينظر إلى تعبيرات وجهي في المرآة ليرى أي الأخبار تثير اهتمامي، وكان لا بد للحديث أن يقودنا إلى ورد، قلت له فجأة:

من هو حسن؟ هل تعرفه؟

تنهد في ارتياح، لم يكن يحب الزبائن المتجهمين ولا الصامتين، التهم بالمقص خصلة كبيرة من شعري وهو يقول:

إنه صديقي يا محترم.. أنا أقرب الناس إليه، ربما أكثر من تلك الفتاة الواقفة في المحطة.

- هل هو من بلدتنا؟

ـ هل من المعقول ألّا تعرفه، إنه ابن الأسطى «الرشيدي» الذي مات في إضرابات المصنع وقت غلاء الأسعار.

كان هناك كثير من الإضرابات، وعديد من الموتى؛ بسبب التدافع وضرب العساكر والاختناق بالغازات المسيلة بالدموع والتعليق من القدمين رأسا على عقب داخل أسوار «قسم أول» والنفخ والتعذيب والضرب بالفلقة. كان هذا هو الأمر الطبيعي في مدينة لا يخلو هواؤها من رائحة النشادر، ولا تكف الأسعار فيها عن الارتفاع، ولا تنخفض أصوات الاحتجاج، قال وهو يمصمص شفتيه:

الله يرحمه.. كان بطلا بجدّ.. هو الذي منع العمال المتهورين من حرق ماكينات المصنع، قال لهم: هذا رزقنا وقوت أولادنا.. وتصدى لهم جميعا، وهددهم قائلا: مروا على جسدي أولا.

استحوذ على انتباهي كلية، قلت في توجس:

وهل مر العمال على جسده؟

ـ بالطبع، لا..كانوا يحبونه وكانت كلمته مسموعة.. ولكن عساكر رجال الأمن المركزي هجموا فجأة من مكان ما.. ضربوا العاطل بالباطل، ومرة أخرى حاول الأسطى «الرشيدي» أن يمنعهم من الاعتداء على العمال، ولكنه سقط تحت أحذية الجميع.

صمتنا معا، لم تكن القصة تحتاج إلى تعليق، كانت تحدث كثيرا، ولم نعد نطلق على هؤلاء شهداء ولا يحزنون، لم يعد الموت عزيزا لأن أسبابه كثيرة، ولكني كنت أريد المزيد المعلومات، قلت:

ـ وأين كان «حسن»؟

ـ كان يدرس في القاهرة، في كلية الهندسة، من حسن حظه أنه كان بعيدا حين حدثت الواقعة.. فربما سحله العساكر أيضا مع أبيه.

للمرّة الأولى شعرت بالتعاطف معه، على الرغم من أنني كنت حانقا عليه؛ لأن فراقه كان سببا فيما حدث لـورد، قلت في صوت خافت:

وكيف تدبّر أمره؟

تنهد في حزن وهو يقول: الحياة تسير.. حبة من هنا.. وحبة من هنا، وربك يسهلها.

أحسست أني أختنق، كان الأمر أصعب مما تصورت، قلت: هل كان يحبها؟

ضحك محاولا أن يخرج من حالة الغم التي خيمت علينا، قال:

تمّ هذا أمام عيني يا محترم.. أنا الذي شاهدت بداية التعارف بينهما.

في الميدان الصغير الواقع أمام المحل حدث التعرف بينهما. كانت فتاة رقيقة تخاف من ظلها، رآها «حسن» وهو جالس أمام الدكان، كانت هذه عادته عندما يأتي إلى المدينة، يجلس ليحدث الأسطى عن كلية الهندسة التي دائما ما يتصدّر دفعتها، وعن حلمه أن يكون معيدا ثم أستاذا بها. برغم ظروفه الخانقة كانت أحلامه كبيرة، وعقله المتوقد لا يكف عن مواجهة المشكلات التي تحاصره هو وأمه، ولا أحد يدري كيف كانا يدبّران أمورهما مع معاش الأب الضئيل، ثم مرت ورد من أمامه، لا تكاد أقدامها أن تلمس الأرض،

«عارف راقصات الباليه يا محترم.. كانت مثلهن تماما»، كانت إحدى الفرق الروسية قد زارت البلدة منذ سنوات وأقامت حفلة على مسرح مدينة العمال، ولعل هذه الرقة وهذا الضعف هما ما أغريا أحد الكلاب «الجربانة» بمهاجمتها، كان كلبا جائعا ومستثارا، ولعل فتاة بهذا الجمال لم تمر عليه من قبل. أخذ يطاردها وهي تصرخ في فزع وتتقافز على أرض الشارع، أسرع حسن نحوها، وكانت خطواته المسرعة وهي تدق الأرض في قوة، كفيلة ببث الرعب في قلب الكلب الجبان، هرب مسرعا، ولكن الفتاة كانت تبكي وعلى وشك الانهيار. قادها حسن إلى المحل وهو يمسك بيدها، أجلسها على أحد المقاعد، وأحضر لها «الأسطى عطية» كوبا من الماء ولكن حسن أصرّ على أن يحضر لها «حاجة ساقعة» أي حاجة مسكّرة لتهدئها، كانت في حاجة إليها لأنها شربتها كلها، وبعد أن هدأت تماما ظلت جالسة تستمع إلى كلمات حسن. جاء زبون وخرج زبون وتركهما «عطية» معا وظلت جالسة.

- كان يحبها إذن.

انتهى الأسطى «عطية» من شعري تقريبا، وأخذ يرش قفاي بالبودرة، قال:

طبعا يا محترم.. ولكنها لم تستطع أن تجعله يحب مدينتنا، لم ينس قط أنها المدينة التي قتلت أباه، وعندما ماتت أمه العجوز، ظلت ورد هي آخر من يربطه بهذا المكان، لم يكن يعود إلّا من أجلها، أحيانا كان يتغيب طويلا، يعود مشتاقا، ولكن شوقه لا يلبث أن يتبدّد عندما يجد المدينة على حالها.

- وهي..

ـ كان غيابه يعذبها، خصوصا بعد أن تعلقت به.. قلوب العذارى يا محترم في خفة الريشة.

ولكن هل كان يتصور أن يصل عذابها بغيابه إلى هذه الوقفة المتجمدة، قلت:

لقد تخرج وأصبح معيدا في الكلية.. أليس كذلك؟ لماذا لم يتزوجها؟

نظر إليَّ في شرود، فرك راحتيه ببعض «الكولونيا» ومررها على خدي، قال:

كان خائفا من ذلك.. في الفترة الأخيرة بالذات كان رافضا لأي نوع من الارتباط.

قلت مندهشا: ألم يتقدم حتى لخطبتها؟

ـ لم يخبرني عن ذلك... كان الزواج والاستقرار هنا أو في أي مكان أبعد ما يكونان عن باله.. ربما كان موت أبيه المفاجئ قد نزع الإحساس بالأمان من داخله.

كنت أنا الذي أحسست بالفزع. هل كان أبوها يكذب؟ أذكر لي أن هذا الرجل سأل عنه.. أم أن الفتاة كانت تكذب على نفسها؟ هل كانت تحبه إلى درجة التفاني، وكانت موقنة مثل عديد من الفتيات أن تفانيها في حبه سيجعله يغير نظرته إلى هذا الأمر؟ قال الأسطى «عطية»:

لم يكن يريد الالتزام، هذا ما قاله لي على الأقل.

قلت مستريبا: ربما كانت له حبيبة أخرى في القاهرة.

قال في غموض: ربما.. ولكنه لم يحدثني عن ذلك أيضا.

بدأت أكره المدعو حسن مرة أخرى، بعد أن كنت آخذا في التعاطف معه، هل كان يلعب بعواطفها؟ هل كانت تدرك ذلك ورضيت به؟ انتهينا من الحلاقة منذ زمن، أحسستُ بالبرد يتسلل إلى جسدي من خلال رأسي، هل يدري ماذا فعلتْ بها لحظة الفراق؟ قلتُ له فجأة:

هل تعرف عنوانه؟ هل يمكن إخباره بما حدث للفتاة؟

نظر إليَّ ساهما، بدا كأنه لم يتوقع هذا السؤال، قال:

تصور يا محترم.. لم يخطر ببالي أن أسأله عن عنوانه.. هو أيضا لم يذكره لي ولو بمحض المصادفة.

واصلت إلحاحي عليه:

من المؤكد أن له أصدقاء آخرين في المدينة.. ربما كان منهم من يعرفون هذا العنوان.

قال ببطء وبنبرة مليئة بالكراهية:

لا يوجد إلا محروس النجس.. وعزّوز المهرج.. هل تتصور أن يعرفا شيئا لا أعرفه؟ مستحيل.

ولكن الفكرة كانت قد بدأت تختمر في ذهني. قادني الحديث معه من حيث لا أدري إلى وسيلة لإنقاذها، أمل واهٍ، فرضية غير مثبتة، أن تكون عودة «حسن» سببا في عودة الحياة إليها، ربما لم يكن حبه لها بدرجة العشق نفسها التي تكنها له، ولكنه لن يتأخر لإنقاذها، قلت في أمل:

ربما يعرفان، ربما هناك رقم للهاتف مع أي واحد منهما، يمكن لحسن أن يأتي ولو ليوم واحد لينقذ هذه الفتاة.

ظل ينظر إليَّ بالدرجة نفسها من الشرود، وعاد يقول ببطء:

تصور أنه لم يترك لي أيضا رقم هاتفه.. لقد رأيت معه «عدة» رائعة وحديثة.. ولكنه لم يعط الرقم لأي واحد منا.

فكّرت.. إنه لا يثق بأحد، ولا يرغب في الزواج من الفتاة التي تحبه، ولا يأمن لأصدقائه. قصصت شعري عبثا، لم يخف الزماني عني شيئا، لكنه لا يملك كثيرا، ودّعته وسرت مبتعدا إلى المحطة، رأيتها حزينة وجامدة، ربما أكثر من ذي قبل. يجلس العساكر على الأرض حولها وهم يتثاءبون في ملل، وعم محرم جالس في مكان منفرد بجوار الرصيف، و«جمعة» يصرخ في الركاب كعادته، لا مكان لي بجانبها في هذه اللحظة. عدت إلى البيت وحاولت أن أغرق نفسي في المذاكرة، كان عليَّ أن أجتاز هذا الامتحان الذي يشغلني حتى أفيق وأستطيع التفكير في أمرها.

لا أدري كيف كان مستواي في الامتحان، ولم يكن ذلك مهما،كنت أكتب كلّ ما يعن لي، لم أعد أتلكأ في «الكافتريا» أو أتظاهر بالمذاكرة في المكتبة، ولم تعد زميلتي فاتن تستحوذ على انتباهي كثيرا، كان ما يهمّني حقا هو أن أجلس بجانب ورد، وبخاصة في الليل عندما تخلو المحطة وتطبق عليها الوحدة، كنت قد انقطعت عنها لعدة أيام، ظلّت وحدها من دون نار موقدة، من دون أن يوجد عمّ «محرم». تبدو في آخر لحظات عمرها، بلا قمر ولا نجوم ولا قطارات عابرة ولا حبيب يتذكرها ولا أصدقاء يأسون

لها ولا رفقة تواسيها ولا أذرع تضمها ولا صوت يهمس لها، روح ضائعة ضلت الطريق إلى مستقرها. في هذه اللحظات المتفردة كنت أشعر فيها أنها تخصّني وحدي؛ في هذه الليلة اقتربت منها قدر استطاعتي،، سويت معطفي الأبيض حول جسدها وسويت شعرها، أزلت ما علق فيه من أعواد القش، وحدقت في عينيها طويلا وحدثتني نفسي أن أقبلها ولكني لم أجرؤ. جلست أمامها وبدأت أتحدث، كنت أريد أن أبدو مرحا وغير بكّاء، ربما لم يحدثها أحد كما ينبغي، حتى حسن نفسه كان صامتا في الآونة الأخيرة، خائفا من أن يقطع على نفسه وعدا لا ينوي الوفاء به. حاولت وعصرت ذاكرتي لأحدّثها في أي موضوع، حكيت عن قصص حبي الخائبة في الكلية، وهي دائما ما تكون من طرف واحد، وتنتهي قبل أن يشعر الطرف الآخر بحرارة مشاعري، إنه شيء غير إنساني أن تمتلك روحا تهفو إلى لمسة من الحب ولا تجد من يأبه بها.

سمعت أصواتا غريبة قادمة من نهاية الرصيف، تخيلت أن الضابط وجنوده يتجهزون للهجوم، ولكني رأيت عيونا تلمع في الظلام، شممت الرائحة التي تنبعث من أجسادها؛ رائحة الجوع الشره، أدركت الخطر الذي يحيق بها وبي، جذب جسدها العاجز كلاب المدينة المسعورة؛ حفدة الذئاب الغبراء، كانوا يقتربون ببطء، نهضت متوترا، فكرت في أن أحميها بجسدي ولكننا لم نكن لنصمد طويلا. عدوت مسرعا، قفزت من فوق الرصيف إلى الحفرة الغائرة التي يسير فيها القطار، كانت المسافة بين القضبان مليئة دائما بالزلط والأحجار الصغيرة، ملأت قبضتي وجيوبي، كانت ملوثة بالشحم

والزيت الوسخ ولكني لم أبال. اقتربت الكلاب وهي تلهث، أطبق كلب منها بفكه على ذيل المعطف الذي ترتديه ورد، أخذت البقية تنبح بشراسة حتى أرتدع وأتركها فريسة سهلة لهم، قفزت صارخا، أعوي مثلهم وأقذفهم بالحجارة؛ قذفت الكلب الذي يشد معطفها أولا، جاءت الضربة في ظهره مباشرة، عوى وتلوى، ولكن بقية الكلاب لم تبتعد كثيرا، واصلت قذفها في جنون، فرضت حولي طوقا محكما بأجسادها، تنبح ويتناثر لعابها، وتتفادى الأحجار في مهارة. كانت تعرف بغريزتها وبرفقتها الطويلة للإنسان، أنني سرعان ما أنهار من التعب وأستسلم للرعب لو زادت من نباحها قليلا، نفدت الأحجار التي كانت معي، بدأت أبحث عن طريقة للتراجع ولكن الحلقة ضاقت حولي، برقت عيونها وبرزت أنيابها، لم يكن هناك مهرب ولا وسيلة للمقاومة، في هذه اللحظة سمعت صوتا صائحا قادما من الخلف:

عا.. يا أولاد الكلب.

جاء جمعة في الوقت المناسب، يحمل في يده عصا غليظة ويعدو صائحا، استدارت الكلاب ناحيته وعيونها تلمع، لم يتردد ولم يمهلها، هوى على ظهر أول كلب صادفه، أصدر عواء مفزوعا بث الرعب فيهم جميعا، أخذت الكلاب تعدو وهو خلفها يردد كل أنواع الشتائم.

وقفت مجهدا، نظرت إلى ورد، كان ذيل المعطف قد تمزق، ولكنه ظل صامدا على جسدها، ولكن كانت هناك تمزّقات أخرى في بقية المعطف، لم أتصور أن البلى قد أصابه بهذه السرعة، هذه

الفتاة الحزينة لن تصمد طويلا، ابتعدت أصوات الكلاب، عاد جمعة يحمل عصاه وهو يلهث، كان بثيابه الداخلية، قال لي إنه سمع الضجة الصادرة عن عواء الكلاب وأدرك أن هناك مصيبة تحدث في المحطة؛ لذلك تناول عصاه وحضر مسرعا، جلس بجاني وهو يعضّ على شفتيه، لم يكن يشعر ببرد الليل، قال:

كنت أتوقع هذا.. كل كلاب البلد المسعورة ستشم رائحتها وتأتي إلى هنا.. هذه فقط هي البداية.

كان على حق، كنا نخوض معركة خاسرة، وهذا الجسد الصامت لا يساعدنا كثيرا، قلت:

إنه وضع صعب علينا جميعا.. من المستحيل ألَّا يوجد حل؟

أشار إلى سور حديدي غير مكتمل، يمتد من الرصيف إلى الفضاء المحيط بالقضبان، قال:

غدا.. سأطلب من عمال «الدريسة» أن ينزعوا أسياخ هذا السور الحديدي ويحيطوها به.. على الرغم من أنني أعرف أن هذا لن يفيد كثيرا.

اشتعلت في داخلي ومضة من أمل، قلت:

على الأقل.. سوف يحميها من هذه الكلاب المسعورة.

ـ وماذا عن الآخرين، في هذا الصباح، جاء الضابط ومعه فرقة من الأمن، دخلوا المحطة بدروعهم وعصيّهم، أخافوا الركاب وعطّلوا القطارات، قال لي إنه سيقوم بنقلها إلى مكان آمن، أحاطوا بها وحاولوا انتزاعها من مكانها.

هبط قلبي في جوفي، أدركت الآن سبب هذه التمزّقات الموجودة في المعطف، بلع ريقه وهو يتخيل المشهد المخيف، واصل القول:

أنت تعرفهم، ينفذون الأوامر بجهل ومن دون أي تفكير، وحين حاول عم «محرّم» الاعتراض ضربوه وأخذوه معهم، هؤلاء الحمير.. أوشكوا أن ينزعوا أعضاءها بعضها من بعض.

ـ وما الذي أوقفهم؟

ـ الضابط نفسه، وجد أنه بعد هذه الغزوة لن يظفر إلا ببضعة أعضاء ممزقة، صاح فيهم أن يكفّوا، وانصرفوا بعد أن أخذوا عم «محرّم» معهم.

نظرتُ إلى جسدها الواهن، كانت قوتها الوحيدة تكمن في هذا الوهن وتلك الهشاشة، ولكن إلى متى يمكن أن يستمر ذلك؟ كان هذا هو السؤال نفسه الذي نفكر فيه ونحن جالسان معا، قلت له:

ربما لو عاد هذا المدعو حسن لعادت إليها الحياة؟

قال من بين أسنانه:

لماذا لا يعود هذا الوغد؟ ألم يسمع بما حدث لها في هذه الأيام؟ لا شيء يبقى سرّا.

ـ هذه هي المشكلة.. لا يوجد عنوان له.

ـ مستحيل.. لا يوجد أحد مقطوع عن العالم إلى هذه الدرجة.. أحضر لي أي معلومات عنه وسأتصل به بنفسي، حتى لو لم يكن هناك

هاتف مباشر، سأخبر كل سائقي القطارات ليبحثوا عنه، إنهم كدود الأرض يذهبون إلى كل مكان.. سيعثرون عليه حتما..

كان الكلام منطقيا، ولكن كيف يمكن تنفيذه؟ كنت قد استسلمت للمعلومات الغامضة التي قالها لي الأسطى «عطية» ولم أحاول تمحيصها، قلت:

سأعاود البحث من جديد.

.. لم يكن أحد في مدينتنا يحبّ الذهاب إلى «قسم أول» للشرطة، حتى لو كانت المصلحة تحتم عليه ذلك. كان في وسط البلدة، يحتل مبنى من الحجر الكثير النتوءات، محتفظا بطابعه الصخري، سقفه مغطى بالقرميد الأحمر؛ الأمر الذي يذكّرنا بجذوره الأولى التي تعود إلى أيام الإنجليز. وفي الحقيقة، لم يبن الإنجليز في كل مدن مصر العتيدة إلا أقسام الشرطة، وبعض استراحات الريّ على طول الوادي. كان المبنى مليئا بالأقبية المعتمة، والممرات التي يسود جدرانها السناج وبقايا الدم الجاف،أشبه بمباني القرون الوسطى، تم تجديده مؤخرا فأضيفت إليه عدة زنازين، وجرى توسيع «التخشيبة»، وتمّ استيراد قيود معدنية براقة من الصين، وبالطبع تم طلاء كل الجدران.

لم يكن أمامي مفرّ من الذهاب إلى هذا المكان المرعب، اشتريت بعضا من الطعام من أجل عم «محرّم»، ودخلت القسم عبر الحديقة الأمامية؛ حديقة صغيرة ولكنها مخيفة مليئة بدغل من أشجار مفلطحة الأوراق، وجدت في نفسي الشجاعة لأسأل عن المخبر محروس، أشار العسكري إلى كشك خشبي في جانب من الحديقة؛ مكان ضيق ولكنه ممتلئ بالمخبرين. لم أتصور أنهم كثيرون ومتشابهون إلى هذا

الحد، يرتدون جميعا معاطف حائلة اللون، وفي أقدامهم أحذية نعالها من البلاستيك الناعم، لا تصدر صوتا حين تحتكّ بالأرض، وبجانب كل واحد منهم عصا غليظة من الخيزران، علامة على سلطتهم، كانت حالتهم أفضل من العسكر العزّل الذين يقفون منتصبين وفي أيديهم بنادق خالية من الطلقات، يتحدثون ويشربون الشاي ويدخنون السجائر ويضحكون ويتجشئون في غلظة، ولم يكن محروس بينهم، سألت عليه، قال واحد منهم بصوت غليظ: أيّ خدمة؟ وعندما أدركوا تصميمي على مقابلته هو بالذات فقدوا اهتمامهم بي. ظللت واقفا بالقرب من باب الكشك، لم أجرؤ على الجلوس معهم في المكان نفسه، كنت فقط أتمنى ألَّا يمر الضابط في هذه اللحظة ويراني. بالتأكيد لم يكن سيتركني في حالي، لن ينسى أنني عرفت بعضا من أسراره، ولكن من حسن حظّي أن محروس هو الذي جاء أولا، كان يمسك غلاما بائسا دامي الوجه ويدفعه أمامه، ولا يكف عن ضربه بالعصا التي في يده، يمارس أفعاله الطبيعية. لم أحاول أن أعترض طريقه وهو يمر أمامي، كان في طريقه إلى التخشيبة بلا شك، ظللت واقفا في انتظار أن ينتهي من مهمته، وبالفعل عاد بعد فترة من الزمن. لم أرد أن يدور الحديث بيننا في الكشك، وسط الأعين المتلصصة والآذان المرهفة، اقتربت منه سريعا وأنا أمدّ يدي بلفة الطعام قائلا:

أحضرتُ هذا الطعام من أجل عمّ «محرّم»؛ والد ورد.

لم يمد يده، نظر إليَّ في تشكّك وهو يقول: أنت طالب الطب إياه.. أليس كذلك؟

أومأت برأسي، وظللت مادّا يدي بالطعام، قلت:

إنه رجل عجوز.. لا بد أنه ميّت من الجوع.

ابتعد قليلا وتلفت حوله، لدهشتي بدا خائفا، قال:

لا أستطيع، تهمته خطيرة، لقد شتم البيه الضابط وبصق في وجهه، وهي جريمة لا تغتفر، لا أستبعد أن يتهمه بشيء أكبر.

ـ لم يفعل الرجل أكثر من أنه حاول التصدي لمنعهم من اختطاف ابنته.

اصفرّ وجه محروس ابتعد أكثر حتى خشيت أن يتركني، قال:

لا تتحدث هكذا.. أنت أصغر من أن تقول هذا الكلام.. اللسان قتّال.

أدخلت يدي في جيبي، بحثت حتى وجدت فيه آخر ورقة مالية، قدمتها وأنا أقول له راجيا:

لا أملك غيرها.. خذ إليه الطعام.

تنهّد كأنه مغلوب على أمره، أخذ النقود وأخذ الطعام، ولكنه لم يتحرك من مكانه، ظل يحدق فيَّ قليلا مستغلا فراسته، قال ببطء:

هل هذا كل ما في الأمر.. تعطيها معطفك.. وتحضر له الطعام. وأنت لا تمتّ إليهما بأي صلة؟

قلت من فوري: في الحقيقة. جئت من أجل حسن. «الباشمهندس حسن».

نظر إليَّ مستغربا، قال: لا أعتقد أنك تعرفه، لم أرك معه من قبل.

كان أذكى بكثير مما تصورت، حتى خيل إليَّ أنه يعرف أنني أكرهه، قلت:

أريد أن أفعل شيئا من أجل فتاته؛ بالأمس هاجمتها الكلاب المسعورة وأوشكت أن تمزق جسدها.

لم آت على ذكر ما فعله الضابط قبلها، ولم يكن يختلف كثيرا عن فعل الكلاب، لم يتأثر، عاد يردّد في عناد:

لا أعتقد أنك تعرف حسن.

ـ لا أعرفه حقا.. ولكنني في حاجة إلى أن أعرف مكانه، أو أجد وسيلة للاتصال به، أريد أن أخبره بما حدث لها، لعله يعود ولو يوما واحدا، وجوده سيعيد الروح إلى هذه الفتاة.

تعالت من داخل القسم صرخة هائلة، هل كانت صرخة الغلام الذي أدخله منذ قليل؟ قال:

بعد كلّ الذي حدث، هل تعتقد أنها ستعود إلى الحياة؟ ورد ماتت بالفعل، هذه الوقفة المتصلبة هي تخشيبة الموت، أنا أعرف ذلك بحكم خبرتي أكثر من الأطباء الشرعيين.

بدا من لهجته أنه حانق عليها هكذا. هل كان يشعر بالغيرة من حب حسن لها؟ قلت:

ربما تكون على حق.. ولكنه أمل ضئيل. فقط.. أريد رقم هاتفه على الأقل.

قال في غلظة: لا أستطيع أن أعطيك أي شيء قبل أن أستأذنه.

دبّ في قلبي قليل من الأمل، أخيرا توصلت إلى أحد الخيوط المؤدية إلى هذا الحسن، ضممت يدي وهتفت به متوسّلا:

على الأقل اتصل به أنت، أخبره فقط بما حدث واتركه يتصرف كما يريد.

توقف قليلا، ضرب بالخيزرانة طرف معطفه، قال بصوت ضعيف:

أنت تحاول أن تجعل الأمر يبدو مهمّا.. وحتى لو كان مهمّا. فلا أعرف عنوانه ولا رقم هاتفه..ربما أخبرني بذلك.. ولكني لم أعد أتذكره.

كان هو أيضا يحاول أن يدفع عن نفسه مظنة أن حسن لم يكن يثق به، قلت ببعض من الشماتة:

هذا غريب.. الإجابة نفسها تلقيتها من الأسطى «عطية الزماني».

هتف وقد شعر بالإهانة:

لا «عطية» ولا «عزّوز» المهرج يعرفان شيئا لا أعرفه، أنا كنت الأقرب إليه دائما، حميته من الضرب والإهانة والاعتقال، أنت لا تعرف معنى أن تكون ابنا لعامل مشاغب حاول أن يحرض زملاءه على حرق المصنع، لم أمنحه الحماية في هذه المدينة اللعينة فقط، ولكن في الجامعة أيضا.

أخذت بكلماته، ولم أدرِ إن كان يكذب أو يقول الصدق، سألته: كيف؟

قال في همس كأنه يفضي لي سرّا خطيرا:

أنت لا تعرفه.. ولكنه ورث بذرة الشغب من أبيه، كانت صداقتي له قائمة على أن أحميه من حماقاته، كان هناك مخبر زميل، أكثر من زميل؛ أخ حقيقي، يعمل متخفيا في كلية الهندسة؛ المكان الذي يعمل به «حسن». بالطبع «حسن» لا يعرفه، ولم أكن أجازف بكشفه أمامه، ولكنه بالتأكيد يعرف كل شيء عنه، هذه مهمته، اسمه «حمودة الضبع». لقد حماه هناك كل هذه المدة كما حميته أنا هنا.

كنت أفكر بشكل مختلف، قلت وقد انتعش الأمل في نفسي ثانية:

فلنتصل إذن بهذا المخبر.. أقصد الأخ.. ونأخذ منه كل التفاصيل.

ـ ومن قال إنني أعرف رقم هاتفه، ومن المؤكد أن الهاتف الذي يملكه يخص الشغل، ليس أكثر من أنه كان زميلي في الخدمة، لماذا كل هذا؟ الموضوع كله لا يستحق هذا العناء.

وقبل أن أقول كلمة زائدة أدار ظهره لي وأخذ الطعام معه، ولم أكن أدري إن كان سيوصله إلى عم «محرم» أو سيلتهمه هو وجماعته.

الأصحاب الأوغاد الذين لا يثق بهم أحد. هل يحمل «عزوز» المهرج شيئا لي، الأمل البائس الأخير؟ لكن العثور عليه لم يكن بالسهولة التي تصورتها، عندما بدأت بالسؤال عنه اكتشفت أنه كان يوجد في كل مكان في المدينة، ولكن لا مأوى محدّدا له، يظهر من حيث لا يعلم أحد، ويختفي في لا مكان. فرّغت نفسي وهبطت إلى قلب المدينة للبحث عنه، في المقاهي المعبأة بدخان المعسّل وقاعات عمال النسيج اليدوي، في البدرومات المعتمة حيث تنكفئ البنات على ماكينات معقّدة يطرزن المفارش وملاءات الأسرّة الفخمة وينمن على الحصر في كل ليلة. ذهبت إلى أطراف المدينة

حيث يقيم الغجر في أخصاص من الغاب ويتجمع الباعة السرّيحة، يوقدون مشاعل داخل علب من صفيح، تشع ضوءا شحيحا ويدخنون الحشيش صافيا. ذهبت إلى نقرة «صبحة» حيث تعمل بنات الهوى في بيوت واطئة خالية من الأكسجين ولها رائحة المني، ولم أعثر عليه، لماذا يبدو كل شيء بهذه الصعوبة؟ هل أستسلم وأتركها لمصيرها، تتحلّل وتذوي وتموت، أو أنّ الأمر لا يستحق أن أبذل المزيد من الجهد؟ يا «عزّوز».. أين أنت؟

عزوز ـ مهرج الشوارع

أقف على يد واحدة أرفع جسدي إلى أعلى، أثني ساقي حتى تتلامس أطراف أصابع قدمي مع شحمة أذني، حركة بارعة طالما أثارت إعجاب الجميع، ولكن ليس في هذا المكان. أتلوّى وأتشقلب وأغني، أقف لأستردّ أنفاسي، ولكن العرض لا يتوقف، لا أريدهم أن يفلتوا مني، أقول النكات الصاخبة: «واحد غبي كان يحلق ذقنه عندما رنّ التليفون، فجرح نفسه حتى يعرف أين توقف».

هؤلاء الأبالسة الصغار، لماذا لا يضحكون؟ لماذا شبّوا مثل آبائهم يحملون السحن الكئيبة نفسها التي لا ترتاح إلا في العبوس ورفض البهجة؟ مهرّج مثلي كان من المفروض أن يصبح سرّ بهجة هذه المدينة؛ يفجّر الضحك في طرقاتها، وتذكِّر ثيابُه الملوّنة الجميعَ أن هناك شمسا جديدة كل يوم، ولكن بدلا من ذلك تعلمتُ منهم الحزن والانطواء، اللعنة على عدوي الحزن. ها أنا ذا أقف الآن وسط ساحة سوق الجمعة، تحيط بي دائرة من الأولاد الصاخبين والفلاحين من القرى المجاورة، ها هو ذا أكبر أسواقهم، ممتد ومزدحم بكل أنواع البضائع المستخدمة، كأن المدينة قد أخرجت كل أحشائها القديمة للبيع؛ أثاث متكسّر، وعدد ناقصة، وآلات خربة، سقْط المتاع الذي

لم يعد له أي قيمة، ومع ذلك فالمساومات لا تتوقف، وكلها لا تتعدى قروشا قليلة، انتهيت من كل الحركات الماهرة التي أجيدها، خلعت «الطرطور» من على رأسي، وضعته تحت أنوفهم، ومع ذلك لم يعطوني إلا قروشا قليلة؛ بخلاء، الفقر يجعلهم أكثر بخلا، انسحبوا وهم يقلبون شفاههم، جلست وحيدا في منتصف الساحة، كنت متعبا وعلى وشك البكاء.

رأيت شابا صغير السن يقترب مني، يعلق على وجهه ابتسامة خجلى، مددت يدي نحوه متوقعا أن يعطيني شيئا. لم يخيب أملي؛ أعطاني ورقة مالية صغيرة، انشرحت قليلا، كان أكرم منهم جميعا، ولكنه ظلّ واقفا أمامي، رفعت رأسي وتأملته، لا بد أنه كان يريد شيئا في المقابل، قلت له:

سأقول لك نكتة جديدة، قال الرجل لصديقه: الحق زوجتك تخونك في الغابة المجاورة، وأسرع الزوج بالعدو في اتجاه الغابة، ولكنه عاد بعد قليل وقال لصديقه: أنت تهوّل، ما هي إلَّا شجرتان أو ثلاث.

لم يضحك، كنت أتوقّع ذلك، ظلت على وجهه الابتسامة نفسها، لم تزد ولم تنقص، قال فجأة:

لقد بحثت عنك طويلا ولا أريد أن أضيّع الوقت. هل تعرف عنوان «حسن»؟

ظللت أردّد الاسم وأنا غير فاهم، ثم تذكرت أنه يقصد الباشمهندس، تعرفت إليه هو أيضا، طالب الطب إياه الذي تنازل عن معطفه، جلس بجانبي، بدأ من فوره يحدثني عن ورد وعن رغبته

في إنقاذها. كان يبدو بريئا، وعلى وشك البكاء، ولم أتصور أن تبلغ به الشفقة هذا الحد، هتفت به:

أنت لا تعرفه، ولا تعرفها، لقد ماتت بالفعل، لقد رأيت أناسا يموتون من كثرة الضحك، وهي ماتت من فرط الحبّ، الموت مليء بالحماقات، ولكنه في النهاية.. موت.

ولكنه كان مصرّا، ولابدّ أنه قضى كثيرا من الوقت جالسا يحدّق فيها، لم يعد يتصور أن هذا الجسد الجامد مصيره إلى التحلل والغياب، أخذ يقول:

هناك جزء من روحها باق داخل هذا الجسد الجامد، وهو أمر يستحق أن نبذل بعض الجهد من أجل استعادته، لقد كانت خطيبة صديقك لا صديقي، أنت مدين له على الأقل بمحاولة إنقاذها، كلّ ما أريده هو رقم هاتف، أنا واثق أن حسن سيستجيب، المشكلة هي أنت..أنتم الثلاثة.. تؤكدون أنكم أصدقاؤه، ومع ذلك ليس معكم عنوانه.. هل لديك أي عنوان.. أو أنك مثل الآخرين؟

أحسستُ بنبرة إهانة في صوته، لا أقبل أن يقارنني «بعطية» الثرثار، ولا «محروس» المؤذي، صحت مدافعا عن نفسي:

أنا لست مثلهما، قد تستغرب هذا، ولكني كنت الأقرب إليه منهما معا. أنا لست مهرجا عاديّا، أعرف كثيرا عن أمور الدنيا والناس، كنت أقضي الأوقات التي يرحل فيها السيرك في القراءة، وأحيانا كنت أكتب بعض القصائد، كانت قليلة وغير موزونة حقا، ولكن زملائي كانوا يطلقون عليَّ شاعر السيرك، أفضل من مهرج السيرك؛ لذلك كنت أنا و«حسن» قريبين جدًّا؛ نتحدث معا في أمور الحب والسياسة وفي أشياء خاصة أخرى لا تخطر ببالهما.

لم تؤثر فيه كلماتي، سمع مثلها أكثر من مرّة، ربما منهما، وعلى الرغم من ذلك لمعت عيناه بالأمل، وسألني:

هل يعني هذا أن لديك عنوانه؟

قلت في ثقة وتفاخر:

بالطبع معي عنوانه، هذا هو الأمر الطبيعي بين الأصدقاء، أليس كذلك؟

بدأنا في السير جنبا إلى جنب، هبطنا المنحدر وتركنا السوق خلف ظهورنا، عاد يقول في إلحاح:

أين هو هذا العنوان؟

قلت بالثقة نفسها، وكنت أعني ما أقول حقا:

مكتوب على ورقة بخط يده، في مكان أمين بغرفتي.

قال وقد نفد صبره: لنذهب إذن إلى غرفتك.

كان صغيرا ومتعجّلا، ربما مسّه شيء من سحر الفتاة الجامدة، ولكنني لم أستطع أن أجازف بسرّي الخاص بسهولة هكذا، قلت وأنا أحاول أن أجعل نفسي أبدو مقنعا:

لا يمكن أن أفعل ذلك إلا في الليل.

نظر إليَّ في شك وغيظ، أقسم إنني لم أكن أريد التلاعب به، ولا أن أحيط نفسي بهالة من الغموض، ماذا يجدي الغموض مع مهرج بائس مثلي؟ أدركت الفكرة التي فاتت عليَّ؛ فاتت علينا جميعا، لماذا لم نفكر في إنقاذ هذه الفتاة التي كنا نعرفها جميعا؟ لماذا سلّمنا جميعا

بموتها؟ هل كانت في داخلنا رغبة دفينة ومقيتة للتخلص منها؟ ظللتُ بجانبه، حاولت أن أهدئ من غيظه:

المساء قريب على أي حال، في هذه المدينة دائما ما يكون النهار قصيرا، فالضوء في هذه الحواري لا يستطيع أن يقاوم العتمة طويلا.

نظر إليَّ في دهشة، لم يدرك إلى أي مدى قد تسرّب بعض من روح مدينته إلى نفسي. كنت محقًّا؛ فالعتمة المقيمة فيها أقوى من الضوء الطارئ، قلت وقد انتابني شعور مفاجئ بالذنب:

لنذهب إلى المحطة لنرى كيف حال الفتاة؟

اجتزنا بقية الشوارع صامتين، في المحطة كانت واقفة حزينة، بلا حول ولا قوة، يلتف حولها سور من أسياخ حديدية قبيحة المنظر، ألقيت عليها نظرة مشفقة، امتلأت عيناي بالدموع رغما عني، قلت:

أحيانا ما يكون الحبّ بالغ القسوة، يقتل جزءا من الروح فلا تشفى ولا تسلو ولا تعاود العشق، هذا ما حدث معي على الأقل.

نظر إليَّ مستغربا، تأمّل شكلي المزري متفحّصا، كنتُ آخر من يتوقع منه أن يحدثه عن أفعال الحب، لا أحد يأخذني بالجدية اللازمة، قلت:

أتعرف لماذا كنت مقرّبا من «الباشمهندس» أكثر من «محروس» و«عطية»؟ لأنني كنت أشبهه، في مشاعري الخالصة على الأقل، كنت الوحيد منهما القادر على الحبّ، هذا هو السبب الذي أبقاني في مدينتكم التعسة.

نظر إليَّ محاولا أن يسمع المزيد؛ ربما لمجرد أن يضيع الوقت

حتى يأتي المساء، ولكن الأمر بدأ يصبح مؤلما لي. أدرت وجهي ناحية الفتاة الجامدة، تشاغلت برؤيتها، كان الدمع يملأ عيني، لم يهتم أحد بي في هذه المدينة كلها إلا حسن؛ الوحيد الذي أدرك أن جراحي صعبة الاندمال، لا يتصور أحد أن خلف ملامحي المطلية بالألوان، وثيابي الكثيرة الرقع يوجد قلب حزين، لم أكن أكثر من مهرج جوّال في فرقة جوالة، فقدتْ جذورها لكثرة ما تعددت الأسفار وتباعدت الطرق. لم أعد أذكر من أين جئت، ولا لأي مكان أحن؟ لا أملك إلا خليطا من مشاعر الوحدة والتوق والنبذ والخواء، في ليالي البرد نوقد أنا وزملائي من أهل «السيرك» نارا ونلتف حولها، وأظل أطلق النكات حتى أبكي الجميع من كثرة الضحك، وبعد ذلك يواصلون وحدهم البكاء، في الصيف ننام في العراء، تحت نجوم زاهية وبعيدة، الوحيدة التي ترافقنا، خشيتنا الوحيدة أن يقعدنا العشق في مكان ما؛ فالمحبّ هو الجمل الذي أصيب في قدمه فلا يبرح مكانه، لذلك توطّنت نفوسنا على عدم الحنين، لا لمكان ولا لشجرة ولا لشاهد قبر ولا لوجه امرأة، ولكني وقعت في المحظور.

وصلت فرقتنا إلى هذه المدينة، كان أول ما فعلناه أننا طفنا في الشوارع بملابسنا التنكرية، نعلن عن العرض الذي نقدمه. وجهي يغطيه قناع أبيض من الدقيق، ومرسوم حول فمي شفاه عريضة لضحكة مستعارة، وحاجباي مرفوعان على هيئة قوسين، وأرنبة أنفي معلق فيها كرة حمراء، مسخ يسير على قدمين، أقود موكب اللاعبين، أتوقف كل فترة أمام أحد المقاهي، أقذف الكرات الملونة في الفضاء، ولا أتوقف عن قول النكات: «واحد ندَل يسير مع صديقه، أشار إلى امرأة تسير في الطريق بصحبة رجل آخر، قال لصديقه: أراهنك أن هذه

المرأة اسمها فوزية، قال صديقه مندهشا: كيف عرفت؟ قال: لأنها زوجتي»، أدركت منذ البداية أن من الصعب إضحاك هذه المدينة، أصابني الناس في شوارعها بالإحباط، حتى رأيت هذه الفتاة وهي تطل على موكبنا من إحدى الشرفات.

تضحك في حبور وتشير إلينا؛ إليَّ أنا بالذات، مجرد فتاة صغيرة، تستعد للخروج من شرنقة المراهقة إلى تفتح البلوغ، نصف ساذجة ونصف أنثى، ولكن قلبي ارتجف، أين يمكن أن أجد مثل هذا الوجه الباسم والضحكة المنطلقة؟ وقفت تحت شرفتها مباشرة وأنا ألعب بالكريات في الهواء، رميت وتلقفت عشر كريات كاملة، جعلتها جميعا تدور في الهواء على شكل دائرة، أقذف واحدة وأتلقف الأخرى في مهارة، أكون منها دائرة في الهواء، أرى من خلالها وجهها الباسم وهي تزداد إغراقا في الضحك، تعطل الموكب بسببي، ولكني رفضت السير، أخرجت من فمي مناديل ملونة، ومن أذني كريات صغيرة، ومن جيبي أرنبًا، ومن قبعتي حمامة بيضاء، ونثرت في الجو قصاصات لامعة وملونة، هبطت على الأرض ورسمت شكل قلب، ولكن زملائي دفعوني ليتم الموكب جولته، اضطررت إلى السير من أمامها مرغما من دون أن أكفّ عن التلفت نحوها، ولا تكفّ هي عن النظر في أعقابي، تركت قلبي معها، كنت أتوقع أن أراها بين المتفرجين الذين حضروا في المساء، ولكنها لم تظهر، كان العرض باردا وماسخا.

وفي اليوم التالي حرصت على الخروج وحدي إلى شوارع المدينة، كان الأمر رهيبا في البداية وكل هؤلاء الأطفال يسيرون خلفي وهم يصيحون، لم أتراجع، وقفت تحت شرفتها وأخذت أقدم

عرضي الخاص، تعالى صياح الأطفال وصراخهم حتى خرجت لي بنفسها، مشرقة الوجه بالضحكات، فعلت كل ما في وسعي لأظفر بالمزيد منها، رأيت الغيرة في عيون رجال الحيّ وهم يعتبرونني دخيلا عليهم. لملمت كل أغراضي وانصرفت تاركا تلك الابتسامة الرائعة على وجهها، وفي المساء عاتبني مدير الفرقة بشدة، قال لي إنني بهذا أحرق العرض، أقدّم أهم الفقرات مجّانا، أمرني في حزم أن أمتنع عن الخروج وأنا بملابس العمل، ولكني لم أكن أستطيع، ومرة أخرى انتهزت فرصة غفلة الجميع وارتديت ثياب الشغل وخرجت، وقفت من فوري تحت الشرفة وبدأت ألعابي. هلل الأطفال، وبدأ رجال الحي في النظر نحوي في تهديد، لم تظهر، لم أر وجهها ولم أسمع صوت ضحكاتها، لم يعد اللعب مجديا، لا بد أن أبا قاسيا أو أخا غيورا قد منعها من الخروج. لملمت أشيائي وصاح الأولاد في خيبة أمل، انسحبت سائرا ببطء، شاعرا بثقل في قلبي، يوما أو يومين وستغادر الفرقة البلدة، لن أراها ثانية، ولن أسمع صوت ضحكاتها أبدا.

توقفت عند باب مسجد قديم في أول الحي استندت إلى جدرانه وأنا أوشك على البكاء، ولكني فوجئت بها قادمة، خرجت من بيتها وتلفت يمنة ويسرة ثم سارت من أمامي. جفّ ريقي وأنا أراها في كامل بهائها، تخطو على الطريق بساقين طويلتين نحيلتين، ترتدي ثوبا مليئا بالأزهار، كان شعرها طويلا عليه عصبة حمراء، ووجهها مستديرا فيه أنف صغير وفم دقيق وعينان واسعتان، سبحان من صوّر الملكوت. كتمت أنفاسي حتى لا أصرخ من فرط الدهشة، ولكنها مرت من أمامي كأنها لا تراني، أهي المصادفة.. أم أنها هبطت من

أجلي؟ ظللت واقفا متردّدا ولكن رأيتها تتمهل قليلا عند ناصية الشارع. تلقفت الدعوة من فوري وأسرعت خلفها، ظلت تسير وأنا لا أجرؤ على الاقتراب منها، عبرنا أكثر من شارع وانحرفنا في أكثر من انحناءة حتى خيل إليَّ أنها لن تتوقف أبدا. أصبحنا خارج المدينة، انتهت البيوت وامتدت الخضرة أمامنا، وقفزت برشاقة تعبر ترعة صغيرة فقفزت خلفها، سرنا وسط صف من زراعات الأرز؛ عيدان رقيقة وناعمة مثلها، صحت بها أن تتوقف، التفتت نحوى وهي تضحك، ظلت تتحرك في نعومة وانسيابية كأنها حلم يسير على الأرض. أخيرا جلسنا فوق أحجار تحيط بساقية قديمة، تحت شجرة «جمّيز» باسقة، كنت مرعوبا ومتوترا، متوقعا أن يحدث هجوم مباغت في كل لحظة، جلست على حجر أمامها ولكنها أشارت إلى مكان بجوارها، أقرب ما يكون إليها، كان وجهها ساطعا، عليه طبقة غاية في الرقة من الزغب الدقيق، بقايا الطفولة التي لم تغادره، كان عطرها خفيفا، لم يكن عطرا، كانت رائحة جسدها الغض، قالت لي بصوت ناعم:

هل لك وجه حقيقي؟

هززت رأسي، لم تنتظر جوابي، مدت يدها، نزعت الكرة الحمراء المعلقة في طرف أنفي، والقبعة والشعر المستعار الذي يغطي رأسي، والمشابك الخشبية التي أطيل بها أذني، وأخرجت منديلا ومسحت به الألوان التي تغطي ملامح وجهي، تلوّث منديلها بالأحمر والأسود والأزرق، ولا أدري إن كانت ملامحي قد ظهرت أو لا، ولكني رأيت وجهها يشرق بابتسامة، وسمعتها وهي تقول:

أنت لا بأس بك.

ومدت شفتيها ومسّت خدي، لم تكن قبلة، كانت أشبه بلسعة نار ولدغة نحلة، لم تغادر وجنتي، كلما وضعت يدي على خدي أحسست أن لحمي مازال ملتهبا حتى الآن، لا أدري إلى أي مدى طالت جلستنا، ولا في أي شيء تكلمنا، ولكن كانت تهب علينا نسائم مشبعة برائحة الفلّ، عبق خالص لا أعرف من أين يجيء، ربما كانت من أشجار فل قريبة منا، مليئة بأزهار باسقة، عاشقة للضوء مثل عشقي لهذه الصغيرة، قالت لي:

قل لي نكتة.

دخل رجل صغير جدًّا إلى مكتب مدير السيرك، قال له إنه يبحث عن عمل، قال له المدير: ماذا تجيد؟ قال الرجل الصغير: أجيد تقليد أصوات الطيور، قال المدير: لا يوجد عندي مكان لهذا العمل، قال الرجل الصغير: أنا آسف حقا..صووو.. صووو.. وخرج طائرا من النافذة.

ظلت تضحك حتى أقبل المساء، كان لا بد أن تعود إلى بيتها، وأذهب أنا لأؤدي فقرتي، ظللت مستيقظا طوال الليل، واضعا يدي على خدي، وأنفي ممتلئة برائحة الفل، قابلتها في اليوم التالي والذي يليه، ذهبت إليها بملامحي الحقيقية، وقبلت شفتيها ورقبتها، وأوقفتني عندما وضعت شفتي على عظمة الترقوة الدقيقة، كانت هذه آخر حدودي معها، واكتشفت وأنا أحدثها عن نفسي أن لحياتي معنى، لست ذلك الشخص الهامشي الذي يعيش على حافة المدن، لي وجه من دون قناع يمكن أن يحب ويعشق، أدركت فجأة وهي

جالسة بجانبي، وأصابعها في أصابعي، أن طاقة نور قد انفتحت أمامي، فأصبح لي وطن، وأرض أقيم عليها وأمدّ فيها جذوري، في المساء تشقلبت ورقصت وقلت كل النكات وصفعت الجميع وتلقيت عشرات الصفعات وكنت منتشيا. كانت هذه هي الليلة الأخيرة، وعندما حزمت الفرقة متاعها واستعدّ الجميع للرحيل إلى مدينة أخرى لم أكن معهم، نظر إليَّ مدير الفرقة في دهشة، حسب أنني أقوم بمناورة لرفع أجري، ولكني كنت سعيدا، استمعت إلى تهديداته وإغراءاته وأنا أضحك. قبلت الجميع وودعتهم حتى أطراف البلدة، ثم عدت فرحا إلى شوارعها، أخذت أتقافز في الحواري الضيقة، وأتشقلب مجانا أمام المقاهي، لم تغادر بدني حالة النشوة برغم أنني كنت بلا أهل ولا مأوى في مدينة غريبة، ولكنها لم تعد غريبة بالنسبة إليَّ، كانت أكثر الأماكن ألفة في حياتي، تقابلت معها عند الساقية المهجورة، وشممتُ رائحة الفلّ، وقبّلتها من وجنتيها حتى عظمة الترقوة، قلت لها إنني سوف آتي إلى بيتهم في اليوم التالي لأقابل أهلها. كانت مغمضة العينين، تتنهد في دعة وتهبني شفتيها كلما احتجت إليهما، سرنا معا والمساء يلف البلدة بأضواء شاحبة، ودعتها وقضيت الليل ساهرا.

توجهت إلى بيتها تماما كما وعدت، صعدت السلم المتآكل، ودخلت من باب البيت كما تقضي الأصول، جلست وجلست العائلة كلها حولي، صغارهم وكبارهم، كانوا كثيرين، ولم تكن هي موجودة كما تقضي الأصول، لم يكونوا يعرفون عني شيئا، ولا أحد منهم رآني في البلدة قبل الآن، أخبرتهم أنني المهرج الذي جاء مع الفرقة الجوالة، ومن فورهم بدءوا يضحكون، قال أحدهم:

قل لنا نكتة.

لم يكن هذا وقت النكات، حدثتهم عن حبي لمدينتهم ورغبتي في البقاء فيها إلى بقية العمر، ظلوا يضحكون، قلت لهم إنني سأبحث عن عمل في المصنع، وعن رغبتي في الزواج من ابنتهم، ولكنهم واصلوا الضحك، حدثتهم عن يأسي القديم وبهجتي الجديدة وأملي وحلمي ورغبتي، عن تلك اللحظة التي ولدت فيها من جديد وعن أملي في أن يستجيبوا لرجائي، وأن يعطوني الدافع لأن أبدأ حياة حقيقية بلا تهريج. طفرت الدموع من عيونهم وهم يواصلون الضحك، لم يقبلوا ولم يرفضوا، لم آخذ منهم حقّا ولا باطلا. خرجت هي من غرفتها ووقفتْ بينهم، حاولتْ أن تعلو بصوتها على ضحكاتهم وتعلن عن اختيارها لي، لم يستمع إلينا أحد، وعندما كنت أهبط فوق سلم بيتهم منكسرا، أدركت أن الأمر مضحك بالفعل، مهرج مقطوع من شجرة، ترك كل شيء، ويريد التشبث بأي شيء، من يأبه به؟

بعد تلك الواقعة، شدّد أهلها الرقابة عليها، وعندما احتجّت منعوها من الخروج، وأصبح من الصعب أن أقابلها. تحولت شوارع البلدة إلى مصيدة، تقتنص خطواتي، ولا تعطيني إلا المزيد من التشرّد، عملت في مصنع الغزل وفي محالج القطن وفي مصانع الملابس الجاهزة تحت السلم، ولكن كلها كانت تحتاج إلى الخبرة، اشتغلت في كل الأعمال الهامشية، ولم أعمّر في أي واحدة منها. كنت مهرجا حكم عليه بالبؤس، وعلى الرغم من التشدد فقد استطاعت أن ترسل لي واحدة من صواحباتها، أخبرتني أنها تريد أن تقابلني بصورة عاجلة، وبالفعل تقابلنا في المكان نفسه، كانت زهور الفلّ قد تمّ قطفها فلم تعد هناك من رائحة إلا رائحة الأرض السبخة،

قالت لي وهي تبكي إنها على وشك أن تتزوج، لا تستطيع أن ترفض خصوصًا بعد حكاية المهرج الذي جاءت به من الشارع، كان أهلها تحت قناع الضحك يخفون ملامح قاسية، لا مفرّ من أن يتزوجها ابن عمّها حتى يلّموا أذيال الفضيحة، هكذا قالت برغم بكائها، ولم يكن لديَّ ما أفعله. تعلّقت برقبتي، فتحت بلوزتها وظهر صدرها عاريا من دون ملابس داخلية، هتفت بي:

خذني.. الآن.. افعلْ بجسدي ما تشاء.

نظرت إليها في لهفة وجوع، ولكني أمسكت بثوبها وضممته، أخفيت عريها، كنت أحس بالضياع، ولم أكن أريدها أن تضيع مثلي، رفضت هديتها، وكنت أعرف أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراها فيها، والمرة الأخيرة التي سأحلم فيها بأسرة أو بحياة جديدة. لم أحاول أن أعثر على عمل جديد.. ما الجدوى؟ يكفي أنني أعيش معها في المدينة نفسها، يكفي أن أراها من بعيد... وهي تسير وحدها.. أو مع زوجها.. أو حتى مع أولادها.. وهذا ما كان وما سيكون.

كان طالب الطب،الذي عرفت أن اسمه علي، ينظر إليَّ متأملا، هل استمع إلى كل ما كان يدور بداخلي من كلام؟ مسحتُ دموعي، نظرتُ نحو ورد، كأنها هي كانت تراقبني، ترثي لي وترثي لنفسها، لا بأس.. قصة حبّ أخرى تموت في هذه المدينة، يهبط الليل مسرعا، وينقضي النهار الذي هو الأقصر على ظهر الأرض، ويظهر جمعة ناظر المحطة، يحمل قصعة من الصاج مليئة بقطع من الخشب، لم يكن يعتزم أن يشعل النار إلا بعد قيام آخر قطار، ولكن علي كان قلقا، ولا يثق بي، نهض واقفا وهو يقول:

ألا تستحق هذا الفتاة أن نذهب من أجلها الآن؟

تلفّتُ حولي أتـأمل درجة الظلمة، قلت:

إنها تستحق أكثر من ذلك، ولكن الأمر ليس في يدي، لا أستطيع العودة إلى المقرّ الذي أقيم فيه إلا تحت الظلام.

حدق فيَّ وهو غير فاهم، ولكنه أدرك أنني لست مستعدّا للمزيد من الكلام، جلسنا صامتين، كلانا يتأمل ورد. انصرف العسكر، وعادت ورد لوحدتها، وددتُ لو أجلس بجانبها وأواصل الحديث معها، وعندما أضيئت اللمبات الشاحبة للمحطة، وصنعت حولها هالة من الضباب الأصفر الهشّ، وبدا في السماء ضوء من قمر شاحب، لم أنتظر حتى يستحثني،نهضت واقفا:

هيا بنا.

تطلع جمعة إلينا ببعض من الأمل، خرجنا من المحطة، وبدأنا السير بجدية، متجهين إلى شمال المدينة؛ الجزء العتيق منها والأكثر ازدحاما بخلق الله. ظل يتبعني خائفا من مناقشتي، تركنا الشوارع المضيئة، دخلنا الحواري والطرق الضيقة الملتف بعضها حول بعض. صعدنا التل الذي ولدت فوقه المدينة، عندما سكنها غازلو الكتان القدامى وبنَتِ القبائل العربية الوافدة أول بيوتها، وسكن الصنايعيّة حول أطرافها، وفتح اليهود بيوت الصيرفة السرية، وقنع الغجر بالسكن في أسفل التل، واختبأ بينهم الخارجون عن القانون من دون أن يجرؤ العساكر العقلاء على التهوّر ودخول الأخصاص. واصلنا السير حتى أصبحنا بجوار السور الممتد حول المعبد المهجور «خوخة اليهود»، كان صامتا في الليل بلا ضوء بعد أن كان

يستحمّ به في سنوات بعيدة، كنت قد سألت وتقصيت أهل المنطقة عن هذا المعبد، حدثني بعض العجائز عن المولد الذي كان يقام لليهودي الرباني الذي بناه، وزوجته «خوخة» التي دفنت بجواره، احتلت الجانب الأمامي من سور المعبد عدة محال تجارية، انتهز بعض التجار فرصة إغلاق المعبد ورحيل أصحابه وبنوا محالهم العشوائية، لم نتوقف أمامها،استدرنا معا حول السور الصامت حتى توقفنا عند الجانب الخلفي، كان خاليا مظلما لا يتجول بالقرب منه إلا الكلاب الضالة.

وضعت يدي على الأحجار المتآكلة كما أفعل كل ليلة، وتلفّتُ حولي، هتف علي مندهشا:

ماذا تفعل؟ هل تسكن في خوخة اليهود؟

قلت في صوت خافت:

اخفض صوتك.. أين تريدني أن أسكن.. في القصر الجمهوري؟

هبطتُ في حفرة مائلة أسفل السور، أزحت بعض عروق الخشب والأحجار وسعف النخل، ظهرت بضع درجات خفية تؤدي إلى أسفل، هبطتُ عليها مسرعا وبدأت أزيح المزيد من الأحجار، فعلت ذلك في سرعة دراية؟ بحكم العادة، بدت تحتها حفرة غائرة ممتدة إلى جوف الأرض، أشرت إليه:

اتبعني، لا وقت للتردد.

كان مصدوما، تلفت حوله حائرا، ولكن عندما رآني أنزلق إلى الحفرة لم يجد مفرّا من الانزلاق خلفي، احتوتنا الرطوبة وشممنا

رائحة العفن. أخذت أعيد الأخشاب إلى مكانها، تأكدت من أنني أعدتها كاملة حين ساد الظلام تماما، كان علي يقف خلفي، سمعت صوت أنفاسه وهي تتردد بسرعة، كان خائفا، يشعر أنه قد دفن داخل قبر، كان الأمر أبسط من ذلك، مجرد عبور من عالم مزدحم إلى آخر أكثر أمنا، شددته من يده قبل أن يترنح، سمعت صوته وهو يصيح:

هل قمت بحفر هذا النفق؟

واصلت سحبه من يده:

وهل أنا مجنون؟ بالطبع ليست لي القدرة على ذلك، إنهم اليهود، أصحاب المعبد، عندما كانوا يقيمون في هذا المكان، ربما سمعت عنهم وعن طباعهم، دائما تنتابهم وساوس المطاردة وتأمين طريق الهرب؛ لذلك ففي أي مكان حلوا فيه كان أول ما يبدءون به هو حفر الأنفاق.

أحسستُ بجسده يرتج، أدركت أنه تعثر في الحجر الناتئ، أوشك أن ينكفئ لولا أنني أمسكت بيده:

آه.. نسيتُ أن أحذرك من هذا الحجر.

لمستُ وجهه فإذا به ينضح بالعرق، كان يجب أن نمضي بسرعة قبل أن ينفد الهواء، كان رعبه زائدا، قلت له:

سأقول لك نكتة: ذهب رجل بخيل للزواج، قال له أبو العروسة: المهر عشرة آلاف جنيه، ولكن الرجل هتف مذعورا: ماذا؟ هناك أخرى معروضة عليَّ بألف جنيه فقط.. وحامل أيضا.

سمعتُ صوته وهو يتوسل في وهن: أرجوك.. أخرجني من هنا.

سمعتُ أنفاسه تتحشرج، قبل أن يسقط ثانية أمسكت به ودفعته إلى الأمام، صحت به:

تقدم يا ضعيف.

هبّت علينا نفحة من هواء بارد وبرقت لمحة من ضوء، أصبحنا خارج النفق، ارتمى على الأرض وهو يلهث، نظر نحوي في حنق وغيظ، قبل أن يفوه بأي كلمة صحت به:

سأجعلك تقسم على القرآن.. كلا.. تقسم على التوراة إنك لن تفشي سر هذا المكان لأحد.

صاح بي هو أيضا: أي شيء يمكن أن أقوله عن هذه المقبرة العفنة؟

كنا نقف في ساحة المعبد الخربة، لا توجد فوقنا إلا سماء عارية، فيها هلال نحيف، تحيط بنا دائرة من أعمدة رخامية متكسرة، استرد أنفاسه، وبدأ يدير رأسه متأملا المكان، نهض واقفا وهو ينفض التراب عن ثيابه، قلت:

أترى؟ لم يصبك شيء، لقد أكرمتك حين قدتك إلى مخبئي، لم يظفر أحد بهذا الشرف من قبلك.. حتى ولا «الباشمهندس».

كان خجلا؛ لأنني أكتشف مدى ذعره، قال:

لم يكن هناك داعٍ لكل هذه البهدلة، أعطني العنوان حتى أمضي.

سخرتُ من ضيق أفقه، من عدم رغبته في اكتشاف مكان جديد، حتى لو كان ذلك رغما عنه.

أليس لديك أي حس بالمغامرة؟ ألا تريد أن تتعرف على هذا المكان الغامض؟ أنا الغريب عن المدينة قد عرفت أن هذا المعبد واحد من أقدم المعابد في مصر، وربما في العالم كله، انتظرني هنا قليلا.

تركته يتأمل المكان، عدوت مسرعا حتى غصت في ظلمة المعبد، اجتزت الهيكل المحطم إلى البهو الداخلي، كنت أعرف طريقي في الظلام كخفّاش محترف، أمسكت بالشمعدان المتعدد الأذرع، كان ممتلئا بشموع نصف محترقة، أخرجت علبة ثقاب وأشعلت بعضا منها. بدت ألسنة اللهب واهنة، على وشك الانطفاء ثم أخذتْ تقوى وتشتد حتى أضيىء المكان، عدت إليه قبل أن يستولى عليه الفزع. كان الفضول قد استولى عليه بالفعل، رفعت يدي عاليا بالشمعدان وتركته يتأمل ما حوله؛ مبنى خرب مكون من دورين، جدران متهدمة تكشف عن قاعة الصلاة، أعمدة الرخام الرفيعة تحيط بالساحة التي نقف فيها، معظمها متكسّر وقد سقطت العوارض المقامة عليها وكونت كومة عالية من الركام، وفي الوسط نافورة صغيرة تنمو عليها الطحالب، لفتُّ نظرَه إلى لوح حجري منتصب في ركن من الساحة، قلت له هامسا:

تعال وشاهد النقوش المحفورة على هذا اللوح.

لا بد أنه لاحظ أن الصدى يردّد نبرات صوتي، نظر نحوي في رهبة، توقّفنا أمام اللوح، كان منتصبا على حافة بئر عميقة، سطحه مستوٍ ومليء بالنقوش، في الأعلى نقش لشمعدان يشبه تماما الذي أمسكه بيدي، وجهت الضوء المتراقص على الكلمات المنقوشة،

سطور متتابعة مكتوبة بالحروف العربية ثم العبرية، ردّدت على أذنيه الكلمات بصوت مسموع:

الله.. الذي خلقنا، أنبياؤنا.. موسى وهارون، آباؤنا.. إبراهيم وإسحق ويعقوب، أمهاتنا..سارة وربيكا وراشيل.

كنت أسمع صوت أنفاسه مبهورا، أخذتُه من يده، سرت لأضيىء الطريق أمامه، لست بحاجة إلى الضوء، كنت أحفظ مكان كل حجر، دخلنا إلى قاعة مغلقة يتناثر على أرضها بقايا من زجاج ملون ومتكسّر، وجدران متساقطة الطلاء، نقوش مذهبة متآكلة، في صدر القاعة عدة درجات من الرخام مغطاة بالتراب، قلت:

هنا كان يقف الرجال للصلاة، أما النساء فمكانهن في الأعلى، يراقبن الطقوس فقط من دون أن يشاركن فيها، ليس من حقهن الصلاة، أحيانا أسمع أصواتهم وهم يرتلون المزامير، يُخيّل إليَّ أنهم لم يرحلوا جميعا، مازالت أطيافهم تراقبني، وفي لحظة ما.. سيهاجمونني حاملين العصي لأني تعديت على حرمة مكانهم.

ارتد علي مذعورا حين سمع صوت حركة صادرة من بين الأخشاب المتكسّرة، هتفتُ ضاحكا:

إنه مجرد فأر، الفئران هم رفاق وحدتي في هذا المكان.

واصلنا السير، صعدنا فوق عدة درجات متكسرة، توقفنا أمام منصة من رخام، مفروش عليها بقايا غطاء متآكل من المخمل الأحمر الداكن، تفوح منه رائحة عطور قديمة، قلت:

هذا هو الهيكل، وتلك الفجوة في الخلف كانت توضع فيها صحائف التوراة.

التفتَ إليَّ مستغربا وهو يهتف:

كيف عرفتَ كل هذا؟ هل أنت يهودي؟

كنت خائفا مثله، ولكني أخفيت ذلك خلف ضحكتي الجافة. قلت:

أنا أقيم هنا. كان يجب أن أسأل عن هذا المكان قبل أن تهاجمني أشباحهم، ذهبت إلى عديد من عجائز البلدة، بعض منهم كان قد دخل هذا المكان ويتذكر تفاصيله، يقولون إنه كان هنا عديد من التحف الذهبية والمخطوطات النادرة، كلها نقلت إلى القاهرة، لا أدري إلى أين؟ لم يبق إلا هذا الصندوق المغطى بالنحاس المنقوش، مازال مليئا بالشموع، وعندما يفرغ سأضطر لمغادرة المكان، لن أحتمل الظلمة والفئران معا.

ظلّ علي يدور في المكان مشدوها، كانت القاعة هائلة وغريبة، بدا أنه قد تعود على الظلمة وغبار الزمن، توقف أمام صف من القبور المتجاورة في ركن من القاعة، تأمل النقوش المكتوبة عليها بالعبرية، عاد يسألني في دهشة:

من هؤلاء؟

ـ ربّانيون.. هكذا يطلقون على رجال الدين عندهم، لا أعرف منها غير قبر واحد فقط، هذا.

أشرتُ إلى قبر بارز بين بقية القبور، كنت أعرف أنني سأدهشه، طالب الجامعة هذا يبدو ساذجا، منقوش على القبر كلمات بلغات ثلاث: العربية والعبرية والأحرف اللاتينية، قبر النبي «إرميا» الذي أنشأ هذا المعبد، تراجع دَهِشا مُباغَتا وهو يهتف:

أتعني أن هناك نبيا حقيقيا في مدينتنا؟

ـ وماذا في ذلك؟ إنها مدينة قديمة من أيام الفراعنة، ومن المؤكد أنه تحت هذا التل يوجد عديد من المعابد المطمورة، أهلها كما هم، كانوا يغزلون الكتان في الزمن القديم، ثم أصبحوا يغزلون القطن وانحدر بهم الحال إلى غزل خيوط الألياف الصناعية، الزمن لا يتوقف.

تمتم كأنه يحدّث نفسه:

إن كان هذا نبيّا حقا، فهل تصبح ورد إحدى معجزاته،؟ لماذا تخلّى إذن عن أهل المدينة التي دفن في أرضها؟ هذا المكان مُقبض، لا أدري كيف تستطيع أن تقضي طوال الليل بين هذه الأطلال؟

بدا عليه التعب والجوع والإنهاك، أدركت أنني استبقيته طوال النهار، ولم يكن لديَّ ما أقدّمه له سوى الشفقة، قال:

أريد أن أنصرف أعطني العنوان ودعني اذهب.

نظرت إليه، ألم يدرك لماذا تمسّكت به كل هذه المدة؟ ألم يشعر بمقدار خوفي من مواجهة كل هذا الخراب وحدي؟ كان عليه أن يمضي ولم يعد ممكنا أن أستبقيه أكثر من ذلك.

ـ لقد مللتَ مني سريعا إذن.. لا بأس.

حملت الشمعدان وسرت إلى غرفة جانبية، أسرع للحاق بي حتى لا يصبح وحده في الظلام. كانت الغرفة التي أقيم فيها ضيقة بلا أي فتحات، هكذا تكون آمنة،لا يوجد فيها إلا سرير معدني فوقه فراش ممزق، وغطاء من الصوف؛ البطانية التقليدية التي تنتجها

المدينة، بجانبه كومة من الملابس والأوراق والكتب القديمة وقطع من الخبز اليابس، شعرت للمرة الأولى بمدى البؤس الذي أعيش فيه، ظلّ علي واقفا ملتصقا بالجدار، خائفا من أن يخطو خطوة زائدة فينهار كل شيء. وضعت الشمعدان على قطعة مستوية من الأحجار، أزحت المرتبة فبدت تحتها كتلة من الورق الهشّ المفتّت سرعان ما تناثر في الهواء،أضاف المزيد من الفوضى والقذارة للغرفة، صحتُ متوجعا:

لقد قرضت الفئران أوراقي.

قبضتُ على الأوراق المفتتة، ولكنها أفلتت من بين أصابعي وتناثرت، أوراق عمري، مستندات رسمية وأشعار ومذكرات ناقصة، بقايا السنوات تحوّل إلى نثار متبدد، لم أعد أحتمل ثقل بدني، جثوت على ركبتي، أحسست بقلبي وهو يعتصر، سمعت صوته قادما من الخلف:

هل يعني هذا أن العنوان لم يعد موجودا؟

التفتُ إليه، رأيتُ ملامح وجهه وعرفت فيما يفكر، كان أمرا عبثيا أن يثق بمهرج يلعب على أرض الحواري، آلمني ذلك، ولكننا وصلنا معا إلى طريق مسدود، لا تهمّ الوثائق، حياتي الهامشية على حافة العالم لا تحتاج إليها، ولكن ورد المسكينة يمكن أن تتحلل في وقفتها قبل أن نصل إلى شيء، عاد يقول في صوت أجوف:

سأحاول أن أجد وحدي طريقا للخروج.

وضع يده على رقبته، كان يحس بالاختناق مني ومن المكان،

استدار وغادر الغرفة، سمعتُ صوته في القاعة المحطمة وهو يشهق. ربما كان يحاول أن يكبت نفسه ويمنعها من الانفجار بالبكاء، كنتُ قد خذلته، نهضت وعدوت خلفه صائحا:

انتظر قليلا.. سأعوضك.

لم ينتظرني، لم يلتفت نحوي، خرج للفناء الواسع، راقبته وهو يدور حول النافورة المعطلة، لا يستطيع أن يحدّد بداية فتحة النفق الذي دخل منه، سرت نحوه وأمسكت بذراعه وعدت أكرر:

سأعوّضك عن ذلك، أقسم بالله.. أنا حزين أكثر منك من أجل مصير هذه الفتاة، لقد عرفت قسوة الحب وما يفعله في النفس.

قال ثائرا: أي تعويض؟ هل ستعطيني عنوان الفأر الذي أكل عنوان حسن؟

ظللتُ ممسكا بذراعه وجررته معي رغما عنه:

سأعطيك ما هو أهم من الفأر.

حاول أن ينزع ذراعي من قبضتي، ولكني أمسكته بإحكام وأنا أضيف:

ستتخبّط طويلا في الظلام قبل أن تصل إلى المخرج.. ما أريده فقط هو خمس دقائق.

عدنا إلى القاعة المحطّمة والغرفة الخانقة، كانت الشموع المحترقة قد ملأت الغرفة بعبق الياسمين المعتق، تركت ذراعه، وقف ملتصقا بالجدار، جلست على ركبتي ومرفقي، حشرت جسدي تحت

السرير الضيق، كانت أصابعي تعرف طريقها في الظلمة،التقطت أنفاسي بصعوبة، وعندما خرجت من تحت السرير، كنت أمسك في يدي علبة من الصفيح، أزحت التراب المتراكم عليها، همهمت في راحة:

لم تقدر الفئران على قرضها لحسن الحظ.

رفعت غطاء العلبة، تناولت اللفة الموجودة فيها ومددتها نحوه، قلت:

خذها.. إنها لك.

تناول اللفافة مندهشا، تأمّل الأوراق المالية الملفوفة بواسطة رابط من المطاط، نظرت إلى وجهه في ضوء الشموع، كان متعبا وعلى وشك البكاء، قلت:

كما ترى.. هذه هي كل النقود التي جمعتها في هذه المدينة.. إنها ليست كافية لمنحي أي شيء يمكن أن أحلم به.. ولكن على الأقل يمكن أن تساعدك في مهمتك.

ظلّ يقلب بصره بيني وبين النقود، لا يصدق أنني يمكن أن أتنازل عنها بهذه السهولة، قال:

ليس ورائي أي مهمة.

ـ كلا.. وراءك مهمة خطيرة، عليك أن تنقذ روح هذه الفتاة الضائعة، اذهب بنفسك إلى القاهرة وأحضر «الباشمهندس» إلى هنا، اذهب إلى مكان عمله في كلية الهندسة، ربما لن تجده في المرة الأولى أو الثانية، ولكنك ستجده حتما، وستعود به، وستساعدك هذه النقود على ذلك.

بدت الفكرة غريبة ومفاجئة، ولكنها الفكرة المنطقية الوحيدة، ألقى بالنقود إليَّ قائلا:

إنها نقودك، لا أريدها.

ـ أعرف أنها قليلة، لكنها لم تكن كافية لإنقاذ حياتي ومنحي السعادة، ولكنها ستساهم في إنقاذ روح هذه الفتاة، خذها..أرجوك، سأستردها مرة أخرى بالتأكيد، منك أو من الباشمهندس، أو منكما معا، لا تضيع الوقت، يكفي الوقت الذي ضيعته معي.

تناولت النقود من على الأرض، دسستها في يده مرة أخرى، نظر إليَّ طويلا، رأيت دموعه وهي تتألق تحت ضوء الشموع وازداد عبق الياسمين المعتق، أطبقت أصابعه على النقود أخيرا، مددت يدي واحتضنته، ربتَ على ظهري في تأثر، أحسستُ أنني على وشك البكاء، قلت:

هيا، حان وقت خروجك من هذا الجحر المظلم.

أمسكت بالشمعدان، اجتزنا الفناء المهدم، رفعت يدي حتى يرى الفوهة المظلمة، دخلت خلفه إلى الممر المظلم، كان السير برفقة الضوء أكثر راحة، وجد طريقه بسهولة، ولم يتعثر في الحجر الناتئ، قلت:

لا أستطيع الاقتراب أكثر من ذلك، لا أريد لأحد أن يلمح النور، أو يسمع صوت حركتنا تحت الأرض، اذهب سريعا وعد أسرع.

ظللت واقفا بينما واصل هو التقدم. أزاح الأخشاب والأحجار

التي تفصله عن العالم، ورفع جسده حتى استطاع الخروج، تقدّمت خلفه وأعدت كل شيء إلى مكانه.

عدت وحيدا، أصبح المكان أكثر وحشة، كنت عاريا من كل شيء، جلست على حافة الفراش، أطفأت كل الشموع حتى لا تستهلك سريعا، ظلت رائحة الياسمين باقية، ارتفعت أصوات دبيب الفئران وبدأت تقرض شيئا ما، استلقيت على ظهري وبدأت الغمغمات المألوفة في الارتفاع، تراتيل وأصوات مزامير خافتة، تنبعث حولي من كل مكان، كأنهم قد أودعوا سرها داخل الجدران الحجرية، أصوات تتردّد في خفوت وإلحاح، تطلب رطلا كاملا من لحمي، ظلت تطنّ في أذني حتى جاءت هي، بددت الظلمة وأقبلت نحوي بوجهها الناصع. توقفت التراتيل وأصوات الفئران، جلست على حافة الفراش، فتحت بلوزتها حتى بدت رقبتها، وبدت عظمة الترقوة التي أعشق تقبيلها، مالت عليَّ وهمست لي: هل يئست؟ هل فقدت كل أمل؟

قلت: كثيرا.. كثيرا.

علي ـ نهائي طب

هل تحركت عيناها؟ هل كانت تتابعاني وأنا أبتعد عن المدينة؟

نظرتها جامدة بلا دموع، ترنو نحوي بحزن يداخله أمل غامض، يطلق القطار صفارته، ويلوح عمّ جمعة بمصباحه المنطفئ. أظلّ واقفا في النافذة معلقا بصري بها. تتحرك العجلات ويبدأ عالمي القديم في الابتعاد. بيوت وشوارع تعلوها مداخن المصنع. تشاغلت للحظات بعَدْل موضع حقيبتي فوق الرفّ، وعندما جلست على مقعدي وجدتُ أن كلّ شيء قد توارى، اختفت المدينة كأن لم توجد، وامتدت أمامي الحقول صفراء تزهو بسنابل القمح، وظل القطار يواصل الابتعاد.

أعددتُ كل شيء على عجل، ادعيت لهم في البيت أنني يجب أن أحضر بعض «الكورسات» في مستشفى القصر العيني. لم أشعر بالخجل وأنا أكذب على الجميع، ولم أعط تاريخا محددا لعودتي، كنت لا أعرف متى سأعود ولا ماذا سأفعل. أخرجت كل مدخراتي ولم تكن كثيرة، وأصر عم «محرّم» أن يعطيني بعض المال، وكذلك أصرّ جمعة، ولكني رفضت عرضيْهما، لو لا ذلك التوسل الباكي للمهرج عزّوز ما أخذت منه النقود. كان الثلاثة فقط هم من

يعرفون سر رحلتي، أو هكذا كنت أعتقد، ولا أدري إن كانت ورد قد شاركتنا في ذلك السر أو لا، كلّ مناقشاتنا كانت تدور تحت عينيها المحملقتين، من المؤكد أنها سمعت وأحست وتعرفت إليَّ، لا يمكن أن يكون هذا المسّ من الجنون من طرف واحد، لماذا ربطتُ نفسي بمصيرها؟ هل وقعت في عشقها؟ وهل من أجل هذا العشق الأحمق أذهب للبحث عن حبها الحقيقي؟

هكذا تساءلت فاتن وهي تواجهني للمرة الأولى. كانت قد حضرت للمحطة لرؤيتي لسبب لا أعلمه، وقابلت عم جمعة ولدهشتي الشديدة أخبرها بمشروع رحلتي، لم أصدق عيني وأنا أراها في انتظاري قبل ميعاد السفر، كان وجهها شاحبا ومستغربا، هتفت بي مندهشة:

هل تنوي الرحيل حقا؟

حاولت أن أقنعها أنها مجرد خدمة بسيطة، رحلة لن تستغرق سوى يومين أو ثلاثة على الأكثر، مجرد مشوار لكلية الهندسة التي يعمل حسن بها، إذا لم أجده في المرة الأولى، فسأجده حتمًا في الثانية، ومن المؤكد أنه سيعود معي، خلعت نظارتها، مسحتها في طرف «البلوزة» من دون داع،قالت:

ولكن هل تعتقد أن هذا يمكن أن يخرجها من سباتها؟ أنت واهم، أو ربما لم تذاكر كتاب «دافيدسون» جيدا، إنها ميتة إكلينيكيا.

لم أكن أملك ردًا مقنعا، كانت على حق، أو على الأقل هذا ما تذكره كتب الطب، ولكني كنت أشعر أن هناك شيئا خفيا لم تذكره السطور، لا يوجد له مصطلح تعريفي، ولا حتى تعريف إجرائي،

هناك شيء غامض وغير بشري جعل من هذا القلب الوحيد داخل جسد ورد الميت لا يكف عن الوجيب، وأخيرا نطقت فاتن بالسؤال الذي أخشاه:

هل وقعتَ في حبها؟

لماذا يصرّون على ذلك، كانت عيناها تلمعان كأنهما ممتلئتان بالدموع، لم أصدق ذلك، أحسستُ بالذنب لأنني كنت السبب. من المؤسف أن ترثي لي في الوقت الذي فقدتُ اهتمامي بها، فتحتْ حقيبتها وأخرجت منها ورقة مطوية، هل كتبت لي خطابا تعترف فيه بحبها؟ قدمتها إليَّ وهي تقول:

هذا هو هاتف ابنة خالتي، اسمها سمية يسري، إنها طالبة في رابعة هندسة، لقد تحدثت إليها، ستكون في انتظارك في فناء الكلية أمام المسلّة.

واستدارت فجأة وسارت مبتعدة، لم تقل كلمة وداع، ولم تلتف خلفها، إذا كانت غاضبة مني إلى هذه الدرجة، فلماذا حرصت على تقديم المساعدة لي؟

ظل القطار يواصل سيره الرتيب، يمرّ عبر قرى متربة، ويجتاز ترعا ضحلة، يتوقف ليواصل السير، وأنا أغفو وأستيقظ، أرى وجوه المسافرين المتعبة، وبائعي الأغراض التافهة، تتداخل كلماتهم في غفوتي كأنها صيحات تحذير، وأخيرا بدأ القطار يزحف ببطء داخلا إلى محطة باب الحديد العملاقة. كنت دائخا ومغطى بالعرق، حملت حقيبتي الصغيرة وهبطت دائخا من القطار، ومن فوري تلبّسني الشعور نفسه كلما جئت إلى هذه المدينة، خوف وتردد ورغبة في

العودة، سرت إلى خارج المحطة، إلى ضجيج المدينة وعشوائيتها، لم أجد تمثال رمسيس الحجري ـ العلامة المميزة لوصولي إلى القاهرة ـ في مكانه، بدت المدينة كأنها مكان غريب لم أره من قبل، لا وقت أضيعه في التأمل، يجب أن أسرع إلى الجامعة لعلي أظفر بشيء، هبطت إلى محطة المترو، وقبل أن أقول لقاطع التذاكر عن اتجاهي كان قد سحب الجنيه وأعطاني تذكرة صفراء صغيرة.

كانت العربة مزدحمة، هواؤها خانق، معبقة برائحة الأجساد التي يغمرها العرق، وجدت مكانا في إحدى الزوايا، بعيدا عن اللكمات الخفية لبقية الركاب. توالت المحطات، كنا نعبر المدينة التي دائما ما تزعجني، لم أكن سعيدا بوجودي فيها، ولكن المترو يحملني مباشرة إلى غايتي؛ سهم ينطلق في جوف الأرض، يحملني إلى عالم آخر هو عالم الباشمهندس حسن، ترى ما شكله؟ هل أستطيع التعرف إليه إذا رأيته؟ هبط ركاب وصعد آخرون، خفّ الزحام واختفت الوجوه المتعبة، وحلت بدلا منها وجوه نضرة وشابة، فتيات محجبات في معظمهن، وأولاد لا يكفون عن الحركة والضحك بصوت عال، تذكرت أنني منهم، لا يزيد عمري عليهم إلا بعام أو عامين، سنوات دراستي في الطب كانت أطول منهم، ومع ذلك كانت فوق كتفي هموم ثقيلة. وجدت لافتة «جامعة القاهرة» تظهر أمامي أخيرا، تنهدت في ارتياح، كانت الرحلة أسهل مما توقعت، والدرج يؤدي إلى الجزء الخلفي من أسوار الجامعة. أحسست بالراحة وأنا أسير وسط نهر الطلبة المتدفق، أحاطت بنا المباني الصفراء القديمة، شممت رائحة الغبار الخارج من مدرجاتها، أشكال عمائر بداية القرن تطل عليَّ متجهمة، عصية على التطويع، على الرغم من أمواج

الطلبة الشابة أحسستُ أن الزمن جامد داخل هذه المباني، استوقفت واحدا من الطلبة يسير مع فتاتين محجبتين، سألته عن الطريق لكلية الهندسة، قال في سخرية:

لن تخطئها.. ابحث حتى تجد المسلّة الفرعونية.. وسوف تجد الطلبة حولها متصلبين كالمسلّة تماما.. ابتسم أنت في كلية الهندسة..

تركني ومضى، ابتسمت لروح السخرية عنده، سرت وسط مساحات صغيرة من الخضرة وكثير من اللافتات واللوحات الإرشادية. توقفت أمام المسلّة الحجرية وأخذت أتأمل ما عليها من نقوش، هل كنت أبحث عن أثر لهذا المدعو حسن، أو أؤجل لحظة دخولي إلى المبنى الحجري ذي الأعمدة المنتصبة، كان الطلبة متناثرين في كل مكان، جالسين على الدرج المؤدي إلى مدخل الكلية، وعلى المقاعد الخشبية حول مساحات العشب الأخضر. كنت أريد أن أبدأ بهم، لعل واحدا منهم يدلني مباشرة على مكانه، كنت أشعر بالخجل من السؤال مباشرة عن اسم فتاة وأريد تجنب الاستعانة بها، ولم أكن أيضا أريد الدخول إلى المبنى والتعرّض لسخافات موظفي الإدارة ونظراتهم المستريبة، ستقودني المصادفة حتما إلى شيء ما، ولكن كلّ واحد من الذين سألتهم كان ينظر إليَّ في دهشة كمن يسمع الاسم لأول مرة، ويتساءل:

ماذا؟ معيد؟ في أي قسم؟ في أي تخصّص؟

لم تشعرني عدم معرفتهم المتكررة باليأس، إنها البداية فقط وعلي أن أتغلب على خجلي، أخرجت الورقة التي أعطتها لي فاتن، أعدت ترديد اسم الفتاة التي يمكن أن تساعدني. درت حول المسلة، أصبح

بقية الطلبة بعيدين عني، لم يبق إلا طالب واحد لحيته كثّة، منعزل عن الجميع ومنهمك في قراءة القرآن بصوت مسموع، ربما ليشهد الجميع على درجة إيمانه. بدا متضايقا لأنني أخرجته من استغراقه، ذكرت له اسم حسن فلوّح بيده منكرا، ولكنه انتبه حين ذكرت اسم الفتاة. كنت أعرف أن هذا النوع الملتحي هو الأشد اهتماما بأسمائهن الكاملة، كان لي زميل مثله، لحيته أطول من هذا الطالب، وكان يحفظ الأسماء الكاملة لكل البنات اللواتي معنا في السنة نفسها، أو في السنوات الأخرى، هتف من بين أسنانه:

ستكون ضحيتها بإذن الله.

لم أفهم ماذا يقصد، ظللت أحدق فيه متظاهرا بالغباء، أشار إلى الأمام بطريقة غير محددة:

اذهب إليها بقدميك، إنها هناك، إنها فتاة ملعونة.. في تلك الكلية الملعونة.

وقبل أن أعرف من يقصد على وجه التحديد انهمك في القراءة مرة أخرى، سرت إلى حيث كان يشير، وجدت الفتاة التي يقصدها، توقفت مندهشا، لم يكن يبدو عليها أنها ملعونة، جالسة على الأرض منحنية إلى الأمام، عاكفة على تقسيم صفحة كبيرة من الورق بخطوط ملونة، شعرها متهدل يخفي ملامحها، لا يبدو منها إلا أصابعها الملوثة بالألوان، تعمل بدأب، تجهز صحيفة حائط. قرأت اسمها بالمقلوب «المتمردة»، بجانبها صورة فتاة،يبدو أنها هي بذاتها، تصرخ في الجميع، حاولت أن أقرأ بقية الأعمدة المكتوبة، ولكنها رفعت رأسها نحوي، رأيت ملامحها الدقيقة وعينيها الواسعتين،

أزاحت خصلات الشعر من حول وجهها، بدت رقبتها رفيعة وطويلة بعض الشيء. نفرتيتي حية، كانت أجمل من أن تكون ملعونة بأي حال من الأحوال، سمعت صوتها وهي تقول:

الخالق الناطق.. شكري سرحان في فيلم «شباب امرأة».. من أين أحضرت هذه الحقيبة؟

توقفت الكلمات في حلقي، ظللت صامتا لفترة قبل أن أقول:

أرسلتني فاتن لتساعديني.. لا أن تسخري مني.

لوت شفتيها وهي تقول:

لا تكن بهذه الجدية.. هيا.. اترك هذه الحقيبة قليلا وساعدني حتى نعلق هذه الصحيفة.

حملت معها الصفحة الملونة، سرنا بها إلى لوحة خشبية منتصبة في مواجهة المسلّة، أخذنا نحاول تثبيت أطرافها، ظل بقية الطلبة يراقبوننا عن بعد، لم يتحرك أحد لمساعدتنا. كان وجه الفتاة المستدير الدقيق الملامح مستثارا، أمسكت أطراف الجريدة من ناحية وأخذت تثبت هي الطرف الآخر، أعطتني بعض الدبابيس التي في يدها لأثبت الطرف الذي أمسك به، ابتعدت قليلا وأخذت تتأملها، وقعت عيني على بعض من العناوين البارزة فيها، مليئة بكلمات غاضبة ضد الغلاء.. والفساد..وافتقاد الحرية، أدركت من فوري سبب خوف بقية الطلبة من مشاركتها، كانوا يعرفون أن هذه الورقة المعلقة ستثير غضب رجال الأمن المنتشرين في كل مكان، ولن ترضي من يتعاون معهم من الطلبة، لاحظت الفتاة اهتمامي، اقتربت مني قليلا وهي تقول:

هل تعجبك؟

قلت: إنها آراء جريئة وغاضبة. أودّ لو أقرؤها كلها لولا أنني ليس لديَّ الوقت، ربما بعد أن أجد الشخص الذي أبحث عنه.

أثارتها إجابتي، بدأت توجه اهتمامها لي قليلا، قالت:

حدثتني فاتن عن السبب الغريب لرحلتك، هل تعتقد أنك قادر حقا على إعادة هذه الفتاة الميّتة إلى الحياة؟

لم أعتقد قط أنها ميّتة، لو أنني وجدتُ الشخص الذي تحبه، وأخذته إليها، فربما تتغير كيمياء جسدها التي تجمّدت وتستعيد إرادة الحياة.

حدقت فيَّ باستغراب، أصبح صوتها خافتا وهو تقول:

هل أنت جادّ؟

ـ أجل، أنا أؤمن بقوة الحبّ.. رأيتُ ذلك في عديد من حالات الأمراض المستعصية، قليل من الحب يطيل العمر ويخفّف من حدّة الألم.

ظلّت تنظر إليَّ غير مصدقة، أنا نفسي لم يكن لديَّ إثبات لما أقوله، ذكرت لها الاسم الذي أبحث عنه، توقعت أن يكون معيدا شابا مثل حسن قد لفت نظرها حتى لو من بعيد، ولكنها هزّت رأسها كأنها تسمع اسمه للمرة الأولى، قالت:

معيد في أي قسم؟ هناك أحد عشر قسما في هذه الكلية، وكل واحد منها عالم قائم بذاته.

ـ لا أعرف غير أنه معيد في كلية الهندسة.

فكرت قليلا، قالت:

عليك إذن أن تذهب إلى شئون أعضاء هيئة التدريس. سيدلّك الموظفون هناك على مكانه.. عندما تحدد القسم الذي يعمل به سنذهب معا للبحث عنه، والآن دعني استمتع بهذه الصحيفة قليلا.

أصبحت لهجتها أكثر ودّا، كنت أعرف أن تعقيدات الروتين لا تجعل الموظفين يعطون أي إجابة صحيحة، لكن المعلومات التي لديَّ كانت بالغة الضآلة، مجرد اسم باهت، بلا صفة ولا هيئة ولا مركز محدد حتى إنني لم أكن أعرف شكل صورته.

دخلت إلى طرقة الكلية الممتدة، سرت فوق رخامها المشروخ، سألت الفراش حتى وصلت إلى غرفة صغيرة، تجلس فيه ثلاث موظفات، ملامحهن متشابهة، في منتصف العمر، زائدات في الوزن، يضعن حجابا له اللون نفسه، ويرتدين نظارات مقعرة، كأنهن ثلاث من التوائم، ويبدو أن تجاورهن في حيز ضيق قد شكل ملامحهن بالتجاعيد نفسها. كن منهمكات في حديث هامس بالغ الخصوصية، لا يمارسن أي عمل، نظرن إليَّ في غيظ حين دخلت الغرفة، ولكن لم يكن هناك وقت لأضيعه،قلت بسرعة:

أنا أبحث عن معيد في هذه الكلية، إنه قريبي، وأريد أن أعرف في أي قسم يعمل.. اسمه حسن الرشيدي.

ظللن صامتات برهة لدرجة أنه خيّل إليَّ أنهن لم يسمعن صوتي، وأخيرا تكلمت واحدة منهن:

هل له علاقة بمصنع الحلوى الطحينية؟

انفجرن فجأة في الضحك بصوت عال مسرسع، أحسست بوجهي وهو يحمر، كن يسخرن مني، حاولت أن أشاركهن بالابتسام، ولكن الموظفة الثانية نظرت إليَّ في ريبة وهي تقول:

كيف تقول إنه قريبك ولا تعرف في أي قسم يعمل؟

كنت أتوقع هذا السؤال، قلت:

لقد انقطعت الصلة بيننا لفترة قصيرة من الزمن، ولكن هناك الآن ضرورة عائلية تجعلني أريد أن أتصل به.

قالت الثالثة: أي ضرورة عائلية؟ زواج، طلاق، وفاة، طهور؟

حاولت أن أبتسم، ولكني لم أجب، ولكن الثانية قالت في لهجة باترة:

عموما هذه أسرار العاملين ويجب ألا نعطيها للغرباء.

قلت: أنا لا أطلب سرّا حربيا، ولا أي معلومات شخصية، كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أعرف القسم الذي يعمل به.

قالت في حزم: مهما كان الأمر.. ممنوع يا أستاذ.

حاولن العودة إلى حديثهن معا، ولكني لم أتحرك من مكاني، وجدت مقعدا بجوار مكتب السيدة الغاضبة فجلست عليه، رمقتني شزرا وهي تقول:

قلت لك: ممنوع، وهذا يشمل وجودك هنا أيضا.

ـ لقد جئت من مدينة بعيدة، ولن أعود لمجرد أن تقال لي كلمة ممنوع من دون سبب.

قالت مهددة: سأحضر لك حرس الجامعة.

قلت: لم أفعل ما يستوجب ذلك، وأعتقد أنني لم أعطلكن عن أداء أي عمل.

نظرت الواحدة إلى الأخرى وتنهدن، كان وجودي يعطل حديثهن الخاص، نهضت واحدة منهن، ألقت عليَّ نظرة قاسية حتى أفهم أنها ستفعل ذلك فقط لتتخلّص مني. تناولت أحد السجلات، وبدأت تقلب في صفحاته، فعلت ذلك بعين متفحصة، وفي كل مرة كنت أعتقد أنها ستخبرني بمكانه ولكنها نظرت إليَّ بتشكك أكثر ثم قالت:

هل أنت متأكد من الاسم؟

كَرّرت لها الاسم مجددا ومؤكدا، قالت: لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم.

نهضت الموظفتان الأخريان، انضمتا إليها واشتركتا في البحث، توقفن عند بعض الصفحات، تبادلن تعليقات خاطفة عن بقية الأسماء، كن يعرفن أسماء جميع من في السجل، يحفظن معظم البيانات، ويتبادلن كلمات عن حياتهن الخاصة، رفعن رءوسهن وقلن في صوت واحد:

الاسم غير موجود.

نظرت إليهن وأنا مفاجأ وغير مصدق، أدارت السيدة الملف ناحيتي، تركتني أقلّب صفحاته، جلسن وعدن إلى التهامس. في بداية

السجل كان هناك كشف مطول يضم كل أسماء أعضاء هيئة التدريس في الكلية، بالصفة والقسم والتخصّص، أما البقية فكانت صفحة خاصة بكل عضو، بها صورته وتحتها كل المعلومات المتصلة به، قلبت فيها سريعا، لم أكن أعرف شكله، ولكني لم أجد اسمه في أي مكان، ولا حتى اسم شبيه باسمه، هل هناك خطأ؟ هل كان يكذب على الجميع في مدينتنا؟ هل عاش طوال هذه السنوات وهو يخادع ورد وأصدقاءه الثلاثة؟

أغلقت الملف وأنا محبط، انسحبت متثاقلا من الغرفة، سرت طويلا في الممر، خيل لي أنني قد ضللتُ طريقي إلى الباب، انتهت مهمتي قبل أن تبدأ، وضعني هذا الكاذب في طريق مسدود، كل ما استطعت أن أفكر فيه هو أن أحمل حقيبتي الصغيرة وألحق بالقطار الأخير، أعيد إلى المهرج نقوده وأن أنتظر بجانب ورد حتى تتحلل وتموت. خرجت من المبنى المعتم لضوء الشمس، كانت سمية مازالت جالسة على المقعد الخشبي في مواجهة صحيفتها المعلقة، تراقب بعضا من الطلبة الذين اكتسبوا بعضا من الشجاعة ووقفوا يقرؤونها، جلست متعبا بجانبها، كان صدري ثقيلا، كأنه لا توجد في الجو ذرة هواء، التفتت متسائلة:

هل عثرت على القسم الذي يعمل به؟

كانت تنظر إليَّ باهتمام، فقلت:

لم أعثر على أي شيء، قالوا لي إنه لا يعمل في الكلية أصلا.. لا وجود لاسمه في السجلات.

نظرت إليَّ مستغربة وهي تقول:

أنا لا أفهم، هل أنت متأكد أنه قال لك إنه كان يعمل في هذه الكلية؟

ـ لم أعد متأكدا من شيء.

أشارت إلى الصحيفة المعلّقة:

أستطيع أن أنشر لك إعلانا في هذه الصحيفة.. لعله يقرؤها ويدلنا على مكانه.

كان عدد الطلبة الذين يلتفّون حول صحيفتها في تزايد، يشيرون إلى مقاطع منها جديرة بالاهتمام، أشعرها هذا بنوع من الزهو والثقة بالنفس، ظلت صامتة لفترة، لم يكن في يدها ما تقدمه لي، ولم يكن هناك ما يمكن أن أفعله في هذه المدينة، حملت حقيبتي المثيرة للسخرية ونهضت واقفا، تطلعت إليَّ متسائلة:

هكذا تستسلم من أول ضربة، تسرع بالانسحاب والهرب، هل طلبة الطب جميعهم مثلك؟

كانت سخريتها فوق احتمالي، ولكنها كانت على حقّ، عاودت الجلوس بجانبها، ظلت تراقب الطلبة في شرود،ولم أدر لماذا أصرت على إبقائي، هل تريد أن تؤكد فشل مهمتي؟ قالت فجأة:

ما علاقتك بابنة خالتي فاتن؟

ـ مجرّد زميلة؟

ـ مجرّد.. لقد كانت شديدة الاهتمام بك؟

ـ لم تشعرني بذلك قط.

لم أعرف لماذا هذا الحوار، ولا إلى أين يؤدي، قالت:

لقد أوصتني أن أقدم لك كلّ ما أستطيع من مساعدة، لا أدري لماذا ألحت عليَّ إذا كانت العلاقة بينكما فاترة إلى هذا الحد؟ عموما هناك فرصة أخيرة، أمل أخير كما يقولون، أعرف أستاذا في هذه الكلية... كان مشرفا على الشئون الإدارية قبل أن يصاب بالملل منها، سأذهب إليه لعله يعرف شيئا عن هذا المدعو حسن.

نهضتْ واقفة، أشارت إليَّ محذرة وهي تحرك أصابعها في الهواء:

خذ بالك من الصحيفة.

وانصرفت وهي تتقافز، كانت منتشية بنجاح صحيفتها، اختفت داخل باب الكلية، تزايد عدد الطلبة الذين يتجمّعون حول الصحيفة، حتى الطالب الملتحي، أغلق المصحف وتقدم بضع خطوات، بدأ يقرأ فيها وهو يعبث في لحيته. ظللت جالسا أراقب الجميع، كنت أدرك أن جلستي بلا فائدة، رحلتي كلها قد أصبحت بلا فائدة، ولكن سمية عادت سريعا، تقافزت حتى جلست على المقعد بجانبي، تبدو حائرة ومرتبكة، حاولت أن تداري ذلك بالنظر إلى الصحيفة وهي تقول:

كنت أعرف أنهم لن يقاوموا فضولهم ليروا ماذا أقول.

قلت في نفاد صبر: هل عرفت شيئا؟

قالت في غموض:

عرفت ولم أعرف، أنت صادق في نصف روايتك على الأقل.. هناك بالفعل معيد يدعى حسن الرشيدي، ولكنه لم يعد كذلك، تم

رفده من الكلية منذ حوالي عامين.. ربما أكثر أو أقل.. أين ذهب بالضبط؟ لا أحد يعرف.

كأنني كنت في حاجة إلى صدمة أخرى، قلت مندهشا: لماذا تم رفده؟ أي خطا ارتكب؟

ـ تعددت الأسباب والرفد واحد.. ربما سياسة.. تحرش جنسي.. تلاعب في الامتحانات.. لم يعد هناك سبب يثير الدهشة، في كل يوم يُرفد أناس لسبب غير معروف، ويختفي آخرون لأمور غامضة.

عدنا إلى نقطة البداية، فقدت أثره، اختفى في مدينة واسعة ومزدحمة؛ مدينة لا يستطيع المرء فيها أن يعثر على نفسه، كان عليَّ أن أنتظر حتى يشعر حسن بحاجته إلى العودة وحده إلى البلدة، شخص غريب حقا، يدفع داخلي بعديد من العواطف المتناقضة. في لحظة أعتقد أنه مجرد وغد كذب على فتاة بسيطة، وفي اللحظة التالية أجده ضحية لظروف لا أعرفها، ربما لم يكن يكذب عليها، كان فقط يحجب عنها قسوة الحقيقة، قلت لها في امتنان وأنا أستعد للانصراف:

لا أدري كيف أشكرك، أعتقد أن هذه هي النهاية.

ـ لا تكن حزينا إلى هذا الحد، مادمت تحتاجه إلى هذه الدرجة فستجده حتما.

ـ ربما.. ولكن بعد فوات الأوان.

مددتُ يدي مصافحا، ولكنها لم تكن تنظر إليَّ، كان هناك جمع من الرجال قادمين نحونا، يرتدون السواد، ويبدون متحفزين

وغاضبين، عددهم ستة، لا يرتدون ملابس الحرس، أزاحوا الطلبة الواقفين في طريقهم، اتجهوا مباشرة نحو اللوحة المعلق عليها الصحيفة، تابعتهم سمية بعينيها، وقبل أن تعترض أو تنطق بحرف كانوا قد انقضوا على الصحيفة المعلقة، نزعوها من مكانها. جرت وهي تحاول أن تقف بينهم وبين الصحيفة، كان جسدها ضئيلا في مواجهة أجسادهم المتحفزة، صاحت فيهم:

لا حقّ لكم في ذلك.

تقدم أحدهم، كان يلبس نظارة سوداء ويبدو أنه قائدهم، دفعها حتى أوشكت أن تسقط على الأرض ولكنها تمالكت نفسها، أشار إليها مهددا:

الأفضل أن تبتعدي، وإلا قبضت عليك بتهمة الشغب وتعطيل عمل السلطات.

صرخت بصوت عال: أنتم وحوش.. لا تعترفون بحرية الرأي.

ـ يكفي أننا تركناك تكتبين ما تريدين.

مزق بقية الرجال الصحيفة في نهم، حولوها إلى قطع مفتتة وألقوها على العشب، أوشكت سمية أن تقفز عليهم مرة أخرى، ولكني أمسكت بذراعها، كنت قد رأيت هذا المشهد من قبل، الصراع الدائم بيننا وبين قوى الأمن المتنكرة والمسيطرة على كلّ شيء، الفارق هنا أنهم كانوا أقل عنفا؛ ربما لأنها فتاة وحيدة. فوجئت بها وهي تبكي، في لحظة واحدة انهارت الفتاة المرحة التي كنت أعتقد أنها قوية الشخصية، سارت على العشب، أخذت تجمع القصاصات المتناثرة كأنها تريد أن تعيدها

إلى الحياة، كانت مزقا أصغر من أن تستطيع التقاطها، ظللت ممسكا بذراعها، حتى أجلستها على المقعد، قلت لها:

لا فائدة من مقاومتهم، إنهم دائما الأقوى.

ـ لقد ضيّعوا مجهودي، وقضوا على رأيي.

ـ لقد قرأها كثيرون بالفعل، شاهدتهم وهم يتجمعون حولها، حتى هذا الشاب الملتحي، انتهز فرصة ابتعادك عن المكان، وترك قراءة المصحف ووقف يقرأ صحيفتك، لقد وصلت رسالتك على أي حال، إنهم أغبياء ويأتون دائما متأخرين.

مسحت دموعها وأزاحت خصلات شعرها إلى الوراء، تركت القصاصات تتطاير من يدها، قالت:

أنت حقا رقيق القلب، لا عجب أنك جئت إلى هنا من أجل مهمة مستحيلة.

تأخّر الوقت، سرت في المكان برودة المساء، وجفت دموعها، يجب أن أسرع لألحق بأي وسيلة مواصلات تعيدني إلى مدينتي، أصبح المكان خاليا من الطلبة، ولم يبق إلا بضعة من رجال الأمن يحومون حولنا، نهضتُ واقفا، صافحتها للمرة الثانية وأنا أقول:

ربما لن نلتقي بعد ذلك.. الليلة سأعود إلى مدينتي.

صافحتني وهي تقول:

من يدري؟ لم يحن وقت افتراقنا بعد.. حان وقت انصرافي أيضا، لا أريد أن أبقى بعد ذلك حتى لا يتحرّش بي رجال الأمن.

سرنا معا عبر طرقات الجامعة التي بدأت تخلو إلا من بعض العشاق، وعديد من رجال الأمن. خرجنا من البوابة الرئيسة، رأيت بعضا من الرجال الذين هاجمونا منذ لحظات، نظروا نحونا في حنق واضح، أخفضت بصري، وتمنيت ألا تحاول سمية أن تستثيرهم. اجتزنا خطّ نارهم من دون حوادث، تنفست في ارتياح، كان الهواء في الخارج أكثر نقاء، لوحت لي بيدها وسارت مبتعدة، لم تتجه إلى الطريق نفسه الذي أسلكه إلى المترو، سارت إلى الاتجاه الآخر، تمهلت قليلا، تركت بعض السيارات المسرعة تمر، تقافزت على الأسفلت عابرة الطريق، اتجهت إلى سيارة سوداء فخمة كانت في انتظارها، هل هي بهذا الثراء؟ أفعلت كلّ هذا لأنها فقط متمردة على طبقتها.. أم فعلت ذلك من باب الرفاهية؟ كانت تبدو مثل فتاة عادية، بسيطة ومتواضعة وخدومة، شكلها لا يتناسب مع هذه العربة الفخمة.

توقفت أكثر مما ينبغي، أسرعت إلى المترو، ظلت العربة تهتز بي وأنا لا أكف عن التفكير فيها، ولكن عندما وصلت إلى محطة السكة الحديدية بدأت أفكر في ورد نصف الميتة، آسف.. فشلت في المهمة التي قمت بها من أجلها. غادر آخر القطارات، وليس أمامي إلا الذهاب إلى موقف سيارات الأجرة، لم أكن أريد أن أتعجل العودة، ولكن ماذا أفعل وقد سدّت في وجهي كل الطرق؟ ركبت السيارة التي كان عليها الدور في القيام، كانت خالية، كنت الراكب الوحيد وعليَّ أن انتظر ليكتمل العدد، ووقف السائق يصيح، يستحث جميع العابرين على الركوب معه. لا أدري كم طال عليَّ الوقت وأنا أنتظر. شعرت بالبرد والوحدة، هل تعجلت في العودة؟ هل بقي شيء لم أفعله؟ ربما لو سألت وتقصّيت، لو تحريت السبب الذي أخرجه من

الجامعة، لا بد أن هناك أصدقاء أستطيع الوصول إليهم، بعض الذين كانوا يعملون معه، ربما عليَّ أن أعود إلى الكلية وأعاود السؤال بدقة أكثر، البحث خلف كل التفاصيل حتى لو كانت صغيرة، لماذا رضيت بالهزيمة بعد جولة واحدة قصيرة وسريعة؟ فجأة ورد في خاطري اسم كالبرق، حمودة الضبع، الاسم الذي ذكره لي المخبر محروس، الذي يعمل متخفيا في الكلية، لا بد أنه يعرف أكثر من الجميع، لماذا تم رفده؟ وربما مازال يتابعه حتى هذه اللحظة، يا لي من غبي قليل الخبرة، لماذا كنت متعجلا للعودة إلى هذا الحد المخزي؟

سمعت صوت باب السيارة وهو يفتح، كان السائق يدفع براكب آخر للدخول وهو يهتف: «هانت».. ولكني كنت قد اتخذت قراري، فتحت باب السيارة وهبطت منها، صاح بي السائق في فزع:

أين تذهب يا أستاذ.. إحنا ما صدقنا لقينا زبائن؟!

لم أرد عليه، أعطيته ظهري وغادرت موقف السيارات مسرعا، كان الهواء باردا، مشبعا برائحة الوقود والزيوت المحترقة، تقافزت فوق الأرض، مرقت بخفة بين الزحام، هرعت إلى قلب المدينة، إلى شارع البغايا والفنادق الرخيصة.

لم أجد غرفة بسرير مفرد، لم تكن هناك أماكن خالية إلا في الغرف ذات الأسرّة الثلاثة، عليَّ أن أتشارك فيها مع اثنين من الغرباء، لم أدر حجم المشكلة إلا بعد أن طفت على كل الفنادق في الشارع المشبوه، وكانت بقية الفنادق فوق طاقتي المادية، أصبحت الرحلة مفتوحة فجأة، ولا أدري عدد الأيام التي تنتظرني في هذه المدينة. قال لي صاحب الفندق الأخير مشجعا:

لا يوجد في غرفتك إلا زبون واحد، سيغادر فراشه سريعا قبل أن يأتي الليل، وربما لا يأتي الثالث.

حملت حقيبتي وسرت إلى الغرفة، كان الزبون نائما بالفعل، طويل القامة، لا يسعه الفراش، ساقاه ممددتان خارج السرير، لا بد أنه كان متعبا لأنه لم يشعر بي، على الرغم من أنني قد فتحت الباب وأضأت نور الغرفة واستخدمت الحمام. كان يوما متعبا بحق، كنت جائعا ومجهدا، في حاجة إلى بعض من الراحة، استلقيت على الفراش وحاولت إغماض عيني، لم أسمع صوتا يصدر عن الرجل الآخر، لم أر أي حركة لقدميه الممددتين في الهواء، تجمعت كل صور اليوم الفائت وتبددت سريعا.. غرقت في ظلمة الإنهاك.

استيقظت مفزوعا، سمعت صوت حركة بالقرب مني، هل استيقظ الرجل الطويل؟ هل جاء زبون آخر؟ نهضت من الفراش وبرغم العتمة رأيت امرأة متوسطة العمر جالسة على السرير الآخر في مواجهتي، كانت ضخمة الحجم، ثوبها منحسر إلى الوراء، يكشف عن ركبتيها وعن جزء من فخذيها، قالت في صوت خافت:

هل أيقظتك من النوم؟ لم يكن نومك مريحا على أي حال.. لقد راقبتك وأنت تتقلّب كثيرا.

تراجعت في الفراش حتى التصقت بالحائط، جذبت الغطاء على صدري، تعرت قدمي، لمحت بطرف عيني الرجل الآخر مازال نائما، وساقيه معلقتين في الفراغ، ولكن الرعب كان مازال يتملكني، هتفت:

من أنت؟ ومن سمح لك بالدخول إلى هنا؟

قالت في هدوء:

دخلت لأن نيتي حسنة يا عيني، أنت غريب وواضح من طريقة نومك أنك تعبان، مكبوت، في حاجة إلى من يجعلك ترتاح، هكذا حال الغرباء في كل مكان.

كيف لم يستيقظ هذا الرجل؟ لماذا لا يتدخل وينقذني من هذه المرأة التي تحاصرني؟ كان ريقي جافا، وأنا عاجز عن الحركة أو الهرب، قالت:

اسمي ملك، ما اسمك؟

أخيرا وجدت صوتي، قلت لها: أنا لا أريد.

ابتسمت وهي تقول: ليس هذا اسمك بالتأكيد، الذي لا يريد يعني أنه لا يعرف، والذي لا يعرف لا بد أن يتعلم، وهذه فرصتك.

توسلت إليها: أرجوك يا سيدتي.

قالت بصوت مبحوح: يعجبني أنك مؤدب، فلنؤجل الحديث في السعر إلى ما بعد الانتهاء، سأتركك تفعل بي ما تشاء، وتأخذ من جسدي ما تريد.

وضعت يدها على ركبتي وضغطت عليها، استدرت إليها وتأملت وجهها للمرة الأولى، كانت عيناها تلمعان بشدة كأنهما ممتلئتان بالدموع، وعلى شفتيها طلاء أحمر اللون؛ أحمر فاقع، ووجهها مليء بندوب صغيرة، لم تكن تضع أي مساحيق حتى تخفيها، قلت:

أنا متعب، قضيت يوما صعبا، لا رغبة لي في عمل أي شيء.

ـ أنت لم تعرف شيئا عن التعب بعد، أنت مازلت صغيرا، لأجلك. سأقوم أنا بكل العمل.

نظرتُ حولي محاولا لا أن ينقذني أحد، أصدر السرير الآخر صريرا، رأيت شبح الرجل الذي كان راقدا طوال هذه الفترة وهو ينهض، كأنه يبعث من جديد، يملأ صدره بالهواء في صوت عال كأنه يلتقط أنفاسه الأولى. لم تتحرك المرأة من مكانها، توقّفت فقط عن الكلام ولكنها ظلت قابضة على ركبتي، وقف الرجل بطوله الفارع وجسده النحيف، أخذ يتمطى ويفرد عضلاته، فرد ذراعيه في الهواء وأخذ يلوي خصره في كل اتجاه، توقف وألقى علينا نظرة فارغة، بدا كأنه لا يرانا، يلمح ظلالنا ولكنه لا يدري ماذا يحدث،صحت به مستغيثا ولكن بصوت خافت:

أرجوك.. ياسيد.

لم أرد أن أبدو مثل طفل، ولكن هزّ الرجل كتفه من دون أن يرد، سار بضع خطوات، لم يتجه نحونا أو إلى الحمام، ولكنه حرك مقبض باب الغرفة وخرج مسرعا وأغلق الباب خلفه، تنهدت المرأة وعادت تنظر إليَّ، رأيت النظرة اللامعة في عينيها، لم تكن وقحة، وكان في صوتها رنة انكسار،قالت:

ربّما ليست لك الخبرة الكافية، أنا أحب هذا النوع من الزبائن الذين يكتسبون الخبرة على جسدي.

ربما كان رفضي ومقاومتي لها جارحيْن، قلت:

اسمعي، لقد جئت إلى هذه المدينة في مهمة حساسة، لا تحتمل

الأخطاء، لا أريد أن أفعل شيئا، أو أرتكب خطأ يغلق الأبواب في وجهي.

نهضتْ ووقفتْ في مواجهتي كانت أضخم مني، قالت بصوت حادّ:

إذا لم تكن راغبا، فلماذا جئت إلى هذا الفندق إذن؟ أنا أعطيك الفرصة لتكون رجلا، كيف يجرؤ غلام يسيل لعابه مثلك على إهانتي؟

اقتربت مني، كانت قد بدأت تخيفني، مددت أصابعي بسرعة تحت الوسادة، التقطت ورقة مالية لا أدري مقدارها، قدمتها إليها وأنا أرتعد، انتزعتها من يدي في تبرم:

أنت لا تعرف ماذا تخسر.

سارت بحجمها الضخم، خرجت من الغرفة أخيرا وهي تردد كلمات السباب، بقي شيء من عطرها ورائحة عرقها؛ رائحة مخيفة أيضا، ظللت جامدا في الفراش وأنا أرتعد، لم أجد بدا من النهوض وارتداء ملابسي من دون أن أدري إلى أين أذهب، لم أكن أريد أن أبقى في هذا الجحر الضيق أكثر من ذلك، وأخشى أن تعاود المرأة الهجوم عليَّ من جديد.

خرجت من الغرفة في حذر، هبطت الدرج الخشبي وأنا أتلفّت، أخشى أن أصطدم بها في أي لحظة، نظر إلى صاحب الفندق ممتعضا، من المؤكد أنه كان متواطئا معها، كان البهو مزدحما بعدد من الناس، رأيت الرجل الطويل القامة، شريكي السابق في الغرفة، جالسا في

أحد الأركان، أمامه كوب ساخن من الشاي وهو يدخن في استغراق. تبينت ملامح وجهه أخيرا، كان جلده المائل إلى السمرة مشدودا، كأنه ركب على جمجمة أكبر من قياسه؛ الأمر الذي جعل ملامح الوجه تبدو بارزة وضخمة فوق العادة، وأذنيه مقوستين ومائلتين إلى الأمام، وأنفا ضخما، وفما واسعا غليظ الشفتين، وبرغم ذلك لم يكن وجهه منفّرا. هذا الشرود الذي ينفث به دخان سيجارته يعطيه نوعا من التفرد، تحيط به الأدخنة كأنه لا ينتمي إلى هذا المكان، يجلس بالقرب منه بعض التجار لابسي الجلاليب، وبعض الأفندية يرتدون ثيابا بالغة القدم، لم أعرف ماذا يرتدي هو بالضبط ولكنه كان مختلفا، جلست بجانبه،وجدت نفسي أندفع متحدثا إليه:

لماذا تركتني؟ لقد رأيت هذه المرأة وهي تحاصرني.

التفت نحوي وأعطاني ابتسامة شاحبة،قال:

حسبت أنك ستشكرني، أخليت لك المكان لتأخذ راحتك، لم أتصور أنك ستنتهي هكذا سريعا.

احمرّ وجهي وأنا أقول:

لم أفعل معها شيئا، لا أريد أن ألوّث نفسي، مجرد وجودها في الغرفة أصابني برعب شديد.

ضحك بصوت خافت وهو يقول:

كان عليك أن تتماسك، لو أنك قهرت جسدها الضخم لاستطعت أن تقهر هذه المدينة الواسعة.

شاركته الضحك، فرغ من شرب كوب الشاي وأطفأ بقية السيجارة، قال:

من الخطر أن تبيت في أمثال هذه الفنادق وبخاصة في أثناء الليل.

ـ وأنت؟

ـ أنا لا أقيم هنا ليلا.. أؤجر الغرفة في النهار فقط، وأترك الليل لأمثالك من الغرباء.

ـ أنت تعمل في الليل.

ـ لا أعمل في الليل ولا في النهار، أنا شاعر، جئت من الصعيد.. من الجنوب البعيد.. لا أحبّ هذه المدينة إلا ليلا لأنها تصبح ملكي أنا وأصدقائي من الشواذ والسفلة والذين بلا مأوى والخارجين على القانون.. كما أن هذا لا يكلفني سوى نصف إيجار الغرفة فقط.

كان شخصا مثيرا للاهتمام، لا يمكن أن أقابله إلا في مثل هذا المكان الغريب، تمنيت أن يواصل الكلام ولكنه تشاغل بإشعال سيجارة أخرى، قلت:

لقد قضيت يوما واحدا في هذه المدينة ولكنها أرهقتني كثيرا.

ـ يبدو من هيئتك أنك جئت إلى هنا في مهمة غير عادية.. كأنك تسير على الحد الفاصل بين الحياة والموت.

نظرت إليه فاغر الفم، قلت: كيف عرفت كل هذا؟

قال ببساطة: وجهك يبدو مثل كتاب مفتوح، المشكلة أنك مصاب بالذعر من هذه المدينة، ولن تستطيع أن تجد ما تبحث عنه وأنت مذعور هكذا.

حدقت فيه صامتا، عاجزا عن الكلام، لم يكن يبدو متنبئا، ولا

قارئا للغيب، يتحدث بألفة وبساطة، لاحظ دهشتي، ربت على ظهري وهو ينهض واقفا:

هذه هي الصدمة الأولى التي تحدث لكل قادم جديد.. تغلب عليها، إن كنت لا تريد أن تضاجع نساءها فلا بأس، ولكن عليك أن تشرب شرابها وتأكل من طعامها، بعد ذلك تستطيع أن تدرك إيقاعها. هيا انهض.. علينا أن نبحث عن مكان نتناول فيه العشاء.

سرنا في شارع ضيق مزدحم، رأيت المرأة الضخمة واقفة بجانب أحد الأعمدة الحجرية، منشغلة بالحديث مع امرأة أخرى، شعرت بالرعب فأسرعت الخطى، داريت نفسي في ظل الشاعر الطويل القامة، تبدو المدينة مختلفة وأنا بجواره، جلسنا في مطعم قريب، كانت «سلطة الخضار» حامضة كما هي العادة، وقبل أن يأتي الطبق الرئيس بدأت أقص عليه سبب قدومي، استمع إليَّ في انتباه وهو يقطع الخبز ويغمّسه في الفول بالزيت، يأكل في لقيمات صغيرة لا تتناسب مع فمه الواسع، يمضغها جيدا، كأنه يريد أن يستبقى الطعام في فمه لأطول مدة. لم يسخر من حكايتي، لم يستغرب أيّا من وقائعها، ظل يحدق فيَّ وهو يواصل المضغ، كان طبقي على حاله، لم أستطع الأكل والكلمات تتدفق من فمي، توقفت صامتا، ترقبته وهو يواصل تناول الطعام، قال بعد فترة:

من الجيد أنك تراجعت وهبطت من سيارة الأجرة، إنها حقا مدينة شاسعة ومزدحمة ولكن لا أحد يضيع فيها، كلّ واحد يترك أثرا ما، ضئيلا ولكنه موجود. لقد كان هذا الرجل في مدينتكم منذ

أيام قلائل، وهذا يعني أنه ليس في أعماق السجون، لو أنك تتخلّى عن ذعرك قليلا فسوف تجده.

كان واثقا ومتأكدا، قال هذا ببساطة وهو يزدرد اللقمة وراء الأخرى، قلت له مستغربا:

هل تؤمن بحكايتي حقا.. تلك الفتاة نصف الميتة وذلك البعث الذي أسعى من خلفه؟

ـ أنا مثل زرقاء اليمامة، أرى ما لم يره أحد.. ستجد هذا ال حسن، ستعود به وستعيد إليها الحياة.. لا أدري بأي صورة ولا على أي نحو ولكني أرى ذلك.

تتلاعب أصابعه ببقايا فتات الخبز في استغراق، ويكتسي صوته طابعا مثيرا للرهبة، كأنه قادم من زمن آخر، وحين رفع رأسه نحوي رأيت عينيه تلمعان كأنه يرى أشياء لا أراها، سمعت صوته وهو يقول:

مثلما أرى الآن لحظة موتي.

كنت خائفا وتمنيت أن يتوقف عن الكلام بهذه الطريقة، ولكنه استمر يحدق فيَّ بعينيه المتوهجتين:

هل ترى ملامح وجهي؟ أليست غريبة؟ دقق فيها قليلا، وجوه مثل وجهي محفورة على واجهة المعابد والأعمدة الحجرية، لم أكتشف أنا ذلك، اكتشفه صديق لي يعمل مخرجا لأفلام السينما، كان يحضّر فيلما عن «أخناتون»، وهو كما تعرف نبي فرعوني من نوع مختلف، كنت أحمل ملامحه من دون أن أدري، ورأى صديقي المخرج أنني البطل الذي يبحث عنه، قرأنا معا ترانيم أخناتون،

وانتقلنا إلى كتاب الموتى وبرديات البعث والخلود، هو الذي تبيّن أيضا قدرتي على رؤية كل شيء قبل أن يحدث، وعندما زرته وهو على فراش المرض، كنت أعرف أن هذه هي المرة الأخيرة، سوف يموت ولن يتم الفيلم، ولابد أنه رأى ذلك في عيني؛ لأنه جذبني إليه وقبّلني في شفتي، من لحظتها وقد رأيت أنا أيضا لحظة موتي.

أزحت الطبق من أمامي، لم أعد قادرا على الأكل، ظلّ بصري معلقا بوجهه، بعد برهة خف التوهج المنبعث من عينيه، بلعت ريقي وقلت:

غدا سأذهب إلى كلية الهندسة، وأبدأ البحث من جديد.

ـ أنت حتى نسيت أسماء الأيام.. غدا هو الجمعة.

تخلّى عن بؤسه، ضحك في انشراح وهو يرى علامات الذهول على وجهي، أشار لي أن ننهض ونسير معا، خرجنا من المطعم وغصنا في ظلمة المدينة،لا أعرف إلى أين يقودني ولكني تبعته، صعدنا إلى دروب الجبل وسط الصخور الوعرة حيث تنتظم حلقات الذكر، ويتطوّح الجميع من شدة الوجد والهيام. تسللنا إلى الحانات المنزوية داخل الأزقة، كانت مزدحمة بوجوه النسوة المدهونة وجلود الرجال المدبوغة، كلهم يتطوّحون من أثر الخمر الرخيصة، نتطوح مثلهم في الطرقات، ننضم إلى جموع الساهرين الذين مسهم سحر الليل، أخذت أحدثه عن ورد أكثر وأكثر، استمع إليَّ في صبر، لا أدري لماذا أريد أن أستحضرها لتكون برفقتنا ونحن نجوس في هذه الطرقات المظلمة؟ كنت شاعرا بالأسى لأنني ضيّعت من عمرها الجامد أياما ثمينة، يمكن أن تتحلل فيها خلاياها، وتتبدد فيها البقية الباقية من روحها.

لا أدري كيف مرت ساعات اليومين التاليين، تجولت على غير هدى بعض الوقت، وحاولت الاتصال بـ«سمية» من هاتف الفندق من دون ردّ، وظللت في غرفتي منكمشا فوق سريري معظم الوقت، شاهدت أكثر من زبون يأتي ويرحل، لم أر الشاعر مرة أخرى، لا بد أنه اندس في مكان خال في غرف أخرى. لم أصدّق أن صباح الأحد قد جاء أخيرا، أخليت الغرفة وتركت حقيبتي في أمانات الفندق، ركبت «المترو» مبكرا إلى الجامعة، لم يكن هناك عديد من الطلبة، ولكني كنت أعرف طريقي؛ أعرف المكان الذي جاء منه الرجال الذين مزّقوا صحيفة الحائط، لم يعترضني أحد وأنا أدخل المبنى المنزوي الذي يحتله أمن الجامعة. لا يدخل أحد هذا المكان بإرادته إلا إذا كان يريد الوشاية بزملائه، كان مليئا بالممرات المتداخلة، أرضيته مكسوة بطبقة من «الفلّين» الذي لا يصدر صوتا، وعلى الجدران كلمات غامضة مكتوبة بخط رديء، سألت أحد الذين يمرون بي مسرعين عن «حمودة الضبع»، أشار إلى غرفة في آخر الممرات، لم أجد فيها إلا رجلا بالغ الشحوب، هيئته أقرب إلى المتهمين، رمقني بنظرة متفحصة، وعندما سألته عن حمودة الضبع، تحركت يده بطريقة آلية، تناول دفترا بجانبه، ورفع غطاء أحد الأقلام وهو يقول:

هل تريد أن تبلغه بشيء؟

هتفت في سرعة كأنني أنفي التهمة عن نفسي: كلا.. أنا فقط واحد من أقاربه.

الكذبة البيضاء نفسها التي أجد نفسي مرغما على قولها، بدت عليه خيبة الأمل، أغلق الكراسة وألقاها على جنب ورمى القلم وهو يقول:

إنه ليس موجودا هنا.. في الشغل.

ـ أليس هذا هو الشغل؟

ـ هنا فقط المكتب، عمله هناك في فناء الجامعة، وسط البراغيث.. هؤلاء السفلة الذين لا يكفون عن التقافز وإثارة المتاعب.

قلت في حيرة: وكيف أجده؟

قال: ألا تقول إنه قريبك؟ اذهب واعثر عليه.

تنفست الصعداء وأنا أغادر الممرات المعتمة، كنت محتارا كيف أتعرف إليه؟ سألت أحد رجال الحرس، لم يكن يعرف الاسم، تفحّصت الجموع التي بدأ المكان يمتلئ بها، تجنّبت الطلبة وبحثت في وجوه الأشخاص الناضجين، درت حول المسلّة، سألت أكثر من واحد من كبار السن، لعله كان موظفا، كان الاسم منفرا في حد ذاته، كيف يمكن أن أرصد من يرصدون الطلبة؟

لمحت «سميّة» من بعيد، كانت تحمل كتبها وتستعد لدخول باب الكلية، هتفت باسمها، التفتت نحوي وعلى وجهها ظل ابتسامة شاحبة، من الجيد أنها تذكرتني، هبطت درجتين وهي تقول لي:

ما الذي جعلك تعود إلى هنا؟ هل كنت تقف في انتظاري؟

ـ إنها المصادفة، وربما القدر.

ـ أفضل القدر، بدأت أضيق بما تفعله فينا المصادفات.. هيا.. أخبرني إن كان ثمة جديد.

استمعت إليَّ باهتمام وأنا أحدثها عن «حمودة الضبع»، اسم

المخبر الذي كان راقدا في ركن ذاكرتي من دون أن أدري، وكيف جعل هذا أمل العثور على حسن يستيقظ في داخلي من جديد، قالت:

أنا فقط أعرف وجوههم، لم أعتقد أنهم يحملون أسماء مختلفة، لقد هاجموا المجلات التي أعلقها، وهاجموا تجمعات الطلبة أكثر من مرة، ولكن كان لهم دائما الوجه نفسه..اسمع.. حاول أن تتذكر وجوه الذين هاجمونا، وبالتأكيد ستجده واحدا منهم.

أومأت برأسها إلى أريكة مختفية خلف جذوع أحد الأشجار، قالت:

انظر جيدا، ربما كان هذا أحدهم، لا تلتفت سريعا، واصل الكلام معي، سأستدير ببطء حتى تصبح في مواجهته.

تحركت ببطء وأنا أدور معها حتى استطعت أن أراه، كان هناك بالفعل واحد منهم، جالسا فوق مقعد خشبي يتظاهر بقراءة الجريدة، ومن المؤكد أنه كان يتابعنا بنظرات خفية، قلت حائرا:

ولكن ما أدراني أنه الرجل نفسه الذي أريده!

ـ قلت لك إنهم جميعا متشابهون، إذا أحسنت الكذب فسيرشدك إلى الرجل الآخر. اسمع، لقد أصبحت الآن مشبوها في نظرهم لمجرد أنك تتحدث معي؛ لذلك سأتركك.. عندي محاضرة إنشاءات مملّة، ولكن عدني أن تنظرني هنا حتى أنتهي، إلا إذا قبض عليك أحدهم.. باي باي.

تقافزت على السلالم حتى اختفت، استدرت حائرا، لم يكن لديَّ وقت لأضيعه، سرت نحو الرجل الذي يتظاهر بالقراءة، لم

يكن هو الذي أقصده، ولم يصدقني إلا بعد أن أقسمت له أن الضبع قريبي، أرشدني إلى رجل آخر يشبهه تماما، ويتصرف بطريقته نفسها، يمسك الصحيفة ويراقب البراغيث من خلفها، طريقة تقليدية وساذجة، يبدو أنهم لم يكتشفوا بعد طريقة أخرى، تجرأت وجلست على المقعد بجانبه، قلت له بصوت منخفض وأنا أحاول التحكم في رعدتي:

السيد حمودة الضبع؟

التفت إليَّ في استنكار، يبدو أنه لم يكن يريد لاسمه أن يتردّد على لسان أي برغوث، تأملني قليلا ثم قال من بين أسنانه:

من أنت حتى تناديني باسمي هكذا؟ أنت لست حتى طالبا بهذه الكلية؟

كان ذكيا، يتمتع بذاكرة بصرية مدهشة، تحفظ الوجوه وتتعقبها، حاولت أن أبدي له إعجابي كنوع من التقرب، قلت:

أنت على حق.. أنا من كلية أخرى وبلدة أخرى أيضا، جئت إليك بتوصية من «محروس الدش».

حمدت الله أنني تذكرت الاسم كاملا، ولكن الضبع أدار وجهه إلى الناحية الأخرى قائلا في حزم:

لا أعرفه، ولا أعرفك.

ـ قال لي إنك من أعز أصدقائه، وقد خدمتما معا في الجيش، قبل أن تتجها إلى الشرطة، إنه يثق بك، يقول إنك بمثابة الأخ بالنسبة إليه.

قال في زهق: أنت إذن الذي ذهبت إلى المكتب وادّعيت أنك قريبي، كانت هذه كذبة، وربما تكذب أيضا فيما تقوله الآن.

ـ كنت مضطرا، كان من المهم أن أقابلك؛ لأنها مسألة حياة أو موت، أريد أن أعرف بعض المعلومات عن معيد كان يعمل في هذه الكلية، اسمه «حسن الرشيدي» وقد تم رفده منذ عامين، أريد فقط أن أعرف إلى أين ذهب وكيف أستطيع الوصول إليه؟

ـ وما أدراني؟ هذا يحدث كل يوم.

ـ ولكنك كنت تعرفه جيدا، قال لي محروس إنه أوصاك أن تراقبه وأن تحميه.

ـ أووف. أكره الإلحاح. بالطبع أذكره، كان مشاغبا ابن مشاغب، وقد حاولت أن أحميه من شر نفسه، ولكن العرق دساس كما يقولون.

ـ ماذا حدث له؟ لماذا تم فصله؟

نظر إليَّ في ريبة وهو يقول: لماذا تهتم؟ لا تقل إنّك قريبه. لم يعد هذا الأمر «يخيل عليَّ».

بدأ يأخذ ويعطي معي في الحديث،وهذه علامة إيجابية، قلت:

لن تصدقني، ولكنه وحده يستطيع أن ينقذ روح فتاة صغيرة من الموت.

قال في سخرية:

ماذا؟ روح فتاة؟ أنت تسخر ولا شك، إنه لا يستطيع أن ينقذ روح دجاجة.. ولا حتى روح نفسه.. أنت تتحدث عن شخص ضائع..

ظللتُ أتحدث إليه متودّدا، تحمّلت كلماته المنفرة وإجاباته المراوغة، ولكنه بدا راغبا في الكلام برغم ما يبديه من ممانعة؛ ربما بسبب جلسته المتصلبة في المراقبة، وفترات الصمت الطويلة المفروضة عليه، ولكنه ظل يلف ويدور، وأخيرا هتف بي وهو يشير إلى الأمام:

اذهب إلى الأمام، ابتعد قليلا وراقبني جيدا. هيا.

لم أفهم ماذا يريد، ولكنه على الأقل لم يطلب مني الانصراف، خطوت مبتعدا حتى وقفت في مواجهته تماما، تشاغل بإلقاء نظرات خاطفة على ما حوله ثم بدأ يقرأ في الجريدة مرة أخرى، مرت لحظات حسبت فيها أنه قد نسي وجودي، ولكنه رفع رأسه أخيرا وأشار بإصبعه حتى اقترب، عدت إلى الجلوس بجانبه مسرعا، طوى الجريدة وسألني في اهتمام:

هل راقبتني جيدا؟ هل بدا عليَّ أنني من البوليس السري؟ هل كان واضحا أنني أتظاهر بقراءة الجريدة بينما أقوم في الواقع بمراقبة الطلبة؟

هززت رأسي كاذبا: إطلاقا.

قال في حزن حقيقي:

لقد قضى هذا الولد حسن على أهم ميزة كنت أتمتع بها في عملي، أفسد عملية المراقبة التي كنت أجيدها. نحن هنا لا لكي نراقب الطلبة ولكن لنحميهم، لو تركناهم لغرقوا في التطرف والجنس والمخدرات. وجودنا ضروري ليلتزموا حدودهم، وهذا

ما فعلته مع صديقك حسن، حاولت أن أحميه من ذاته المشاغبة التي ورثها عن أبيه، نصحته أكثر من مرة، كانت مجازفتي معه هي الغلطة الوحيدة التي ارتكبتها في حياتي العملية، كشفت له نفسي، كان تحريضه للطلبة على التظاهر والعصيان قد زاد على الحدّ، وجدت أن من واجبي من أجل خاطر أخي محروس، أن أنبّه هذا الطائش أنه تحت المراقبة المستمرة، طلبت منه أن يؤمن مستقبله ويتعاون معنا، كان تعيينه في الكلية حديثا، اسمه مكتوب بالقلم الرصاص كما يقولون، ولابد أنها غفلة من الأمن لأنهم لم يربطوا بينه وبين والده المشاغب، لو تنبه أحد لذلك لتمّ فصله فورا، ولكن الغبي سخر مني ومن نصائحي، بل كشف وجودي أمام بقية الطلبة، تصور قلّة أصله، جعلني أضحوكة الجميع، أنت لا تعرف كم الغباء الذي يتمتع به المصريون، لقد تحملت منهم كثيرين، ولكني لم أجد أغبى من هذا الولد.

قلت محاولا استرضاءه:

أوافقك على ذلك.. فالاعتراض على سلطة بهذه القوة وهذا التحكم يعد نوعا من الغباء.

أومأ على كلامي موافقا، شعرت أنني حزت ثقته قليلا، صمت برهة، شرد كأنه يتذكر شيئا بعيدا، قال:

يذكّرني هذا بما حدث لي وأنا في الجيش، هل قصّ عليك محروس هذه الحكاية؛ زميلي وقتها في الجيش؟

في السجن الحربي بالقلعة، كنتُ سجّانا هناك أيضا؛ كان سجنًا رائعًا من يدخله يتوب عن كلّ شرّ تحدثه به نفسه، ليته ظل موجودا

ليردع هذه البراغيث، لن أحدثك عن السياسيين والصحفيين الذين كانوا يأتون إلينا فهم أتفه من أن أذكرهم، ولكن ذات يوم جاء إلينا مجند من الجيش، كانت أوراق التحقيقات التي تمّت في وحدته والمرفقة معه تقول إنه قتل أحد زملائه، كان ولدا خاما لم يخرج من خلف الجاموسة إلا عندما تمّ تجنيده، ومع ذلك أنكر أنه ارتكب الجريمة، تصوّر.. أنكر كل ما هو مكتوب في الأوراق، كانت وقاحة بالغة منه أن يكذب كل هذه الوثائق الرسمية، وكان من الضروري تأديبه، انهلنا عليه جميعا بالضرب، فين يوجعك، لكنه ظل مصرّا، قتلته يا حمار؟ يقول: لأ. تعبت أيدينا ولجأنا إلى العصي والشوم، قتلته يا ابن الكلب؟ يقول: لأ. علقناه في العروسة، ونزلنا عليه بالكرابيج؛ تهرّأ جسده من الضرب وتكسرت عظامه والغبي مازال مصرا على الإنكار، وفي النهاية مات من دون أن يعترف، شعرنا جميعا بالغيظ لأننا استخدمنا معه كل الوسائل ومع ذلك فشلنا.

سكت قليلا ليبتلع ريقه، ولكني كنت أرتعد من شدة القرف، أشعر برغبة في التقيؤ، ولكنه كان يتحدث في هدوء، كأنما تعبر ذهنه ذكرى سعيدة، بعد برهة واصل كلماته:

لم تكن هذه نهاية الحكاية، بعد يومين أو ثلاثة لا أذكر، جاء جندي آخر، وعندما فحصنا الأوراق أدركنا أن هذا هو القاتل الحقيقي، تبدّلت الأوراق بسبب خطأ بسيط، كان الجندي الذي مات قادما إلى السجن بتهمة بسيطة لا تتعدى التغيب عن الخدمة، وكان سيفرج عنه بعد بضعة أسابيع وربما أشهر، ولكن هل رأيت شيئا في مثل غبائه؟

ـ لأنه مات؟

ـ لأنه رفض الاعتراف، لو أنه اعترف لأنقذ نفسه من التعذيب، وأنقذ حياته أيضا.

قلت حائرا وقد شعرت أنا أيضا بالغباء: ولكنه لم يكن مذنبا!!

ـ كنا سنعرف، كانت الأوراق السليمة ستصل فيما بعد، وستعرف حينها على القاتل الحقيقي، وساعتها كنا سنعدّل تهمته وننقله من قسم القتلة إلى قسم الأحكام المخففة، ولكنه كالعادة كان غبيا.

كان يجب أن أوافقه على كل ما قاله، وأن أخفي إحساسي بالرغبة في التقيؤ، قلت:

هل كان «حسن الرشيدي» بهذا الغباء؟

ـ كان أكثر غباء؛ لأن بيته كان من زجاج، وأخذ مع ذلك يقذفنا بالطوب، في كل يوم كان يشارك في اجتماع محظور، ويرفع لافتات ملتهبة، ويدفع البراغيث للخروج بالمظاهرات إلى الشارع، برغم أن لدينا أوامر صارمة ألّا تخرج ساق متظاهر واحد في الشارع من دون أن نكسرها، كل هذا القرف.. وأنا أتحمله من أجل صديقي محروس، ولكنه نجح في إحدى المرات في تنظيم مظاهرات خارج السور، وخاض هو والبراغيث معركة دامية ضد رجال الأمن المركزي، وانصب كل اللوم علينا داخل الكلية. نفد مني صبر أيوب وقلت لهم عن تاريخ أبيه الأسود: كيف كان يمكن أن أتمالك نفسي بعد كل ما فعله؟

هتفت في دهشة وذعر: هل وشيت به؟

قال في نبرة حازمة:

أنا لست واشيا، هذا عملي، لو أنني تركته لأحرق البلد، وأحرقنا معه، كان يجب إبعاده عن هذه البؤرة الملتهبة، وبالفعل كان قرار فصله من الجامعة جاهزا فور أن خرج من السجن.

هتفت في صوت أعلى: هل دخل السجن أيضا؟

أشار لي محذرا: اخفض صوتك، ماذا جرى لك، كنت عاقلا منذ قليل.

صمت، كتمت صوتي واحتجاجاتي وصراخي، ولكني كنت أرتجف، قلت:

حين سألت عن اسمه في الإدارة بحثا عنه، لم يجدوا له أي ذكر.

ـ طبعا.. تعيينه في الأساس كان غلطة فاتت على الأمن؛ لذلك تم تدارك الأمر وشطب اسمه من كل السجلات.

يا ربي.. كيف يمكن أن يحدث كل هذا لشخص واحد؟ قلت:

وأين هو الآن؟

ـ في الدنيا الواسعة، ربما عاد إلى السجن وربما استقام خارجه، مادام قد أصبح خارج الكلية فهو ليس من اختصاصي، هناك جهات أخرى قادرة على التعامل معه في الخارج.

ـ أريد فقط عنوان سكنه، أريد الوصول إليه.

ـ وما أدراني به، قلت لك إنه لم يعد يدخل في تخصصنا، حتى ملف المراقبة الأصلي الخاص به قد رحل معه إلى مديرية الأمن.

توقفت عن الكلام، أوشكت أن أبكي من شدة القهر، قلت من بين أسناني:

من المؤكد أن هذه وصية مخبر لأخيه، يوصيك به فتقوده إلى نهايته.

نظر إليَّ بحنق واضح:

هل يعني هذا أن أفقد عملي بسببه، مهما كانت التوصية، فليس مطلوبا مني أن أحمي الغباء.

أصبحت لهجته واضحة العداء، امتلأ المكان حولنا بروح الكراهية، نهضت من جانبه مبتعدا، لا أذكر إن كنت قد ألقيت عليه التحية أو لا، كان حديثه قد أرهقني، وشعور الشفقة تجاه حسن قد حملني بالذنب، كان ضحية من السهل اصطيادها، اغتالوا طفولته وقتلوا أباه وهو صغير، ودمروا مستقبله عندما شبّ رأسه قليلا، سرت في الطرقات مذعورا، رأيت كل الأرائك الخشبية يجلس عليها أناس كبار، شواربهم كثة، يتظاهرون بقراءة الجرائد، لم يعد أحد من الطلبة يجرؤ عل الاقتراب من أي أريكة، تركوها لهم، يجلسون دوما في الأماكن نفسها، تتغير وجوه الطلبة، ويرحل الأساتذة ويترقى الضباط، ويبقى المخبرون واضحين ظاهرين، سلطتهم مطلقة لأنها خفية ولا يحدها قانون،يلتصقون كالعلقة بالمتهمين، يحجبونهم عن أي رؤية أخرى يمكن أن تبرّئهم، وهذا ما فعله هذا الوغد مع حسن.

لم تظهر «سميّة» إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات، لا أدري لماذا تأخرت كل هذه المدة وهي تعرف أنني واقف في انتظارها؟ هل طالت المحاضرة أكثر مما ينبغي؟ ظهرت أخيرا، كانت شاحبة وحائرة، ولكنها حين رأت وجهي المربد قالت في قلق:

ماذا جرى لك أنت الآخر؟ ماذا فعل بك المخبر؟ هل أخبرك بأمر مهم؟

قلت وأنا أحس بالقرف:

لم يحدثني إلا عن إهانة وإذلال وتعذيب وسجن ورفد شخص اسمه حسن، لم أظفر منه بشيء غير كلمات من البغض والتشفي. جلست مع أشد الرجال الذين قابلتهم في حياتي سفالة. أوشكت على الاختناق ومنعت نفسي من التقيّؤ بصعوبة.

ظلت تحدق فيَّ بعينيها اللامعتين، تطلبان مني المزيد، قصصت عليها مجمل المعلومات التي حصلت عليها، قالت:

بعد كل ما سمعته وعرفته.. أظنك ستقول لي أيضا إنك ستعود اليوم إلى بلدتك.

كانت كعادتها، تحمّل كلماتها رنة خفيفة من السخرية على الرغم من أسوأ الظروف، قلت:

أشعر أنني أسير داخل كابوس، بدأت أشعر بالذنب تجاهه،كان قد دفع ثمنا باهظا في هذه المدينة وعليَّ أن أنقذه منها، ورد الجامدة لا تحتاج إليه فقط، ولكنه هو أيضا في حاجة إليها، ولكن رغما عني عدت إلى نقطة البداية مرة أخرى، وأصبح هناك لا شيء يقودني إليه.

مدت يدها وقبضت على يدي، قالت في حزم:

تعال معي.

جذبتني إلى داخل الكلية، حاولت أن ألاحق خطواتها السريعة، دخلنا طرقة طويلة مليئة بالغرف المغلقة، توقفت أمام واحدة منها، معلق عليه لافتة «مكتب الدكتور جلال عرفان»، هكذا من دون إضافة أي ألقاب، كأن وجود اسمه كاف ليدل على المركز الذي يشغله، طرقت «سميّة» على الباب، وقبل أن تنتظر أي إجابة من الداخل فتحت الباب وبادرت بالدخول، وعندما رأتني مترددا عادت وجذبتني، وجدت نفسي في غرفة واسعة عالية السقف، في جانب منها صوان زجاجي مليء بالدروع التذكارية، وفي الجانب المقابل صوان آخر مليء بمجلدات ضخمة، وفي المنتصف كان هناك رجل أنيق في منتصف العمر جالسا على مكتبه، منهمكا في توقيع كومة من الأوراق، لم يرفع رأسه، ولكنه تعرف على صوت وقع خطواتها، قال:

أهلا يا «سميّة»، زيارتك هذه ليست في ميعادها.

لا بدّ أنه سمع صوت تنفسي؛ لأنه رفع رأسه ورمقني بنظرة سريعة، تساءل في ضيق:

من هذا؟ كان يجب أن تستأذن قبل أن تدخل.

سارعت «سميّة» بالقول: إنه معي، أنا الذي جئت به.

نظر إليها وقد ازداد غضبه، قال:

أنت أيضا كان يجب أن تستأذني، لا أحبّ أن يقتحم مكتبي أحد، من أين تعرفينه على أي حال؟

لم أجرؤ على الكلام، ولم يبدُ على «سميّة» أنها اهتمت كثيرا بالطريقة الخشنة التي يتكلم بها، لم أفهم لماذا جاءت بي إلى هنا؟

اقتربت منه، لمست برفق ذراعه الموضوعة على الأوراق؛ كأنها تحاول أن تهدئه، تجعله يحس بوجودها المادي في الغرفة، قالت:

إنه طالب نهائي الطب الذي حدثتك عنه، لقد جاء يبحث عن المعيد حسن الرشيدي، وهو يريد أن يعرف عنوان بيته.

رمقني بالنظرة القاسية نفسها، لا أدري لماذا بدا عليه أنه لا يصدقها، قال:

سبق أن أجبت عن سؤالك، أنا لست دليل تليفونات، فليذهب إلى موظفي الكلية.

بلعت ريقي، لم يكن من الممكن أن أظلّ صامتا، قلت:

إنه ليس موجودا. لا يوجد له أي ذكر في السجلات.

أكدت «سميّة» على كلامي:

من أجل هذا نحن في حاجة إليك يا دكتور، كل ما يريده هو أن يعرف العنوان الذي كان يسكن فيه حتى يستطيع العودة إلى مدينته.

سلطت عليه عينيها الواسعتين، نظر إليها طويلا كأنه يقلّب الأمر في ذهنه، ويبدو أن كلماتها حول إبعادي إلى مدينتي كانت مقنعة بصورة ما، تنهّد كأنه مغلوب على أمره، استدار وأمسك واحدا من عدة هواتف كانت موجودة بجانبه، تحدث مع أحد ما، لعلها واحدة من السيدات الثلاث اللاتي رأيتهن في المكتب المعتم، ذكر لها الاسم وطلب منها عنوان السكن أو الهاتف، لم أسمع الرد القادم من الجهة الأخرى، ولكنه رمقني بنظره سريعة، وقال في صوت حاسم:

ليس هذا.. السجل الآخر، أنت تعرفين ما أعني؟

وظلّ الصمت مخيما. مد أصابعه برشاقة، اقتلع ورقة صفراء صغيرة، وأمسك قلما، ثم بدأ يدون على الورقة بعض الكلمات، وضع السماعة، أزاح الورقة من أمامه فأسرعت «سميّة» بالتقاطها، قالت:

كنت أعرف أنك ستفعلها.

استدارت من دون أن تبالي بتوجيه الشكر إليه، أسرعت أنا بشكره بصوت عال ولكنه لم يأبه بالنظر إليَّ. خرجت «سميّة» وأسرعت بالسير خلفها، تنفست الصعداء كأنني خارج من تابوت ضخم، سرنا في الطرقة الممتدة، مددت يدي لآخذ منها العنوان، أبعدت الورقة وهي تقول:

ليس بلا ثمن.

قلت: ليس معي فكة.

لا تكن ظريفا، هناك مقهى أمام الجامعة مباشرة. سوف تعزمني على كابتشينو بالشوكولاتة.

كان المقهى أنيقا مقاعده من الجلد البني، تتخلله نباتات زاهية الخضرة، واجهته الزجاجية تطل على قبة الجامعة،كنت بالفعل في حاجة إلى كوب القهوة وفوقه هالة من القشدة تتناثر عليها نتف من الشوكولاتة، جلست أمامي، وناولتني الورقة المكتوب فيها العنوان، شارع في مكان ما اسمه قلعة الكبش، اسم غريب ومثير للسخرية، سألتها:

أين قلعة الكبش هذه؟ هل هي منطقة شعبية؟

ـ عشوائية، إنها مجموعة من المباني القديمة وعشش الصفيح موجودة في قلب السيدة زينب، لا أعرف إلّا أن فيها مطعما للفول اسمه «الجحش»، وأن هناك حريقا قاسيا قد شب هناك مؤخرا، عليك أن تأمل ألّا يكون بيته قد احترق هو أيضا.

تأملت الورقة، كان خطه أنيقا ومرتبا على الرغم من أنه كتبه بسرعة كبيرة، قلت لها:

لماذا بدا غاضبا ومقروفا مني إلى هذا الحدّ؟ هل اعتقد أننا على علاقة، حتى لو كان كذلك، فلماذا يغضبه ذلك؟

عضت شفتيها، تمهلت قليلا قبل أن تقول:

بشكل عام.. هو ليس كذلك.. إنه شخص مهذب إلى حد كبير وقد تعلمت منه كثيرا، وبخاصة آراؤه التقدمية، هو أستاذي، ولكني لم أكتشفه خارج قاعة المحاضرة إلا من خلال رحلة قمنا بها إلى الأقصر، رأيت فيه جانبا لم أعرفه من قبل، خلف الأستاذ المتحفظ رأيت الإنسان المتمرد، الذي لا يأخذ الأمور كما هي، ولكن دائما له رأي مختلف ليس في العمارة فقط ولكن في الدين والسياسة.

اكتسى وجهها بمسحة من الشرود الحزين، انخفض صوتها واختلط بوقع أنفاسها، تذكرت منظرها وهي تقترب من مكتبه وتميل نحوه وتلمس ذراعه، انتبهت إلى أنني أراقبها بتمعن، أشاحت بوجهها بعيدا، رشفت قليلا من قهوتها، تركت القشطة شاربا صغيرا على شفتها العليا، مسحته بسرعة وهي تضيف:

هيه.. لا تدع خيالك يذهب بعيدا، علاقتنا لم تتعد علاقة تلميذة بأستاذها.

ـ لم أظن شيئا خلاف ذلك.

تشاغلنا معا بشرب القهوة قليلا، حاولتْ أن تغير الموضوع، قالت:

تقول إنك لم تحب ابنة خالتي فاتن، ولكن لم تقل لي إنك أحببت هذه الفتاة المتصلبة.

ـ ربما كانت شفقتي عليها أكثر، ولكني كنت مأخوذا بقوة عاطفتها، تلك الدرجة من الحب التي تساوي الحياة بأكملها، ربما لم يكن هو يحبها بالدرجة ذاتها، ولكنها عرفت كيف تغرق نفسها في العاطفة بكامل كيانها، قامت وحدها بفعل الحب من دون انتظار للمقابل.

ـ أنت تكرر الأمر إذن، تغرق نفسك في حبها من دون انتظار المقابل.

ـ لم أتحكم في ذلك، دائما ما يبدأ الأمر باضطراب في الهرمونات، يؤكد الطب على ذلك، يفرز المخ هرمونا يجعلنا نشعر بالانجذاب نحو شخص ما، المفروض أن يكون هذا نوعا من الكيمياء المتبادلة بين اثنين، ثم يتعدى الأمر الكيمياء، يصبح الأمر عاطفة، نكتشف أننا لا نسعى لمجرد الحب ولكن ما قد يسبغه على نفوسنا من سمو؛ تلك النعمة الجامحة التي قد تكون مستحيلة.

ظلت تستمع إليَّ، لم أدر إن كنت قد استطعت التعبير أو لا، عضت على شفتيها ثم قالت في تردّد:

ولكن الحب بهذه الصورة يبدو مجرّدا تماما، هل الجنس يتعارض مع هذا السمو؟

الجنس هو جزء من الحب، جزء مهم، ولكن الأمر لا يقتصر عليه، إنه وسيلة لاكتشاف الآخر والاستمتاع به، ولكن يصبح شيئا حيوانيا إذا لم نصل به إلى هذه الدرجة من السمو.

نظرت إليَّ قليلا، ثم قالت:

أنت تتحدث بشكل نظري. أليس كذلك؟ لا تقل إنك كونت هذا الرأي من تجاربك؟

كنت أشدّ سذاجة مما تعتقد، لم أشأ أن أقول لها ذلك، مرة أخرى غرقنا في الصمت، تشاغلنا بشرب القهوة، لم أجرؤ على أن أنهض وأتركها، كنت فقط أتمنى ألّا يكون البيت الذي أحمل عنوانه قد احترق، خرجت «سميّة» من شرودها، أشرق وجهها فجأة وهي تقول:

آه.. لقد تذكرت. لقد أحضرت لك هدية.

نظرت إليها في دهشة، حتى هذا الصباح لم تكن متأكدة من عودتي فكيف أحضرت الهدية، ولأجل ماذا؟ ليس بيننا ما يستوجب الهدايا، أخرجت من حقيبتها تليفونا محمولا، وضعته أمامي وهي تقول:

هذا تليفوني القديم، كان مركونا في أحد الأدراج بلا فائدة، لا يمكن أن تواصل البحث في هذه المدينة الواسعة من دون هاتف.

نظرت إليها محرجا، كان الهاتف قديما بالفعل ولكنه يبدو في حالة جيدة، قلت:

شكرا.. لست في حاجة إليه، لن أمكث في المدينة سوى بقية هذا اليوم، سأذهب إلى مسكنه، لو وجدته فسأقص عليه ما حدث، وإذا لم أجده فسأكتب ورقة أعلقها على بابه و..

لم تكن تستمع إلى كلماتي:

مازال الخط القديم موجودا به ولكني مسحت منه الأرقام المخزنة في الذاكرة، لم يبق به إلا رقم هاتفي الذي أحمله الآن.

عدت أقول في إصرار: صدّقيني، لا أحتاج إليه.

قالت في نوع من الدلال:

ألا تريد أن تتصل بي؟ على الأقل يمكنك أن تخبرني إلى أين انتهى بك البحث، هل عثرت على هذا الـحسن، أو لا؟ هل عادت هذه الفتاة إلى الحياة؟ هل نجحت في الامتحان النهائي؟ إنه ثمن بسيط لإرضاء فضولي.

مددت يدي وتناولت الجهاز، وأنا أقول: كل هذا مقابل فنجان من الكابتشينو؟

ضحكت: الأمر يستحق.

كان يجب أن أنهض، وأواصل رحلة البحث، تذكرت ورد التي تنتظر عودتي، ولكني شعرت أن من حقي الجلوس والتمتع بصحبة هذه الفتاة الجميلة ومذاق البن المسكّر. عادت سمية تتطلع إلى الخارج في شرود. نظرت في ساعتها، رفعت الفنجان لتأخذ رشفة ولكنها وجدته فارغا، سألتها إن كانت تريد قهوة أخرى، هزت رأسها بالنفي، حاولت أن تشرح لي كيف أصل إلى هذا المكان المسمى قلعة الكبش، قالت:

ذهبت إلى هذا المكان مرة واحدة بصحبة مجموعة نشطة من الطلبة، وكان المشهد مفزعا لدرجة أنني لم أستطع الاحتمال، لا يغرك هذا المكان النظيف الذي نجلس فيه، داخل القاهرة توجد

قاهرة أخرى أكثر بشاعة؛ جحيم أرضي، كل حيّ نظيف تحيط به قبضة محكمة من الفقر والعنف تستعد للانقضاض عليه، أكثر من ثلثي سكان هذه المدينة يعيشون في العشوائيات، لا أحد يأبه بهم، وهم أيضا لا يأبهون بنا، ولا بالقانون الذي يحكمنا، لا يحتاجون منا أي مساعدة؛ لأنهم يستعدون لأخذ كل شيء بأيديهم، ولن يكون هذا اليوم بعيدا.. لا أعرف ما الذي دفع صديقك حسن للإقامة في هذا المكان. ربما.

توقفت عن الكلام وهي تحدق من خلال الزجاج، السيارة السوداء تقف بجانب الرصيف، حاولت أن تدير وجهها نحوي وتواصل كلامها، يبدو أنها نسيت ما كانت تقوله، تناولت كوب الماء ورشفت منه رشفة صغيرة، ظللت أحدق فيها صامتا، أنهت ترددها ونهضت واقفة، عدلت الحقيبة على كتفها، تنهدت:

سأنصرف الآن، اشحن هذا التليفون ببضعة جنيهات وتحدث إليَّ.. باي باي..

انصرفت مسرعة، راقبتها من خلف الزجاج، كانت تستعد لعبور الطريق، وظلت واقفة تحرك قدميها في توتر، تنتظر توقف سيل السيارات العابرة، في الجانب الآخر من الطريق كانت السيارة الفخمة واقفة في انتظارها، بدأت تعبر الشارع في حذر، هبط زجاج نافذة السيارة، استطعت أن أرى الدكتور «جلال عرفان» جالسا خلف عجلة القيادة، تعرفت على وجهه برغم النظارة السوداء التي تحجب عينيه، يراقبها وهي تعبر الطريق إليه بوجه جامد، كأنه موقن أنها قادمة إليه،

لم يتحرك حتى ليفتح لها الباب الجانبي، رأيتها تجلس بجانبه قبل أن يقوم بإغلاق زجاج السيارة، ثم انطلق بها.

ظللت جالسا أحاول أن أقنع نفسي بأن الأمر لا يعنيني، وربما تكون هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها، نظرت إلى الهاتف الراقد على المنضدة طويلا، فكرت في أن أتركه في مكانه؛ كأنني أبحث عن طريقة ساذجة للانتقام، تناولته وذهبت سريعا لأقرب محل من المقهى، شحنت الهاتف كما قالت لي، ضغطت على رقمها مغتاظا فلم ترد عليَّ، توقفت على جانب من الطريق لأجد أي توصيلة، رفض أكثر من سائق أجرة أن يقلني؛ السائق الأول نظر في الورقة التي أحملها وهتف معترضا:

ولا أموال الدنيا، يكفي ما سيفعله بنا رجال الأمن المركزي الرابضون هناك.

ابتعدت عني بقية السيارات، سألت أحدهم عن وسيلة أذهب بها إلى هذا المكان الذي يتحاشاه الجميع، نصحني:

لن يأخذك أحد إلى هناك، خذ أقرب مواصلة للسيدة زينب، وسر بقية المسافة على قدميك.

انحشرت بين ركاب «الميكروباس» الضيق، كان عدد الركاب زائدا عن الحد، وظل أحد الركاب يمسك بالباب خوفا من أن يرتطم بالسيارات العابرة، زحفنا ببطء وسط زحام لا ينتهي. لم تكن المدينة صالحة للعيش، لا أدري كيف يسعى الناس في شوارعها ولا كيف يدبرون أمورهم، في داخل الميكروباس كانت رائحة أجساد الركاب لا تطاق أيضا، تختلط بها رائحة الوقود، كأن ماسورة العادم تصب

داخل السيارة، حاولت التشاغل بالتفكير في ورد المسكينة التي تنتظرني، تصورت اللحظة التي سأقابل فيها حسن والكلمات التي سأقولها له لإقناعه بالعودة، كنت متأكدا أنه سيبادر للسفر معي، ربما نسافر في وقت متأخر من هذا المساء، سأذهب إلى الفندق وآخذ حقيبتي ثم نأخذ معا أي سيارة ليلية، أخذ السائق يصيح: «زينهم. زينهم». أدركت أنني اقتربت من المكان الذي سأهبط فيه، تقدمنا ببطء في شارع ضيق مزدحم مليء بالمساجد والأبنية القديمة، أشار أحدهم إلى جسر خراساني معلق في الفضاء، قال:

اهبط هنا، هذا أقرب مكان إلى قلعة الكبش. ستجد «الصعدة» أمامك.

شعرت بالارتياح وأنا أهبط، وصلت لآخر طاقتي، استقبلت الهواء الذي لم يكن نقيا. أدرت ظهري لسبيل «أم عباس» كما قيل لي، صعدت على طريق مرتفع، في موازاة سور مسجد ابن طولون العتيق، تأملت مئذنته الملتوية ودرجها المتآكل، حاولت أن أحدد اتجاهي بين الإشارات المتضاربة، كل واحد يدلني على المكان بطريقته، وأنا أدور وأعود على أعقابي، وأخيرا..شممت رائحة بقايا الحريق.

فاجأتني حشود العساكر المتشحين بالسواد، يرتدون الخوذات، ويحملون العصي والدروع، تذكرت الأيام التي كانوا يأتون فيها ويحتلون مدينتنا، في تلك الأوقات العصيبة عندما يمتلئ الجو برائحة النشادر، وينام الخوف في الشوارع الضيقة، أشعر الآن بالشيء ذاته. سرت بموازاة صف ممتد منهم، يكونون جدارا عازلا، وخلفهم تبدو

المنطقة المحترقة؛ بقايا أنقاض لأخشاب متفحمة، وعشش من الصفيح تلوث بفعل النيران، أرض ممتدة مغطاة بالسناج الأسود، بقايا جذوع شجر مغروسة في الأرض، وأكوام مرتفعة من القمامة تتصاعد منها النار، بقايا حريق مروع التهم كل ما أمامه، لم يخلف إلا مجموعة ملاصقة من العشش نجت من الحريق بسبب معجزة ما، تحيط بها وجوه البشر المفزوعين، يجلسون رجالا ونساء بجانب بقايا عالمهم المحترق، يراقبون الجنود في حذر وتحفز، يتوقعون هجومهم في أي لحظة، يتقافز أطفالهم وسط الحطام، لا يبدو من وجوههم الملوثة بالسناج غير عيون براقة، لا يكفون عن الصياح، أمرح أم غضب؟ لا أدري، هل وجودهم فقط هو الذي يمنع الصدام بين الأهالي والعساكر، أو بالأحرى يؤجله؟ الجو كله كان مشحونا بالخوف والترقب، كنت أعتقد أن مدينتنا فقط هي التي تتفرد بهذا التوتر، سألت أحد العابرين عن العنوان الذي أقصده، أشار إلى بعض البيوت الملتصقة، تبتعد قليلا عن الساحة المحترقة، ولكنها لم تنجُ من آثار الحريق، كانت ملطخة بالسناج ومتأهبة للاشتعال.

أخيرا وجدت شيئا مازال قائما على حاله، هناك عنوان يمكن أن أتوجه إليه. بيوت قائمة، وشارع مترب، تجري فيه عربات «التوك توك» الصغيرة، ومقهى معتم وضيق على الناصية، بجانبه صف من بيوت متداعية مازالت تقاوم الانهيار، جدرانها مليئة بفجوات وأحجار متكسرة، كأنها قد تعرضت لعديد من الغزوات، أبوابها منزوعة، وبرغم ذلك هناك قضبان من الصلب على نوافذها السفلية، دلني عامل المقهى على البيت الذي أقصده، كان أشبه بعلبة مغلقة. يتبدد الضوء قبل أن يدخل إليها، صعدت الدرج المظلم خائفا

ومتوجسا، كان متكسرا ويتحمل خطواتي بصعوبة، توقفت أمام باب مغلق لإحدى الشقق، هذا هو المكان الذي تعبت كثيرا لأصل إليه. طرقت الباب كأني أستغيث من الصمت والظلمة، لو لم يرد عليَّ أحد فسوف تكون هذه نهاية رحلتي، ونهاية ورد ونهاية أوهامي، ظللت واقفا في الظلام، أأخطأتُ العنوان، أم أن هناك طريقا مغلقا كالعادة، يا ربي؟ لماذا كل هذه المعاناة؟

تعثرت في الظلام وأنا أعاود هبوط الدرج، أوشكت على السقوط، توقفت.. هل يمكن أن ينتهي الأمر هكذا، أأقبل بالهزيمة وأعود أدراجي، أم أجلس وأنتظر على المقهى؟ ربما تجعله المصادفة يمر من أمامي، لماذا يبدو كل شيء صعبا ومقبضا إلى هذا الحد؟ كنت أختنق برائحة الحريق التي تملأ أنفي، عاودت صعود الدرج من جديد ودققت الباب بكل ما أملك من قوة، أفرغت فيه شحنة الغضب والإحباط التي أشعر بهما، صحت:

افتح لي الباب يا حسن يا رشيدي، أنا أعرف أنك موجود في مكان ما.

كدت أبكي من شدة الإحباط والعجز، لم أرد لها أن تموت بهذه السهولة، كلما اقتربت، تبدد كل شيء مثل السراب، ولدهشتي الشديدة حدث شيء ما؛ شيء أشبه بالمعجزة، ظهر ضوء في الداخل، طاقة القدر في ليلة مظلمة، شعت الفتحة الصغيرة في أعلى الباب بالضوء، أضيء المكان من حولي، عدت أصرخ:

أنا بلدياتك ياباشمهندس، وقد جئت في أمر يهمك شخصيا.

لم أتلق ردا، كأنه يفكر فيما قلته ليقرر إن كان يفتح الباب أو لا، توسلت:

إنه أمر مهم وعاجل.. أنا قادم من طرف خطيبتك ورد. إنها في حالة خطيرة.

سمعت حركة واهنة خلف الباب، هل أثر فيه اسم خطيبته؟ فتحت طاقة الزجاج، ظهر خلفها وجه لم أستطيع رؤيته بوضوح، هل هو حسن؟ كانت عيناه جاحظتين قليلا، يحاول أن يستجلي ملامح وجهي برغم الظلام، وجهه مغطى بالشعر ورأسه أصلع، كان أكبر عمرا مما تصورت، يختلف تماما عن الصورة التي رسمتها له في ذهني، حدق فيَّ مفزوعا:

من أنت؟

لم يسمع الكلمات التي صحت بها؟ هل عليَّ أن أرددها من جديد. فكرت قليلا ثم قلت فجأة:

أنت لست «حسن الرشيدي». أليس كذلك؟

قال: بالتـأكيد أنا لست هو. هو أستاذ معتبر. أنا مجرد شخص عادي.

ياربي، أأخطأت المكان مرة أخرى، أم أن الطرق المسدودة مازالت تلاحقني؟ قلت:

وهل هذه شقته أو لا؟

لم يجبني مباشرة، ولكنه واصل التحديق فيَّ، ثم قال:

هـل أنت متأكـد أنك بلديات الأستاذ، وأنك تعرف خطيبته ورد؟

ذكرت له اسم المدينة والحي واسم ورد واسم أبيها، لم يكن

ينقصني سوى أن أقسم له على المصحف الشريف. اختفى وجهه وأغلق الفتحة الزجاجية، ولكنه لم يطفئ الضوء. ظللت أرتجف خائفا من أن يسود الصمت من جديد، ظللت واقفا لبرهة طويلة بعض الشيء، وأخيرا سمعت صوت المزلاج وهو يتحرك من مكانه، وفتح الباب. غمرني الضوء القادم من الغرفة برغم أنه كان شحيحا، كانت الفتحة ضيقة والرجل يمسك الباب يرتعد لسبب لا أعرفه، همس لي:

ادخل سريعا.

دخلت بصعوبة من الفتحة الضيقة التي أتاحها لي، أغلق الباب خلفي بأكثر من مزلاج، وقف أمامي بقامته الطويلة ووجهه المصْفر، يلبس فانلة داخلية وبنطلون بيجاما، قال:

هل يمكن أن أرى بطاقتك؟

أخرجت له بطاقة الكلية لتكون أوقع تأثيرا. قرأها بتمعن، أعادها لي قائلا:

لا مؤاخذة.. احتياطات أمن، اسمي «عبد المعطي»، منذ أن شب الحريق في المنطقة، وقد شب الفزع في قلوب كل السكان من أمثالي.

قلت في دهشة: لماذا؟

نظر إليَّ مستغربا من سؤالي:

ألم تشاهدهم وأنت في الطريق إلى هنا؟ كلهم أصبحوا بلا مأوى، وهم ليسوا من الأطفال والنساء فقط. ولكنْ فيهم المجرمون والمسجلون خطر وموزعو المخدرات، إنهم يحقدون علينا بسبب

هذه الجدران التي نحتمي بها، ويمكن أن يقتحموها علينا في أي وقت.

كانت أمارات الرعب بادية عليه، حول عينيه هالات سوداء دلالة على أنه لم يذق النوم منذ أيام، قلت في تشكك:

أنت تقيم وحدك هنا إذن؟

كنت أخشى أن يرد عليَّ بالإيجاب وتفلت من يدي آخر الخيوط، قال:

بالطبع يقيم معي بلدياتك الأستاذ حسن. ولكنه كثير الغياب.

إجابة نصفها سلبي، ونصفها إيجابي:

هو ليس هنا الآن، ولكنه قد يأتي في أي وقت، واضح أنك متعب.. اجلس.. سأصنع شايا لنشربه معا، في النهاية أنت ضيفي.

كنت في حاجة إلى تلك اللمسة من الضيافة، أن أشعر أنني شخص مرغوب في وجوده، جلست على مقعد غائر القاع، كانت الشقة عارية الجدران، طلاؤها متساقط، ثلاجة صغيرة في أحد الأركان تنتفض في طنين متواصل، وفي الركن الآخر منضدة حولها مقعدان، عليها كومة من الجرائد القديمة، لا توجد أي صور معلقة على الجدران، تمنيت أن تكون هناك واحدة على الأقل لحسن لأعرف شكله، طمأنت نفسي أنه سيأتي بعد قليل، وسأتعرف إليه مباشرة، كل ما أراه حولي كان متواضعا، أقرب إلى حالة البؤس، أفشل في الحصول على عمل بعد أن فقد منصبه في الكلية؟ برغم أنه كان مهندسا ويمكنه أن

يعمل في أي شركة، أم أن سوء الطالع قد لازمة،وربما استمر رجال الأمن في ملاحقته كالذباب؟

عاد الرجل حاملا صينية صغيرة عليها كوبان من الشاي، وضعها على الأريكة بجواري، ثني ساقيه وجلس على الأرض، تحت قدمي مباشرة، أحسست بالإحراج وحاولت أن أغير جلستي، وبدأ يتكلم من فوره، ويخرج المخاوف التي كبتها طويلا في داخله، قال:

هذه المنطقة مرعبة، وتحولت إلى جهنم بعد الحريق، الأهالي ينامون على الأخشاب المحترقة، ولا يريدون الذهاب إلى أي مكان آخر. في الحقيقة، لا يوجد مكان آخر يذهبون إليه، الحكومة تعدهم بكثير، وكالعادة لا تعطيهم شيئا، ولو كان هناك شيء فقد أخذه الآخرون، أنا فقط أنتظر اللحظة التي يرحلونهم فيها بعيدا عن هنا حتى أستطيع أن أنام الليل.

كان موضوع الحريق مسيطرا على ذهنه بشكل مرعب، وجدتني أقول له:

كيف حدث الحريق؟

ـ مثل كل شيء في مصر، لا أحد يعرف السبب بشكل محدد، يقولون إن هناك انفجار أنبوبة بوتاجاز، ويصر الأهالي أن هناك كريات من اللهب قد ألقيت عليهم من أعلى؛ من فوق الجسر العلوي بشكل متعمد، وهم يصرون على أن الحكومة تريد اقتلاعهم من هذا المكان.

ـ لماذا؟

ـ يقولون إن الصين تريد شراء هذه الأرض، سيقيمون عليها مصنعا

ضخما ينتج الملايين من العصي الصينية، أتعرفها تلك التي يأكلون بها الأرز؟ هناك أيضا مستثمرون عرب، سيقيمون منتجعا ومصنعا لأدوية المقويات الجنسية، لو حدث هذا فسأحس بالأمان، على الأقل لن يقتحم العرب أو الصينيون جدران منزلي.

ظل يرشف كوب الشاي في تتابع، يريد أن ينتهي منه سريعا، لم أشأ أن أقول له إنه لو وضع هؤلاء المستثمرون أقدامهم فسوف يزيحون أمثاله من أمامهم، ستتقوض هذه الجدران فوق رأسه، ولكني لم أكن أريد أن أزيد من مخاوفه، رشفت رشفة من الشاي وسألته بشكل مباشر:

متى يأتي حسن؟

ـ الأستاذ براحته يأتي ويذهب، وأظل أنا حبيس هذه الجدران..

ماذا يعني؟ هل هذا تعبير عن حنقه منه، أو أنه افتقاد لوجوده؟ وما سبب هذه الصيغة المبالغة في الاحترام؟ قلت في إلحاح:

هل سيحضر الليلة؟

قال في غموض: ربما يحضر حالا، وربما يحضر بعد بضعة أيام، آخر مرة كانت في أثناء الأسبوع الماضي؛ جاء ليدفع الإيجار وأحضر معه هذا الشاي، ما رأيك في طعمه؟

أوشكت أن أقذفه بالكوب. لا أدري لماذا يجيبني بهذا الالتواء، كلما أحسست أنني وصلت إلى هذا المدعو حسن أفلت من يدي، قلت:

لا أفهم، أيقيم هنا، أم أن لديه مكانا آخر؟

من المؤكد أنه يقيم هنا، ربما كانت له أماكن أخرى، ولكنه هو الذي جاء بي إلى هنا، لم تكن هذه المنطقة مفزعة إلى هذه الدرجة، كانت هناك أشجار باسقة ومساحات من الخضرة ومساجد قديمة، وكان هناك مغن ضرير يعزف دور «أنا عشقت..» على عوده في المقهى المقابل، ثم بدأت العشش تزحف وتلتهم كل شيء.

أحسست أنني أضيع وقتي وأنا أستمع إلى ثرثرته، ستضيع ليلة ثمينة أخرى، وتظل ورد واقفة في العراء عرضة لهجوم الكلاب المسعورة في أي لحظة، قلت:

هل يعني هذا أنه يمكن ألا يأتي هذه الليلة، أو الليالي التالية؟

ويمكن أن يأتي، هذه شقته كما قلت لك، وعلى يمينك باب غرفته، فيها ملابسه وأغراضه، بالتأكيد أنت في المكان الصحيح، أما مسألة وجوده فأمرها عند الله.

تأخرت عن السفر والعودة ولكني على الأقل أمسكت ببعض من أثره، ولو غادرت هذا المكان لأمكن أن أفقده إلى الأبد، كان «عبد المعطي» جالسا أمامي صامتا، لا يحاول أن يبقيني أو يدفعني إلى المغادرة. فقد الشاي سخونته وأصبح ماسخا، وضعته جانبا، حاولت أن أبدي الاهتمام بما يقوله، ولكني كنت في حاجة إلى مزيد من المعلومات عن الوجود المراوغ لهذا الشخص، قلت له:

منذ متى تعرف حسن؟

تناول كوب الشاي الذي تركته وبدأ يرشفه ببطء وتلذذ، قال:

منذ سنوات.

قلت في تشكك: أنت لم تكن زميله في العمل. أليس كذلك؟

قال في بساطة:

بالطبع كنت زميله، ولكن في السجن. أنت تعرف أنه دخل السجن بسبب السياسة، ولكنني سجنت بسبب العبط. هذه حكاية طويلة. يبدو عليك التعب. خذ قسطا من الراحة وسوف أحكيها لك فيما بعد.

لم أكن متعبا بقدر ما كنت حائرا، أتخبط في ظلام الوقت وقلة المعرفة، نهضت واقفا، نظر إليَّ في فزع:

ماذا تفعل؟ إلى أين تذهب؟

في الحقيقة لا أدري، أشعر أنه لن يأتي الليلة ولا فائدة من انتظاره. ربما أحضر غدا.

نهض واقفا، تحرك حتى أصبح يقف بيني وبين الباب، قال:

لا تتسرع بالذهاب، يمكنك أن تبقى الوقت الذي تريده، يمكنك حتى أن تقضي الليلة هنا، أفضل لك من الفندق، ويمكن أن يأتي حسن في أي وقت.

كان مرعوبا، في حاجة إلى من يشاركه في مواجهة فزع الوحدة، كنت أنا أيضا خائفا، لا أعرفه ولا آمن له، يبدو لي مهتزا وغير مستقر، ولكنه كان مصرا على استبقائي:

لا جدوى من أن ترحل الآن وتعود غدا لمقابلة حسن. لا شك أنك مقيم في أحد الفنادق، سأوفر عليك تكاليف الإقامة، الغرفة هنا أفضل.

تلفت حولي وأنا أقول: أنا شاكر لك. ولكني لا أرى هنا غرفا إضافية.

قال من فوره: ستنام في غرفة الأستاذ شخصيا، هل هناك مكان أفضل من ذلك؟ إذا جاء فجأة يمكنني أن أقول له إنني فعلت ذلك بدافع الشهامة لأنك بلدياته. هيه ما رأيك؟

فوجئت بعرضه المغري، كان سيدخلني إلى عرين الرجل الذي أعياني البحث عنه، رأيت علامات الخوف على وجهه، قلت مترددا:

أخشى أن أكون عبئا عليك؟

قال في فرح حقيقي:

لا تعب ولا حاجة، سنذهب لصلاة الفجر معا، لم أهبط للمسجد منذ شهور، وسنتناول الفطور معا، وسأقص عليك حكايتي مع الأستاذ، ومن يعرف، فربما يأتي إلينا بنفسه.

في النهاية، لم أكن أريد أن أعود خاوي اليدين، عاودت الجلوس مرة أخرى، أستمع إلى ثرثرته التي تبدو بلا نهاية، أقاطعه أحيانا بالتثاؤب، والنظر إلى ساعتي، ولم أصدق نفسي حين رأيته ينهض ويلقي عليَّ تحية المساء.

لا أصدق نفسي، أنا الآن أقف في منتصف حجرته، وحدي وليس هناك شاهد عليَّ، تحيط بي الأشياء التي تخصه، الفراش الذي ينام عليه، الغطاء المطوي نصف طية، بعض من الملابس التي يرتديها معلقة على مشجب، منضدة مائلة عليها بعض الكتب ومعداته الهندسية، بقايا أيام الكلية، بيجاما مخططة من إنتاج مدينتنا، شبشب

زنوبة، غرفة عادية ومتواضعة، تشبه غرفتي إلى حد ما، لا توجد فيها صور معلقة على الجدران، لا توجد صورة له ولا حتى لـورد ولا لأي أحد من أصدقائه؛ لا لأبيه الذي مات غدرا ولا لأمه التي رعته وحدها. جدران عارية من أي تذكارات، كأنها غرفة في فندق متواضع، مهجورة دوما، لا توجد فيها ألفة الحياة ودأبها اليومي، جلست على الفراش وقد حل عليَّ تعب اليوم الفائت. كانت حقيبتي ما تزال محفوظة في الفندق، وعليَّ أن أخلع ثيابي وأنام بملابسي الداخلية، لا أعرف إن كان عبد المعطي يتنصت عليَّ من خلف الباب أو لا، ولكن الفضول كان يقتلني. من المستحيل أن أتعامل مع المكان ببساطة وحيادية بعد أن سعيت للوصل إليه طوال هذه المدة، حاولت ألا أحدث صوتا وأنا أفتح درج «الكوميدينو» المجاور للسرير، كانت فيه عدة أوراق، فواتير، وإيصالات للإيجار، لم أجد لها أهمية. ذهبت إلى المنضدة، مجموعة من الكتب الدراسية، متكوم عليها طبقة من الغبار، لم تفتح منذ فترة من الزمن، قلبتها بحثا داخلها عن أوراق أو صور، درت في الغرفة، فكرت أن أفتش ثيابه المعلقة على الحائط، ولكني كنت خائفا وشاعرا بالخجل، كنت أقتحم خصوصيات إنسان معذب، ترى أكانت ورد تعرف كل هذه العذابات، أم أنه أبعدها عن كل ذلك؟ هل قدم لها صورة براقة عنه فقط ليطمئنها؛ صورة الشاب الأكاديمي الناجح المفتوحة أمامه أبواب المستقبل؟ كيف برر أمامها أيام غيابه التي قضاها في السجن؟ كم كانت المدة؟ تجولت في الغرفة كحيوان حبيس، في حاجة إلى أي شيء يظهر أمامي، إشارة أو دليل. الوقت يتسرب مني، والفتاة المسكينة ما زالت واقفة تحت الطل والبرد، وحتى الآن لا تظهر أي

إشارة، ولكن ربما تحدث معجزة صغيرة وأسمع صوته الآن وهو يدخل باب الشقة.

كنت خائفا من أن يقتحم «عبد المعطي» الغرفة في أي وقت ويراني على هذه الحال، أحسست بالبرد وقد بدأ يتسلل إلى جسدي، أطفأت الضوء واستلقيت على فراشه وشددت غطاءه، كان فراشا خشنا؛ كأنه قد جلبه معه من داخل السجن. حاولت أن أغمض عيني، أن أتخيل شكله، أتخيل ردة فعله عندما يقابلني ويستمع إلى كلماتي، وبرغم كل ما أحس به من تعب لم أستطع النوم، ظللت أتقلب، أحسست بالتعب في كل مكان في جسدي، ثم اكتشفت أنني لم أكن قلقا بسبب أفكاري فقط، الفراش نفسه لم يكن مريحا ولا مستويا، كانت هناك أغراض مخبأة تحت المرتبة. شعت الفكرة في خاطري كضربة برق، ربما كان مثلي، يحتفظ بأوراقه الخاصة تحت مرتبة فراشه، ربما كانت الغرفة عارية لهذا السبب، لم يكن يحب الإعلان عن الأشياء التي تخصه، كلها موجودة في مخبأ سري تحت المرتبة.

طار النوم من عيني، نهضت من الفراش، سرت في الظلام، ظللت أتعثر حتى وصلت إلى باب الغرفة، فتحته ببطء وتطلعت إلى الصالة الخالية، لا تضيئها إلا لمبة «سهاري» شحيحة الضوء. سمعت صوت شخير «عبد المعطي» قادما من الغرفة المقابلة، كان قد غرق في النوم بعد أن اطمئن على وجود من يرافقه في الشقة، لا بد أنه قضى ليالي من السهر والفزع، أغلقت الباب مرة أخرى في هدوء وأشعلت الضوء. عادت الحياة إلى الغرفة، قاومت الخجل الذي أشعر به، ولكن الوقت لم يكن في صالحي، مهما قمت من أفعال فإن غايتي طيبة؛ إنقاذ روح مسكينة. لم تكن المرتبة سميكة. استطعت

رفعها بسهولة وكشف كل ما كان تحتها، لم يكن هناك كثير؛ ألواح خشبية متراصة، في ركن منها ترقد حافظة جلدية زرقاء اللون، هي التي كانت تقلق نومي، أمسكتها بأصابع مرتعدة، أعدت المرتبة إلى مكانها، جلست على الفراش ووضعتها أمامي. شاهد صامت عن الشخص الذي حيرني البحث عنه، هل يجب أن أكف عن النبش في حياته؟ يكفي ما فعلته به الأيام، ويكفي الاقتحامات التي تعرضت لها حياته؟ ولكني كنت ممتلئا بالفضول، ولم يكن من الممكن أن أدع هذه الفرصة تفلت من يدي وأنا أجلس في هذه الغرفة مشلولا عن الفعل، في انتظار قدومه الذي قد لا يحدث. مددت أصابعي ورفعت اللسان الجلدي الذي يغطي الحافظة، تحسست أطراف الأوراق الناعمة بداخلها، فوجدتُ حوافِ صلبة مشرشة، لفافة، وكراسة، وأقلاما، ولا شيء، كنت خائفا أن أخرج وأعرضها للضوء حتى لا تحترق، مثلما كان يحدث لأفلام التصوير الجديدة، سحبت رزمة من عدة رسائل ملفوفة بشريط من المطاط.

«لا أملك كثيرا من الحب يا قلبي، ولكني أعطيتك كلّ ما أملك». هكذا بدأ السطر الأول من الرسالة الأولى، كلمات مكتوبة بخط رفيع منمنم على ورق الأرز الخفيف، يوشك على التمزق من سن القلم، لم يكن اسم ورد مكتوبًا في آخرها، ولكن كانت هناك وردة مرسومة بخطوط متعرجة. أخرجت بقية الرسائل من شريط المطاط الذي كان يلفّها، فككت طيات الرسائل بعضها من بعض بحذر كأنها أوراق زهرة جافة، شممت رائحة عطر خفيف، ذكرتني بوقفتها، الرائحة نفسها التي شممتها عندما اقتربت منها، ليست رائحة الموت، ولكن رائحة عذراء خجول على وشك أن تموت عشقا. وجدتها أمامي

نابضة بالحياة كما لم أرها قط، تبذل له عصارة قلبها، تدلّها وعشقا وتوقا، لها قلب صغير أمضه الفراق، وحزّت فيه أيام الغياب، حاولت أن أعرف تاريخ الرسائل، هل كان ذلك قبل دخوله السجن، أو بعد خروجه؟ كانت الصفحات الأولى مليئة بدهشة وفرح وخوف، المشاعر التي تثيرها لمسة الحب الأولى «كلما لمست أطراف أصابعي، سرت في جسدي رعدة.. وتلوّن الهواء». كيف تبدّلت المدينة وهما يسيران معا في شوارعها كعاشقين، كأنما غسل المطر بيوتها فلم يترك عليها ذرة من وسخ، وكأنما عرف الناس بهجة الابتسام بعد طول عبوس، تنساب كلماتها الصغيرة المنمنمة في عيني، لا تواريخ محددة، لا أدري كيف لم تشعر بتجربة السجن المروّعة التي تعرّض لها، أو لم يعرف بها أحد في مدينتنا، هل كان ذلك عندما كانت خائفة منه إلى حدّ ما؛ عندما كان يتعمد إيلامها؟ «لماذا تقبض على أصابعي بهذه القوة؟ أنا لن أذهب بعيدا عنك، ليس لي سواك، ولماذا تقبّلني بمثل هذا العنف، لقد أدميت شفتي، وظل طعم الدم في فمي طوال الليل، كنت أريد أن أشعر بطعمك أنت لا طعم الدم». لا بد أنه كان جائعا ويريدها بعنف، ولم يكن جسدها النحيل يتحمل هذه المعاملة الخشنة. شعرت بالغيرة، وبغصّة في حلقي، كانت تتوسل إليه: «لماذا تلحّ عليَّ، ولماذا التسرّع؟ أنا لك وأنت تعرف ذلك، إذا حدث هذا الآن، فماذا يمكن أن أقدّم لك في ليلة زفافنا؟». كانت تجاهد من أجل عذريتها، لم تجد تبريرا لغيابه عنها، لماذا اختفى فجأة من حياتها؟ «إني أنتظرك كل صباح وكل مساء.. هل هجرتني؟ هل كان ذلك لأنني رفضت التجاوب معك؟ من المحزن أن تكون في مدينة بعيدة عني وعن قلبي، أنا فعلا خائفة

وأتساءل: هل ستعود إليَّ، أو لا؟»، وعندما ظهر مرة أخرى لم تسعها الفرحة. كانت تريد أن تهبه أي شيء حتى لا يغيب عنها ثانيا، «أي شيء تريده.. لم يعد شيء يغلى عليك»، ولكنه كان يتصرف معها بغرابة: «لا أستطيع التعرف إليك، أخاف من النظرة القاسية التي تبدو في عينيك حين تشرد بعيدا عني، وبدلا من أن تتحسس جسدي في رقه تضغط عليه بقسوة، أستطيع أن أتحمل منك أي شيء ولكن لا تكن قاسيا عليَّ، يكفي ما فعلتْه بي أيام انتظارك»، أقلب الرسائل بأصابع مرتعدة، لا بد أن هذا حدث بعد خروجه من السجن، تحول إلى كائن آخر كما يحدث عادة، هل ظل محتفظا بحبه لها؟ أكان يحبها حقا، أم أن تدفق عواطفها نحوه هو فقط ما كان يجمعهما، هو الذي سحب روحها معه؟ «أنت لا ترد عليَّ، ولا تأتي إلى البلدة، ماذا حدث؟ هل قدمت لك نساء القاهرة ما لم أستطع أن أعطيك إياه؟ هل هذا هو السبب حقا؟ مهما كان ما ستأخذه منهن، فلا يوجد عند إحداهن الحب الذي يمكن أن أقدمه لك» أكان يتغير، ينأى عنها، أم كان خائفا عليها من الشخص الذي أصبح عليه؟ لماذا لم يعد يأبه بتوسلاتها، بقربان جسدها الذي تقدمه إليه؟ «تعال وافعل بجسدي ما تريد، أنا ملكك وسأظل كذلك ولا حساب للزمن»، لماذا استسلمت له إلى هذا الحد؟ هل أصبحت حاجتها إليه تفوق رغبته؟ «يارب.. كم أعاني من الخجل! لقد رأيتَ جسدي عاريا، روحي عارية، ومع ذلك فقد رفضتني، لم أكن أريد أن ألزمك بشيء. كنت فقط أريد أن أقرب بيننا، سأقول لك السبب، ولا تغضب مني، لقد رأيت الفزع الذي تعاني منه، لا تستطيع أن تجلس معي من دون أن تنتفض أو تتلفت حولك، أردتك أن تهدأ في حضني قليلا، وأن ألتمس

منك قليلا من الدفء. انكسر بيننا شيء، ماذا ستقول عني بعد أن رفضتني؟» توقفتُ عن القراءة، أحسست أنه ليس من حقي أن أتوغل في علاقتهما إلى هذا الحد، كنت قد دخلت منطقة مليئة بتحولات لم أفهمها، رغبته فيها ومقاومتها، ثم رغبتها هي وزهده فيها، رغبات محبطة من الجانبين، أعدت الخطابات إلى مكانها.

فوجئت ببطاقة تسقط من بين الأوراق؛ بطاقة صغيرة ملونة، عليها اسم محل «ذكرى البرعي للأزياء» بجوارها كانت صورة لامرأة لا تشبه ورد، أكبر سنا وأكثر نضجا، تبدو بشعرها المنفوش وعينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين أشبه بنمر بري، رابض ومتحفز وباهر الجمال، أحسست وأنا أتأملها أنها امرأة غير عادية، قلبت البطاقة، هناك رقم هاتف مكتوب على ظهرها، هل له علاقة بها؟ هل الرقم المكتوب هو رقمها الخاص؟ الرقم الذي لا يطبع على بطاقة المحل، هذا هو كل ما خرجت به، خيط وحيد رفيع ربما ينقطع في يدي قبل أن أصل إلى شيء. نهضت من فوق السرير ووضعته في حافظتي، فتشت في الحقيبة جيدا ولم أجد فيها ما يمكن أن يلفت نظري، أعدتها إلى مكانها تحت المرتبة، أغلقت الضوء وأنا أدعو ألا يكون عبد المعطي قد أحس بما فعلته. رغما عني بدأت أفكر في صورة هذه السيدة، هل لـحسن فعلا علاقة بها؟ ما عمرها بالضبط؟ لو صدقت توقعاتي فإنها أكبر منه سنا، هل هي التي جعلته يزهد في ورد؟ هل أحست بغريزة المرأة أن هناك من سرقه منها؛ ومن أجل ذلك حاولت أن تقدم جسدها قربانا له؟ بدأ الشك يداخلني، أسيستجيب لي لو حدثته عن مأساة ورد، أم أن الأمر لم يعد يعنيه؟ برغم يومي المتعب، ظللت أتقلب في الفراش.

ظلت الكوابيس تمسك بخناقي طوال الليل، تتداخل معها صرخات قادمة من ناحية العشش نصف المحترقة، وصيحات صادرة من مكبرات الصوت، استيقظت وضوء النهار يتسلل من خلال النافذة، و«عبد المعطي» يقف بالقرب من سريري مرتعدا كعادته، شعرت بالفزع من مجرد اقتحامه الغرفة، أدركت من هيئته أن حسن لم يظهر طوال الليل، ومازلت أسعى خلف السراب، هتف بي:

يجب أن نهبط حالا. الشيخ «مسعود» يدعونا جميعا للوجود داخل المسجد.

لم أفهم أهمية هذا الأمر، تثاءبت لأخفف من ألم جسدي، قلت:

ربما يريد إقامة الصلاة ولا يجد عددا كافيا من الزبائن.

لم يبال بسخريتي، هتف مؤكدا:

الأمر جدي، فهو لم يتوقف عن الصياح من بعد صلاة الفجر، هناك خطر يحيق بنا جميعا، ارتد ثيابك بسرعة.

لم أستطع أن أتحدى فزعه، ارتديت ثيابي وهبطت معه، كان ضوء الصباح مشبعا بذرات السناج، شاهدت الأهالي نصف المحترقين يتحركون في كتلة واحدة، متجهمين مغبرين نظراتهم زائغة، كل واحد منهم يحمل كوابيسه الخاصة ومخاوفه وشكوكه، وصوت الشيخ يدوّي مؤكدا على حضور الجميع، ومن الخلف تتعالى همهمات غامضة، عسكر متحفزون، الجو كله محمل بنذر مجهولة. قبض «عبد المعطي» على يدي بعنف مؤلم، تلفت حوله في فزع وهم يحيطون به، يزاحمونه في الصعود على الدرج المؤدي إلى باب

المسجد، صعدنا معهم على مرتفع صخري، كانت هناك طرقة تؤدي إلى قلب المسجد،ظلوا يواصلون دفعنا، لم يكف صحن المسجد عن الامتلاء بهم، يلتقطون أنفاسهم بصعوبة، متوترين ومشحونين إلى حد الانفجار، توقفنا في كتلة متراصة كتفا بكتف، لا مكان للجلوس، وبرغم ذلك فقد شممت رائحة عطن السجاد الذي يغطي الأرضية، كان الشيخ العجوز يقف في منتصف المنبر وهو يعبث في لحيته البيضاء، ينتظر توافد المزيد من الأهالي، أخيرا واصل صعود الدرجات المتبقية للمنبر، أخذ ينقر بيده على مكبر الصوت ليتأكد أنه يعمل، تلفت في كل اتجاه، ثم قال ممتعضا:

مالي أرى وجوهكم مربدة هكذا! تحملون غضب الدنيا وهم الآخرة؟ ألا تثقون في رحمة الله؟

لم يصدر عنهم أي صوت، لا إيماءة بالموافقة ولا بالإنكار، بعد كل ما مروا به، لم يعودوا يثقون في أي كلام يقال لهم، لم ينفجر الشيخ فيهم ليتهمهم بالكفر والإلحاد، ولكنه كان صبورا، عارفا بطباعهم، وربما مأساتهم، عاد يقول:

عموما.. لقد جمعتكم هنا لأفتح أمامكم باب الأمل والرجاء، اليوم ستحل كل المشكلات، فقد تحرك قلب حكومتنا الرشيدة لكم، وأرسلت إليكم حافلات خاصة، ستأخذ رب كل عائلة منكم إلى مقر وزارة الإسكان حيث يقوم بالتوقيع على عقد استلام شقته الجديدة.

لم يستوعب أحد معنى كلماته لأول وهلة، تطلع بعضهم إلى بعض من دون كلمة، تحركت رقابهم، بينما دبّ الشلل إلى بقية أجسادهم، الوحيد الذي تنهد في ارتياح كان «عبد المعطي»، أحس

أن هم الرعب قد انزاح من فوق كاهله، حرك شيخ المسجد بصره بين وجوههم المذهولة، عاد يصرخ:

ألم تفهموا كلمة مما أقول؟ الحافلات وعقود المساكن في انتظاركم، لماذا تقفون أمامي كأنكم أصنام مكة؟ هل تريدون أن تظلوا في الشارع لبقية عمركم؟ هيا تحركوا، اذهبوا. خذوا مسكنكم.

أفاقوا على صرخاته، انتبهوا لوضعهم البائس، استداروا إلى باب المسجد الضيق، تدافعوا في وقت واحد، انحشرت أجسادهم، كل واحد كان يريد الخروج أولا، تبادلوا السباب، سقط بعضهم فوق الدرج الحجري، لم يحاول أحد أن يساعدهم، تحولوا فجأة إلى أفراد طامعين بعد أن كانوا جميعا في محنة. تحركت أنا و«عبد المعطي» في بطء، توقفنا ونحن نراقب عدوهم وصراعهم الذي بدأ مبكرا، عند حافة المنطقة المحترقة كانت تقف حافلات ضخمة، لونها داكن مائل إلى الخضرة، بالقرب منها ينتظر عدد من الجنود متأهبين لمساعدة الأهالي على الصعود، ركب بعضهم بسهوله وبسرعة، وظل البعض الآخر واقفا ينظر حوله في حيرة. تقدمت نساؤهم وأطفالهم لدفعهم نحو العربات، كن خائفات أن ترحل الحافلات من دون أزواجهن، أن تضيع عليهم تلك الفرصة الشحيحة. مازالت وجوه رجال الأمن التي تحيط بهم جامدة، لا تفك القبضة المضروبة حولهم إلا عند خروج الرجال، أشبه بمصفاة دقيقة، تدفع النساء والأطفال إلى الوراء، ولا تمرر إلا الرجال الأشداء، حتى الشيوخ تردعهم من دون شفقة، كأن الشقق ستوزع فقط على الأصحاء، القادرين على الاعتراض وإثارة الشغب. كنت أشعر بالقلق وأنا أرى منظر الحافلات، لكن لم يكن أمامهم سبيل آخر، كان الأمر أجمل من أن يكون حقيقيا، هل يمكن

أن يكون الحل السحري قريبا إلى هذا الحد؟ قلت لـ«عبد المعطي» المندهش بجانبي:

إذا كانوا سيحلون لهم المشكلة، فما لزوم كل هذا العدد من رجال الأمن؛ عساكر يحيطون بهم، وآخرون يساعدونهم على الركوب، حتى سائقو الحافلات من الأمن.

قال «عبد المعطي»: ربما تكون الشرطة هي التي ستعطيهم المساكن!!

استمر التدافع نحو الحافلات حتى أصبحت الساحة خالية من الرجال، وزامت المحركات وبدأت الحافلات في السير، أطلت وجوههم المغبرة من خلال النوافذ، لوحوا بأيديهم لنسائهم وأولادهم، بلا ضحك ولا ابتسامات، لم يعودوا قادرين على الفرح، اختفت الحافلات وهدأ الغبار الأسود وساد سكون قلق.

دق الهاتف النقال في جيبي، لم يكن هناك إلا رقم وحيد، قرأت اسم «سمية» بوضوح، ما الذي أيقظها مبكرا هكذا؟ كان صوتها غريبا، مليئا بنوع من اللهفة، تهتف بي في أسئلة متلاحقة:

أين أنت؟ أنا لم أنم طوال الليل، لماذا لم تتصل بي بالأمس؟ هل وصلت إليه، هل قابلته؟

كنت أسمع لهاثها في الجانب الآخر، ولم أدرِ لماذا أصبحت مهتمة بهذا الموضوع، قلت لها:

لقد قضيت الليلة في غرفته، ولكنه ليس موجودا.

لم يسألني «عبد المعطي» مع من أتكلم، ولكنه ظل بجواري يستمع إلى ما أقول، واصلت سمية كلامها اللاهث:

لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى طريق مسدود مرة أخرى.

نظرت إلى «عبد المعطي» مرة أخرى في حذر، لم أستطع أن أقول لها إنني لم أتوصل إلا إلى القليل، قلت:

أخشى أن أكون مضيعا وقتي في هذه المدينة المزدحمة.

ـ منذ يومين فقط لم تكن تعرف سوى اسمه، والآن تنام في غرفته،لا أحد يدري ماذا يحدث في الغد، امنح نفسك وقتا آخر للبحث، عندي محاضرة اليوم، تعال قابلني عند الظهر، حوالي الساعة الواحدة.. في المقهى نفسه الذي تقابلنا فيه أمام الجامعة.

فكرت في نفسي.. المقهى نفسه عندما رأيتها وهي تركب العربة السوداء، ولابد أنها أحست بلحظات صمتي وترددي، قالت مؤكدة:

لا تخف الحساب عندي هذه المرة.

أغلقت الهاتف، حدق «عبد المعطي» فيَّ متوجسا:هل ستذهب إليها؟

أوشكت أن أصرخ فيه أن هذا ليس من شأنه، لمحت نظرة الخوف التي تطل من عينيه، عاد يقول:

ربما يعود حسن في أي وقت، أقسم إنه يأتي، ويبيت في الفراش الذي كنت تنام عليه. على الأقل، عدني أنك ستعود الليلة، أحضر حقيبتك من الفندق وتعال إلى هنا.

قلت له ببعض الحدة:

ما حكايتك؟ أنت بنفسك شاهدت الناس وهم يرحلون، كل واحد منهم سيظفر بمسكن لائق، لن يعودوا بحاجة إلى مهاجمتك، كفّ عن هذا الفزع.

ـ لن أطمئن إلا بعد أن يرحلوا جميعا.. قبل أن تذهب إليها.. تعال نجلس قليلا في المسجد، نستطيع أن نتحدث في راحة بعيدا عن جو الشقة الخانق، أتعرف لماذا أحب هذا المسجد؟

قلت محاولا أن أخفي غيظي منه: لماذا؟

ـ لأن الأمير سنجر حين بناه توقع كل هذه الأهوال؛ لذلك بنى في داخله نفقا سريا للهرب، يمكن أن يقودك إلى مكان آمن، كنت أتمنى لو كان في السجن مثل هذا النفق.

كان مازال هناك وقت على موعدي مع «سمية»، بعد كل ما حدث في تلك الليلة، لا ضير في أن أستمع إليه قليلا، ربما كانت هناك معلومة أحتاج إليها، وكان الجلوس في المسجد الأثري بالفعل أفضل بكثير من شقة الكوابيس. سرنا معا، عاودنا صعود الدرج، استطعت أن أرى كثيرا من التفاصيل التي لم أستطع أن أراها وسط الزحام، على يمين المدخل توجد قبة صغيرة، مكتوب على عتبة بابها أن هذا مدفن الأمير سنجر، الرجل الذي أنشأ المسجد. واصلنا الدخول، تأملت النوافذ الست التي تعلو الجدران، تغطيها ألواح من الحجر المفرغ بزخارف نباتية معشقة ويحيط بها عديد من الرسوم الدقيقة.
أشار لي «عبد المعطي» إلى فجوة غائرة في أقصى الجدار، قال:

هذا هو مدخل النفق، لا أحد يعرف ماذا يوجد في الطرف الآخر.

في هذه اللحظة، سمعنا صوت بكاء كان خافتا، ولكنه دوّى في صمت المسجد الخالي، التفتنا معا. في الركن بالقرب من المنبر كان الشيخ «مسعود» يجلس وكتفاه يهتزان، من الغريب أن أرى وجهه مغطى بالدموع وهو الذي كان يصيح مجلجلا منذ لحظات، اقترب منه «عبد المعطي» وجلس أمامه، هتف مفزوعا:

الشر برّه وبعيد عنك يا مولانا، ماذا حدث؟

رفع الشيخ «مسعود» نظره إليه، نظر نحوه بعيون غائمة، قال:

قاتل الله الخوف يا ولدي، إنه يخرج المرء عن صوابه، ويرغمه على فعل ما لا يرغب.

قال «عبد المعطي»: ولكنك على حق دائما يا مولانا.

ـ غاب الحق عني يا بني، وطاش صوابي حين استمعت إليهم، التاريخ يعيد نفسه، تحل عليَّ اللعنة نفسها التي حلت على الأمير سنجر الذي بنى هذا المسجد،ولكنه بناه تكفيرا عن جريمته، فماذا بيدي لأكفّر عن ذنبي؟

ظللنا ننظر إليه غير فاهمين، لا نعرف ماذا يعني باللعنة، ولا ما جريمة هذا الأمير المملوكي، عاود الشيخ «مسعود» القول:

كان هو الوصي على عرش مصر عندما كان السلطان صغيرا، ولم يكن السلطان يناديه إلا «يا عمي»، ولكن الطامعين في العرش كانوا كثيرين وأقوياء؛ مماليك شرسين من أمراء الحرب، هددوا سنجر بالموت إذا لم يدسّ السم للسلطان حتى يخلو العرش لهم.

شرعوا سيوفهم في وجهه، وهددوه بالدفن حيا، وكان سنجر يعرف أن السلطان الصغير أضعف من أن يحميه، وفي لحظة الهلع القاتلة خضع لهم ورضي بتنفيذ مطلبهم، وكان للسلطان طبق خاص حُمِلَ إليه من الهند لا يأكل إلا فيه؛ إذا كان في الطعام سم تغير لون الطبق. قام سنجر بإخفائه، وعندما سأله السلطان أخبره أنه انكسر، ولأن السلطان كان يثق به، فقد قبل أن يأكل الطعام من بين يديه، وبعد لحظات كان يصرخ: «بطني يا عمي.. أنقذني يا عمي»، وظل هذا الصوت يلاحق سنجر في يقظته ونومه، وحتى بعد أن شيد هذا المسجد واختبأ داخل النفق، ظل الصوت يلاحقه، تماما كما سيحدث لي.

لم يفهم «عبد المعطي» شيئا، ولا أنا، ظللنا نحدق في الأمام لعله يواصل الكلام، لكنه زم شفتيه وهو يحاول التغلب على انفعاله، وقال «عبد المعطي» في بلاهة:

ولكن لا يوجد مماليك الآن يا مولانا.

قال الشيخ في تأكيد:

إنهم موجودون.. لم يختفوا قط.. هم الذين بثوا الخوف في قلبي وجعلوني أفعل ما فعلت.. اتركني وحدي يا بني.. لعل الدموع تخفف قليلا من كرب نفسي.

نهضنا معا، ابتعدنا إلى الركن القصي من المسجد، لم نعد نرى الإمام، ولكن نشيجه كان يأتي إلينا خافتا، يحمله رجع الصدى الذي يتخبط في الأروقة الصامتة، وحتى عندما بدأ «عبد المعطي» الكلام كان رجع الصدى يتقاطع مع كلماته.

عبد المعطي ـ خريج السجون

تسألني لماذا دخلت السجن أصلا.. هل هذا سؤال يا ولد عمي؟ اسأل أعتى ساكني «الليمان» فسيقول لك إنه برئ، صافي القلب، وخالص النية، هكذا خلقنا الله، لا أحد مذنب في نظر نفسه، من يسرق يسرق؛ لأنه محتاج، ومن يقتل يقتل؛ لأنه مغتاظ ويريد فش خلقه، كل واحد وله عذره، وسبب زحام الناس يا ولد عمي وضيق أرزاقهم، أنه لم يعد مسموحا لهم أن يصفّي بعضهم بعضا، كما كان يحدث أيام زمان، والدنيا أيامها كانت حلوة وبراحا؛ لأن عمليات التصفية كانت تحدث أولا بأول. طبعا لو قلت لك الآن إنني بريء، ولو حلفت لك على البخاري، فلن تصدقني. على العموم، لا أدعي أنني بريء تماما، ليس لأنني مجرم؛ ولكن لأني مغفل، والقانون لا يحمي المغفلين، هكذا كانوا يقولون عني في بلدتنا ـ برغم أنني لست مغفلا فعلا ـ ولا لأني أصدق كل ما يقال لي، ولكن لأنه لا يوجد أهل يدافعون عني، ولا عزوة أحتمي بها، كنت وحيدا كنبت شيطاني، لي أم وحيدة، من دون أب، لم تقدر على تربيتي فألقت بي في طرقات الله، ألتقط رزقي من أي مصدر، كنت أذكى منهم جميعا؛ لأني خرجت من المدرسة الليلية وأنا أعرف القراءة والكتابة، بينما كل من

في سني دخلوا المدرسة الصباحية والليلية وخرجوا وهم أجهل من الدواب التي يركبونها. المهم أن أمي تركتني في وقت مبكر، صعدت روحها إلى الذي خلقها، وشاء الذي خلقني أن أبقى وحيدا، لم يعد هناك ما يربطني بهذه البلدة التعيسة فقررت أن أغادرها، وهكذا ركبت القطار ذات صباح وجئت إلى القاهرة؛ مدينة الغرباء والمحتاجين.

مازلت تسألني عن السجن، أنا آتٍ في الكلام يا ولد عمي، السجن قادم كالقدر المحتوم، ما فائدة أن تعرف مسجونا من دون قصة سجنه؟ المهم كان لي قريب مهم من ناحية أمي، لا علم لي غير أنه يعمل في وظيفة في مكان في الحكومة يسمى وزارة الثقافة، كان شخصا مهمّا بشكل ما، ذهبت إلى منزله فرفض أن يستقبلني، لم أذهب بعيدا، نمت أمام باب بيته، تجاهلني في البداية، ثم أبلغ الشرطة فجاءت وأخذتني، وبعد أن أفرجوا عني بعدة أيام، عدت إلى النوم أمام بيته من جديد، ظل خمسة عشر يوما لا يراني، يخطو فقط فوق جسدي الممدد على الأرض ليذهب إلى محل عمله، في النهاية خاف من الفضيحة وأن يقال عنه إنه يترك بعضا من لحمه مرميا في الشارع، وجد لي عملا ولكن بشرط، ألّا أتصل به بعد ذلك، ولا تخطو قدماي في الشارع الذي يوجد فيه بيته، باختصار لا يرى وجهي بأي حال من الأحوال. كان شرطا بسيطا يا ولد عمي، المهم أنه قد أصبح لي شغل، كانت وظيفة تافهة، ولكني على الأقل كنت قادرا عليها، ففي الحقيقة لم تكن عندي أي مهارات تذكر، عملت حارسا داخل أحد المتاحف، كانت مهمتي أن أقف طوال الوقت بجانب أحد الأعمدة أراقب واجهات العرض الزجاجية، تحيط بي من كل ناحية تماثيل جامدة، عيونها فارغة، معظمها كان مهشما، بلا أذرع

ولا رءوس. باختصار، قطع من الأحجار ليس لها أي أهمية، ولكن كان هذا حظي ونصيبي، لم أكن أغيّر مكاني تقريبا، يمر أمامي عديد من السياح العجائز، يتأملن كل شيء، ويطلقن آهات التأوه؛ كأنهن يضاجعن هذه التماثيل، لماذا تثيرهم هذه الحجارة إلى هذا الحد؟ لا يوجد ما يستدعي كل هذه التأوهات، خصوصا أنني أقف جامدا شاعرا بالجوع والعطش والرغبة الدائمة في الذهاب إلى الحمام ولا أحد منهم يراني.

وبعد انتهاء ساعات العمل، وقد كانت طويلة جدًّا، أعود إلى المكان الذي أسكن فيه، نصف حجرة في حارة ضيقة، استأجرتها من امرأة عجوز، كانت تشغل النصف الآخر من الغرفة، أدخل فيها كل مساء كأنني أدخل قبري، لا تسع إلا فراشا صغيرا موجودا على الأرض ومنضدة عليها بعض الأشياء التافهة، لا أضيء مصباحا، ولا أطهو طعاما، أذهب فقط إلى الحمّام المشترك، وأظل مستلقيا على «فرشتي» حتى اليوم التالي. لا أذكر أنني تحدثت إلى أحد، أو أن أحدا رآني وأنا أدخل إليها، تحولت بمرور الأيام إلى واحد من تلك التماثيل الجامدة، الفرق بيني وبينها، أنه لا يوجد من يتأوه عندما يراني، وأنني أنصرف في آخر اليوم بينما تبقى هي داخل المتحف، باختصار يا ولد عمي.. كنت أكره كل حياتي إلى أن رأيت هذا التمثال الصغير.

لا أدري لماذا لم ألتفت إليه من قبل، لم أنتبه إلى وجوده بالقدر الكافي، كان داخل فاترينة زجاجية مع عديد من القطع الأخرى، تحيط به وهو في وسطها، رأس صغير لفتاة، لم تكن كاملة، جانب من رأسها كان مشطوفا، وطرف أنفها الصغير كان مكسورا، وبرغم ذلك

كانت ملامحها واضحة، وجهها صغير وعيناها واسعتان، تنظران إلى شيء بعيد، تعبران الزمان وجدران المتحف، ولكن أغرب ما فيها، كان شعرها المتجعد المنسدل على كتفيها؛ كأنها قد فكت جدائلها للتو، فور أن رأيتها لمعت في داخلي ذكرى حية، البنت التي رأيتها في بلدتنا؛ الأنثى الحقيقية الوحيدة التي شهدت لحظة عريها، كنت مختبئا خلف حرش من الأعشاب البرية على حافة الترعة، وكانت هي خارجة من الماء، جسدها نحيل وثدياها صغيران، يعلوان ويهبطان مع قفص صدرها، وشعرها المحلول الجدائل يلتصق بوجهها، ومثلث صغير من الشعر بين ساقيها، جسدها المبلل كله كان يشع ضوءا خاطفا، خطف بصري فلم أستطع الحملقة فيها طويلا، شمس صغيرة تبزغ من الماء، دافئة ومبللة، تتحرك في أناة وتمهل، آمنة من مراقبة الأعين، تلتقط بعض القش الجاف وتجفف ذراعيها ونهديها وساقيها، ثم تلوي شعرها في أكثر من لية لتصفّي منه الماء، تستدير وتنفض جلبابها قبل أن تدخل رأسها فيه ثم تسدله على جسدها، كان هذا هو كل ما ترتديه من ثياب. سارت على حافة «الريّاح» الواسع حتى اختفت عن نظري، لم أعرف اسمها ولم أنسها، وكلما جلست في سكون الغرفة ضائعا في ظلمتها لم أجد في مخيلتي شيئا أستدعيه غير ذكرى هذه الفتاة، وهاهي ذي الآن تتجسد أمامي في ذلك الشكل الحجري، صامتة ومحملقة ولكنها هي بنفسها، لا أحد سواها، غير عازمة على تركي في هذه المرة، كيف حدث هذا؟ هل كان هناك واحد غيري مختبئا في المكان نفسه، شخص كانت لديه القدرة ليخرجها من ذاكرته ويعيد تجسيدها من جديد؟ لم يكن التمثال قديما إلى هذه الدرجة، لا بد أن واحدا ما على قيد الحياة صنعه لهذه الفتاة

الحية، كيف جاءت إلى هنا؟ ومن الذي وضعها أمامي بالذات كأنه يستجلي الذكرى الوحيدة التي أستأنس بها؟

بعد عدة أيام امتلكت الشجاعة لأسأل واحدا من «الأفندية» العاملين في المتحف، اعترضت طريقه وهو يسير متفحصا القطع المختلفة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها صوتي من زوري، فوجئت أنه لم يصدني أو يتجاهلني مثل الباقين، قلت:

لا مؤاخذة يا أفندي.. لمن هذه الرأس المقطوع؟

نظر إليَّ مستغربا لأن لي القدرة على ملاحظة الأشياء التي تحيط بي، قال:

لماذا تسأل عنها بالذات؟

قلت: يخيّل إليَّ أنني أعرفها، أنها تشبه فتاة في بلدتنا، شاهدتها وهي تستحم، كأنها هي الخالق الناطق.

ابتسم من اندفاعي، قال وهو يهز رأسه:

ربما كانت من بلدتكم ولكني لا أعتقد أنك رأيتها وهي عارية،على الأقل هي بالذات، هذا تمثال للإلهة «نوت» في طور من أطوار حياتها، ولكنك على حق في مسألة الاستحمام هذه، فقد كانت إلهة السماء، هي التي تمنحها الزرقة، وكان في مقدورها أن ترى الغرقى في مياه النيل وتتدخل لإنقاذهم، ربما كنت غريقا وتخيلت أن هذه الإلهة قد تجلّت لك وأنقذتك.

قلت في عناد: لم أكن غريقا، وأنا متأكد أنني رأيتها في الواقع.

قال ضاحكا: لا بأس. ربما. على العموم هناك صور كثيرة لهذا التمثال تباع عند الباب الرئيس، يمكنك أن تحصل على بعض منها.

كان هذا أجمل ما سمعته، هرعت إلى الباب الرئيس، توسلت إلى الفتاة الجميلة التي كانت تبيع الصور والخرائط للسواح أن تعطيني صورة لها، ماطلتني قليلا، وحاولت أن تحصل مني على ثمن الصورة ولكني ظفرت منها بنسخة مجانية، طويتها ووضعتها في جيبي ولم تغادره بعد ذلك قط.

تحول المكان إلى شيء آخر، لم يعد ذلك المكان المقفر الممل، ولم يعد جسدي يعاني من طول الوقت والوقفة المتصلبة، باختصار يا ولد عمي لم أعد وحيدا، تعرفت إلى شخص آخر أستطيع الارتباط به، لم أعد محاصرا بكل تلك الأحجار المشوهة، أصبح هناك تمثال يخصني وحدي، ينتظرني كل صباح، ويودعني في آخر اليوم، أصبحت أعدو إلى العمل، أقف مباشرة أمامها، أتضايق عندما يأتي السواح الأجانب ويحجبونها عني، وعندما ينصرفون كنت أتحدث إليها، لم يكن لديَّ كثير، فحياتي قفر من أي شيء، حدثتها مثلا عن الغرفة التي أسكن فيها، في منطقة عشوائية داخل حارة ضيقة متفرع منها حارة أكثر ضيقا، وعن رحلة خروجي كل صباح بعد الفجر مباشرة وأنني أسير على قدمي طوال هذه المسافة، لا أتوقف إلا قليلا عند العربة التي تبيع الفول، أتناول وجبتي الرئيسة والوحيدة بين عشرات الواقفين، ثم ألحق بميعاد العمل مع بداية النهار. لم أتأخر يوما، ولم أعرف قط ماذا تعني زحمة المواصلات. كان مرتّبي بسيطا ولكنني ادخرت نصفه تقريبا، تكوّن مبلغ لا بأس به مخبأ في حفرة تحت الفرشة التي أنام عليها، لم تملّ مني، صبرت عليَّ حتى قلت

لها كل أسراري على فترات متقطعة، كانت الوحيدة التي أقدر على الكلام معها، وأكثر ما كان يؤلمني أنني مضطر في كل ليلة للابتعاد عنها، والعودة إلى غرفتي المظلمة، وأظل نائما فيها على ظهري حتى يطل نور الفجر من تحت عقب الباب.

ثم تغيرت الأمور ذات يوم يا ولد عمي، سرت في مشواري اليومي إلى المتحف فوجدته مغلقا، كان اليوم عطلة رسمية وأنا لا أدري، لم يخبرني أحد، أو ربما أخبروني ولم أنتبه. وجدت الباب الضخم يقف حائلا بيني وبينها؛ أحسست بالضياع، أخذت أدور حول المتحف لعلي أجد نافذة أو فتحة أنفذ منها إليها، فلم أجد. كان المتحف كتلة مصمتة لا أمل فيها، لم يكن أمامي إلا العودة إلى غرفتي والبقاء في ظلمتها حتى اليوم التالي، ولكن ماذا أفعل في اللوعة والألم اللذين أشعر بهما؟ أدركت للمرة الأولى أن وحدتي تثقل عليَّ، أخذت أسير.. لا أعرف أين أسير، ولا أين أتجه.

لم أذهب إلى حجرتي مباشرة، تنقلت من شارع إلى شارع، وصلت إلى مكان يبدو غريبا، كأنه خارج المدينة، مساحة واسعة من الأرض محاطة بسور من الخشب والصفيح، مرصوص أمامها عشرات من الأوعية والأشكال المصنوعة من الجص والحجر والفخار، مزهريات من مختلف الأحجام وأصص للزرع، مواعين للعجن، جرار للزيت، أوانٍ لحفظ الماء والطعام، قطع للزينة تعلق في الأسقف وأعلى الأبواب، بجانبها تماثيل صغيرة كلها متطابقة، صنعت من القالب نفسه. تأملت كل شيء في دهشة، النقوش الملونة فوق الأوعية الكبيرة، أزهار ونباتات وحيوانات وأطفال صغار لهم أجنحة، تشبه بعض النقوش الموجودة حولي في المتحف، لم أدر إن كانت جيدة أو لا، ولكنْ فيها كثير منها، دخلت إلى المحل، فناء غير

مسقوف في معظمه، مليء بالمزيد من قطع الفخار، سليمة ومتكسرة، في منتصف الفناء يوجد رجل في مثل عمري تقريبا، لحيته واضحة، ورأسه مربوط بلفافة من القماش، كان جالسا أمام دولاب الطين، وإحدى قدميه تضغط على دواسة الدولاب بينما تحيط كفاه الكبيرتان بقطعة من الطين تدور أمامه، كانت الكتلة دائمة التشكل، كلما مسها بأصابعه، انبعجت من أسفل، واستدقت من أعلى، وظهرت لها حواف أشبه بوردة في أوان التفتح، يوجه لها عصا رفيعة ويشكل عليها نقوشا غامضة، مثل التي تكتب في أحجبة السحر والرقى، كنت قد شهدت «فخراني» مثله في بلدتي، ولكن ليس بهذه المهارة، توقعت أن يتوقف ويلتفت نحوي، ولكنه ظل مستغرقا في كتلة الطين، وفي كل مرة تأخذ شكلا جديدا، كأنه يودعها كل ما في نفسه، يعيد تشكيلها على قدر مزاج الهم الذي في رأسه، أحسست أنه يعذب نفسه بهذا العمل المستمر من التشكّل والنكوص، أصدرت بفمي صوتا حتى ينتبه إلى وجودي، التفت نحوي، رفع يده ولكن الدولاب ظل يدور، وكتلة الطين تتشكل من تلقاء نفسها، قلت:

مرحبا يا ولد عمي.

نظر إليَّ؛ كأنه يحاول أن يعود إلى وعيه، قال:

هل تريد أن تشتري شيئا معينا؟

قلت له: ما أريده غير موجود عندك يا ولد عمي.. أريدك أن تصنعه خصيصا لي.

أشار إلى ما حوله: كل أنواع الفخار موجودة هنا، لن تجد في «الفخرانية» كلها تشكيلة مثل هذه.

أخرجت صورة التمثال من جيبي، كنت أرتعد وأعرف أنني أجري وراء عقلي العبيط، لم أكن قد امتلكت شيئا طوال حياتي، وكنت أريد أن أمتلك شيئا مثل هذا التمثال. لم يتناول الورقة مني، ذهب إلى أحد أركان الفناء، غسل يده في وعاء كان ممتلئا بماء متسخ، مسح يده في جلبابه المتسخ، أخذ الصورة مني، تأملها قليلا وهو يضحك:

هذا تمثال قديم من الحجر، من قال إنني قادر على صنع مثل هذه الأشياء؟

ـ سبحان الله يا ولد عمي، لقد رأيت قطعة طين بين يديك، مجرد قطعة طين، ولكنها تتشكل وتتغير تحت أصابعك حتى أوشكت أن تنطق.

جلس على أحد المقاعد وهو يضحك، أشعل سيجارته، نظر إليَّ وهو يهز رأسه:

أنت تضيع وقتي ووقتك، ليس هذا مجالي ولا هذه قدرتي، عليك أن تذهب إلى صانع للتماثيل، حتى هو أيضا أشك أن يقدر على تقليده، هذه أشياء لا تتكرر.

أحسست باليأس وهاجمني الحزن، جلست على أريكة خشبية مقابله، تناولت إناء من الفخار، تأملت ما عليه من نقوش بارزة ومحفورة، قلت:

هناك أشياء كثيرة في المتحف حيث أعمل تشبه هذه ولكنها قديمة، ربما كانت هذه أجمل منها بكثير، على الأقل هذه جديدة لم يصبها البلى.

ضحك في انشراح، ذهب عنه الكرب، قال:

أنت على نياتك، ما اسمك يا بلدينا؟

قلت له اسمي، وأصلي وفصلي، وقال لي إن اسمه «حيرم المنياوي»، كان من بلدة قريبة من بلدتنا، مسيرة يوم بواسطة حمار حصاوي، قال:

ولكن لماذا تريد التمثال إلى هذا الحد؟ هل تنوي أن تسرق الأصلي وتهربه خارج البلاد؟

حكيت حكايتي، وحدتي في ظلمة، غرفتي، تعلقي وشغفي، رغبتي الحارة في أن تؤانسني هذه الفتاة المصنوعة من الحجر؛ لأنني متأكد أن هذه هي كل نصيبي من صنف الحريم، قلت له إنني مستعد لأن أدفع له ما يطلبه، في حدود المعقول طبعا. ظل ينصت لي وهو غير مصدق، حدق في الصورة مرة أخرى، لعله وجد شخصا أكثر بؤسا منه، كنا نتحدث باللهجة نفسها، وكان مثلي يعيش على هامش المدينة، لم تكن الورشة ملكا له على الرغم من أنه يعمل فيها وحده ليلا ونهارا، وينام في أحد أركانها، قال أخيرا:

اسمع.. أنا لم أدخل في حياتي متحفا، وكنت أعتقد أنني لن أفعل، ولكنني سآتي لزيارتك في يوم راحتي، أريد أن أرى التمثال الذي شغلك إلى هذه الدرجة.

من الغريب أنه بالفعل جاء إلى المتحف في اليوم المحدد، لمحته يتجول وحيدا، بيني وبينه عديد من السوّاح العجائز وطلبة المدارس والبنات المتسكعات، لوّح لي من بعيد، ظللت أراقبه، لم يهتم بالتماثيل

الضخمة المتجهمة، تأمل واجهات العرض التي تحتوي على أوعية الفخار، ظل يراقبها بعينين فاحصتين، كأنه يقارنها بتلك التي يقوم بصنعها،كنت متأكدا أنه الأفضل، فمعظم الأواني المعروضة كانت إما متكسرة وإما مشروخة، ليس لها نفع غير أن تظل داخل «الفترينات»، بعد برهة رأيته يقترب مني متمهلا، وقف بجانبي، حدّق في التمثال كما كنت أحدق، اقترب منه قليلا حتى يتفادى انعكاس الزجاج، دار حوله يتأمله في كل جانب، استغرق وقتا طويلا حتى انصرف كل السواح، ثم توقف بالقرب مني مرة أخرى، قال:

ما تطلبه مستحيل، حتى المثال المحترف لا يستطيع أن يصنع مثله، فما بالك بفخراني على قد حاله مثلي؟

أحسست بخيبة أمل، قلت: ألا يمكن أن تحاول يا ولد عمي؟

قال: لو أن هناك قالبا لكان ذلك ممكنا، ولكن من المستحيل أن أصنع تمثالا هكذا.

لم ينصرف، ظل باقيا لمدة طويلة يحدق في التمثال، كأن عدوى مرضي انتقلت إليه. سمعت صوت أنفاسه، مد يده في جيوبه ليخرج سجائره، ولكني نبهته إلى أن التدخين ممنوع، في النهاية ضربني على كتفي بخفة وهو يقول:

لا تحزن. برغم ذلك يمكنك أن تزورني في الورشة لنجلس ونتحدث.

انصرف، ظللت واقفا أمام التمثال، فشلت محاولتي، كنت أعرف أنها صعبة على أي حال، ولكني كنت قد كسبت «صاحبا» في تلك

المدينة المزدحمة بالغرباء، بعد عدة أيام وجدت قدمي تقودني إلى المحل، لم يكن «حيرم» مشغولا هذه المرة، كان جالسا أمام المحل وهو ينفث دخان سيجارته، نهض واقفا عندما رآني وهو يقول:

أريد أن أريك شيئا.

سرت معه إلى الداخل، توقفنا في ركن من الورشة، ورفع غطاء الخيش، ظهرت تحته كتلة من الطين، كتلة مستديرة ولكن ليست لها معالم واضحة، نظرت إليه في تساؤل، انتابه الغضب فجأة وهو يقول:

ألا تراها، إنها الفتاة صاحبتك.

عدت أتأمل كتلة الطين مرة أخرى، فقط حتى يهدأ غضبه،لم أستطع أن أحدد أي ملامح من وجهها، ولكني رأيت شيئا يشبه شعرها، متجعدا ومفروقا في منتصف الرأس، أخرج الصورة التي كنت قد أعطيتها له، أشار لها وهو يقول مؤكدا:

- انظر إلى شعرها.. عدد الثنيات ذاتها.. حتى الخصلات المموجة موجودة أيضا.

لم أملك إلا أن أوافقه، ولكني قلت في ضعف:

ولكن ملامح الوجه غير واضحة.

هتف بي: ماذا تحسبني؟ فرعون. أنا أحاول بكل ما أعرف، صاحب الفخارية لا يدري شيئا عن هذا الأمر، ولا أستطيع الاقتراب منه إلا بعد أن ينصرف.

جلسنا الواحد بجوار الآخر على الأريكة الخشبية أمام التمثال،

لم يعد من اللائق أن أطلق عليها كتلة الطين بعد الآن، أهديته علبة السجائر التي أحضرتها له، وقبلت منه كوب الشاي الصعيدي، ونظرنا معا إلى التمثال في امتنان.

أصبحت هذه عادتي اليومية، أمر به قبل أن آوي إلى ظلام حجرتي، نجلس معا كأننا في عزلة، لم أر أي زبائن، ولا يمر أمامنا سوى السيارات المسرعة. ربما بسبب الوقت؛ لم أكن أحضر إليه إلا بعد أن ينتهي كل البيع والشراء، نجلس أمام التمثال، نحاول أن نصنع له ملامح، يكون «حيرم» بمفرده كل ملمح، يسألني ولكني أعترض ونبدأ من جديد، نعدل ولا نكف عن التعديل، نفتح مكانا للفم، لا يشبه الفم الأصلي، ولكنه يعطي معنى للوجه، نحدد شكل الشفتين الصغيرتين، نحرص على أن تكونا ممتلئتين بارزتين إلى الأمام قليلا، كأنهما تستعدان لقبلة لم تتم. نشق فتحة للعينين، كل عين غائرة ومستدقة الأطراف، نظرتها ساهمة، تنظر خلف حدود الورشة التي نجلس فيها، وخارج الزمن الذي نعيش فيه. تكونت الجبهة الصغيرة، وحلت فيها لمعة غريبة، وانسابت الوجنتان، خوخا وتفاحا، وظلت الأذنان مخفيّتين تحت الشعر المنسدل، استيقظت في داخلنا معا صور البنات اللاتي عرفناهن في بلدتي وبلدته، بنات ناعسات العيون، ناهدات الصدور، مسترسلات الشعور، نائمات يحلمن في غيطان البرسيم، تشف ثيابهن وهن يملأن الجرار، يتمايلن وهن يحملن كومات القش، يرقصن في الأفراح وترتفع أصواتهن صدّاحة مع أنغام المزمار، حين نلقاهن يرمقننا بنظرات عابرة، فتضيء في الروح ومضة من قمر ونجوم بعيدة، عيونهن المتألقة، رموشهن المقوسة، تتسلل الصور في ومضات متتابعة، تسري إلى أصابعنا وهي

تشكل الطين، أصبحنا نراها كما ترانا، لا أهمية لمقارنتها بالأصل الموجود في المتحف، أصبحت أصلا في حد ذاتها، كان الشبه بعيدا ولكنه استولى على مشاعرنا معا، أصبحت حلمنا اليومي، حديثنا الذي ينسيني الطعام وينسيه شرب السجائر، أجهشنا بالبكاء معا ونحن نحملها لنضعها في فرن الفخار، ونزيد من إشعال النار، وعندما خرجت شهقنا من لونها الأحمر القاني، تركت أصلها الطيني وأصبحت أقرب إلى لحم البشر. أصرّ «حيرم» أن يضع عليها صبغة «التوتياء» الزرقاء الداكنة، لون التمثال الأصلي نفسه، خيل إليَّ أن الإلهة نوت التي حدثني عنها أفندي المتحف تطل علينا، وتذرف دموعها معنا.

أصبح «حيرم» مأخوذا بها أكثر مني، على الأقل كان في حياتي تمثال آخر، أما هو فقد أحس أن هذا التمثال قد غيره، جعله يخرج للمرة الأولى عن القوالب الذي كان يعمل فيها ولا يخرج عنها، شعر أنه قصر في حق أصابعه ولم يعطها حقها، لم أجرؤ على أن أطلب منه التمثال، كان قد أصبح لنا معا، حتى النقود لا تكفي لتعويضه، ولكنه كان هو الذي حملها وقدمها لي ذات مساء، قال:

خذها من هنا، اذهب بها إلى نصف غرفتك. أليس هذا ما كنت تريده؟

ترددت، لمست الفتاة بأصابعي، ثم أبعدتها لأخفي رعدتي، قلت له:

اختلف الأمر يا صاحب، إنها لك كما هي لي.

قال «حيرم» منفعلا:

إنها تربكني، في كل يوم اضطر لإخفائها عن صاحب الفخرانية، ومع ذلك أحس أنها تربكني وتعطلني عن عملي،خلّصني منها.

أحسست أنه يقول هذا الكلام من وراء قلبه، ولكني حملتها على صدري، سرت غير مصدق، نظر إلى سكان الحارة في دهشة وأنا أنفذ من بينهم متجها إلى غرفتي. من هذه اللحظة، وهي شديدة القرب مني هكذا، لم تعد تمثالا، أحسست بجسدها الفخاري ينبض تحت أصابعي، متلهفة مثلي لتصل إلى الغرفة، أشعلت المصباح، المرة الأولى التي أحتاج فيها إلى الضوء، ليلة استثنائية، وضعت الرأس فوق المنضدة الصغيرة بعد أن أخليتها وفرشتها بالجرائد، جلست على «فرشتي» في مواجهتها، تخيلتها وهي تعاود البزوغ من جديد، تخلع الثوب عن جسدها فيبدو جلدها شاحبا ومقشعرا تحت ضوء الشمس، تخطو للماء، تتحسسه أولا بأطراف قدميها، ثم تنزلق تدريجيا وسط أحضان المياه، تصدر صوتا مرتعدا، تمد يدها وتفك جدائلها، تهز رأسها فيتناثر الماء من شعرها كنجوم صغيرة، ظللت ساهرا أمامها؛ حتى يغلبني النوم، فتتداخل صورتها في أحلامي، ويلامس جسدها في الفراش جسدي، وأبلغ معها نشوة لم أصل إليها من قبل.

استيقظت في الصباح حائرا وسعيدا مما حدث لي، كانت في انتظاري أيضا داخل المتحف، نظرت إلى فمها الصغير، وشفتيها الحجريتين، هل كانت تبتسم لي، ابتسامة صغيرة ومتواطئة، كأنها تذكرني بما حدث في ليلتنا؟ بعد العمل اشتريت خرطوشة سجائر كاملة، كان سعرها مرتفعا بالنسبة إليَّ، ولكنني وجدت أن هذا أقل تعويض يمكن أن أقدمه «لحيرم»، كنت أنوي أيضا أن أعترف له بكل

ما حدث في ليلتي، ولكني لم أجده في الورشة، كان هناك رجل ضخم ذو شارب كثّ جالسا على مقعد بالقرب من الباب، حين سألته عن «حيرم» لوّح بذراعه وهو يصرخ:

الله يلعنه، لقد رحل، قال فجأة إنه عاجز عن مواصلة العمل، لا أعرف ماذا حدث لمخه، أصبح شاردا، وضبطته وهو يقوم بتكسير بعض الآنية التي صنعها، لقد جُنّ.. والله العظيم.. جُنّ.

كان من العبث أن أسأله عن أي تفاصيل. كانت مفاجأة مريرة لي أن يختفي «حيرم» فجأة، عدت وحيدا، ولكنه قد أعطاني شيئا يضيء غرفتي، بين الحزن والنشوة تواصلت دورة حياتي، تناولت وجبتي المعتادة على عربة الفول باشتهاء أكثر، وسرت بخطوات أخف.

ولكن الأمر في المتحف كان مختلفا، في ذات يوم فوجئت بحالة من الفوضى والفزع، كانت سيارات الشرطة تسد المدخل، ورجالها يدفعون الناس في عنف، وجمع من السائحين واقفون على جنب وهم خائفون كأنهم متهمون، لم أعرف ما حدث إلا بعد ساعة تقريبا، بعد أن نجحت في إقناع الشرطة الذين يفرضون الحصار أنني أعمل في هذا المكان، ويجب أن أكون موجودا، ولم أر ما حدث إلا بعد أن وصلت إلى مكان حراستي، كانت الواجهة الزجاجية مكسورة، وتمثال الفتاة مختفيا. شهقت في حسرة لفتت إليَّ أنظار الجميع، جذبني الضابط، أوقفني في صف طويل مع بقية العاملين في المتحف. كنا جميعا مشتبها فينا، في دائرة الاتّهام، شعرت بطريقة غامضة أنني الأشد عرضة للاتّهام بين الجميع، فالسرقة تمت في المنطقة التي أحرسها، ولو دقق الضابط في الأمر لعرف سر العلاقة

التي نشأت بيني وبينها، وأن هناك «عذولا» ما يحاول أن يحرمني منها، ولكني كنت قد أخذت نصيبي منها، جزء منها يرقد بعيدا في غرفتي، ملكي الخاص الذي لا يشاركني فيه أحد.

تفحّصني الضابط بشك واضح، انهالت عليَّ أسئلته، أين تسكن؟ ماذا تفعل بعد انتهاء العمل؟ من هم أصدقاؤك؟ كم تقبض من نقود؟ لم يتخل قط عن نظراته المتشككة، ولم يصدق أي إجابة ذكرتها، لم يتصور أن هناك شخصا مثلي يعيش مثل هذه الحياة المغلقة في مدينة مفتوحة، على هامش العالم كما قال لي. أنهى التحقيق معي متبرما، ونبه عليَّ ألّا أذهب بعيدا، فالتحقيق سيتواصل معي ومع الجميع حتى يكتشفوا من قام بالسرقة.

عدت مسرعا إلى غرفتي، خشيت أن يختفي الجزء الآخر، ولكني تنهدت حين وجدتها في انتظاري. جلست أمامها وأخبرتها عن السرقة وعما فعله بي الضابط، كان «حيرم»،الله يكرمه، قد أعطاها لي في الوقت المناسب، كأنه كان يعرف ما يخبّئه لي القدر. نمت سعيدا في الضوء، وكلما تقلبت وجدتها تراقبني، لم تتخل عني، ولكني كنت في حاجة إلى شقيقتها الكبرى لأواصل العمل،كان أملي الوحيد أن تعثر الشرطة عليها سريعا، ولكن المتحف ظل مغلقا، والضابط الشكاك يحوم حولي بمناسبة ومن دون مناسبة. لم يعد الأمر يطاق فلم أعد أذهب إلى العمل، ولا أخرج حتى من غرفتي، لا أحس برغبة في الخروج، ولا تشتهي نفسي الطعام، ضاق العالم الخارجي حولي، وخفّت ضجته فلم يعد له وجود.

لم أدر كم مر من الوقت في وحدتي، أقصد في وحدتنا أنا وهي،

ولكن في يوم ما، سمعت طرقا على باب غرفتي، الأمر النادر حدوثه، قبل أن أتحرك من موضعي. فوجئ بالباب ينخلع من مكانه ويسقط على الأرض، ظهر الضابط الذي كان يحقق معه وخلفه فرقة كبيرة من رجال الشرطة، كيف استطاعوا الوصول إلى مكاني، وأنا أسكن نصف حجرة في حارة متفرعة من حارة في حي عشوائي؟ وكيف تجمع كل هذا العدد من رجال الشرطة في مكاني الضيق؟ وقبل أن يوجه لي الضابط كلمة واحدة فوجئت به يصيح في فرح، وهلل العساكر من خلفه، كانت عيونهم جميعا قد وقعت على رأس الفتاة ذات الشعر المتجعد. هجم الضابط عليها واختطفها من أمامي، كأنه خطف روحي، قفزت عليه لأحرّرها منه، ولكن العساكر انهالوا عليَّ بالضرب، شدد عليهم الضابط في معاقبتي فخلعوا الأحزمة وأخذوا يهوون بها، جرّوا جسدي الدامي المليء بالرضوض على الأرض، تفرجت عليَّ الحارة من صغيرها إلى كبيرها، بعضهم تعرفوا إليَّ للمرة الأولى وأنا أجر على الأرض، كانت عربة «البوكس» واقفة خارج الحي؛ لأنها لا تستطيع الدخول في الحارة الضيقة، ألقوني فيها، وحملوني إلى قسم الشرطة.

وفي أثناء التحقيق، حاولت أن أحكي لهم حكايتي أنا و«حيرم» ولكنهم زاموا في وجهي وواصلوا ضربي، كنت متأكدا أنهم فور إعادتها إلى المتحف سيكتشفون الحقيقة، سيكتشف أي أفندي من الآثاريين، وحتى غير الآثاريين، أنها نسخة مقلدة ومن الفخار أيضا. ولكن الغريب حقا أنهم أكدوا جميعا أنها التمثال الأصلي، وشهد أحدهم أنني كنت دائم السؤال عن قيمتها وكم تساوي لو بيعت؟ لم

أصدق أذني، أحدثت معجزة وأصبح التمثال أصليا بالفعل، أم أنهم جميعا يدارون أمرا ما؟ لا بد أنهم كانوا جميعا سعداء بخروجهم من دائرة الاتهام إلى درجة أنهم قبلوا بأي شيء. لم يحاول واحد من الشرطة أن يبحث عن شيء تمّ العثور عليه، ولم يكلف أحد من المتحف نفسه عناء نفي التهمة عن واحد تم اتهامه بالفعل.

أغلقت القضية، وجدت نفسي في السجن محكوما عليَّ بعدد من السنوات، سجن مشدد كما نص منطوق الحكم، يتناسب مع الجرم الذي ارتكبته، ذهبت إلى سجن ما وسط الصحراء، قائظ وخانق، عرفت فيما بعد أن اسمه «بطن الحوت»، ولكن أيامي الأولى لم تكن سيئة. كنت وحيدا في زنزانة مغلقة، وكنت متعودا على ذلك، لم أكن أضيق لا بالوحدة ولا بالسجن المشدد، غير أنهم سلبوني جزءا من روحي، أخذوا مني الفتاة التي حلمت بها طويلا، لو أنهم تركوها معي في الزنزانة لما تغير شيء في حياتي، ولكن الأمور تبدّلت عندما حرموني حتى من الزنزانة المنفردة، أعادوني إلى عالم السجناء المكتظ؛ قتلة ولصوص ومغتصبين ومروجي مخدرات ومختلسين وقوادين. فجأة وجدت نفسي وسطهم، أحتكّ بهم كل يوم، أتناول معهم طعامي، وأتنفس معهم الهواء نفسه، كانوا مفزعين، والأشد فزعا أنني لا أستطيع أن أعتزلهم وأبقى مع نفسي، كنتُ لقمتهم السائغة، مهما حاولت أن أقاومهم، كانوا يحاصرونني بأجسادهم الضخمة ووجوههم الشرسة، يسحقونني كل يوم؛ يأخذون طعامي، ويضربونني على قفاي، ويدسون أصابعهم في مؤخرتي. لم تكن لي القوة لأرد عليهم، وليس هناك من يزورني لأشكو إليه، ولا أملك نقودا لأقدم الرشاوي والسجائر للحرس حتى يقدموا لي الحماية،

كنت أعزل تماما، وسط عالم مليء بالأشرار، وبخاصة «زينهم» قتال القتلى الذي وضع عليَّ عينه منذ اليوم الأول.

رأيت حسن للمرة الأولى وأنا منزوٍ في ركن داخل الزنزانة، خرج بقية السجناء إلى طابور الشمس والهواء في فناء السجن، لم أخرج معهم، لم أكن أريد أن أتعرض للإهانة على الملأ، تنازلت عن امتياز استنشاق الهواء والتمتع بنور الشمس، في سبيل لحظة أسكن فيها إلى نفسي، ثم لمحته قادما برفقة أحد الحراس، يسير محني القامة منكسرا، ميزت طول قامته، وبنيته القوية على الرغم من نحوله، كان الحارس يواصل دفعه بغلظة، وهو يبدو كمن أنهك من طول المقاومة، دفعه عبر باب العنبر حتى أوشك أن ينكفئ على وجهه ثم أغلق الباب خلفه وانصرف. ساعدته على النهوض وأجلسته على الفرشة التي أنام عليها، حاول أن يسند ظهره إلى الجدار، ولكنه انكمش وتراجع متأوها، أدركت أن ظهره يؤلمه، لا بد أنه قد تلقّى عليه «علقة» الاستقبال الموعود بها كل قادم جديد، كان وجهه شاحبا، عليه بقايا دماء وجروح صغيرة مازالت تنزف، قدمت له بعض الماء ومسحت الدم والأوساخ من على وجهه، ظهرت ملامحه، كان شابا صغيرا ووسيما لا يستحق كل هذه «البهدلة». هدأت أنفاسه قليلا، ساعدته حتى استلقى على بطنه، وخلعت عنه قميصه، كان ظهره ملتهبا وداميا، بللت قطعة من القماش وأخذت أمسحه برفق، وهو ينتفض متألما ولكنه لم يوقفني، حدق فيَّ فقط بعينيه المتسعتين، قلت له مهونا:

لا بأس عليك يا ولد عمي.. شدة وتزول.

ظللت أضع عليه القماش المبلل لأخفّف من الاحتقان قليلا وأمسح آثار الدم المتجمد، كانت هناك زجاجة من البلاستيك تخص أحد السجناء، تحتوي على بقايا من زيت لا أدري من أي نوع، جازفت بأخذ بعضٍ منها، عندما يعرف صاحبها سوف يقتلني، ولكني لم أحتمل أن أشاهد كل هذا الألم، مسحت بالزيت على جلده الملتهب المشدود، كانت لمساتي تؤلمه، لكنه ظل يحدق فيَّ فقط بعينيه الغائرتين، أدركت من دون أن أسأله أنه مسجون سياسي، هم الوحيدون الذين يدخلون السجن من دون تهمة محددة ويواصلون تعذيبهم حتى يعترفوا بأي تهمة. كنت على حق، عرفت أن اسمه هو «حسن الرشيدي»، كان في المظاهرات الأخيرة التي قامت بها الجامعة، وكان السجن مليئا بكل أنواع المغضوب عليهم، ولكن أجاء هذا السياسي الضال إلى «عنبر الجنائيين» عن طريق الخطأ، أم إن إدارة السجن أرادت إذلاله لأمر ما؟

كان بطن الحوت، مثل بطن أي حوت، يسع كلّ شيء؛ بدو سيناء والجماعات الإسلامية ذات اللحى الطويلة والسياسيين الذين لا يتم الإفراج عنهم أبدا، وسارقي البنوك المحترمين، ورجال الأعمال المتعالين، أما نحن فقد كنا الحثالة، نسكن في المصران الغليظ للحوت بكل ما فيه من ظلمة وعفن، ولكن هذا الشاب كان غريبا بالفعل، ظل صامتا، كل ما فعله هو أنه انتصب بقامته قليلا، لم يرضَ أن يظل نائما كالخرقة عندما يعود بقية السجناء، انتقل إلى ركن آخر من الزنزانة وظل على صمته، كل ما كنت أتمناه أن يتركوه في حاله حتى يتمالك قواه من دون أن يحاول أحد التحرش به، وكان هذا صعبا في مثل هذه الزنزانة الخانقة. من حسن الحظ أنها كانت ليلة

من ليالي الطوارئ، التي يكتشف فيها المسئولون عن السجن مخالفة ما، لم تهدأ الحركة طوال الليل، وظل الحرس يتجولون متحفزين أمام الزنازين حتى ساعة متأخرة، وعندما أظلمت الزنزانة، ولم يبق إلا الضوء الشحيح القادم من الخارج، ظللت أرى عينيه وهما تبرقان في الظلام، لم يستسلم للنوم، لم يرد للنوم أن يوهن إرادته، ظل يقظا محاولا أن يحافظ على البقية الباقية من الحياة داخل بدنه.

أضيئت فجأة كل أنوار السجن، أنوار الممرات والزنازين، كأن ضوء النهار قد عاد، تنبهنا مفزوعين، والحرس يدقون على أبواب الزنازين بعصيهم الغليظة، هل هي نوبة من العقاب الجماعي؟ صرخ واحد من الضباط بواسطة ميكروفون:

كله يخرج من الزنزانة.. نفذ الأوامر.

كانت ليلة باردة، والخروج إلى فناء السجن تحت برد الصحراء يجعلنا على وشك التجمد، فتح الحراس كل الزنازين وبدءوا في ضربنا حتى نخرج بسرعة. ذهبت إلى حسن، عاونته على النهوض، كنت أعرف أنه لن يستطيع، مع كل ما يعاني من جروح، أن يسير وحده بالسرعة المطلوبة، تقبل مساعدتي لأنه كان في حاجة إليها، وضعت ذراعه على كتفي ولففت يدي حول وسطه وساعدته على السير، كنا آخر من استطاع الخروج من الزنزانة، وهوى الحارس على ظهري بعصاه وهو يصيح فينا:

بسرعة يا روح أمك انت وهو.

تلقيت الضربة وحدي، لم يكررها لحسن الحظ، اجتزنا المبنى الحجري، وخرجنا إلى الفناء البارد، أجلسته في ركن بعيد عن الزحام

وجلست بجانبه، التصقنا الواحد بالآخر التماسا لشيء من الدفء. كنت أعرف أن الحرس الآن يقومون بحملة مسعورة لتفتيش الزنازين الخالية، لم أكن خائفا فلم يكن لديَّ ما أخسره، وليست لي أي مقتنيات، لكنها كانت فرصة لهم لتكسير كل ما يمكن تكسيره، وسرقة كل ما يقع في يديهم من حاجيات السجناء، كانوا يبحثون عن الهواتف أو الأسلحة، لم يكونوا يبحثون عن المخدرات بالتأكيد؛ فهي شائعة ومعروف من يروجها، ولا تمثل خطرا بالنسبة إلى الحراس، الهواتف النقالة هي عدوهم الرئيس، فالخوف الأكبر هو أن يتسرب شيء مما يحدث داخل بطن الحوت إلى الخارج.

ظل بقية السجناء يتنقلون في الفناء، يزومون في غضب، يتلاطمون في الظلام، يتشاجرون ويتبادلون السباب والضربات الخفية، كان الجو مشبعا بروح العنف والترقب، سمعت صوته أخيرا وهو يقول:

يا ربي.. إنهم لا يريدون التوقف عن إهانتنا.

كان صوته خافتا وضعيفا، كنت سعيدا حين سمعته، حين بدأ يتواصل معي، قلت:

ماذا فعلوا بك؟

صمت لفترة، حسبت أنه لن يعاود الكلام، ولكنه أخذ يستجمع شتات نفسه، قال:

فعلوا بي كل شيء تقريبا، قبضوا عليَّ داخل كلية الهندسة التي أعمل بها، قيدوني وعصبوا عيني، ظللت يومين مقيدا في الظلام من دون أن يتحدث معي أحد، من دون طعام ولا شراب، بدءوا

التحقيق معي من دون أن أدري أين أنا، ولا من الذي يحقق معي، وعندما سألت عن تهمتي ألصقوا بي كل أنواع التهم؛ عضو في تنظيم إرهابي، عميل للقاعدة، شيوعي سابق، قوّاد، وشاذ جنسيا، عرضوا عليَّ صورا ليؤكدوا كلامهم؛ صورا مع أعضاء التنظيم، كانت بالفعل صورة حقيقية، ولكن في أحد اجتماعات اتحاد الطلبة، حاولت أن أفهمهم ذلك، ولكنهم واصلوا ضربي حتى أعترف، لا أعرف من التقط الصورة، ربما واحد منا، لم يدر أنها ستتحول إلى دلائل اتّهام تدمر مستقبلي، كانت هناك أيضا تقارير من رجال الأمن داخل الكلية، لقد اعترفت بأشياء كثيرة لم أدر ما هي، اعترفت بها وقتها فقط لأنجو من وطأة التعذيب والضرب، المشكلة.. أنني مع كل حفلة تعذيب كنت أجد تهما جديدة تلصق بي، تحولت من مكان إلى آخر، والتهم تتزايد، والوجوه الجائعة تتعامل بالوحشية نفسها، يضربونني بخراطيم المياه وأنابيب الرصاص ويصعقونني بالكهرباء، المتعة الكبرى حين يضربونني بأيديهم المجردة، ضربات بالكف المفتوحة على بطني العارية، يمارسونها ببراعة، لم تكن مؤلمة فقط، ولكنها كانت تدفع أحشائي من مكانها ولا تترك آثارا ظاهرة. لا أعتقد أن هناك جزءا من جسدي لم يتلق ضربة موجعة، ولا أدري إلى متى تستمر هذه الوحشية؟

ضغطت على ذراعه في تعاطف، اشتعلت مشاجرة بين السجناء كما يحدث عادة، كنا مخفيين عن أعينهم، السماء من فوقنا كتلة ملساء من السواد، لا شيء يكسر حدة الظلمة، كأنها صنعت خصيصا لتظلل هذا السجن وتكون سقفا متناهي البعد، قلت له:

لا تدعهم يحطمونك.

ـ لقد قتلوا أبي.. ويريدون قتلي أيضا.

اندفعت الريح من عمق الصحراء وانصبت في فناء السجن، محملة برمال ناعمة كندف الثلج، التفت حول أجسادنا المقرورة في دوامات متتابعة. هدأت المشاجرة فجأة والتصق المساجين بالجدران،لم يعد هناك مأوى ولا عاصم، ولا أدري لماذا استغرقوا كل هذا الوقت في البحث داخل الزنازين. استطال الليل، بدأ المساجين يفقدون القدرة على الحركة، جلسوا في أماكنهم، التصقوا بعضهم ببعض، ولم يعد أحد قادرا على إخفاء صوت رعدته، اعترضوا وصرخوا وطالبوا الحراس بإدخالهم من البرد، وكعادة السجن لا أحد يستجيب، وكان السجناء يعرفون أنهم لو بالغوا في الاحتجاج فليس هناك إلا المزيد من العقاب، بعد قليل خففت أصواتنا جميعا، تحولنا إلى كتل عاجزة، تتلقى قطرات الطل التي تهمي من السماء من دون مقاومة، أصبحت ثيابنا جميعا مبللة، ملتصقة بأجسادنا، لم يعد حسن قادرا على الكلام، ولكن البرد زاد من آلام جسده، ومن المؤكد أنهم في الداخل كانوا قد انتهوا من تفتيش أي شيء وسرقة كل ما يجدونه، وبرغم ذلك فقد تركونا تحت قسوة برد الليل. كنا على وشك الموت، وأحسست «بحسن» وهو ينتفض، لم أستطع أن أرى وجهه ولكني كنت أشعر بالحياة وهي تنسحب من جسده، أردت أن أحتضنه، ولكني كنت أيضا على وشك التجمد، وكانت دموعي تسيل على وجهي من دون أن أستطيع منعها. بدأت أضواء الفجر تشق السماء الصلدة، تحولت ظلمتها إلى سمرة من الرماد، ونظرت إلى حسن كان شاحبا إلى حد مذهل، تمنيت لو أن الشمس تسرع باعتلاء السماء، كنا في حاجة إلى لمسة من الدفء، تذيب الدم المتجمد في عروقنا،

وأخيرا فتح باب الفناء، ظهر أحد الضباط وحوله بضعة من الحرس يمسكون العصي والبنادق، وأحدهم يمسك بندقية سريعة الطلقات، حدق الضابط فينا قليلا ثم صاح:

صباح الخير يا زبالة.. هل أخذتم نصيبكم من البرد؟ هذا يعلمكم ألّا تخالفوا التعليمات، من يعتقد منكم أننا لا نسمع ولا نرى ما خلف الجدران فهو حمار.

أخرج أربعة من أجهزة الهواتف المحمولة، ألقاها على الأرض وأخذ يدهسها بحذائه، كأن صوت تَكَسُّرِ المعدن هو عظامنا التي تتكسر، عاد يصيح:

نحن نعرف من أدخل هذه الأجهزة، وبمن اتصل، وماذا قال، وسنجره هو وأمه وأخته الشرموطة إلى الحبس الانفرادي. لقد قضيتم الليلة فقط في العراء، في المرة القادمة سيتواصل الليل مع النهار وأنتم في العراء، هيا إلى الزنازين يا زبالة.

استدار وخرج، وبدأنا نحن في التحرك بوهن، حاولت مساعدة حسن على النهوض ولكنه كان غير قادر على الحركة، يلتقط أنفاسه بصعوبة، والزرقة قد كست وجهه بسمة الموتى، كان في آخر لحظات مقاومته، مرت عليه ساعات طويلة وقاسية، أدخلت ذراعي تحت ركبتيه، ووضعت ذراعي الأخرى خلف ظهره، رفعته بصعوبة فوق كتفي، لم أكن أريد أن أفقده، أتاح لي تصلب جسده أن أتحكم فيه قليلا. سرت مترنحا، نظر إليَّ أحد الحراس مغتاظا، التقطت أنفاسي بصعوبة وأوشكت ركبتاي أن تنثني تحت ثقله ولكني واصلت السير، وعندما وصلت إلى الزنزانة لدهشتي الشديدة وجدت بقية المساجين

ينهضون لمساعدتي، وبرغم التعب والإرهاق، حملوه معي حتى أسجيته على فرشتي، لففته بالبطاطين، بدأ الضوء يصبح ساطعا، ينفذ إلينا محملا بالحرارة من النافذة المرتفعة، تمنيت أن يأتي النهار بالدفء، ينقذنا جميعا. أنهك الجميع من شدة التعب والإرهاق وسرعان ما ملأت الزنزانة أصوات غطيطهم، ولكني ظللت مستيقظا أراقب حركة تنفسه، كنت أريده فقط أن يجتاز هذه الساعات الحرجة، أن يواصل جسده عمله الطبيعي، توقفت الرجفة، وبدأت الزرقة تنسحب من وجهه تدريجيا، وهبت من النافذة نفحة من ريح الصحراء محملة بالدفء، أحسست بالراحة، أخيرا وجد جسمه الراحة والدفء اللذيْن كان يحتاج إليهما.

لم يحضر الطعام إلا متأخرا بعد أن ضاعت علينا وجبة كاملة، كانت كعادتها سيئة وغير مستساغة الطعم، ولكنها كل ما أملك، ليس لي غيرها، لا حساب في «كانتين» أسحب منه ما أحتاجه، ولا أحد يحضر لي زيارة من أي نوع، كان رفض أي وجبة يعني أن أتضور جوعا، لم أقترب من الطعام حتى يستيقظ ويشاركني، ولابد أن الضجة التي ثارت في الزنزانة جعلته يفتح عينيه. نظر إليَّ وأنا جالس بجانبه نصف نائم ونصف يقظان، تأمل البطاطين الملفوف بها، تأمل ما حوله مندهشا، نظر نحوي وهو يقول:

أنت فعلت كل هذا؟

قلت في فرح: هذا لا شيء.. المهم أنك عدت إلينا.

ساعدته على النهوض قليلا، وبدأنا في تناول الطعام معا، نظر الجميع إلينا في صمت، لم يحاول أحد الاقتراب منه، كانوا يدركون

أنه بالكاد يتمسك بأطراف حياته، لم يكن جسده النحيل مهيأ لكل ما أصابه. تناول القليل من الطعام وظل جالسا ساهم النظرات، حاول أحد السجناء أن يقدم له سيجارة فهز رأسه شاكرا، عرض عليه سجين آخر برشامة «إسبراكس» مخدرة تساعده على احتمال الألم، ولكنه ابتسم ابتسامة شاحبة، كان أصغر الموجودين في الزنزانة، وأكثرهم براءة، ولم يكن هذا مكانه بالتأكيد، ظللت جالسا بجانبه، ولم يخرج أحد إلى الفناء في ذلك اليوم. لم نكن نستطيع أن نحتمل مواجهة الجو الخارجي بعد الليلة الماضية، وببطء شديد بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها وبدأ يستعيد قواه، ولكني لم أغادر مكاني من جانبه.

بعد عدة أيام استطعنا الخروج إلى الشمس معا، وبرغم خطواته المهتزّة فوق الأرض، فقد شعرت بالثقة وأنا أسير بجانبه، لم أصدق أنني ظفرت بصديق في هذا المكان المقفر، تذكرت «حيرم»، ترى هل يعرف ما فعله تمثاله بي؟ جلسنا جنب الحائط، أخذت أحكي له القصة الوحيدة في حياتي؛ قصة تمثال الفتاة ذات الشعر المتجعد. كنت أسخر من نفسي وأنا أحكي له عن رغبتي الحمقاء في أن أمتلك شيئا؛ أنا الذي لا أساوي شيئا، استطعت أن أنتزع منه الضحك، وضحكت معه على نفسي.

كنت أمسح الدمع الذي طفر من عيني، عندما حجب الشمس عنا ظل رجل ما، كان «زينهم» يقف أمامنا، ينظر إلينا غاضبا ومستثارا، تحدث إليَّ وهو يشير إلى حسن:

ما هذا يا «فرخة»؟ هل وجدت أحدا غيري؟ ألم أعد أنا كافيا لك؟

انكمشت في رعب، تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبتلعني،

غاضت الضحكات، نظر إليه حسن مندهشا ومذعورا، مدّ «زينهم» يده وأمسك برقبتي، ارتجفت، كنت على استعداد لأن أجثو على الأرض وأقبل قدميه، كنت قد تخلصت من المهانة للتو وأصبح لي صديق، ولكنه أمسك بخناقي وبدأ يجذبني، نهض حسن واقفا في مواجهته، صاح به:

ماذا تريد منه، اتركه.

أخرج زينهم سلاحه، سكينا صغيرا، مسنونا ومدببا، كنت أعرف أنه يخفيها دائما في طيات ملابسه، شهرها في وجه حسن، قال ساخرا:

ما هذا يا كتكوت؟ لم تخرج من البيضة بعد وتعلمت الصياح، هل تريد أن أترك علامة على وجهك الصغير؟

أُرْتج على حسن، تلفت حوله لعله يلمح أحدا من الحراس، ولكن كلهم كانوا قد اختفوا؛ في مثل هذه المواقف يختفون جميعا. حاول حسن التقدم منه ولكن زينهم دفعه بقوة إلى الوراء، سقط على الأرض وهو يتأوه، لا بد أن ضربته جاءت في مكان مؤلم، جاء بعض السجناء من أنصار زينهم والتفوا حوله، حلقة من الثياب الزرقاء الداكنة، خفتُ على حسن من مجرد وجودهم، جرجرني «زينهم» من قفاي، لم أملك إلا أن ألتفت إلى حسن الذي كان يتابع ابتعادي في ذهول، أشرت له بعيني ألّا يتدخل، أوقفني «زينهم» في منتصف الفناء، مد يده وخلع سروالي في حركة سريعة، أمرني أن أخطو خارجا منه وهو يلوح بالسكين، ضربني على مؤخرتي وهو يضحك منتشيا، شاركه بقية السجناء في الضحك، حاولت أن أعدو

هاربا، لحق بي وأسقطني أرضا، أدخل إصبعه في مؤخرتي، أشار إلى بقية المساجين من أتباعه فتدافعوا نحوي في صخب، أحاطوا بي؛ بعضهم يضرب مؤخرتي، أو يجذب عضوي، وبعضهم حاول أن يستخدم عصا رفيعة بدلا من إصبعه، امتطى «زينهم» ظهري كأنني حمار وأخذ يصفع مؤخرتي العارية، سقطت، تلوث وجهي بالطين وبكيت من شدة الكمد والقهر، وأخيرا جاء صوت واحد من الحراس وهو يصرخ في الجميع:

توقفوا يا حيوانات.

أخيرا ظهر ثلاثة من حراس السجن، دفعوهم بعيدا عني بواسطة العصي، زام السجناء معترضين، كانوا غاضبين مثل أطفال انتزعت منهم لعبتهم، تراجع «زينهم» عني وهو يهتف بالحارس:

نريد أن نلعب قليلا، هو يريد ذلك ولم يشتكِ.

دفعه الحارس بعيدا عني، وصاح في الجميع:

إلى العنابر جميعا.

أهوى بقية الحرس عليهم بالعصي ليحثوهم على الانسحاب، ضربني الحارس بحذائه وصاح بي:

انهض يا علق.. ليس هذا وقت الشرمطة.

كنت أبكي، أتعثر في سروالي وأحاول ستر نفسي، رأيت حسن واقفا بجانب الحائط مذهولا ومصفر الوجه، فطن أحد الحراس لوجوده فدفعه للسير نحو العنبر، سار بخطى ثقيلة، وسرت خلفه منكس الرأس. داخل الزنزانة لم أجرؤ على الجلوس بجانبه، جلست

صامتا وأنا أرمقه في كل فترة من الوقت، أجد عينيه معلقتين إلى أعلى، إلى النافذة الصغيرة في أعلى الجدار التي كان ينفذ منها الضوء، ولكن الضوء ظل يغيب ويتلاشى،حتى حل الظلام.

حاولت بعد ذلك في الأيام التالية أن أتحدث إليه، قلت له مهونا من الأمر:

لم يحدث شيء، مجرد مزاح بين الرجال، أمر يحدث كل يوم.

لكنه أشاح بوجهه عني، لم يعاتبني، ولم يلمني، لكنه أصبح يخرج وحده، بدأ يتماثل للشفاء وأخذ يمشي بثبات فوق الأرض، ويعدو أحيانا حول العنابر المتفرقة، يدور في حلقات متصلة، يمتص أكبر قدر من هواء الصحراء، اندملت جروحه، بدا أن الذين يضطهدونه قد نسوه مؤقتا، لم يستدعه أحد للتحقيق، ولم يعد جسده يتعرض لمزيد من الضغط والإنهاك، ولكنه لم يصفُ لي، لم أكن أعرف إن كان يتجنبني أو يحتقرني، ربما وجد أن صلته بي ستجلب عليه سخرية بقية السجناء،لم يكن عليه أن يسير بجانب «فرخة» منتهكة مثلي.

لا أدري كم يوما مرّ بي، وأنا أشكو من تجاهله وعزلتي. لا أدري لِمَ بدا الأمر مريرا هكذا. كنت متعودا على ذلك، ولكن منذ أن ظهر في حياتي وقد أعطاني بعضا من الأمل، ولكن المفاجأة حدثت بعد أيام طويلة من الاختباء داخل الزنزانة، وجدته ينهض من ركنه، يقترب حتى يقف أمامي، قال:

حان الوقت لنخرج معا للشمس.

نظرت إليه في توجس، كان وجهه جامدا لا يوحي بأنني استعدت

صداقته،، لكنه سار فسرت خلفه طائعا، خرجنا إلى الشمس، جلس حسن مستندا إلى الحائط، فجلست بجانبه، قريبا منه لحد استطاعتي، كنت خائفا ومرتعدا، بدا على وجهه شبح ابتسامة شاحبة، أشار لي برأسه حتى اقترب منه، أقتربت أكثر ولكن لم أجرؤ على الجلوس بمحاذاته، لم أحاول أن أفتح الحديث معه، ارتعدت وأنا أشاهد «زينهم» واقفا وسط رجاله، كان الحرس يراقبون حركة السجناء، اطمأننت قليلا، ولكني ظللت ملتصقا بالحائط، كان حسن يجزّ على أسنانه كأنما عقد عزمه على أمر ما، ظل الهدوء سائدا وخادعا، تغير كل شيء عندما وجدت «زينهم» يقف أمامنا، أشار نحوي آمرا:

انهض يا فرخة. تعال نلعب قليلا.

لم أنهض، نظرت إلى الحرس فلم أجده، انكمشت في الحائط وأنا أرتعد، مدّ يده ليقبض على ثيابي ويجرجرني كما تعود أن يفعل، فوجئت بحسن يقف بيني وبينه، يقول في حزم:

اتركه.

لم يقلها إلا مرة واحدة، لكن الأمور تطورت بسرعة البرق، في اللحظة التي كان «زينهم» يهم فيها بإخراج سكينه، وجدته يجأر بالصراخ متألما والدم يغطي وجهه، لم أر يد حسن وهي تتحرك، ولا هي تخرج بالسلاح وتمزق وجه زينهم، انتفضت وأنا أسمع صرخته المفاجئة وقد باغته الألم، تراجع من أمامنا وهو عاجز عن الرؤية، تعثر وسقط على الأرض، وضع يده على وجهه ليكتم الدم المتدفق، نهض واستدار حوله، ولكن من الغريب أن الحرس ظهروا في هذه اللحظة. لم يتحرك حسن من مكانه، اكتفي فقط بأن

وضع يده وراء ظهره، في هذه اللحظة فقط رأيت السلاح الذي استخدمه، لم يكن أكثر من حافة نصف موسى مربوطة بقطعة صغيرة من الخشب، لا أدري من أين أحضره، ولا متى صنعه؟ نظر الشاويش حمزة في تجهم إلى وجه «زينهم» الغارق في الدم، قال في قرف:

تستأهل؛ حتى تكف عن الافتراء على خلق الله.. كله على العنبر ياحَوَش.

لم يحاول التحقيق بالأمر، لم يلتفت صوب حسن أو يصادر السلاح الذي معه، ولابد أنه رأى أيضا طرف السكين في يد «زينهم»، ولكنه لم يرد المجازفة مع أي منهما، ترك «زينهم» من دون أن يعرض عليه أن يأخذه لعيادة السجن، لم يصدق أحد ما حدث، وأن «زينهم» يقف عاجزا عن أي رد، سار حسن وسرت خلفه، وبدا السجناء جميعا في الانسحاب، وحين التفتّ لم أجد سوى «زينهم» واقفا، وحيدا ينظر في أثرنا.

ظل وجه حسن جامدا، وعندما جلس في ركن الزنزانة لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، حتى أنا، اكتشفت أنه قد كبر فجأة. تضاعف عدد التجاعيد على وجهه، وأصبحت ملامحه أكثر صلادة، وبريق عينيه أشد نفاذا، وبعد أن كانت تطفأ الأضواء في الزنزانة كنت أراهما يشعان بوميض غامض، رأيت «زينهم» بعد ذلك وهو ملفوف الرأس، لم يبلغ عن من فعل به هذا، كان هذا قانون السجن، لا أحد يشي بالآخر مهما حدث له وإلا نال احتقار الجميع، عليه فقط أن يتحين الفرصة ليظفر بثأره، الضعاف فقط هم الذين يلجئون إلى إدارة

السجن. كنا جميعا ننتظر اللحظة التي ينقض فيها «زينهم»، الذي ظل يحوم حولنا كصقر جريح، وبرغم ذلك لم يتراجع حسن ولم يبدُ عليه الخوف، في كل يوم كان يشير إليَّ حتى نخرج للشمس، ولا أملك إلا أن أطيعه صاغرا، كان ظهوره المستمر، وجلسته المتصلبة المستعدة لكل هجوم، مثيرْين لاحترام الجميع، ويبعثان بالخوف في نفوسهم مثلما تفعل بي، تغيرت نظرة المساجين إليه في الزنزانة، احترام يخالطه الرهبة، عرض عليه أحدهم الطعام والحلوى كنوع من التقرب والتحبب، ولكنه رفض، ظل متفردا، حتى أنا نفسي بدأت أرهبه وأسعى خلفه واجفا.

لم يهاجم «زينهم» في التو، لعله كان ينتظر حتى يشفى قليلا،أو يغيب الحراس طويلا، ولكن حدث أمر غريب، لم أفهمه، ولا زلت لا أفهمه، كان «زينهم» قد تعافى، نزع الرباط من حول وجهه، بدت آثار ندبة الموسى واضحة متورمة، التأم الجرح ولكن حوافه بقيت ملتوية إلى الخارج، أصبح وجهه أكثر قبحا من ذي قبل، وقف في وسط الفناء وهو ينتفض من فرط الغضب، وبدا واضحا أنه شاهد وجهه في المرآة وأدرك فداحة ما حل به، كان أتباعه غاضبين مثله، يريدون أن يمسحوا الإهانة التي لحقت بهم، وانتصب حسن وحيدا، رأيته وهو يخرج حد الموسى من جيبه، ويخبئه في يده خلف ظهره، انكمشت أكثر في الجدار، بحثت عن فجوة أستطيع الاحتماء فيها، درت بعيني بحثا عن الحراس، كانت هذه هي اللحظات التي يختفون فيها دائما. من المستحيل أن يباغته حسن للمرة الثانية، ومن غير المحتمل أن يخرج من المعركة من دون إصابات، ربما تكون قاتلة هذه المرة، توقف السجناء وهم يعدون أنفسهم لمشاهدة معركة

دموية، وظل حسن واقفا كغصن شجرة يابس، لا يهتزّ ولا يتراجع، تردد «زينهم» قليلا وهو يشاهد هدوءه، ولكنه أخرج السكين، لمع نصلها واضحا في ضوء الشمس، كانت أكبر من السابقة، لا أعرف من أين أحضرها، ولا كيف شحذها بهذه الحدة؟ ولكن الموسى الذي يمسكه حسن كان شديد الوهن في مواجهة هذا السلاح، هل أظل واقفا مستندا إلى الحائط، أو أتركه وأهرب؟ تقدم «زينهم»، قال من بين أسنانه:

لن تفاجئني هذه المرة يا خَوَل.. يا صاحب الخَوَل.

أشار نحوي بطرف السكين، فأدركت أن دوري سيأتي بعد حسن، جف حلقي، حتى قراءة الفاتحة لم أقدر عليها، ثم ظهر الحرس من مكان ما، يتقدّمهم الشاويش حمزة، متأهبين متحفزين، يحملون العصي الغليظة، ويتجهون مباشرة إلى هدفهم، حاول «زينهم» أن يخبئ السكين، لكنها كانت أكبر من أن تختفي بسرعة، انقضوا عليه جميعا، كأنهم كانوا يترقبون هذه اللحظة، ضربوه على يده التي تمسك بالسكين،ثم انهالوا بعصيهم وكعوب بنادقهم على صدره ورأسه وساقيه، ظل يدور بينهم قبل أن يسقط، تفتحت جروحه القديمة، غمرت الدماء وجهه من جديد، لم يعد يلاحق الضربات التي لا تتوقف، لم يرحموه وهو على الأرض، وهو يستغيث طلبا للرحمة، ركله «الشاويش حمزة» في صدره بعنف:

فاكر نفسك جزار في سلخانة يا بن الحرام.

أمسك بالسكين الملقاة على الأرض، رفعها عاليا ليراها بقية المساجين، عاد يصيح:

هذه عقوبة من يحمل سلاحا محرما، هذا الملعون لن يغادر الحبس الانفرادي بعد اليوم.

توقفوا عن ضربه أخيرا، تكوم حول نفسه وترك أثرا من دمائه على الأرض، أصبح مسكينا ومستكينا إلى حد مذهل، أحسست بالرثاء له برغم كل ما فعله معي. حدث هذا وحسن واقف في مكانه، كل ما فعله هو أنه أسقط حافة الموسى من يده، وحرك قدمه حتى يخفيها بين التراب، لم تعد معركته، حسمها الآخرون نيابة عنه، وعندما حمل العسكر «زينهم» واختفوا داخل العنبر، انزاح الكابوس من على صدري، تمنيت أن يبقى في الحبس الانفرادي إلى الأبد، أو على الأقل حتى أخرج من السجن. انسحب المسجونون بعيدا، أخذوا يتحدثون في همس، يشيرون نحو حسن بخوف، هل كانوا يربطون بينه وبين ما حدث؟ لم أكن أعتقد أن له أي صلة بالحراس، على الأقل بعد ما رأيته وهو متوتر ومستعد للمجازفة، ظللنا جالسين في صمت، أتأمل آثار دماء «زينهم» وأنا أتساءل: كيف حدث هذا؟

فتح باب العنبر وخرج الشاويش حمزة وحده، سار بتمهل حتى توقف أمامنا، كان مازال يلهث، في يده السكين التي أخذها من زينهم، وعلى حلته الرسمية بعض من دمائه، تخيلت للحظة أنه سيقود حسن إلى السجن الانفرادي هو أيضا، وكنت على استعداد لأن أذهب بدلا منه، لكنه توقف وهو يهز رأسه، وقال في صوت هادئ:

ما رأيك يا «با شمهندس»؟ تدخلنا في اللحظة المناسبة وأنقذنا حياتك، أليس كذلك؟

ظل حسن واقفا يحدق فيه، لا يدري لماذا فعلوا ذلك، وما سر

هذا الاحترام الذي أصبح الشاويش يتحدث به معه؟ كان هناك شيء غير طبيعي، بعد فترة من الصمت، بدا على الشاويش حمزة أنه لم يكن ينتظر إجابة، أراد فقط أن يستعرض قوته، وقد عزز ذلك وهو يضيف مشيرا إلى كومة التراب:

خذ سلاحك حتى لا يقع في يد أي مسجون آخر.

امتُقع وجه حسن، وارتجفت وأنا جامد في مجلسي، لم يكن هناك شيء قد فات عليه، لم يتحرك، لكن حمزة ظل يحدق فيه وهو يتلاعب بالسكين. أومأ الشاويش نحوي برأسه، سرت على أربع إلى المكان المدفون فيه السلاح، أخذته وناولته له، مسح التراب من عليه، قدمه لحسن مرة أخرى وهو يقول في صوت خافت:

ضعه في جيبك.

صدرت عني آهة مدهشة، نظر الشاويش نحوي في قسوة، أسرع حسن ووضع حد الموسى في جيبه، قال حمزة:

هذا أفضل. والآن أريدك أن تأتي معي لنتحدث على انفراد، من الأفضل ألّا توجد آذان إضافية.

كنت متأكدا أنه سوف يستدرجه لمصيبة أخرى، وبخاصة السلاح في جيبه، ولكن الشاويش سبقه بخطوتين في اتجاه منطقة خالية من الفناء، بعيدا عن الباب المؤدي إلى داخل السجن. سار حسن نحوه، ابتعدا بحيث لم أعد أسمع أي شيء يقال، لم أكن أتابعهما وحدي ولكن عيون بقية المساجين كانت مثلي؛ في البداية كان الشاويش هو الذي يتكلم، وحسن يستمع إليه جامد الوجه، كان الشاويش يحرك

يده مؤكدا كلماته، لم يكن يبدو من مظهره أنه يأمر، كان أقرب إلى تاجر يعقد صفقة، ويحاول أن يقنع بها الطرف الآخر، وأخيرا هزّ حسن رأسه، أعطى الموافقة التي كان الشاويش يريدها؛ لأن الابتسامة بدت على وجهه وأشار إلى حسن أن يواصلا السير معا.

سارا في اتجاه العنابر البعيدة، المطلية من الخارج بالجير الأبيض الذي تخالطه الزرقة، التي تضم الناس المهمّين كما هو معروف في السجن؛ سياسيين ومرتشين وعديدا من رجال الأعمال، لم يكن أحد منا يجرؤ على الذهاب إلى تلك المنطقة. وعلى الخط الفاصل بيننا وبينهم يقف الحرس متأهبين، في أيديهم بنادق سريعة الطلقات، عالم مختلف، المؤكد أن كلّ طعامهم وملابسهم من خارج السجن، ولا يجرؤ أي عسكري على رفع يده إلا ليضرب لهم «تعظيم سلام»، جلست عاجزا عن فهم أي شيء وأنا أراهما يبتعدان، يتخطيان المنطقة المحرمة، يتقدم الشاويش حمزة ويتحدث مع واحد من الحرس، ثم يشير إلى حسن حتى يسير بجانبه، يقود طريقه حتى يختفيا عن بصري تماما، لم أعد أستطيع البقاء وحدي، أصبحت عاريا من دونه، نهضت منكس الرأس، أسرعت إلى الداخل لأحتمي بجدران الزنزانة بعيدا عن أظافر أتباع «زينهم».

عاد السجناء إلى العنبر، حاصروني بأعينهم المتسائلة، انزويت في أحد الأركان، وبدأ الضوء في الاختفاء من النافذة العلوية، كنت أرتعد، وفكرت أنه لن يعود، وأن الحارس قد استدرجه بهدوء على سبيل الخداع، لم أدر كيف سأحافظ على حياتي من دون وجوده، ولكن قبل أن تطفأ علينا الأضواء فتح باب الزنزانة بهدوء ودخل حسن. نظرنا إليه في دهشة، ونظر هو إلينا بلامبالاة، وجلس في مكانه

من دون أن يحدّث أحدا، وظل الشاويش حمزة واقفا عند الباب حتى جلس حسن في مكانه، ثم قال بلهجة أدهشتنا جميعا:

تصبح على خير يا باشمهندس.

أغلق الباب وانصرف، نظرت إلى حسن، ولكنه لم يكن ينظر إلى أحد، ظلت عيناه معلقتين ببقعة السماء المظلمة التي تظهر من النافذة، كنت أعرف أنه لن يقول لي شيئا، ولم أكن أجرؤ على سؤاله، كل ما قدرت عليه هو أن أسير خلفه كلما أشار إليَّ بذلك، أدرك الجميع أن هناك شيئا غامضا يحيط به؛ شيئا أكبر من مظهره وقوامه النحيل، وتأكد هذا الأمر عندما جاء الطعام في اليوم التالي، لم تكن الوجبة العادية، أو بالأحرى لم تكن تمت إلى طعام السجن بصلة، كانت وجبة متنوعة لم أر مثلها من قبل، ولم أعرف كيف تؤكل، ظل هو نفسه ينظر إليها في استغراب، ثم أشار لي أن أتقدم وأتناول الطعام معه، وكانت المرة الأولى التي أتناول طعاما حقيقيا، لا في السجن فقط ولكن في حياتي كلها.

كان هذا هو الامتياز الوحيد الذي حصلت عليه، تناول الطعام معه، من دون كلمة واحدة، كانت نظرة عينيه النافذتين حين يشرد بعيدا كفيلة بإلزامي الصمت، في الوقت نفسه كانت علاقته بالشاويش حمزة تزداد توطدا، وسيرهما للمساحة المحرمة تتواصل يوما بعد يوم، أحيانا أشعر أنني أقرب الناس إليه في هذا السجن، وأحيانا أشعر أنه يحتقرني، وأنه لم ينس قط مشهد العصا وهي تتدلى من مؤخرتي، ولم أعرف قط حقيقة مشاعره المتضاربة حيالي، ولكن الشهور التي قضيتها بجانبه جعلت منه شخصا مختلفا، من الصعب

إثارة مشاعره بسهولة، ومن الصعب مجادلته أو الدخول في علاقة حميمة معه، وكنت أدرك في أعماقي أن المسافة بيننا تتباعد، وسوف تأتي لحظة الفراق.

جاءت اللحظة ذات صباح، كنت أجلس بجانبه في الفناء، وكانت الحرارة قد بدأت في الارتفاع، وأصبح طقس الشمس مزعجا، ولكن برودة الزنازين كانت تطردنا للخارج، التفت حسن نحوي وهو يقول:

سأغادر هذا السجن بعد بضعة أيام.

كدت أنفجر في البكاء، أوشكت أن ألقي بنفسي على الأرض، أتوسل إليه ألّا يتركني، ولكن النظرة التي ظهرت في عينيه جمدتني في مكاني، أكمل كلماته في هدوء:

أعرف أيضا أن مدتك على وشك الانتهاء، أشهر قليلة وستخرج.

قلت في صوت مكتوم: إذا لم يقتلني «زينهم» أولا.

قال مؤكدا:

لن يفعل.. لن أتخلى عنك.. لم أنس ما فعلته في تلك الليلة عندما كنت على وشك الموت من البرد والإنهاك، لم أفقد الوعي تماما، أحسست بك وأنت تحملني وتلف البطاطين حول جسدي.

قلت: خالصين.. أنت أيضا أنقذتني من.. المهانة.

أمسك عصا صغيرة، أخذ يخط بها على الرمال، كتب عدة كلمات، قال:

احفظ هذه الكلمات جيدا، هذا عنواني في قلعة الكبش، عندما

تخرج من السجن تعال إليه، فستقيم معي حتى تتحسن أمورك.

خرج فعلا بعد عدة أيام، سرت خلفه، توقفت عند الحاجز الأخير وأنا أراه يتجه نحو الباب الكبير، أخذت أردّد العنوان كأنني أردد الشهادتين، ابتعد عني كثيرا، ولم أتصور أنني سأخرج من السجن وأنا على قيد الحياة، لم أخرج من الزنزانة بعد ذلك ولو للحظة واحدة، كنت أعرف أن «زينهم» ينتظرني، وفي ذات يوم ألقى الشاويش حمزة ثيابي القديمة في وجهي وهو يهتف:

غور يا فقري.

كانت ثياب حارس المتحف، عليها بقايا من طين التمثال، وكان العالم أشد غرابة من ذي قبل، وظللت جالسا على باب المنزل في قلعة الكبش يوما ونصف يوم، حتى جاء حسن في آخر الليل، نظر إليَّ في استغراب كأنه لم يتصور أنني مازلت حيا، كان كما هو، وكنت أخشاه، ولكن لم يكن لي مكان آخر ألجأ إليه، اصطحبني إلى أعلى، قال:

ستبقى هنا، المنطقة التي نعيش فيها أصبحت خطرة، مثل كل شيء في هذه المدينة، أريد أن تحافظ على المكان في غيابي، ربما تطول فترات غيابي لأيام، أو لأسابيع.. عليك فقط ألّا تكثر من الأسئلة.

لم أسأل، ومهما استطالت أيام وحدتي لم أشكُ، أصبح حسن بالنسبة إليَّ نوعا من القدر، يظهر حين لا أتوقع، ويختفي من دون أن يأبه بإخباري.

سميّة يُسري - رابعة هندسة

وصلت «الكافيه» مبكرة عن موعدي، وجدته جالسا وحيدا، هذا الشاب الريفي الغريب الذي يبدو نقيًّا إلى درجة السذاجة، مازال يقاوم حتى الآن، لم يصب باليأس برغم أن بحثه يزداد صعوبة، هناك شيء آسر فيه برغم أنه لا يبدو وسيما؛ ربما هو إصراره ورغبته المجردة في إنقاذ روح إنسان كما قال لي، الحب من دون أمل كما لم يصرح لي. كان مستغرقا في نفسه فلم يرني وأنا أدخل، ولم يشعر بي وأنا أقف خلفه تماما، يمسك في إحدى يديه ببطاقة صغيرة ملونة، عليها صورة امرأة، والهاتف باليد الأخرى يريد أن يطلب رقما ولكنه متردّد، يتوقف بعد الضغط على رقمين أو ثلاثة، ملت عليه واختطفت البطاقة من بين أصابعه، نظر نحوي مفزوعا، استدرت وجلست أمامه وأنا أقول:

ما هذا الرقم؟ لم أعطك الهاتف لتكلم فتاة أخرى.

نظر إليَّ وعلى وجهه ابتسامة أضاءت وجهه، أدركت أنني أعجبه؛ يعجبه فستاني الأخضر الفستقي على الأقل، كان شاحبا ومتعبا، هل قضى ليلة مؤرقة وصباحا متعبا مثلي؟ حاولت التظاهر بالمرح، تشاغلت بتأمل البطاقة؛ بطاقة عادية من أحد متاجر الأزياء، فيها

صورة امرأة جميلة بجانبها اسم المتجر، «ذكرى للأزياء»، على ظهرها رقم هاتف محمول مكتوب بخط اليد، رفعت عيني متسائلة فبدأ يشرح لي كيف وجد البطاقة، كان يشعر بخجل شديد لأنه انتهك خصوصيات الشخص الذي جاء يبحث عنه، وأنه سرق هذه البطاقة من بين أوراقه، ضحكت من سذاجته، لم يكن ما فعله مستغربا، ولا البطاقة تعني شيئا، قال:

ولكن صورة هذه المرأة، وهذا الهاتف المكتوب بخط اليد؟!

قلت في استهانة:

الصورة لا تعني شيئا، ليست بالضرورة صاحبة المحل، قد تكون صورة إحدى الموديلات، ولكن رقم الهاتف.. ربما يكون شيئا خاصا.. على أي حال.. هل جربت أن تتصل به؟

كان مترددا، قال معترضا:

نحن لا نعرف ردة فعلها، وربما ترفض الحديث معنا.

ـ إن كانت امرأة أخرى تتحدث إليها، مهما تكن العلاقة بينها وبين هذا المدعو حسن فسينتابها الفضول، وفي النهاية إنها مجرد مكالمة هاتفية، لا أحد منا يرى الآخر.

ضغطت الأرقام، سمعت صوت الجرس وهو يدق في إلحاح، بدا كأنه يرن في الفراغ، عاودت طلب الرقم مرة أخرى وأنا أرى نظرة الفزع في عينيه، وأخيرا سمعت صوتا خافتا يجيب من الطرف الآخر، كان ناعما خافتا كأنها قد استيقظت من النوم، قررت أن أبدأ معها مباشرة وبقوة، قلت:

ألو.. مدام ذكرى.. ربما لا تعرفينني ولكننا نبحث عن «حسن الرشيدي»، نحن نحتاجه لأمر مهم، هل يمكن أن تدلينا عن مكانه أو حتى تخبرينا برقم هاتفه؟

بدا كأنها قد أفاقت فجأة، شعرت بفزعها عبر الهاتف، بنوع غريب من الفزع، هتفت فجأة:

من أنت؟ وكيف عرفت رقمي؟

أدركت أنني أثرت اهتمامها، فاجأتها، حاولت أن أمتص فزعها حتى لا تغلق الهاتف، قلت:

اسمي سمية، وليست لي صلة مباشرة بالموضوع، هناك صديق لي جاء من مدينته، وهو يجلس أمامي الآن ويريده لأمر مهم، يمكنك أن تحدثيه بنفسك لو أردت.

بالطبع لم أعط الهاتف لعلي، كنت أعرف أنها ستتشبث بالحديث معي، لأنها قالت بسرعة:

دعيني أفهم منك أولا، أأنت فاعلة خير، أم أن لك علاقة بحسن؟

إنها تعرف حسن إذن، خيل لي أنني سمعت في صوتها رنة من الغيرة، بلعت ابتسامتي حتى لا تبدو عليَّ ملامح الخبث، أطلقت عليها مزيدا من سهام الكلام:

أنا شخصيا لا أعرفه، هناك فتاة أخرى، ليست أنا بالطبع، ولكن في مدينته، خطيبة حسن كما يقول، إنها تمر بأزمة وفي حاجة إلى وجوده بجانبها.

انهلت عليها بالسهام دفعة واحدة، واضح أنه أُرْتج عليها لأنها اندفعت في الكلام، قالت أشياء كثيرة بسرعة وبكلمات لم أفهمها، حسبت أنها تتشاجر معي، ولكني فهمت منها بصعوبة أنها لن تقول أي شيء قبل أن تقابلنا أولا وتعرف ما حكايتنا بالضبط. مددت أصابعي إلى الحقيبة، أخرجت إحدى كراسات المحاضرات، كتبت العنوان الذي أبلغتني إياه، نظر علي إليَّ متوجسا، قدمت له الورقة وأنا أقول:

إنها في انتظارنا.. اليوم في المساء.. وهذا هو العنوان.

قال مندهشا: لماذا؟ كان يمكن أن تعطينا رقم هاتفه ببساطة.

قلت ضاحكة: أنت لا تعرف النساء كما يجب، تخيل امرأة تحدثها امرأة أخرى عن رجل هي على علاقة به، وخطيبة مجهولة تظهر فجأة، إنه أمر يدفع بأي امرأة إلى الجنون أو على الأقل يثير فضولها، والفضول يا صديقي هو نقطة ضعف المرأة.

أخذ يحاول قراءة العنوان، وكالعادة لم يكن يعرف المكان، قال حائرا:

ما هذا؟ هل هي في المنصورة؟

قلت له ضاحكة:

أنت فعلًا فلاح تقليدي، إنها أحياء جديدة في القاهرة لا تظهر على الخريطة ولا تذهب إليها إلا السيارات الخاصة، اسمها المنصورية.

تعجبني تلك النظرة الحائرة في عينيه، كأنه في كل مرة يتلقى لغزا جديدا:

هل هو حي سري؟

ـ يمكنك أنت تقول ذلك، سكانه لا يحبون الحديث عن أنفسهم، ولا يفضلون قدوم الغرباء إليهم أيضا.

قال في تبرم:

هل من الضروري أن أذهب، كما ترين إلى الموعد في نهاية اليوم؟ كنت أريد العودة إلى بلدتي.

قلت له في حسم:

كف عن هذا القول، لقد بدأت عملا ويجب أن تتمه، أنت مدين بذلك لهذه الفتاة، هل نسيت كلماتك بالأمس عن الحب الذي تعطيه، لا الحب الذي تنتظره.

قال: أنا لا أحبها.. أنا فقط.

عض على شفته السفلى وسكت، غرقنا في الصمت، أحسست أنني متعبة ولا داعي للتظاهر بالمرح أكثر من ذلك، تأملت الوجوه الموجودة من حولي؛ زبائن معتادين من العشاق الصغار، أعرف بعضهم؛ بنات محجبات يتصرفن بجرأة وأولادا يستجيبون في خجل، كنت أشعر بالراحة لوجود علي معي، ربما كنت أحتمي به من ضعفي، نظر إليَّ بعينيه القلقتين قال:

ولكنك لم تقضِ ليلتك في قلعة الكبش، فكيف تبدين مجهدة هكذا؟

ضحكت قليلا، شربت جرعة من «الكابتشينو» كنت أريد أن

أطلب منه أن يحدثني قليلا عن نفسه، ولكنه يبادرني، يراني بشكل جيد، قلت:

لا شيء، مجرد مغص في الصباح، ورغبة في القيء، برد في المعدة على ما أعتقد؟

تأملت وجهه طويلا، لماذا يبدو بهذا الصفاء، كأنه واثق من أن الحياة ستعطيه ما يريد، ولكنه يديره بعيدا؟ تتجه نظراته للرصيف المقابل، السيارة السوداء واقفة هناك، لا أدري متى جاءت، ولا كيف فطن هو لقدومها قبلي، سمعت صوته الخافت يقول في توجس:

هل ستذهبين؟

ظللت صامتة أتأمل السيارة والشمس تنعكس على سطحها اللامع، كانت نظيفة كأن هناك من يلحسها كل صباح، بدأت أحس بالوخز، دبيب حشرات تسير على جلدي، ألم وجوع وقهر، قلت في صوت مكتوم من دون أن أنظر إليه:

سأذهب معك أنت، أريد أن أرى هذه السيدة.. هل عندك مانع؟

نظر إليّ مستغربا من نبرة التحدي في صوتي، ظلت السيارة واقفة، فتح جلال النافذة ونظر حوله، إلى أي مدى أستحق أن ينتظرني؟ ما زال علي يتأملني، كأنه يمتحن قدرتي على المقاومة، قلت:

لقد رأيتني بالأمس وأنا أركب معه السيارة؟

أومأ برأسه، تناول رشفة من كوب عصير الليمون الذي أمامه، قال:

لست مطالبة بتقديم أي تفسير.

لم أكن أنوي ذلك، وأخيرا بعد صمت ثقيل بدأت السيارة في التحرك مبتعدة، تنهدت بمزيج من الحزن والارتياح، لم أكن قد تحدثت في هذا الأمر مع أحد، هناك خجل طاغ يمنعني من الحديث في هذا الأمر، حتى مع نفسي أمام المرآة، فهل يمكن أن أخفف عن نفسي بالحديث مع هذا الغريب العابر؛ ربما لأنه واقع في الشرك نفسه، يعشق فتاة نصف ميتة بلا أي أمل؟ لكن ما أشعر به لم يكن عشقا، كان نوعا من الهوس، أقرب إلى لوثة عقلية، لا أجرؤ على البوح بها من دون أن أعري جزءا من ذاتي؛ جزءا يجب عدم تعريته، حتى لزوجي إن كان مقدرا لي الزواج، ولكن أحيانا كثيرة يخيل إليَّ أن الجميع يعرفون أدق التفاصيل، وأنا الوحيدة التي تخوض في ظلام دامس بلا ضوء في نهاية النفق.

متى حدثت اللحظة التي غيّرت مسار حياتي؟

بالتأكيد.. عندما وجدته جالسا بجانبي على حافة البحيرة المقدسة في معبد الكرنك، كانت رحلة الكلية لمدينة الأقصر في هذا العام نقطة تحول حرجة، جربت فيها تدخين أول سيجارة حشيش، في غرفة الفندق بعد أن نام المشرفون على الرحلة، اندست البنات كلهن في غرفة واحدة ودارت علينا السجائر، اختفت وجوهنا جميعا وسط سحابة من دخان داكن، أخذنا نضحك بصوت عال ونتلمس الأماكن الحساسة بعفوية ونزق، وفي اليوم التالي كنت دائخة وأنا أسير فوق منحدر من الأرض نحو مقابر البرّ الغربي. تعثرت خطواتي وأوشكت على السقوط، لولا أن يدا قوية امتدت وأمسكت بي، منعتني من الانكفاء على وجهي، تشبثت بالساعد الذي يمسك بي، ونظرت إلى الوجه الذي أصبح قريبا مني، والعينين العميقتين، والشارب

الرفيع، والأنف البارز إلى الأمام، استغربت وجوده، كان أستاذا كبيرا لا يحضر أمثال هذه الرحلات الطلابية، أشبه بإله صغير وهو يقف في مدرج المحاضرات، لا يكتب إلا على السبورة الخضراء، معادلات طويلة بخط صغير منمق، وينظر إلينا بعينيه العميقتين، وينساب صوته هادئا ولكن مسيطرا، ظللت أحدق فيه عاجزة حتى عن شكره، ظللت ممسكة بساعده حتى انتزعه مني برفق، ابتسم لي ومضى مبتعدا، راقبته من بعيد، كان مختلفا، حارّا وفتيا، وليس باردا ومملا كما هو الحال داخل المدرج، ظللت أحافظ على توازني داخل المقابر الخانقة، وتنفست الصعداء في مدينة «هابو»، كان يدور حول الأعمدة، ويتأمل الممرات المسقوفة، ويستغرق محدقا في النقوش المحفورة على الجدران.

وفي المساء في معبد الكرنك تجمعنا لنشاهد برنامج الصوت والضوء، كانت الأضواء تتبدل وتتلون وسط غابة من الأعمدة الحجرية، وبقايا التماثيل والمسلات المنتصبة،أحسست به يأخذ مكانه بجانبي من دون أن ينظر نحوي، ارتفعت أصوات الممثلين العجائز في رهبة الفراغ، تروي بنبرات مرتعدة قصة بناء المعبد، كان الأمر مملا ومفزعا، كأنهم يحاولون بثّ الخوف في قلبي، وإيقاظ الموتى من حولنا، من دون أن أدري التصقت به، لمسته بخفة، للمرة الثانية يسعفني جسده، كان هذا كافيا لأحس بدفء غريب يتسلل إلى خلايا جسدي وسط برودة الليل، وشممت رائحة الليمون الناعمة المنبعثة منه، تحدث إليَّ قليلا، كانت كلماته خافتة واثقة، مختلفة عن صراخ الممثلين من حولنا، أشار إلى أوراق الزهر التي كانت تتراقص فوق سطح الماء، وهو يقول في صوت يشبه الهمس:

هذه زهرة اللوتس، وهي مقدسة عند الفراعنة؛ لأن «إيزيس» عندما ولدت ابنها «حورس» كانت خائفة من أن تضعه على الأرض السبخة، ولكن زهرة اللوتس فتحت أوراقها من أجلها، احتضنت المولود الجديد، من يومها والمصريون يدخلون مفردات هذه الزهرة في عمارتهم، تأملي هذه الأعمدة من حولنا، كل واحد منها صيغ على شكل زهور اللوتس، جسم العمود هو ساق الوردة، وقمته هي أوراقها المتداخلة.

بدأت أتأمل الأعمدة المنتصبة أمامي، أراها بعيون جديدة، غابة من الزهور الحجرية تتجول بينها الأضواء كطفل تائه، «حورس» يبحث عن أحضان أمه، نظرت إليه في انبهار، مد يده وتناول يدي، كانت كفه عريضة وقوية، احتوت راحتي بأكملها، جذبني فنهضت خلفه، تركنا البحيرة وثرثرة الأصوات وسرت خلفه، دخلنا داخل غابة الأعمدة، أحاطت بنا أرواح الماضي، صعدنا فوق درج من الأحجار المتكسرة، بدأ الطريق يرتفع بنا قليلا، قال:

ستجدين الطريق يرتفع هكذا في مدخل كل معبد، كان المصريون يعتقدون أن الخليقة بدأت فوق تل، أو «ربوة الحياة» كما يسمونها، الشيء الوحيد الذي يبقى بارزا بعد أن يغمر الفيضان العالم.

ابتعدت السماء المفتوحة، واختفت النجوم التي تراقبنا، دخلنا تحت سقف من الأحجار المتراصة، أمسك يدي بقوة، قادني بحذر وسط بقايا التماثيل المتساقطة، كان يعرف طريقه في الظلام، كأنه هو من قام بتصميم هذه الأروقة المتداخلة، ظلت الأرض ترتفع، والسقف ينخفض، قال:

أرأيت هذا التصميم المعماري؟ كانوا يعتقدون أن الأرض والسماء كتلة واحدة، ثم بدأت في الانقسام، نحن الآن نقف في النقطة الفاصلة التي هبطت فيها الأرض، وارتفعت السماء.

توقفنا أمام العمود الرئيس الذي يرفع سقف السماء، توقف خلفي وأمسك يدي، وضعها على العمود، تحسست النقوش الحجرية، لم أرها، ولكن أحسست بلمسها الصخري يسري خلال أصابعي، واصل القول:

هذه قصة الخليقة كما تمّ نقشُها، الربة «نوت» وقد تقوس جسدها على هيئة السماء التي تغطي الكون، يقف الإله «شو» إله الرياح الأربعة ساندا رأسها، بينما يسند قدميها «جب» إله الأرض.

يقف بجسده خلفي تماما، يحاول أن يحميني من هذا الفراغ الذي يحيط بي، كنت أرتجف، وعندما لف ذراعه حول خصري لم أملك إلا أن أتراجع قليلا وأستند إلى صدره، زاد من ضغطه عليَّ كأنه يريد أن يدخلني في جسده. أحسست أنه يحتويني، كما يحتوينا هذا المعبد، وهذه الظلمة المعتقة المليئة بالأرواح الهائمة. كان جسده قويا ومشدودا، عمود فرعوني آخر يشد من صلبي، أحسست بأصابعه تزيح شعري وبشفتيه تلمسان رقبتي العارية، استدرت إليه من دون أن أبتعد عنه، أحسست بشفتيه مرة أخرى، على خدي وأنفي وجبهتي، ظلتا تبحثان حتى وجدتا شفتي، كانت شفتاه دافئتين، تحيطان بشفتي بتمهل، تنسابان عليهما وتمتلكهما، أحسست كأن وجهي قد انفصل عن بقية جسدي، التفت ذراعاه حولي وضمني بقوة، لم يترك فراغا بيننا يمكن أن تنفذ فيه الظلمة أو البرودة، ثم انتهى كل شيء فجأة، ابتعد عني وهو يغمغم:

هذا لا يجوز.. يجب ألّا يغوي الأستاذ تلميذته.

خفت أن تختطفني الأرواح الكامنة في الظلمة، تعلقت بعنقه وأنا أقول لاهثة:

لا بأس بهذا. أنا لا أعترض.

أخذت أقبّل كل جزء من وجهه، وجدت أنا شفتيه هذه المرة، لم تكن هذه المرة الأولى التي أقبّل فيها أحدا، ولكنها كانت الأفضل،المرة التي جعلتني أشعر بجسدي كله يذوب وبركبتي وهما تتخلخلان، لم تعد هناك أرض تحتي، حتى الأعمدة الفرعونية أصبحت رخوة، غابت رؤيتها عني، كانت يداه تزحفان إلى كل مكان من جسدي، تعيدان اكتشافي وتبعثان فيه حياة طازجة لم أعرفها من جديد، ولكنه تخلص من عناقي برفق، سحبني من يدي إلى منطقة النور، كنت ألهث والدنيا غائمة من حولي، ترك يدي حين لمحنا بقية زملائي، ابتعد عني ودار من الناحية الأخرى، لم أصدق أنه بعد هذه اللحظة الحميمة يبتعد عني سريعا، يتركني هكذا وسط برد الليل. ظللت واقفة أراقبه وهو يركب الأتوبيس، لم يلتفت خلفه، ركب الجميع وظللت واقفة، وضغط السائق على نفير السيارة ينبهني من شرودي، جررت قدمي وركبت الأتوبيس، مررت بجانبه وهو جالس في المقعد الأمامي، لم ينظر نحوي. توقفت قليلا ولكنه لم يرني، شبح عابر، جلست في مكاني، تبددت لحظة الدفء، حاولت بعض زميلاتي أن يتحدثن معي عن العرض الذي شاهدنه، ولكني كنت في عالم آخر.

أنا لست فتاة معقدة لتؤثر فيَّ قبلة من رجل ناضج، كنت قد تلقيت

عديدا من القبل في حديقة الأسماك وفي أثناء الرحلات وفي زوايا المدرج المظلم، كنت فتاة عادية، فائرة الجسم،أعيش عمري، أكره النكد وأحب حفلات عيد الميلاد والديسكوهات المعتمة، وأيدي الأولاد وهم يضعونها على خصري، وأرقص بالحماسة نفسها التي أهتف بها في المظاهرات، ولكني أحب المظاهرات أكثر، أعيش بكل كياني في لحظة الغضب حين نتجمع وتنطلق حناجرنا بالهتاف، نواجه رجال الأمن المركزي بملابسهم السوداء وخوذهم ودروعهم. كانت عندي أيضا موهبة الكتابة، أستطيع كتابة جريدة حائط بأكملها وحدي، سأكون مهندسة موهوبة، أعرف كيف أستوعب الدروس وأحصل على أعلى الدرجات، أستنفد كل طاقتي وكل هذه المشاعر الحبيسة بداخلي في المذاكرة وفي الأعمال التطوعية والاعتراض والاحتجاج، ثم جاءت هذه القبلة المخيفة فغيرت حياتي وفتحت مغاليق جسدي وجعلتني أنام مفتوحة العين في غرفة الفندق المشتركة مع زميلتي؛ كانت تنام في هدوء، تصدر صوتا خافتا كهرير قطة، وأنا أتأمل الرسوم الفرعونية على سقف الغرفة، نساء في ملابس هفهافة يسعين إلى عشاقهن، يسرن حافيات، لا تكاد أقدامهن تلمس الأرض من فرط إحساسهن بالنشوة المتوقعة، هل يمكن أن أفعل ذلك؟ أسير في طرقات الفندق التي يكسوها مخمل عتيق، هل يمكن أن أدخل إلى غرفته حتى من دون أن أطرق الباب، أفاجئه بوجودي، ولكن كيف أجرؤ على ذلك؟

في اليوم التالي رأيته يتناول طعام الإفطار مع بعض المشرفين، لم ينظر نحوي، لم أحاول أن ألفت نظره، كنت واثقة بأنه يراني، حتى عندما تجولنا في بقية المعابد، كنت متأكدة أنه يتابعني بعينيه،

ولكنه يجيد إخفاء ذلك، ربما كنت أوهم نفسي، وأن ما حدث في ظلمة المعبد كانت مجرد نزوة عابرة، أيام الرحلات دائما ما تكون خارج الزمن.

في الليلة الأخيرة للرحلة، كانت هناك الحفلة الختامية، حفلة الطرابيش، حفلة تقليدية عتيقة تحرص عليها كل الرحلات؛ يلبس الأولاد طرابيش مضحكة، لونها أحمر فاقع، وتختال الفتيات لابسات فساتين الهوانم العتيقة الطراز، كان الفندق يحتفظ بكمية كبيرة من بقايا طرابيش الباشوات الذين كانوا يقضون الشتاء في شرفته. اخترت ثوبا واسع الصدر، ولم يكن هذا طبعي، ولكني أردت أن أبرز جانبا من أنوثتي، أرغمه على ألّا يحول بصره عني، كانت الحفلة صاخبة، والأولاد يصدرون جلبة هائلة، يقذفون الطرابيش في الهواء ثم يتلقفونها وهم يضحكون في جذل. في مدينة مثل الأقصر يتوقف الزمن عندما يبدأ اللهو، رأيته واقفا وسط جمع من الطلبة، يرتدي طربوشا مثلهم، وسيما وساحرا، فارسا من زمن آخر، وتخيلت أن رقصتي معه ستكون ساحرة وستنطبع في أذهان الجميع، ظللت واقفة في صبر حتى انفض الطلبة من حوله، وعندما التفت وجدني أمامه، للحظة عابرة لاح على شفتيه شبح ابتسامة، ولكنها اختفت سريعا. تلفت حوله محذرا، كنت أريده أن يلمس جسدي مرة أخرى، أن يشعرني بوجودي، خطوت نحوه، ولكني فوجئت به يرفع إصبعه، أشار لي محذرا حتى لا أقترب أكثر، توقفت مذهولة، أدركت فعلا أنه لم يعد يريدني، كان الأمر إذن مجرد نزوة، لحظة ضعف، استدار مبتعدا، انضم إلى حشد آخر من الطرابيش في ركن قصي من القاعة.

أحسست بالبرد، كأن ريحا قارسة قد غمرت المكان، أو أن

الأقصر قد أصبحت فجأة في القطب الشمالي. جذبني أحدهم إلى حلبة الرقص فانقدت إليه من دون وعي، تلاطمت الأجساد في حلبة الرقص، تقافزت من دون أن أشعر بما حولي، لم أحاول أن ألتفت نحوه، كنت أريد أن أقصيه من ذاكرتي، لم أدر إن كان الذي يراقصني هو الشخص نفسه أو لا، ولكن يدا قبضت على يدي وجذبتني بعيدا، إلى حديقة الفندق، كان هناك وجه صغير ينظر إليَّ منفعلا، يلتقط أنفاسه في صعوبة قرب وجهه، فأدرت وجهي بعيدا عنه، أحسست بشفتيه على خدي وعلى رقبتي، أحسست بلعابه وهو يلهث، وبأصابعه المبللة بالعرق وهو يضعها على الجزء المكشوف من صدري. شعرت بقرف بالغ، منعت نفسي من التقيؤ، وقف الشاب ينظر إليَّ مندهشا، لم يكن هو السبب، كنت مقروفة من نفسي، تركته مسرعة، عبرت الحديقة وهرعت مسرعة إلى غرفتي، لم تكن رفيقتي موجودة، كانت تمارس حياتها في الأسفل من دون عقد، كنت أحمل عُقَدي في داخلي وأتكوّم على الفراش كجنين ضائع، وأنتظر قدوم الصباح إن كان ثمة صباح.

لم يتغير شيء، انتهت الرحلة، انفك السحر الذي كان يبقينا خارج الزمن، عدنا إلى المدينة الصاخبة، والمحاضرات المملة التي لا تثيرها إلا مظاهرات الاحتجاج. في مصر لا تسير السلطة أبدا في اتجاه الناس، وهي تعطيهم دائما سببا للنقمة عليها، وتقوم بالأعمال التي تجعل دمنا دائم الغليان، وكنت أنا أتعافى، أخرج من وهم القبلة الغلطة، أجلس في الصف الأخير في محاضراته، مازال يكتب على السبورة الخضراء ولكنه لم يكن يراني، أقنعت نفسي بأن الأمر قد انتهى، عليَّ أن أعود إلى نشاطي وأعاود الاندماج مع

الجميع، لم يكن الأمر أكثر من لحظة من الشبق الجنسي، ستذوب مع أول مظاهرة أخرج فيها.

كنا نتأهب داخل أسوار الكلية لمظاهرة حاشدة، نعد الشعارات ونكتب اللافتات ونستعدّ ليوم طويل من الصدام مع قوات الأمن؛ صدام لا مفر منه، وكنا نعرف أنها متأهبة في الخارج منذ وقت مبكر،عرباتهم الخضراء الداكنة مثل حيوانات رابضة في الانتظار، والشمس تنعكس على الخوذات والدروع البلاستيكية لمئات الجنود، بدأنا في الاصطفاف والصراخ فأسرع الحرس الجامعي بإغلاق البوابات الحديدة، عزلونا داخل قفص الجامعة الضخم، وقبل أن نبدأ الهتافات الخاصة بنا، كنا نسمع صيحاتهم وهي تزوم في تحفز، يريدون أن يبثوا الرعب في قلوبنا قبل أن تخرج منا أي صيحة اعتراض. حاولنا نزع الخوف من نفوسنا، صحنا لنشجع بعضنا بعضا، رفعنا اللافتات وبدأنا التقدم، تخلّى الحرس عن أماكنهم وتركونا من دون البوابات الموصدة. صرخنا، لوحنا بقبضاتنا، جذبنا السلسلة الضخمة التي تلف الباب وتغلقه في وجهنا، مهما حاولنا خلخلة البوابات الضخمة كان من المستحيل خلعها من الجدران، هتف واحد من خلفي:

نحن طلبة الهندسة، كيف يمكن أن يقف قفل حقير في وجوهنا؟

بدأت الأفكار والمحاولات من أجل فتح القفل الكبير، كنا نعرف أنهم متأهبون لضربنا، ولكن لم نستطع أن نظل مثل الدجاج المحبوس في قفص، نريد أن نعبر عن غضبنا في الهواء الطلق، أن نتنفس براحتنا حتى لو كان المقابل هو ضربنا. بدأنا ندخل في القفل

الضخم مسامير صغيرة، وأسلاكا وأسياخا رفيعة من الحديد، لا أدري كيف توفرت ولا كيف تبادلتها الأيدي حتى وصلت إلى الصفوف الأولى للمظاهرة. أخذنا نلوي قطع السلك يسارا ويمينا حتى وجد له مستقرا داخل بطن القفل، ظللنا نديرها حتى سمعنا التكة الأولى، بدأ القفل يستجيب، هتفنا مهللين في صوت صاخب، تهاوت السلسلة الضخمة أمامنا، انفتح الباب على مصراعيه، وانطلقنا نردد الهتافات التي كانت هي كل ما لدينا ولا نملك غيرها.

كان رجال الأمن كعادتهم قساة بلا مبرر، يضربون بتشف، ويقمعون من دون فهم، كانوا مكلفين بضرب أي مظاهرة حتى لو كانت تؤيدهم، لم يتركوا لنا فرصة للتقدم، لم نكمل عدة خطوات نحو تمثال «نهضة مصر» حتى بدءوا يهوون علينا بالعصي، ويقذفوننا بقنابل الغاز المسيل للدموع، يطلقونها من كل ناحية. تكاثف الدخان بحيث لم نعد نرى أحدا، كنت أحمل لافتة أنا التي صممتها رسم عليها طفل فلسطيني تخنقه أيد إسرائيلية، ولا أعرف إن كانت لم تعجب جندي الأمن المركزي، أو أنه رآها أصلا، ولكنه هوى عليها بالعصا، اخترقها وأحسست بالعصا وهي ترتطم برأسي. ارتج بدني في ألم مبرح، درت حول نفسي لا أدري أين أتجه. رأيت الخوذ السوداء تتكاثر من حولي، وصاح صوت من بعيد: عودي إلى الوراء، كنت أندفع من دون أن أدري في اتجاه الجنود الغاضبين، تعثرت وأنا أحاول الاستدارة، سقطت على الأرض، توقعت أن تهوي عليَّ عشرات العصي، ولكن يدا امتدت من وسط الدخان، حملتني من بين الركام المتناثر وطلقات الرصاص والضربات المكتومة والصرخات المرعوبة والعلب المعدنية التي تتناثر حولي. الأحذية السوداء التي

توشك أن تدهسني، استطاعت اليد أن ترفعني من على الأرض، وأن تدعم قامتي حتى أستطيع الانتصاب، أسندني بذراعه ونحا بي جانبا، استندت إلى السور الحديدي، شهقت أبحث عن أنفاس نقية، ملأ غاز النشادر صدري، أردت أن أعاود الانضمام إلى زملائي، ولكني لم أعرف الاتجاه الصحيح.

سرت مترنحة، كان باب الجامعة مفتوحا، ولا يوجد داخله إلا بعض الطلبة المرتعدين، درت حول المسلة، وجلست على أحد المقاعد، تحسست رأسي، كانت قد بدأت في التورم، وبدأ الألم يشل عضلات وجهي كلها، أحسست بيد توضع على كتفي، تلمسني برقة، وبصوت يهتف بي:

هل أنت بخير؟

رفعت رأسي فوجدت «جلال عمران» بنفسه ينظر نحوي، من بعيد تعالت أصوات الطلقات المطاطية، احتدمت المعركة، ولكن وجهه لا يحمل أي أثر للمعركة. يبدو نظيفا ولامعا وتفوح منه رائحة الليمون. شعرت أنني أكرهه، كأنه قادم من عالم آخر، لم أرد عليه، حولت وجهي إلى الناحية الأخرى، ولكني سمعته:

تعال معي.

لم أتحرك من مكاني، أمسك بيدي مرة أخرى، قبض عليها بالقوة نفسها التي قبض عليَّ بها المرة الماضية، جذبني برفق ولكن بإحكام. نظرت حولي، كان الطلبة المرتعدون متناثرين في المكان، رءوسهم منكسة، كنت واثقة بأنهم يراقبونني. لم أرد أن أنزع يدي أو أقاومه أمامهم حتى لا تحدث فضيحة، سرت خلفه إلى داخل الكلية، كانت

الطرقة المؤدية إلى مكتبه باردة وخالية، لم يتحدث معي، قادني فقط، أدخلني مكتبه وأجلسني على أحد المقاعد، ذهب إلى أحد الأركان حيث يوجد حمام ملحق بمكتبه. عاد وهو يحمل منشفة مبللة، جلس أمامي مباشرة وبدأ يمررها على وجهي، يمسح ما عليه من غبار وأوساخ. فعل ذلك في اهتمام وتمهل، وهو يتجنب النظر في عيني، نهض واقفا، وأزال بعض الأوساخ العالقة في شعري، قال:

ستتورم قليلا. ولكن لا توجد جروح.

أغمضت عيني وأنا أحس بلمس يده على شعري، تلمست أصابعه الورم برفق ليتأكد من حجمه، لم أملك إلا أن أتأوه في صوت خافت. انحنى قليلا، أمسك وجهي بين كفيه، كانت باردة، ووجهي كان مبللا، مال عليَّ وأحسست بشفتيه تحيط بفمي مرة أخرى. ظللت جالسة، رافعة رأسي نحوه، أتلقى القبلة ببطء واستمتاع، ولم يقطع قبلته، ظلت مستمرة وهو يجذبني من جلستي، يوقفني أمامه قبل أن يدخلني في أحضانه. لم أعد أسمع صوت ضجيج المظاهرة، واختلطت رائحة غاز النشادر الذي يتسلل من بعيد مع رائحة الليمون المنبعثة من جلده، تحركت يدي وتشبثت به. عاودني الدوار، لففت ذراعي حول رقبته، كنت في حاجة إلى أن أتشبث بأي كائن، ظل يحتضنني بقوة، ويتحسس ظهري برفق، ويحيط بدني بذراعيه، ولا يكف عن تقبيلي. لم يحاول أن يلمس رأسي، كنت أشعر بالألم في بعض مناطق من جسدي، ولكن الحرارة التي كانت تنبعث منه أنستني كل شيء، تحركت يده حتى حطت على نهدي الأيسر وبدأت في الضغط عليه، توقف على شفتي قليلا ليرى ردة فعلي، ولكني واصلت ضغط جسدي عليه. كنت راضية، وكان صدري يؤلمني ويخزني، تحركت

أصابعه تحاول فك أزرار بلوزتي، توقفت عن تقبيله، ابتعدت عنه قليلا وأنا ألتقط أنفاسي في انبهار. كانت الأمور تتطور بسرعة، وعليَّ أن أقرر إلى أي مدى يمكن أن أمضي. لم أكن يوما فتاة معقدة، وكنت أريد حقا الاستمتاع بجسدي، ولكنها لحظة يجب ألّا تكون عابرة، ويجب ألّا أوخذ على حين غرة، كان قد نجح بالفعل في فك زرين من إزاري، بدت حمالة صدري وهي تلتف حول نهدي وجزء من لحمي الأبيض عارية أمامه، لا أدري إن كان قد أثارني ذلك، أو أشعرني بالخوف، ولكن بدا واضحا أنه لم يكن يستطيع التراجع. فك رباط عنقه، وفتح قميصه، شعرت برغبة ممتزجة بالفزع، استدرت، سرت نحو الباب كأنني أهم بالخروج، ولكن رغما عني كانت خطواتي بطيئة، أحسست به يلحق بي ويحتضنني من الخلف، يمد ذراعيه ويحيطني، تلتهم شفتاه عنقي النحيل وتندس أصابعه في حنايا صدري العاري، يدخل يده بجرأة تحت حمالة صدري، تزحف فوق نهدي العاري، وتلوي حلمة نهدي، كأنه يفتح الباب إلى بقية جسدي، يعتصره من من دون هوادة فيزداد صلابة تحت يديه.

أصبحت عاجزة عن التحرك، أوشك أن أسقط على الأرض، ولكنه يحملني بين ذراعيه، كأني في خفة الريشة، يضعني فوق زجاج مكتبه؛ المكتب المغطى بزجاج بارد وزلق، يزيح ما عليه من أوراق وملفات وأقلام وأشياء تذكارية وإطار لصورة لم أتمكن من رؤيتها، يترك فقط ساعة صغيرة تصدر تكات خافتة ربما لتذكره بالوقت الذي سيقضيه معي، يجذب سروال «الجينز» الذي ألبسه، بأصابع مدربة تجعله ينزلق بسهولة فوق ساقي النحيفتين الطويلتين. أشعر بلحمه العاري للمرة الأولى فوق جسدي، صلبا ومتحكما، يحيط بي

كما تعود، أضطجع على ظهري وأكتشف فجأة أن سقف الغرفة قد اختفى. هناك سماء رمادية مليئة بنجوم بعيدة، ألسنة من لهب مضيء، تلسع جلدي، ببطء يتبدد الخجل الذي يغلف روحي، الخوف الذي يقيد رغبتي، فأصرخ بصوت عال، لا يهم إنْ دوى صوتي في كل أبهاء الكلية الخالية، أمسك بشعر رأسه وأجذبه نحوي، أريد أن أتشبث بأي شيء، يتحول جسدي في اتجاهه، ينفصل عني، يكتسبه الرجل الرابض فوقي. لم أعد أرى وجهه بوضوح، كان يغمغم بكلمات ما، لم تكن أذني تستمع إليها، كانت تتخطى جلدي وتنفذ في داخلي من دون عوائق كأنني أمتصها، شفرة غامضة يكتسبها جسدي، ويتفهمها من دون عناء. أصرخ وقد وصلت إلى رجفة لم أصل إليها من قبل، تيار كهربي ينتشر في جسدي ويرجه، لا أشعر بالزجاج البارد وهو يضغط مؤخرتي، حتى السماء التي كانت فوقي قد انفتحت، وبدت خلفها عوالم أكثر بعدا وتألقا، إلى متى يمكن أن أبقى هكذا؟ لم أكن أملك القدرة على التحكم في أي شيء، كان جسده يقودني، ولم أكن أعرف ماذا أفعل إلا أن أظل طائعة، سمعته هو أيضا وهو يصرخ، وأحسست بجسده وهو يتصلب، ويغمرني دفء آخر، يصعد من أسفل ليصل إلى منابت شعري. غرست أظافري في ظهره، تعمدت ذلك حتى أحتفظ ببضع من قطرات دمه تحت أظافري، كانت هذه ذروتنا بعد، انفجرنا معا.

شعرت بموجة مفاجئة من البرد وجسده يبتعد عني، حاولت أن أتمسك به ولكنه كان هو يلهث في صوت مسموع، رفعت رأسي فرأيت وجهه محتقنا، ينظر إليَّ بعينين غائمتين، هل كان يراني حقا؛ يرى وجهي، أو يرى فقط جسدي العاري؟ حملت ملابسي وسرت

حافية القدمين إلى الحمام، استندت إلى الحائط البارد من دون أن أستطيع السيطرة على رجفتي. كنت قد عبرت حاجزا، هوة سحيقة، أمسكت بالمنشفة المبللة وحاولت أن أزيل آثاره من على جسدي. أنظر في المرآة وأحاول أن أسوي شعري الأشعث، أرى ملامحي وقد تغيرت كأنها تخص فتاة أخرى، أصبح جسدي ووجهي مختلفين، أين سمية القديمة؟ أعدل ملابسي وأمسح وجهي وأخرج إليه، كان جالسا فوق أحد المقاعد، ما إن خرجت من باب الحمام حتى أسرع هو بالدخول، كان يتجنب نظرتي، ظللت واقفة في منتصف الغرفة الخالية، أحس بألم شديد في رأسي. ازداد الورم وأصبح رأسي يطن بالألم. غادرت الغرفة، سرت في الطرقة الطويلة، كان السير متعبا، وحين خرجت من الباب أدهشني أنني وجدت الشمس والعالم الحقيقي في انتظاري. انتهت المظاهرة، كان هذا واضحا من عدد الجرحى والمصابين المنطرحين على الأرض. من اللافتات الممزقة ومن الوجوه التي يلوثها السناج، أحسست بالخجل وأنا أسير بينهم، لا أجرؤ على النظر إلى وجوههم، كأنني السبب في هزيمتهم وليست قسوة الشرطة.

تجنبت نظرات أمي وهي تتفحصني في استغراب، كنا وحدنا، مازال الوقت مبكرا على عودة أبي، كن أشبه بامرأتين وحيدتين،لا تكف أمي عن الصلاة، ولا يكف أبي عن السهر خارج المنزل، يعود دائخا ومعبقا بأنفاس الحشيش، ويثير كلّ الجلبة الممكنة ليعلن عن حضوره.

أغلقت باب غرفتي وتكوّمت على الفراش، ثم عاودت النهوض مرة أخرى، كان معلقا على جدار غرفتي صورتان؛ جمال عبد الناصر

وشي جيفارا، قمت بنزعهما، لم أتحمل نظرة عبد الناصر الساهمة، ولا نظرة جيفارا المتفحصة، جلست وحدي من دونهما، أفكّر في هذا الرجل الذي التهم جسدي. لم يكن الأمر رغما عني بالتأكيد، لم أدر ما سرّ ضعفي أمامه؟ لماذا يحتاجه جسدي إلى هذا الحد؟ كيف أغواني بهذه البساطة، لمجرد أنه قادني إلى مكان مظلم في المرة الأولى، وأخضع جسدي في المرة الثانية، هل تكون هذه مرتي الأولى معه أو الأخيرة؟ لم أكن آسفة على عذريتي، كنت أضيق بها وبالفكرة الكامنة وراءها، ولكني كنت مستغربة من نفسي، كيف مزجت بين المبدأ الذي أتظاهر من أجله، وبين رغباتي الجنسية، أين كانت هذه الرغبة كامنة، بهذا العنفوان؛ حتى جاء هذا الرجل وأيقظها؟ سمعت طرقات خافتة على الباب، قبل أن أرد فتح الباب ورأيت أمي وهي تتسلل داخلة، على وجهها ابتسامة خجلى، جلست أمامي، حدقت في وجهي كأنها تبحث عن ابنتها، قالت:

ماذا بك؟ تبدين مختلفة عن كل يوم.

هل يبدو ذلك واضحا إلى هذه الدرجة؟ تحسست رأسي، حاولت أن أكون مرحة، قلت:

كل ما في الأمر أنني شاركت في مظاهرة، وتلقيت ضربة على رأسي.

وأحنيت رأسي أمامها، أزالت مفرق شعري، وتحسست الورم برقة بحيث لا يؤلمني، قالت:

لم يكن عليك فعل ذلك، سيجعلني هذا أزداد قلقا عليك.

لم أكن أريدها أن تعرف مكان الجرح الآخر، قلت لها فجأة:

لماذا يبدو أبي وكأنه ليس موجودا في حياتنا؟ لماذا يبدو وكأنه يتحدث لغة مختلفة عني وعنك؟

بهتت أمي من سؤالي المباغت، تركت مفرق شعري وجلست على مقعد أمامي، قالت:

إنه دائم الانشغال، ودائم السفر، ودائم السهر، إنه دائم في كل شيء إلا في حضوره الحيّ بيننا.

لماذا فعلت بها هذا؟ ربما كانت رغبة خفية مني في الهرب من أسئلتها، ومن محاصرتها، بادرت أنا بفرض حصاري عليها، نهضت في تثاقل، تركت غرفتها وخيم على المنزل الهدوء، أطفأت النور وحاولت النوم، ولكن جسدي ظل صاحيا ورغباتي مشرئبة.

لم أذهب إلى الكلية على مدى ثلاثة أيام، كان يجب أن أنتظر حتى يخفّ الورم الذي في رأسي، وتعجبت أمي من أنني أستحم في اليوم أكثر من مرة، كانت هناك آثار من الدم تحت أظافري ترفض الخروج. لبست بيجامتي المرسوم عليها عديد من الدببة الصغيرة، وعقصت شعري على هيئة ذيل حصان، ورصصت الدمى التي كنت مازالت أحتفظ بها على حافة الفراش، وحاولت أن أستغرق في المذاكرة. لم يحدث شيء، مازلت الفتاة نفسها الصغيرة الطالبة في كلية الهندسة، مازال المستقبل ممتدا أمامها، أخذت أذاكر حتى أستعيد ثقتي بنفسي، وقدمت لي أمي في صمت سندوتشات الجبن والطماطم التي أحبها، سادت البيت حالة من الصفاء وهدأ جسدي قليلا، خف الألم في منتصف جسدي، وزالت آثار الدم من تحت أصابعي.

بالطبع.. كان يجب أن أعود إلى الكلية، اخترت يوما لا توجد فيه محاضرة له. قضيت يوما عاديا، استمعت إلى محاضرة، وشاهدت جانبا من ندوة، وتضاحكت مع الزميلات وتلقيت بعض المغازلات، وجلست في الكافيتريا وشربت كوبا من الليمون بالنعناع ثم انصرفت في نهاية اليوم، ولكنه كان في انتظاري، جالسا في عربته السوداء أمام السور الخارجي للكلية. تسمرت في مكاني وأنا أراه خلف عجلة القيادة، لا أدري منذ متى وهو يجلس هكذا، ولكن من المؤكد أنه كان في انتظاري. كان جسدي كله يغلي، والعروق التي في قلبي تنبض في توهج، اقتربت منه ببطء، من دون أن يتحرك من مكانه. فتح لي باب السيارة المقابل، أحنيت رأسي وركبت بجواره، مد يده وأخذ الحقيبة من بين ذراعي ووضعها على المقعد الخلفي، وضع يده على ركبتي، لف عليها أصابعه كأنه قد امتلكني، قال بصوت خافت:

لقد انتظرتك طوال هذه الأيام.

انطلقت بنا السيارة، في هذا الوقت من الأيام العادية، تكون الشوارع مزدحمة، ولكنها لم تكن كذلك، وتكون كل الإشارات حمراء، ولكنها لم تكن كذلك. كان ينظر إلى الأمام، يقود السيارة بيد واحدة ويده الأخرى قابضة على ركبتي. أحسست بجسدي كله حارا، والسيارة تعبر الجسور المقامة على النيل، وتمرق من شوارع ضيقة مليئة بالمباني العالية، دخل بي في سرداب مظلم تحت واحدة منها، ركن السيارة بجانب أحد الأعمدة الخرسانية. ظللت جالسة في مكاني، ولكنه هبط من مكانه وأغلق باب السيارة ودار حولها ثم مد ذراعه وأخذ يدي. كان السرداب مظلما ورطبا ومثيرا للارتعاد، حملنا مصعد صغير إلى الأعلى ونحن صامتان، دخلنا إلى شقة، كان

البهو الأمامي صغيرا ولكنه أنيق، تبدو الشقة جديدة لم تدهسها قدم، دفعني برفق وهو يقول:

سيكون هذا مكاننا الخاص.. عشّنا.. لن يعرف به أحد، ويجب ألّا يعرف به أحد.

كانت الشقة تطل مباشرة على النيل، تنساب صفحته اللامعة من تحتنا ذاهبة في رحلة طويلة، تأملت المشهد، كان هناك صفاء وسكون، خلاف كل ما يعتمل بداخلي، قارب سابح فيه صياد وحيد، وسرب من الطيور يحوم في دوائر وصفوف من النخيل على الضفة الأخرى من النهر، وقف خلفي، مد يديه وقبض على صدري، جذبني إليه كأنني لا أستطيع الوقوف على هذا الارتفاع من دون معاونته، أحسست بشفتيه على رقبتي، كانت أنفاسه حارة، قال:

لقد أحضرت لك شيئا.

أشار إلى علبة أنيقة موضوعة فوق أريكة في منتصف الردهة، كان هناك طاقم من ملابس النوم، مشغولا بالدانتيلا السوداء، شفافا.. لن يخفي من جسدي إلا القليل، كان يريد أن يصنع مني دمية لشهواته، نظرت إليه مندهشة، قال:

هكذا أحب أن أراك.

كانت شفتاه ترتعدان من فرط الرغبة ورغما عني شعرت بشيء من الإثارة، أخرج من جيبه شريطا مفضضا، به عديد من الأقراص المغلفة، قال:

شيء آخر.. عليك أن تتناولي هذه الأقراص يوميا، لا نريد أن تحدث غلطة تكدر صفو علاقتنا.

أمسك براحتي ووضع فيها شريط الدواء، في الوقت ذاته كان ينقل شفتيه من عنقي إلى وجهي قبل أن يهبط إلى صدري، ويقودني إلى غرفة النوم، في هذا اليوم بالذات لم أجد وقتا لارتداء ثوب الدانتيلا الأسود.

كانت هذه هي حدود عالمي معه، بعد أن ينتهي من الكلية وقبل أن يذهب إلى مكتبه الفاخر في وسط البلد، وقبل أن أعود إلى أمي في المنزل وأقول لها إنه كانت عندي محاضرة زائدة، أو أنني قضيت الوقت كله أذاكر في المكتبة، نختبئ داخل هذه الشقة، في مساحة ضيقة منها، فوق السرير، كان جسدانا يكثران من الثرثرة فوق الملاءات البيضاء، وبعد أن نهدأ، وأرتكز برأسي على صدره، وأنا أشم رائحة حبيبات العرق المعلقة بشعره النافر، نواصل الثرثرة. كان قادرا على أن يحدثني في أي موضوع، العمارة.. الجنس.. الثورة، وكنت أستمع إليه بالشغف نفسه، كأنه يواصل ممارسة الحب معي، يقتحم مخّي كما اقتحم جسدي ويصل به إلى الدرجة نفسها من النشوة، لا أذكر أن أحدا تحدث معي بكل هذا القدر من الكلمات، حتى أبي. ذات مرة دخل حجرتي وشاهد صورة جيفارا معلقة على الجدار، أشار إليها في امتعاض وهو يقول: من هذا؟! وقبل أن أجيب عليه كان قد تركني وغادر الغرفة. كانت ملاءات السرير تتغيّر كل مرة، وكان هناك طعام طازج في الثلاجة وزجاجات صغيرة من الخمر كلما عَنَّ لنا أن نصعد من إيقاع النشوة، لم أر من يتولى العناية بكل هذه التفاصيل الصغيرة. كان يقوم على خدمتنا أناس مجهولون، لم يجعلني هذا

أشعر قط أنها شقتي، كانت فقط شقة جسدي؛ المكان الذي يصرخ فيه ويتلوى وينتفض ويبلغ ذروته. أعيش حياة مزدوجة، جسدي فيها يسبق عمري، يذهب إلى مدى بعيد لا تصل إليه زميلاتي، ولكن من يعلم إلى أين وصلن؟ قدم لي كثيرا من الهدايا، لكنها لم تعن لي شيئا. احتفظت بها كلها في الشقة، في درج بجوار الفراش، لم يكن هناك مكان أستطيع أن أرتديها فيه، لا أمام أمي ولا أصحاب الكلية، ولم تكن هناك فرصة لأخرج معه إلى أي مكان، في ضوء النهار أو في ظلمة الليل، لم أكن أرتديها حتى وأنا معه؛ حتى لا تعوق حركتنا. كان يمتلكني بأكملي، ولم أكن أمتلك إلا نصف رجل، وربما أقل من النصف، استيقظت في داخلي فجأة رغبة عارمة في الاستحواذ.

لم أكن اشعر بالمرأة الأخرى في حياته، أو بالأحرى المرأة التي تمتلك بقية حياته إلا اللحظات التي يقضيها معي، لا أشعر بها إلا عندما يختفي عن عيني لبضعة أيام، ولا يرد على اتصالاتي، وعندما أصل إلى حافة الجنون، يظهر فجأة ويقول بلامبالاة إن زوجته كانت مريضة، وكان عليه أن يبقى بجانبها. ببطء شديد، أخذ هاجس واحد يسيطر على تفكيري، أريد أن أعرف الجانب الآخر منه، عندما لا يكون في الكلية أو يكون عاريا بجانبي في الفراش. في البداية لم يكن لدينا وقت لذلك، ولكني بدأت ألح عليه بالسؤال، كل أسئلتي كانت تلف وتدور رغما عني حول شيء واحد، المرأة الأخرى التي يظهر معها في النور، التي يحرص كل ليلة على الذهاب إليها ويستيقظ كل يوم ليجدها بجانبه، من هي؟ ماذا تمثل له؟ ما الفرق بين حبه لها ورغبته فيَّ؟ متى سيضحي بي من أجلها؟

ثم رأيت زوجته، أقصد رأيت صورتها، كان هو في الحمام، وكنت

أسمع صوت الماء وهو يزيل من على جسده آثار عرقه وعصارة جسدي، رأيت حافظته موضوعة بإهمال فوق منضدة صغيرة، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أقلّب في محتوياتها. مجرد فضول أنثوي. رأيت بطاقته الشخصية وعليها اسمه وعنوانه، وللمرة الأولى عرفت عمره الحقيقي، كان أكبر قليلا من ضعف عمري، ولكن حيويته في الفراش لم تكن توحي بذلك، بعدها رأيت صورتها وهي تبتسم له، ثم صورة أخرى لابنتها الصغيرة، كان الشبه واضحا، تشبهها أكثر مما تشبهه، أراحني ذلك، ولكني عدت أتأمل صورة الزوجة؛ المرأة التي يبقيني في الظلام من أجلها، التي تجعل رغبتنا محرمة. كان وجهها مستديرا، وهناك غمازة غائرة في ذقنها، ولم تكن عيناها واسعتين ولكن جبهتها كانت عريضة، لامعة، وأنفها كان صغيرا كأنف الأرنب، لا أدري لماذا تواصل الابتسام هكذا؟ سمعت صوت الماء وهو يقف فخبأت الصور وعدت إلى مكاني على السرير، وعندما حاول مداعبتي كنت قد فقدت رغبتي فيه تماما.

عدت إلى المنزل فوجدت أمي في حالة سيئة، لم يكن أبي موجودا، ولكنه ترك خلفه بعض الآثار؛ أطباق محطمة ومزهرية زجاجها متناثر في كل مكان، وأمي متكوّمة في ركن غرفتها، تريد أن تختفي عن الأعين. مسحت دموعها وقدتها إلى غرفتها، لم تبد على استعداد للكلام، ولم أكن راغبة في الاستماع، حاولت أن أزيل بقايا الزجاج، دخلت شظية صغيرة في أطراف إصبعي، تجمعت عليه قطرة صغيرة من الدماء، انفجرت فجأة في البكاء. عدوت إلى غرفتي حتى لا تسمع صوتي، كان يجب أن أهدأ وأتماسك حتى أعود إليها، جلست أمامها، تأملت عينيها المنتفختين، كنت في حاجة لأن أخبرها

بكل شيء، كانت علاقتي الخفية قد بدأت تثقل عليَّ، لم أعد أستطيع تحملها وحدي، ولكني وجدتني أدخل أصابعي في يدها وأنا أقول:

غدا سنخرج معا، سنذهب إلى «مول» كبير، نتغدّى وندخل السينما ونلقي كل شيء وراء ظهورنا.

في اليوم التالي كنا أحسن حالا، جاء أبي وخرج من دون أن أراه. لبست أمي أفضل ثيابها، ولفت الحجاب حول وجهها بعناية، وسارت بنا السيارة طويلا إلى «مول» خارج المدينة، كنا في عطلة نهاية الأسبوع، وكان المكان برغم اتساعه حافلا بالناس والسيارات. كانت أمي سعيدة، تحدّق في كل ما حولها بعيون طفلة مندهشة، تعلق على كل شيء، جلسنا على أحد المقاعد نتأمل حركة الجميع، طلبت مشروبا غير مألوف حتى أزيد في إدهاشها، تحدثنا عن أشياء كثيرة. كنت أقترب من اعترافي الشخصي، أنتظر فقط اللحظة الحميمية التي تنفتح فيها القلوب على بعضها، ولكني فجأة وجدتها تمر من أمامي، هكذا في هدوء بالغ، وسط زحام المارة وصخب الموسيقى، كانت أكبر سنا مما تبدو في الصورة، وجسمها أكثر امتلاء، ولكني كنت واثقة بأنها هي. توقفت أمامنا فجأة كأنها أحست بنظراتي، لم تلتفت نحوي وظلت تحدق في شرود، من دون أن أدري كنت قد اخترت هذا «المول» لأنه موجود في الضاحية التي يوجد فيها بيته، كان عنوانه قد التصق بذاكرتي، لم آت إليه فقط ولكني استدرجت أمي معي أيضا، هل هي المصادفة العشوائية التي جعلتها تقف تحت ناظري، أو أنني أتوهم؟ بعد لحظات تأكدت أنها هي، وعرفت لماذا توقفت، ظهر هو شخصيا، كان يمسك في إحدى يديه بفتاة صغيرة، اقتربا منها، كون ثلاثتهم دائرة، كانوا يتحدثون في أمر ما، قريبين من

بعضهم كأنهم كتلة واحدة، لا تسمح بدخول أحد بينهم. وضعت يدها على ذراعه باسترخاء، قالت الصغيرة شيئا فمالا عليها معا، كانت أنفاسي تتلاحق، وسألتني أمي عما حل بي، هززت رأسي، بدءوا يتحركون، مبتعدين عن نظري، أحسست بفزع كأن الخيط الذي أمسكت به على وشك الإفلات،نهضت واقفة، قلت لأمي:

سأذهب لأحجز تذاكر السينما.

غادرت المقهى مسرعة، كانوا يسيرون أمامي معا، ولكن ليس بالإيقاع نفسه؛ تتقدم المرأة أحيانا، أو تنشغل بتأمل إحدى واجهات العرض، يتوقف هو والطفلة، يمسك بيدها ويهزان ذراعيهما في الفراغ، كأنهما يرددان أغنية معا. ظللت خلفهما كشبح خفي لا يراه أحد، واقفة على حافة العالم الذي يعيشون فيه، واصلوا السير والتسكع، كلما افترقوا قليلا توقفوا حتى يتجمعوا من جديد، كل واحد واثق من أنه سيلتقي بالآخر، هل يمكن لهذه المرأة أن يكون لها عشيق غيره؟ تمنيت ذلك، أن تكون لها نقطة ضعف تبرّر كراهيتي وتخفّف من إحساسي بالذنب. ظلت تتسكع وسط المحال المتجاورة، وهما ينتظران في صبر. كانت تتحكم فيهما، تمتلكهما، وأنا أقف في الخلف، صدري ثقيل وأبحث عن نسمة من هواء، لم أخش أن يلتفت ويراني، كان حريّا به أن يشعر بوجودي أنا أيضا، لكنه لم يفعل، لم يكن يرى غيرها؛ المرأة التي تسبقه دوما بخطوتين، لا أدري إلى متى سيتواصل الأمر؟ ولكني واصلت تتبعهم، دخلت هي أحد محال تصفيف الشعر، رأيتها من خلف الزجاج تتحدث مع العاملين في المحل؛ تصافحهن وتتبادل معهن الحديث والابتسامات، يعرفنها جميعا، كأنهن كن في انتظارها. أخذ هو الطفلة وسار مبتعدا،

تخلى عنها أخيرا، رأيته يتجه إلى غرفة ألعاب جانبية، ظللت واقفة وعيناي معلقتان عليها، تبدو من خلف الزجاج جالسة على المقعد، تبدأ إحدى العاملات في قص أطراف شعرها، لم يكن جميلا، مثل كل شيء فيها، ولكن يبدو أنها تعتني به جيدا؛ هل تعتني بعالمها كله حتى لا تسرقه واحدة مثلي؟ أهذه هي طريقتها، أم أنها تستشعر أن هناك من ينافسها في الظلام؟ تبتسم وتتحدث مع الجميع حتى إني أشفقت عليها من هذه الغفلة، من الإحساس الزائف بالثقة، هل أدخل إليها وأنبهها، من منا الأقوى، أهي التي تمتلكه، أم أنا التي تعرف عنه كل شيء؟

ظللت واقفة وأنا أرتعد، رأيتها تنهض وتسير خارجة من المحل، قصّت شعرها، ظهرت ملامحها بصورة أوضح وبدت أصغر سنا، سارت فسرت خلفها، كأني أدور في فلكها، وقفت عند باب غرفة الألعاب ولوحت لهما باسمة، ثم عادت للتجول، تمشي باعتزاز غريب كأنها أجمل امرأة في العالم، قصّ الشعر أكسبها الثقة بنفسها، تنشر ابتساماتها في كل مكان، كأن كل من في «المول» أصدقاؤها، أنهكت تماما من متابعتها، استندت إلى الحاجز المعدني وأنا عاجزة عن التقاط أنفاسي، ظللت واقفة أشهق في صوت مسموع، سمعت من يهتف بي:

ماذا بك؟ هل أنت بخير؟

رفعت رأسي ورأيتها واقفة بجانبي، علامات الانزعاج على وجهها،أحسست أنني على وشك السقوط على الأرض، لم يكن ينقصني إلا شعورها بالشفقة عليَّ، عادت تقول:

تماسكي.. هل تعانين من مرض ما؟ هل أنت مصابة بالسكري؟

هززت رأسي بالنفي، وضعت يدها على كتفي، لم أكن أريد أن ألمس جسدها، ولا أن أشم رائحة العطر الذي تضعه على جلدها، ولكني أطعتها. قادتني برفق، وأجلستني على إحدى الأرائك الخشبية، أزاحت الشعر المتهدل حول وجهي، جلست على الطرف الآخر من الأريكة، كانت تبتسم:

لا بد أنك لم تتناولي إفطارك، هذا يحدث كثيرا مع البنات الصغيرات.

تذكرت أمي فجأة، لا بد من أنها مرعوبة من وحدتها وسط هذا الزحام، حاولت أن أنهض وأهرب من هذه السيدة، ولكن ساقيَّ كانتا خائرتين. نظرت في وجهها، نظرت إلى أنفها الصغير، رغما عني كانت جميلة، وتلك الغمازة في منتصف ذقنها، هل يقبلها كل ليلة، وبقايا الشعر المقصوص على جبينها العريض، وطلاء للشفتين فاتح اللون ولا يكاد يرى، يتناسب مع هذا الوقت من النهار، ياربي كانت امرأة كأنها الطبيعة بذاتها، ظلت تتأمل وجهي في إشفاق وعادت تقول:

أنت فتاة جميلة حقا، ولكنك نحيفة بعض الشيء، مؤكد أن نحافتك هي السبب في هذا الإعياء.

كيف لم تشم رائحة زوجها على جسدي؟ كيف لم تتعرف على آثار شفتيه على وجهي؟ داهمني إحساس بالخجل فلم أستطع مواصلة النظر إلى وجهها، ولا قادرة على سماع نبرات صوتها، نهضت واقفة، نظرت إليَّ متسائلة، بدأت أعدو من أمامها، أتعثر

بالناس وأوشكت على السقوط، وكل شيء يدور بي، وعندما وصلت إلى المقهى أخيرا، رأيت وجه أمي ممتقعا ومفزوعا، قالت في هلع:

ماذا بك؟ أين اختفيت كل هذه المدة؟

استندت إلى المنضدة وأنا أحاول التقاط أنفاسي، قلت أخيرا:

لم أجد تذاكر للسينما، كله محجوز، هيا نرحل من هنا.

عندما التقيت به في الشقة المطلة على النيل، كنت هادئة تماما، قلت لنفسي: لم يتغير شيء. لبست طاقم الدانتيلا السوداء وحاولت أن آخذ متعتي منه كاملة، ولكن أطراف جسدي ظلت باردة. أغلقت النوافذ وأسدلت الستائر حتى لا يلمحنا أحد، حتى طيور النهر، ولكن جسدي ظل عاريا ومكشوفا أمام الجميع، رأيت حبيبات العرق على وجهه، هل يبذل الجهد نفسه في الفراش الآخر؟ توقف فجأة وهو يقول:

أنت لست معي.

وجدت نفسي أندفع قائلة:

أنت أيضا لست معي، لم تكن قط معي، لا تعطيني إلا زمنا ضئيلا من وقتك، وقدرا أقل من حرارة جسدك، وربما لا مكان لي داخل قلبك.

نظر إليَّ مستغربا، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرد عليه بهذه الحدة، قال:

ما سبب كل هذا؟

ـ لقد رأيتكم بالأمس، أنتما الثلاثة، زوجتك وابنتك وأنت معهما، في «المول» خارج المدينة.

ـ هذا طبيعي.. ولكن هذا المكان بعيد عن بيتك. ما الذي جعلك تذهبين إلى هناك؟

صرخت، اكتشفت أنني أعاني من غيرة حمقاء:

أستطيع الذهاب إلى أي مكان أريده، أنا مازلت حرّة، لقد رأيت زوجتك، المرأة الأخرى، وتحدثت معها أيضا.

اصفرّ وجهه، نهض من على الفراش، ارتدى شيئا يستر به عريه، كأن مجرد ذكرها قد أحضرها إلى داخل الغرفة المغلقة الأبواب، المسدلة الستائر، قال:

متى حدث ذلك؟ كيف اقتربت منها؟ ماذا قالت، وماذا قلت؟

ـ كانت مصادفة، لم نقل شيئا مهما، مجرد كلام عابر بين سيدتين عابرتين.

مال عليَّ، أمسك بذراعي فجأة، كانت قبضته قاسية ومؤلمة، قال من بين أسنانه:

يجب ألّا يحدث هذا مرة أخرى، لا أومن بأي نوع من المصادفات، ابتعدي عن طريقها، لا أريدك أن تقتربي منها.

نزعت ذراعي المتألمة من بين أصابعه، قلت:

لماذا؟ هل تخشى أن تشم رائحتك على جسدي؟

لم نكمل، ارتدى كل واحد منا ثيابه في صمت، وجدت المرأة

الأخرى طريقها إلى هذا المكان، أخذت مساحتها على الوسائد وتركت أثرها فوق الملاءات البيضاء. كنت أعلم أنها لن تغادره أبدا، ستشاهد عربي، وتسمع تأوهاتي، وتقول لي: أفخاذك نحيفة ويجب أن تأكلي أكثر.

حين فتحت عيني أخيرا، وعدت من شرودي، كان المقهى على حاله، وكان علي جالسا أمامي، يتطلع إليَّ بنظرات مختلسة، لم ينطق بكلمة، احترم لحظات صمتي التي طالت أكثر مما ينبغي، هل انتهيت من حكايتي القديمة، أو أن السيارة التي انصرفت فارغة هذه المرة ستعود لتقتنصني في المرة القادمة؟ إلى أي مدى يمكن لتلك الخلايا الملعونة داخل جسدي أن تقاوم جوعها؟ حاولت أن أنفض من رأسي ما فيها من مشاغل، قلت:

هيا بنا.. سنبحث عن شيء نأكله قبل أن نذهب إلى هذه السيدة.

ذهبت به إلى مطعم صغير في شارع جانبي بالزمالك، معظم زبائنه من الطلبة؛ لذلك فإن أطباقه صغيرة وأسعاره معقولة، تأملته بلا تحيّز، واستمعت إلى حديثه حول مدينته الصغيرة، ومن الغريب أنه كان يشاركني كثيرا من الأشياء، وكثيرا من مشاعر الحنق، ضد كل ما يدور حولنا، قال:

لو استطعت كل يوم أن أشترك في مظاهرة لفعلت ذلك.

كنت مثله، قبل أن أحبس روحي الطليقة في تلك الشقة المطلة على النيل، شعرت بالخجل لأنني استجبت لرغباتي السوداء أكثر مما ينبغي، كنا نأكل وأنا أحدق فيه متسائلة: هل فوّت على نفسي فرصة علاقة سوية مع مثل هذا الشاب؟ كانت المدينة تبدو غريبة

وأنا بصحبته؛ تبدو مزيجا من الألفة والغرابة، كنت أعرفها أكثر منه، ولكني أعيد اكتشافها من خلاله، أعيد تركيب تفاصيلها الصغيرة من جديد أمام عيني، تمنيت ذات لحظة ألّا تنتهي رحلتي معه بغتة.

قادنا «التاكسي» بعيدا عن الزحام، ظهرت قمم الأهرامات والشمس الغاربة تفرد عليها غلالة مذهبة،كنت مستغربة من نفسي وأنا أجلس بجانبه، ونحن ذاهبان لمقابلة سيدة لم أسمع سوى صوتها، كانت داخلي رغبة خفية في التعرف إلى هذه المرأة التي بدت قوية، ليست مثلي مسلوبة الإرادة تدفع مصيرها إلى حافة الخطر. ظلت عيناي معلقتين بأحجار الأهرام وهي تقترب مني، انحرفت السيارة ودخلت في طريق تشقّه ترعة عطنة، تغطي سطحها طحالب خضراء سميكة، وتحوم حولها حشرات طنّانة، كانت الترعة تقسم العالم، على جانب منها بيوت فقيرة متلاصقة مبنية بالطوب الأحمر، وعلى الناحية الأخرى تختفي القصور والفيلات وسط غابات من النخيل والأشجار وتلتف حولها أسوار محكمة، عبرت السيارة فوق جسر من الأسمنت، ظهر أمامنا صف من أشجار الكافور يحيط بالبنايات المنعزلة، أصبحنا وسط الشوارع المتقاطعة، اختفى زحام المدينة وضجيجها، أحاطت بنا مجموعة من الفِلل والمباني الأنيقة، بدت غير واقعية، جزيرة منعزلة بعيدة عن الفقر والعشوائيات، ترمق الغرباء في حذر وترقب. تنتشر عيون الحرس حول معظم الأبواب؛ عيون شباب ضخام الحجم مفتولي العضلات، ظل السائق يدور حول نفسه لا يعلم بالضبط المكان الذي نقصده، كان خائفا من الاقتراب وسؤال أي من الحرس، ربما يبادرونا بإطلاق النار قبل أن يعرفوا ماذا نريد، تحول السكون الخادع إلى بحث متوتر، خوف وحذر من القصور

المحمية خلف الأسوار، لا بد أن عيونهم المختبئة خلف الستائر تراقب كل الغرباء، تتوقع قدوم الطوفان. ترتفع أصوات صرخات مذعورة، تطلقها غربان سوداء لا تكف عن التحويم، أرواح مجهولة نهضت من المقابر الفرعونية المجاورة، تبحث عن مستقر لها، بدأت أشعر بنوع من الرعب، بهدوء مشحون وحرس متحفزين وغربان تنعق، ماذا يحدث عندما يخيم الليل على هذا المكان؟

أوقفْنا رجلا كان يسير منكس الرأس، خائفا من أن يرفع رأسه ويحدق فيما حوله، يحمل على ظهره مقطفا من الخوص، في يده مقص ضخم يقص به الحشائش وأوراق الشجر، شعر بالفزع ونحن نتحدث إليه، ولكنه رفع ذراعه بإشارة غامضة في اتجاه شارع متفرع، أوشك سائق التاكسي أن يطردنا، ولكنه حين استدار قليلا بالسيارة وجدنا المنزل الذي نبحث عنه منتصبا وهادئا كأنه يقف في انتظارنا، هبطنا من سيارة الأجرة أخيرا، تركنا السائق وهو يدمدم في أثرنا في سخط.

توقفْنا أمام البوابة الحديدية، كان تصميم المنزل غريبا، فيه نعومة أنثوية بلا زوايا حادة، جدرانه بيضاء ونوافذه زرقاء، تحيط به حديقة مليئة بنباتات استوائية نضرة وزاهية الألوان، ابتسمت لعلي ومن دون وعي أمسكت بأصابعه، كنا نتشارك معا في مغامرة غريبة لا تخصّ أيّا منا، ضغطنا على زر «الإنتركوم» الموجود بجانب البوابة، انبعث صوت أنثوي يتساءل بلكنة أجنبية: من؟ تلفت علي حوله في حيرة، لا يستطيع أن يحدد مصدر الصوت، تقدمت لفتحة الصوت وعرفتها بنفسي، بعد برهة أصدر الباب الحديدي صريرا وانفتح أمامنا، وتقدمنا للباب الداخلي للمنزل، وسرعان

ما انفتح أيضا وبدت خادمة فلبينية، أشارت لنا بالدخول، كانت الصالة واسعة مفتوحة الأركان، جدرانها مزدحمة بلوحات فنية من الواضح أنها أصلية. توقف علي متوجسا، خائفا من الجلوس، يراقب المقاعد المكسوة بالحرير في قلق، يخشى أن يخدشها ببنطلونه «الجينز» الخشن، وضعت الخادمة أمامنا كوبين من عصير البرتقال، وانسحبت، كنت في غاية العطش ولكني لم أجرؤ على مد يدي، نظرت إلى علي ونظر إليَّ، هل تهوّرنا وجئنا إلى مكان غير مناسب؟ كنت أريد أن أرى هذه المرأة، ولكني أحسست بالتردد، تمنيت أن آخذ علي ونغادر هذا المكان، ولكني في هذه اللحظة بالذات سمعت وقع خطواتها.

هبطت إلينا من أعلى، نهض علي مذهولا وقد فتح فمه، بدا قرويا، ولكنه كان محقّا، كانت «ذكرى» تهبط إلينا كملكة، تشع بنوع من البهاء؛ كليوباترا وقد بعثت من جديد، ترتدي ثوبا أبيض، يمتد من عنقها حتى قدميها، ذراعاها عاريتان، شَقّ طويل في الفستان يظهر لمحة من تناسق ساقيها، فتحة مستديرة عند الصدر تكشف عن منبت ثدييها، وقفتُ منبهرة وهي تقترب، عاجزة عن التقاط أنفاسي، بينما كان علي مفزوعا من شدة هذا الجمال ويوشك الهرب، لا تضع إلا لمسات قليلة من الزينة، ملامحها المتناسقة لا تحتاج أي إضافات، سارت حتى وقفت أمامنا، بدلا من أسعى إليها لأصافحها، وجدت نفسي أجلس بجانب علي، أحسست بجسده يلامسني للمرة الأولى، كنت في حاجة إلى الدفء الذي ينبعث من جسده، والتصق هو أكثر ليستمد مني الشجاعة، وقفت أمامنا، وضعت يدها في خصرها وهي تتأملنا، قالت:

واضح أن الهواتف تخفي الحقيقة، أنتما أصغر مما كنت أتصور.

ظل علي عاجزا عن أي قول، بلعت ريقي وأنا أقول:

أنت أيضا، أصغر وأجمل مما تبدين في الصور.

ظهرت على وجهها ابتسامة خفيفة، جلست على أحد المقاعد، تأملت جلستنا المتلاصقة، تساءلت:

هل أنتما على علاقة؟

ابتعدت عنه قليلا، وقلت محرجة:

إطلاقا. لم نتقابل إلا منذ أيام قليلة؟

ظلت الابتسامة معلقة على شفتيها، قالت:

أنت إذن على علاقة بحسنْ الرشيدي؟.

قلت في سرعة: لم أقابله في حياتي.

واندفع علي متكلّما أخيرا:

أنا أيضا لم أقابله في حياتي.

رفعت حاجبيها مستغربة وهي تقول:

أليس هذا أمرا مدهشا؟ شابان غريبان يسألان امرأة غريبة عن رجل غريب، والجميع لا يعرف بعضهم بعضا، فلنحاول أن نكون أكثر تحديدا.. هذه الفتاة التي تجمدت، هل هي جميلة، وهل هي خطيبته بالفعل، وهل كان يحبها حقا؟

قال علي: لا أعرف حقا، من المؤكد أنها كانت تحبه أكثر، أكبر من قدرتها على التحمل، وأكبر من طاقتها على فراقه.

تماسك علي وبدأ يتكلم فجأة عن ورد؛ حديثه المفضل. كان قد كبت في نفسه الحديث عنها طويلا، بدا من خلال كلماته المتدافعة أن شيئا في الفتاة قد مسّه؛ شيئا بين الشفقة والعشق، كان يسعى لخلاصها لأن في هذا خلاصا لنفسه، يريدها أن تستعيد حياتها، لأن لها الحق في الحياة، مخلوقة رقيقة يجب ألّا يخلو الكون من وجودها، وأن لا يأخذها الموت بغتة هكذا، تخيلته أشبه بـ«دون كيشوت» مسكين، يسعى لإنقاذ محبوبة لا تعلم حتى بوجوده، ظلت «ذكرى» تحدق فيه، لم أدر أكانت ترثي له، أم تتعاطف معه؟ هل توارى حسن من مقدمة الصورة؟ أخيرا تحدثت «ذكرى»، قالت مندهشة من قصته:

وأنت تعتقد أن حسن وحده هو القادر على إنقاذها، أليس كذلك؟

ـ ربما كنت خياليا، ولكنني أومن بقوة الحب، كان حسن هو الرجل الوحيد الذي أحبته، تجربتها الوحيدة في العشق، وجهت له كامل عاطفتها، لم تحب أباها بالقدر الكافي لأنه لم يعش معها كثيرا، كان بحّارا في بلد لا يوجد فيها بحر؛ لذلك عندما سافر حسن، رحل جزء من روحها معه.

اقتربت «ذكرى» من علي، وضعت كفيها على خديه، أحاطت وجهه بكفيها، اقتربت منه حتى خيل إليَّ أنها ستقبله، قالت:

لا يوجد شيء اسمه الحب يا صديقي، إنه وهم جميل، ينفذ به الرجال إلى عقول النساء ليستولوا على أجسادهن، صدقني.. هذه خلاصة تجربتي.

نظرت نحوي كأنها تحذرني، أخفضت عيني، لم أكن أريد لعيوننا أن تلتقي، أحسست أنها بخبرتها قادرة على النفاذ إلى أعماقي، تركت وجه علي المسكين، رفعت كوب العصير وقدمته له:

ولكن هذا لا ينفي أنني تأثرت بقصتك، اشرب حتى تهدأ، لا أعرف كيف أستطيع أن أساعدك.

جلست في قبالته مرة أخرى، فتحت عيني بصعوبة، ولكنني وجدتها تنظر إليَّ في تأمل، كانت تحاول أن تكتشف ما في أعماقي، استدارت إلى علي الحزين وهي تقول:

لا أستطيع أن أخبرك كثيرا عن حسن، إنه أشبه بالزئبق، كلما حاولت القبض عليه تسرب من بين أصابعك. يا لهؤلاء الرجال، وعودهم مغرية وأجسادهم رائعة، ولكنهم سرعان ما ينسون هذه الوعود، وتصبح عيونهم صلبة وقاسية لا سبيل فيها للحنان. لم أعرف حسن هذا إلا منذ فترة وجيزة، جاء من دون دعوة إلى الحفلة التي أقمتها عندما انتقلت إلى هذا المنزل، ربما جلس على المقعد نفسه الذي تجلس أنت عليه، جاء بصحبة ضيف آخر، لم أوجه إليه الدعوة هو أيضا. «أكرم البدري»، لم أكره أحدا مثلما كرهت هذا الشخص؛ ابن «البدري» هذا.. الرجل الوحيد الذي استغلني حتى النخاع.

التفتتْ إليَّ فجأة، كأنها قد تذكرت وجودي، وهي تقول:

لا تدعي وغدا يستغلك يا عزيزتي، مهما كان جميلا.

حاولت أن أبتسم وأنا أواجهها بوجه جامد، قلت:

لم يحدث.. حتى الآن على الأقل.

كانت تعرف أنني أكذب، أشحت بوجهي وتظاهرت بشرب العصير، ولكن معدتي بدأت فجأة في التقلص، كأن هناك شيئا غير طبيعي في العصير، وربما في المكان كله، كنت على وشك التقيؤ، قال علي:

وماذا عن حسن؟ هل كنت تكرهينه أيضا؟

تنهدت وتركتني، التفتت نحو علي، قالت في صوت خافت كأننا لسنا معها:

كرهته في البداية، حسبت أنه لص رخيص جاء يسرق بيتي أو يفتش في حياتي، ولكن رغما عني كنت منجذبة إليه، كان مختلفا عن الذين عرفتهم هنا، كان قادما بالضبط من المكان نفسه الذي جئتُ منه، ربما من مدينة أخرى ولكن المكان نفسه، حدثني عن أبيه، هل كان ذلك حقيقيا؟ هل مات حقا تحت أقدام الشرطة؟

قال علي: أجل.. إنهم يعتبرونه بطلا في مدينتنا.

ـ لم يكذب علي في هذا الأمر على الأقل، لقد حاولت أن أتغاضى عن اقتحامه لبيتي من دون دعوة، وأنه كان في صحبة «أكرم»، وأعطيته بطاقتي وكتبت بيدي رقم هاتفي الخاص، لا بد أنها البطاقة نفسها التي عثرت عليها وقادتك إليَّ، ولكنه أصابني بالحيرة. أحيانا يبدو مقبلا وراغبا في أن يكون معي، وأحيانا يبدو قاسيا ومتباعدا، باختصار لم آخذ معه لا حقّا ولا باطلا.

قال علي في فزع: هل يعني هذا أنك لا ترينه بانتظام؟

قالت في غموض: إنه شخص كثير النزوات، كما أنني لا أستطيع

أن أحتمل وجود شخص في حياتي بشكل منتظم، سيفسد هذا كثيرا من الأشياء.

صاح علي مستنجدا: ومكانه.. هاتفه.. أي شيء يمكن أن يوصلني إليه؟

قالت: لم أستطع أن أطوِّعه قط كما أريد، كان هو الذي يبادرني بالاتصال.. فقط عندما يريد، وهذا أسوأ ما في الأمر.

بدت خيبة الأمل واضحة على وجهه، نظر إليَّ حائرا كأنه يستغيث بي، ولكن بطني مازال يتقلب، والغرفة تدور من حولي، ظل ينظر إليَّ مذهولا وهو لا يدري ما بي، أحسست بالسيدة وهي تنهض مسرعة، تقبل عليَّ وتهتف في لهفة:

ماذا بك؟ هل تتألمين من شيء؟

كنت مرعوبة، خائفة من أن ألوث هذا المكان البالغ النظافة، هتفت في وهن:

أريد أن أتقيأ.

جذبتني من يدي بسرعة، نهضت خلفها طائعة، عبرنا الصالة، دخلنا في ممرّ، دفعتني إلى الحمام في اللحظة الأخيرة، لم أرَ ما حولي، ولكني ملت على «الكابنيه»، اندفعت من فمي رغما عني كمية من العصارة الحامضة، كأن هناك سكينا حادة تمزق أمعائي.تلويت وأنا أصدر صوتا كالعواء، ظللت منكفئة والتقلصات تدفع كل ما في داخلي، أحسست بجوفي فارغا، لم أهدأ إلا بعد فترة من الزمن، ولكن الألم ظل باقيا، وأخيرا استطعت أن أرفع رأسي، أزحت خصلات الشعر من حول

وجهي، كان مغطى بعرق بارد، رأيت السيدة واقفة مستندة إلى الباب، تتأملني في صمت، وقفت أمام الحوض، غسلت وجهي وفمي وأنا أحس بالخجل من نفسي، تقدمت مني وهي تحمل المنشفة، ظلت واقفة تتأملني، حاولت أن أسترد أنفاسي ولكن وجهي في المرآة كان بالغ الشحوب، جثة تتحرك على قدمين، سمعتها وهي تقول لي:

هل هذه هي المرة الأولى التي تشعرين فيها بهذه الحالة؟

قلت في صوت مجهد: ليس بهذا العنف.

اقتربت مني، وضعت يدها تحت ذقني، رفعت وجهي حتى تراني بشكل أفضل، قالت:

ماذا عن دورتك الشهرية؟ هل تأخرت؟

شعرت بالخجل الشديد، حاولت أن أشيح بوجهي عن عينيها المتفحّصتين،قلت:

إنها غير منتظمة.

أمسكت بيدي، ضغطت عليها وهي تقول في حسم:

أنت على علاقة جنسية كاملة.. ليس مع هذا الشاب الجالس في الخارج، ولكن مع رجل يفهم جسدك.. أليس كذلك؟

أخفضت وجهي، لم أجرؤ على الإجابة، أريد فقط أن أهرب من عينيها اللتين تقرآن كل ما أحاول أن أخفيه، عرفت في لحظات ما لم تستطع أمّي أو أي من زميلاتي أن يكتشفنه خلال الأيام الماضية، ربتت على كتفي وهي تقول:

علينا أن نتأكد أولا أنك لست في ورطة، الأمر لن يستغرق أكثر من دقائق.

مدّت يدها وفتحت خزانة صغيرة معلقة في ركن من الحمام، أخرجت منها عبوة من البلاستيك، فضت الغلاف بسرعة وأخرجت منه أنبوبة رفيعة، وهي تقول:

هذا جهاز صغير لاختبار الحمل، يكفي أن تضعي عليه قليلا من البول؛ وسنعرف النتيجة خلال دقائق.

شعرت بالرعب وهي تحاصرني، تدخل في تفاصيل حياتي،كنت أريد أن أصرخ بالرفض في وجهها، أعدو خارجة من منزلها، ولكن الوهن كان يشل جسدي، قلت:

أرجوك لا ضرورة لذلك، هذه مجرد وعكة عارضة.

قالت في حزم: الأمر مهم يا حبيبتي، هذا الجهاز أنقذ حياتي أكثر من مرة، دعينا نتأكد قبل أن يتحول الأمر إلى مصيبة.

وضعت الجهاز البلاستيك في يدي، قالت مؤكدة:

سأنتظرك خارج الحمام، لن يعرف هذا الشاب شيئا مما دار بيننا، خذي راحتك.

خرجت وأغلقت الباب خلفها، ظللت واقفة وأنا أمسك بالجهاز الصغير، رأيت وجهي في المرآة، ممتقعا ومرعوبا، كيف لم أفطن إلى هذا الأمر؟ كيف لم أفطن إلى الدوار الذي يعتريني، إلى الغثيان الذي يوقظني من النوم، إلى الدورة التي تأخرت أسبوعين حتى الآن؟ لماذا أقاوم مواجهة نفسي بالحقيقة؟ رفعت يدي وتأملت الجهاز الصغير،

كنت أعرفه جيدا، لم أستخدمه ولكني رأيته في أيدي كثير من زميلاتي داخل «تواليت» الجامعة، يتحلّقن حوله ليرين النتيجة في خوف وانبهار، بين صيحات الفرح حين تظهر علامة السلب وبين الجزع حين تبدأ علامة الإيجاب في التشكل، كأنها لعبة، مقامرة خطرة ولكنها لا تدمر إلا صاحبها.

فككت أزرار البنطلون، جلست على حافة السلطانية، خيل لي أن كل ما في جسدي من سوائل قد جفت، وددت لو أبكي وأضع قطرة من دموعي على الجهاز لأرى ماذا ستكون النتيجة. انسال خيط واهن من البول الدافئ من داخلي، بلل أطراف أصابعي وغمر الجهاز، نهضت واقفة وأعدت أزرار بنطلوني، وعندما فتحت الباب وجدتها واقفة في انتظاري وقد ضمت ذراعيها على صدرها، بدت في عينيها نظرة شاردة كأنها لا تراني، وضعت الجهاز بجوار حوض المياه، لم أستطع الوقوف فجلست على حافة «البانيو»، لم أجرؤ على النظر لأرى النتيجة وهي تتكون، دقّ قلبي في عنف، خيل لي أنها تستمع إليه، ماذا يفعل علي وهو يجلس وحيدا الآن؟ هل يدرك سبب غيابنا عنه؟ سمعت صوتها أخيرا وهي تقول في صوت خافت:

أنت في ورطة يا فتاة، العلامة إيجابية.

فجأة شهقت في البكاء، لم أعد أحتمل، لم أستطع أن أتمالك نفسي، ظلت تتأملني من دون أن تحاول الاقتراب مني، تركتني أفرغ كل شحنتي، لم يكن هناك من يواسيني، لم يخطئ غيري، ولم يخدعني أحد، وأخيرا قالت:

تمالكي نفسك، يجب ألَّا يلحظ هذا الشاب شيئا، واضح أنه بريء أكثر من اللازم.

هل كانت تنغزني بكلماتها؟ كنت محبطة، تأوهت:

لقد ضعت، لا أدري ماذا أفعل؟

قالت في استهانة:

لقد تغير الزمن، لم يعد أحد يضيع بسبب هذه الأشياء، فكري قليلا، وسوف تجدين حلا، نصف مستشفيات البلد تقوم بعمليات الإجهاض، سأسبقك إلى الخارج، رتبي نفسك والحقي بنا.

تركتني وحدي، نهضت في صعوبة، استندت إلى حافة الحوض،رأيت وجهي مصفرا، شديد الشحوب، ماتت سمية القديمة، الفتاة التي تقف مستندة إلى حافة الحوض هي مجرد شبح، فتحت حقيبتي وأخرجت علبة البودرة، لم أكن أستخدم أي «مكياج» في العادة، ولكني كنت في حاجة إلى وضع أي قناع على وجهي، يكاد الخجل أن يقتلني، وستزداد حدته عندما أعود إلى البيت وأشاهد وجه أمي، لم أكن أستطيع أن أظل محبوسة في الحمام طوال الليل. ضممت شعري خلف رأسي،استندت إلى حائط الطرقة لأتمكن من مواصلة السير، توقفت أمام صورة معلقة على الجدار؛ صورة قديمة بالأبيض والأسود، صياد إسكندراني عجوز، يرتدي غطاء الرأس ولباس الصدر التقليدي، يحدق فيّ بعينين عميقتين، يلومني على ما فعلته بنفسي، جعلتني نظرته أزداد هلعا، غادرت الطرقة مسرعة.

كان علي والسيدة منخرطين معا في الحديث، كانت المرأة قد تركت مقعدها وجلست بجانبه، قريبة أكثر من اللازم، تحدثه عن بعض التفاصيل في لهجة خافتة، هل كان يجب أن آتي معه إلى هذا المكان؟ توقفا عن الحديث حين أحسا باقترابي، ورفع علي رأسه نحوي متسائلا، قلت له:

أنا متعبة، يمكنني أن أنصرف وأتركك هنا لتكمل حديثك.

كان صوتي واهنا ولكنه كان حازما، لا أستطيع مواجهة هذه المرأة أكثر من ذلك، شعرت نحوها بنوع من الضغينة، لم تكن مشفقة عليَّ، ربما تحاول الانتقام مني لأنني تلاعبت بها في الهاتف، ظللتُ واقفة، نظر علي محرجا إلى السيدة ونهض هو يقول:

كلا.. من المستحيل أن أتركك وأنت في هذه الحالة.

حاولت المرأة أن تعطله، قالت وهي تحدجني بنظراتها:

أعطني رقم هاتفك، عندما يتصل بي حسن سأعطيه له، من المؤكد أنه سيتصل بك بعد ذلك، أنا أشعر بالشفقة حقا على هذه الفتاة المسكينة، ولكني أشعر بالشفقة عليك أكثر من أجل هذا البحث الدءوب، أنت شخص جميل يا علي.

وفجأة وجدتها تقوم بحركة غريبة، ولكن ليس من الغريب توقّعها من امرأة مثلها، مالت على علي وقبلته، لا على خده ولا على جبهته ولا حتى على أنفه، بل على شفتيه، قبلة خفيفة ولكن متمهلة وكاملة. ارتجف بدنه كله ونظر إليها مذهولا. لم تحاول أن تقبلني، قادتنا فقط إلى باب المنزل، ألقت عليَّ نظرة مشفقة زادت

من تعبي. سرتُ بجانبه إلى خارج، كان هواء الليل باردا، تطلع إليَّ مشفقا، سمعت صوته يقول:

هل أنت بخير؟ هل مازلت تشعرين بالدوار؟

تشبثت بيده وأنا أقول: أشعر أنني سأموت الليلة.

توقفت إحدى سيارات الأجرة، حملتنا معا قبل أن أتهاوى على الأرض، التفت إليَّ علي مندهشا وهو يلمس شفتيه، قال في استغراب:

لماذا قبلتني هذه المرأة؟

قلت بسرعة: كانت تحاول أن تفسد براءتك.

أحسست أني رددت عليه بفظاظة، لم أحاول أن أعتذر، كنت أعاني من بعض مشاعر الغيرة، حماقة ليس لها ما يبررها، ظل هو صامتا، وعندما بدأنا نقترب من زحام المدينة، أحسست بالشفقة عليه، قلت:

ماذا تنوي أن تفعل؟

قال وهو شاعر بالقهر:

كل الطرق مسدودة يا سميّة.. لا جدوى من البقاء.. هذه السيدة كانت الأمل الأخير..سأرحل غدا.

توقفت بنا سيارة الأجرة بعيدا قليلا عن بيتنا، شبكت أصابعي الباردة في أصابعه الباردة، انتابتني موجة من الشجن والتأسي لحالي، قلت له:

لماذا تأخّرت هكذا؟ كان يمكنني أن أرتبط بشاب مثلك.

ابتسم في تعب وقال: لم يفت الأوان بعد يا «سميّة».. لم نتجمد ولم نفقد الأمل.

ولكني كنت أعرف أن موعد اللقاء قد فات، شاخت أعماقي مبكرا، وامتلأ رحمي بالعفونة، عليَّ أن أقف تحت المياه طوال الليل لأتخلص من هذا الإحساس. افترقنا من دون وداع مؤكد، شعرت وأنا أسير بحرقة لا تريد أن تهدأ، حوضي ثقيل، عظامه لا تطاوع حركتي، لا تدع قدميَّ تتحركان بسهولة. صعدت درج بيتنا وأنا ألهث من فرط الإعياء، كانت أمي جالسة شبه نائمة أمام التليفزيون، ألقت عليَّ نظرة عتاب صامتة، وسألتني:

لماذا تأخرت هكذا؟ هل أحضّر لك العشاء؟

سؤالها التقليدي. كنت أعاني شعور الغثيان والقرف، أسرعت إلى غرفتي، كانت أكثر ضيقا مما اعتدت، خلعت كل ملابسي واستلقيت عارية تحت الأغطية، تحسست بطني العاري، لم يكن هناك شيء بارز فيه، تذكرته وهو يرتاح عليها برأسه، ويضع لسانه في صرتي، ارتعدت، انتفضت، هل يجب عليَّ أن أخبره، أن أجعله يشاركني في هذه المصيبة؟ ماذا لو تنصل مني؟ هل يجب أن أدفع الثمن وحدي؟ سيقول لي: ألم أعطك حبوب منع الحمل؟ ألم أحذرك؟ كنت قد فعلت كل الاحتياطات، تناولت قرصا كل يوم، حتى الأيام التي لا ألتقيه فيها، ولكن كان لا بد أن يقع الحمل برغم ذلك كله. ضربة فوق الرأس لعل جسدي ينتبه، ولعل جوعي يهدأ. نهضت، فتحت الباب نصف فتحة، عادت أمي إلى النوم، وصوت التليفزيون عال

بعض الشيء، لن تسمع صوتي، كنت أعرف أنه مازال في مكتبه حتى الآن، لم يحن موعد عودته إلى بيته، ضغطت أرقامه، كنت أحتاج إلى كلمة واحدة منه يطمئنني فيها أن أحدا سيقف بجانبي، يؤجل لومه وغضبه حتى نخرج من هذه المصيبة، سمعت صوته مستغربا من الطرف الآخر وهو يقول بحدة:

ألم أقل لك ألَّا تتصلي بي هنا؟ هذا محل عمل والموظفون..

قلت مباشرة: أنا حامل.

ساد الصمت بغتة، توقف عن معاتبتي، سمعته يحدث أحدا ما، هل تركني وحدي على الهاتف ومضى مبتعدا؟ سمعت صوته من جديد، قال:

لم أسمع جيدا..ماذا قلت؟

أحسست بالضيق من طريقته، قلت في بعض الحدة: لقد سمعتني.

ـ من الذي قال لك هذا الكلام الفارغ؟

ـ أجريت اختبارا للحمل.

ـ إنها اختبارات غير مؤكدة، وكثيرا ما تخطئ.

ـ ماذا سنفعل؟

ـ لا أدري، على أي حال، أنا لم أعطك وعودا، أنت تفهمين أنه لا يمكنني أن..

كأنني أخوض في أحد الأفلام الرخيصة؛ حيث الضحية عاجزة والجاني وغد، اكتسب صوتي بعضا من الحدة، لم أكن أريد أن أبدو ضعيفة، ولم أكن أريد أن أتوسل إليه، قلت:

لم أطالبك بوعود، فقط أريد أن أتخلَّص منه.

تمهل قليلا ثم قال في تأكيد:

تصرفي، النساء يتصرفن جيدا في مثل هذه الأمور، سأدفع لك التكاليف، ولكنك تعرفين أنني لا أستطيع الظهور بجانبك.

بالطبع، لم يكن يستطيع أن يكون بجانبي سوى في الفراش فقط، قلت:

لا أستطيع التصرّف وحدي.

ولكنه كان قد أغلق الخط، أعدت الاتصال ولكن جرس هاتفه ظل يرن من دون مجيب. اكتشفت أني مازلت عارية، وأن جسدي كله يرتجف، التففت بالأغطية، وأغمضت عيني فلم أر إلا ظلاما كثيفا.

في اللحظات القليلة التي غلبني فيها النوم هاجمتني كوابيس لا تهدأ، أتلفت حياتي مع سبق الإصرار والتعمد. نمت قليلا واستيقظت على صوت أمي وهي تتحرك ببطء في المكان، تستعد لصلاة الفجر، وكعادتها فتحت باب حجرتي لتطمئن أنني نائمة في فراشي، تقول إنه أفضل منظر تراه وأنا منكمشة تحت الأغطية وشعري متناثر على الوسادة. تظاهرت أنني نائمة، سمعت صوت صلاتها ودعواتها لي وهي ترددها في همس مسموع، تمنيت أن أنهض وألحق بها للصلاة، ولكني كنت أعرف أن الله لن يغفر لي. جسد نجس مثل جسدي لن يتقبل الله منه أي توسل مهما ألح في الدعاء، ظللت أترقب نافذتي المغلقة حتى يظهر نور الصباح، ولكنه تأخر طويلا، نهضت من فراشي، تظاهرت أنني أتناول الفطور تحت عيني أمي المتفحصتين،

ولكن نوبة من الغثيان هاجمتني، أسرعت إلى الحمام وأنا أحاول أن أكتم صوت تقيئي، لم يعد الأمر يحتمل، ارتديت ملابسي وهبطت، جلست على سلم بيتنا طويلا، عبرني الجيران، ألقوا عليَّ تحية الصباح وهم يتأملونني في دهشة، وأخيرا حسمت أمري.

وقفت أمام بيتها؛ بيتهم، شاهدته وهو يغادر، كانت معه الطفلة الصغيرة، وكانت هي واقفة في وداعهما، تقبل الفتاة وتحملها إلى السيارة، وتعدل لزوجها رباط عنقه؛ مثل كل الزوجات تخطو على أرضها في ثقة من يمتلك كل شيء. انتظرت حتى ابتعدت السيارة، أخذت نفسا عميقا، وتقدمت، كانت قد دخلت بيتها وأغلقت خلفها الباب، لم أمهلها طويلا، ضغطت على جرس الباب ففتحته من فورها، لم تكن قد ابتعدت وكانت ما تزال تلهث قليلا، حدقت فيَّ مندهشة ومستغربة، كنت قد حضرت الكلمات الأولى طويلا، ولكن حلقي كان جافا، وأخيرا استطعت أن أقول:

لقد جئت لأعتذر؛ لأنني تركتك وجريت فجأة من دون أن أشكرك، كانت هذه حركة صبيانية مني.

ظلت تحدق فيَّ بريبة ومن دون فهم، ثم أشرق وجهها فجأة وهي تقول:

آه..أنت فتاة «المول» أليس كذلك؟ لم يحدث شيء، ولا مبرر للاعتذار.

تراجعت وأوشكت أن تغلق الباب، تقدمت نصف خطوة، ورأيت يدها تتحرك في تحفز، حاولت أن أبدو وديعة، قلت:

أريد أن أتحث معك قليلا، هل تسمحين لي؟

نظرت إليَّ في حيرة، لا تريد أن تتخلى عن حذرها، نظرت في كل اتجاه لترى إن كان هناك من يتبعني. كان الموقف غريبا عليها قاسيا عليَّ. أخفضت رأسي إلى الأرض، تركت لها فرصة لتحسم أمرها، لا بد أن غريزتها الأنثوية قد أيقظت ما بداخلها من فضول، لعل الأمر يخصها بطريقة أو بأخرى، فتحت الباب قليلا وسمحت لي بالدخول. كان بيتا أنيقا وهادئا، مليئا بأصص الزرع في كل مكان، صورة مغايرة للشقة التي كانت تضمني مع زوجها؛ كان هذا بيتا حقيقيا، يتحدثون ويتنفسون ويأكلون فيه، لا يقتصر الأمر فيه على ممارسة الجنس، جلست على أحد المقاعد، ظلت واقفة أمامي شابكة يديها، قلت في صوت خافت:

أنا حامل، وأريد مساعدتك لأتخلص مما في بطني.

اصفرَّ وجهها ولكنها قالت في سخرية:

هذا ليس مستوصفا، وأنا لست اختصاصية إجهاض.

ـ أنا طالبة في كلية الهندسة، زوجك هو السبب في حملي، ولكنه رفض أن يقف بجانبي.

تحرَّكت مسرعة، فتحت باب المنزل وهي تهتف من بين أسنانها:

اخرجي حالا من بيتي.

قلت في ضعف: أقسم إنني لو خرجت من هذه الورطة.. فسأنهي علاقتي به نهائيا.

لم تكن تريد أن تسمع، عادت تصرخ: قلت لك: اخرجي.. حالا.

نهضت واقفة، سرت من أمامها منكسة الرأس، هبطت الدرجات القليلة، سمعت الباب وهو يغلق خلفي في عنف. كان الهواء باردا، والريح تزوم من حولي في كل اتجاه، كنت حمقاء، لماذا اعتقدت أنها ستستمع إليَّ؟ من قال إنها ستصدق ما أقول، ومن قال إنها يمكن أن تساعدني؟ أجئت طالبا المساعدة، أم هي محاولة مني للتشفي؟ والآن ماذا عليَّ أن أفعل؟ كيف أبحث عن المستشفى الذي يقبلني؟ ومن أين سأحصل على النقود اللازمة؟ لقد وعدني بدفع التكاليف، ولكن كنت متأكدة أنه سيتخلّى عني، لم يبق إلا أن أذهب وأعترف لأمي بكل ما فعلته بجسدي، ولكن هل يمكن أن تتحمل صدمتها فيَّ؟ وهل في إمكانها أن تتصرف من دون أن تخبر أبي؟

ظللتُ واقفة في برودة الشارع، كان خاليا بطريقة غريبة، كأنني وحدي في هذا العالم، وفجأة سمعت صوتها قادما من الخلف:

تعالي.. ادخلي.

لم تبتعد عن الباب ولم تنشغل عن وجودي، كانت تراقبني من خلفه. خطوت نحوها، كانت غاضبة، تنظر نحوي في قرف واضح، عدت إلى الداخل، جلست على المقعد نفسه، جلست أمامي، من دون تحفز ومن دون تعاطف، كانت تريد أن تتحدث، قالت:

عندما تقابلنا في هذا المتجر، لم يكن الأمر مجرد مصادفة، كنت تعرفين من أنا.

ـ رأيتكم جميعا بالمصادفة، بعد ذلك تبعتك وحدك، كنت أريد

أن أعرف الزوجة التي أشاركها زوجها، مجرد فضول مريض، ولكني أردت أن أراك عن قرب.

ـ لست الطالبة الأولى التي تقيم معه علاقة، ولن تكوني الأخيرة على أي حال، متى بدأت علاقتك به؟

ـ من بضعة أشهر، منذ رحلة الأقصر وأسوان.

تمتمت كأنها تحدث نفسها:

إنها طريقته التقليدية في اصطياد إحداكن. أتذكر هذه الرحلة، أستاذ كبير مثله، يترك مكتبه ويخرج في رحلة مدرسية، يدّعي أنه يفعل ذلك لأنه مفتون بالعمارة الفرعونية، وفي الحقيقة لا يقوم بها إلا إذا كان يطارد إحداهن، كنت أنت فريسته هذه المرة.

ظللت صامتة، لم يكن لديَّ ما أقوله، ظلت تتأملني حائرة، لا تدري ماذا تفعل بي، قالت:

هل تزوجك سرا، عرفيّا، أعطاك مبلغا كبيرا، هدايا ثمينة؟ هل وعدك بتقدير عال في امتحانات آخر العام؟

قلت: لا شيء من هذا، أنا طالبة مجتهدة.

نهضت فجأة، وقبل أن أدري ماذا يحدث أحسست بيدها وهي تهوي على وجهي، لم تكن صفعة قوية ولكن مهينة، صرخت في وجهي قالت:

بائسة، لماذا فعلت ذلك بنفسك إذن؟ لماذا كنت صيدا سهلا إلى هذا الحد؟

ظللتُ صامتة، حاولت أن أمنع نفسي من البكاء، زاد هذا من توترها، أخذت تسير حولي وهي تصيح فيما يشبه الصراخ، كانت تصرخ في فراغ البيت، في ظله الموجود بيننا:

بائسة.. بائسة.. ألا ترين المرايا التي تملأ هذا المنزل؟ هو الذي اختار أماكنها؛ حتى يرى نفسه في مختلف الأوضاع، متباهيا وسعيدا كأن العالم قد خلق من أجله، حتى أنا وابنتي وأنتن، مجرد مقويات يحافظ بها على شبابه وحيويته، كيف أعطيته جسدك الصغير ليمتص عصارته كأي مومس رخيصة؟ لماذا تركته يضع بذرته فيك؟

لم تفطن لبكائي، كانت تصرخ وتروح وتجيء في المنزل وتصرخ كالمجنونة، خيل لي أن الضاحية الهادئة كلها تستمع إليها، وأنها ستعاود طردي مرة أخرى، ولكنها جلست أمامي أخيرا وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، مسحت دموعي وحاولت أن أنظر إليها، قلت:

ـ أنا حقا آسفة.

ـ أنا آسفة من أجلك، في النهاية أنت مجرد فتاة صغيرة، وهو محترف اصطياد القاصرات، كم سيتكلف تخلصك من هذا الحمل؟

ـ لا أريد مالا، عندي بعض المدخرات ويمكن أن أبيع الموبايل، أنا فقط لا أعرف كيف أتصرف.

ـ ليس أمامي إلا أن أساعدك، ولا تذكري هذا الأمر لأحد.

قالت ذلك وهي تتنهد، جلست بجانبي، أحسست بكتفها يلمس كتفي، قالت:

أريني وجهك، هل أثرت اللطمة عليه؟

قلت: هذا لا شيء، هل تكرهينني؟

ـ أنت جديرة بالرثاء.

قلت في حرارة لعلها تصدقني:

أقسم إنني بعد أن رأيتك لم أعد أستطيع الاقتراب منه، أنا لست مبتذلة إلى هذه الدرجة ولست عاهرة.

لا حاجة إلى القسم، زوجي هو العاهر، هيا. انهضي واغسلي وجهك ودعينا نفكر كيف سنتصرف.

وعندما نهضتُ، رأيت صورة له معلقة في كل مكان، كان يسخر مني، يحاصر المكان بإطارات لشهادته وجوائز تفوقه والأوسمة التي حصل عليها، كنت أتجول في عالمه؛ العالم الذي هو إلهه، وقفت في حمامه وأنا أحس بضآلة بالغة.

عندما عدت من الداخل، كانت تنهي محادثة تلفونية، قدمت لي ورقة عليها عدة كلمات، قالت:

هذا هو عنوان العيادة، ستذهبين إليها غدا صباحا من دون إفطار.

تناولت منها الورقة في صمت، كان جسدي كله يرتجف، كأنني أستعد للذبح، قالت:

لن أستطيع أن أكون معك، سأتكفّل بدفع الحساب، ولكن يجب ألَّا أظهر في هذه الأماكن، دعي شخصا تثقين به يرافقك.

قلت في وهن: ليس هناك من أثق به إلى هذه الدرجة.

هتفت: أوووه.. لا تزيدي من صعوبة الأمر، لا بد أن يكون هناك من يقف بجانبك؛ خوفا من أن تحدث أي مضاعفات.

كنت خائفة، مرعوبة ولكني لم أشأ أن أنهار أمامها، خرجت إلى الشارع البارد، ليس معي إلا ورقة صغيرة ستحدد مصيري. تذكرت علي فجأة، الغريب العابر الذي يمكن أن يقف بجانبي، الذي يمكن أن يحمل سرّي معه ويمضي، سأدخله تفاصيل عالمي الأسود، ولكن لم يكن هناك مفرّ، كان من المفزع أن أذهب وحدي إلى هذه المذبحة، لم يكن لديَّ وقت للتردد، ولا مجال للاختيار. ربما أكون قد أعطيته هاتفي القديم من أجل هذه اللحظة، أخذت أضغط على أرقامه، لم يرد، كانت السيدة بصوتها الآلي تكرر الكلمات نفسها؛ الهاتف الذي طلبته خارج مجال التغطية، أين ذهب؟ هل سافر؟ هل أصابه اليأس وعاد إلى بلدته؟ حتى لو كان في القطار، كان في استطاعته أن يرد عليَّ، ربما لم يشأ أن يرد، حتى أنت يا علي.

علي - نهائي طب

أفتح عيني، ينزاح الظلام قليلا، ويبقى الشعور بألم قاس لا يحتمل، لا يجعلني قادرا على الحركة. ألتفت حولي، ضوء شحيح ينفذ من فتحة مرتفعة، ليست نافذة، أشبه بثغرة، موضع حجر اقتلع من مكانه في هذا السقف الصخري، من دونها يصبح هذا المكان مقبرة، ربما هو مقبرة بالفعل، ليست غرفتي القديمة، ولا غرفة الرعب في قلعة الكبش، لكنه مكان غريب في عالم آخر، خانق ورطب، قبو محفور في جوف الأرض، هل حفر خصيصا حتى يتم دفني فيه حيا؟ سؤال مرعب ولا يوجد من يجيب عنه. تربطني بالعالم البعيد فجوة علوية صغيرة لا أعرف ماذا يوجد خلفها، لست ميتا؛ فالموتى لا تمتلئ عيونهم بالضوء، ولا ينامون على فراش من قش متسخ، لا يشعرون أيضا بكل هذا الألم الذي أشعر به الآن، لا أذكر ما حدث، أذكر فقط أنني غرقت فجأة في سواد بلا قاع، أصبح صدري ثقيلا وأنفاسي متحشرجة.

يجب أن أنهض الآن، أكتشف هذا الفخ الذي وقعت فيه، ربما أعرف أين أنا بالضبط، ومن الذي جاء بي إلى هنا. أتحامل على

ألمي وأحاول النهوض، أستند إلى الجدران الصخرية، كان مكونا من طبقات من الحجر الجيري. تنهال الرمال عليَّ فور أن أتكئ عليها، أحاول تجنب حواف الصخور المسنونة، استطعت الوقوف أخيرا وبدأت أحاول أن أتلمس طريقي. الجدار الصخري مليء بالفجوات، ربما تسكنها الحشرات والثعابين، فجوة واسعة ينصب فيها الضوء الهابط من أعلى، أرتد فزعا عندما أرى ما في داخلها، تواجهني أحداق فارغة، جماجم متراصة بعضها فوق بعض، متربة ولكنها تضوي بوهن، مقبرة علوية مزدحمة بعظام أعضاء مختلفة من الجسم، مرتبة ومصفوفة وتفوح منها رائحة الشيح والعفن، علامات الموت تسكن في كل الفجوات، هذا التراب الناعم الذي يتسرب تحت أقدامي، الغبار الذي يقتحم صدري، كلّه من بقايا العظام التي فتتها الزمن ودهسها الموت، من الذي أوقعني في هذا الفخ المميت؟

أشعر بالدوار، لا أتحمّل ألم الوقوف، أرتمي على القش، عليَّ أن أعيد ترتيب الوقائع في ذهني، اللحظات التي سبقت وقوعي في هذا الفخ، «سميّة».. يا إلهي..أين هي الآن، آخر من كانت معي، حزينة ومضطربة أكثر من العادة، تتركني في منتصف الطريق، عرضة لكل الاحتمالات، لا أدري إلى أين أتجه. منذ البداية والطرق كلها مسدودة، ولكن كانت دائما توجد فجوة، معلومات شحيحة، مثل تلك الفجوة الشحيحة الضوء التي في الأعلى، في كل طريق يبدو حسن وكأنه موجود، ولكن فقط كشبح، ظلّ خفيّ لا يمكن الإمساك به، في النهاية كان عليَّ أن أودع «سميّة» وأودِّع مدينتها. لم يترك لنا لهاث البحث فرصة للتقارب، نقف متداخلي الأصابع وكلّ منا يحمل

حزنه الخاص، والليل الذي جثم على المدينة يباعد بيننا، لا يمكننا من رؤية ملامحنا بوضوح، ماذا حدث وجعلها على هذه الدرجة من الحزن والرهافة،، تضع يدها على وجنتي وتقول:

كان يجب أن أنتظر واحدا مثلك؛ لقد ضيعت نفسي.

تحوّل وجهها وتنصرف سريعا، يهتز كتفاها وتبدو كأنها تبكي، لكنها لا تلتفت نحوي، ماذا يمكنني أن أفعل وحدي في ليل هذه المدينة؟ هل أذهب إلى «قلعة الكبش»، أجاور الفزع ليلة إضافية؟ أتذكر فجأة الاسم الغريب الذي ذكرته تلك السيدة، الرجل الذي عشقته وكرهته كما لم تكره أحدا على حد قولها، «أكرم البدري».

أجلس مستندا إلى الحائط الصخري، يؤلمني ظهري ولكني لا أستطيع أن أنصب قامتي. تحدق فيَّ الجماجم ببلاهة العدم، عندي جمجمة واحدة على مكتب غرفتي، في حدقتيها زهور ميتة، أنا محاصر الآن بالعشرات منها، هل كان هذا من تدبير حمودة الضبع؟ أحدث لي هذا لأن المرأة قبلتني أول قبلة أتلقاها من امرأة ناضجة، أم أن للرجل الأخير الذي قابلته علاقة بذلك الفخ المميت؟ ليتني لم أتلكأ وسارعت بالسفر من هذه المدينة. أتذكر مقابلتي له وحواره معي، كان يبدو غريبا وملتويا، مليئا بتفاصيل لا أسعى إليها ولا تهمني، أستلقي على فراش القش وأحاول تذكر ما دار بيننا على وجه الدقة، كأن وجهه يطل عليَّ الآن من فتحة الضوء، وسيما وكريها، لماذا قررت أن أرفع الهاتف وأطلب رقمه؟ الرقم الذي أعطته لي السيدة التي قبلتني، أعطته لي خفية من دون أن تشعر «سميّة»، بذلك الحس النسائي التآمري، أكدت:

هذا هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يخبرك بمعلومات ذات قيمة عن «حسن الرشيدي»،ولكنك ستجده كعادته ملتويا وخبيثا.

ضغطت على أصابعي مؤكدة على ذلك في نهاية حديثها معي، تركتني حائرا وقد تشعبت أمامي سبل البحث، وأصبحت بلا نهاية، هل كانت تريد أن تقودني إلى هذا الفخ؟ هل تعلم سمية أين أنا الآن؟ هل تبالي أو يبالي أحد؟ متى يمكن أن ينتبه أهلي في مدينتي البعيدة لغيابي؟ وهل يمكن أن تعرف ورد أنني بددت حياتي هدرا من أجلها؟ أغمض عيني لعل الظلام يمنحني الفرصة لأفكر في هدوء.

قلت لنفسي وأنا أضغط على أرقام «أكرم البدري»: إنها مكالمة وحيدة وأخيرة وتنتهي رحلة البحث، كنت أقف على جانب من الطريق وأسد أذني الأخرى بإصبعي وأسمع جرس هاتفه، أغنية بلغة غريبة، ربما كانت الإسبانية، يسرع بالإجابة، أبادره بالقول، محاولا أن أكون هادئا ومؤدبا:

آسف على الإزعاج.. اسمي علي.. وأبحث عن «حسن الرشيدي» لأمر مهم.. أود أن أعرف عنوانه أو حتى رقم هاتفه، هل هذا ممكن؟

أنتظر منه إجابة قصيرة وقاطعة لينتهي الأمر، ولكنه يصمت طويلا، لا يغلق الخط لأنني أظل أسمع صوت أنفاسه، يقول أخيرا:

من أنت مرة أخرى؟

كأنه في حاجة لوقت يجهز فيه إجابته، أعاود ذكر اسمي، وأؤكد عليه أنني من مدينة حسن نفسها، كل ما أطلبه هو خدمة بسيطة، لا يبدو أنه ينصت إليَّ جيدا، ربما كان مشغولا بأمور أخرى، يترك الهاتف في منتصف حديثي، ثم يعود ليهتف بي:

من الذي أعطاك رقم هاتفي؟

أتردّد، لا أريد أن أذكر اسم «ذكرى»، أخشى أن يؤثر هذا في موقفه مني سلبا، أقول في غموض:

حصلت عليه من صديق مشترك، ليس هذا مهما، المهم هو عنوان «حسن الرشيدي»، من فضلك لو كنت تعرفه.. أرجو....

لا يتمهل، لا يترك لي فرصة لاختراع كذبة، يقول في نبرات حادة متقطعة:

من.. أعطاك..هذا الرقم؟

لا مفرّ من أن أذكر له اسمها، يصدر منه صوت مندهش، يقول:

أنت تعرفها إذن؟ توقعت شيئا مثل هذا، ماذا قالت لك عني بالضبط؟

أقسم له إنها المرة الأولى والأخيرة التي أقابلها فيها، المسألة ببساطة أنني أريد العثور على عنوان شخص ما، يقاطعني فجأة:

أين أنت الآن؟

أسأل أحد المارة عن المكان الذي أقف فيه، أذكر له اسم الشارع وأهم المعالم التي تحيط بي، يصمت قليلا كأنه يسترجع ذاكرة المكان، يقول:

اسمع يمكنني أن أقابلك، مقابلة سريعة، سأذهب بعد قليل لحفل متأخر وتصادف أنك في طريقي، على بعد عدة أمتار منك يوجد مكان للسهر «بيانو بار» يمكنك أن تنتظرني فيه، اذكر لهم فقط اسمي وسوف يقومون هم بالواجب.. اسمع..لا تدفع شيئا.

قبل أن أعترض أو أقول له إن الأمر لا يستحق أي نوع من المقابلات، كان قد أغلق الهاتف، لماذا يتعاملون جميعا بهذا الأسلوب الملتوي؟ يصرون على مقابلتي ثم لا أظفر منهم بشيء، يريدون أن يعرفوا مني شيئا لا أعرفه، وعندما يرون ضآلة ما لديَّ من معلومات يهملونني تماما.

أنهض مذعورا، ألمح ظلا عابرا من خلال الثغرة المضيئة، كأن هناك من يحاول أن يلقي نظرة على المكان، أنسى ألم جسدي وأنهض واقفا، أصرخ بكل قوتي:

هل هناك أحد؟ هل يسمعني أحد؟ النجدة.. أنا محبوس في الأسفل.

أنتظر واجفا، لا أسمع صوتا ولا أرى ظلا، أعاود الصراخ وأنا أرتجف، من المؤكد أنهم وضعوني هنا بطريق الخطأ، لست الشخص المطلوب، لست طرفا في أي صراع أو منافسة، أي قوة شريرة كانت حريصة على اعتقالي وأسري بهذه الصورة؟ هل أنا في قبضة أجهزة الداخلية القاسية؟ ولكن لماذا اختاروا هذا المكان البدائي، ومن الذي وشى بي؟ أعرف، بشكل عام، أن كل إنسان في مصر مراقب، موضوع دوما تحت دائرة الشك، لا تلزم تهمة محددة للقبض عليه، ولكن أيوجد بين سجون الداخلية مثل هذا السجن، أم أنه صنع خصيصا لي؟ لا جدوى من الصراخ، جائع ومتألم ولا يحتمل جسدي المزيد من الإجهاد، يظل بصري معلقا بفتحة الضوء، لو أظلمت فستكون هذه نهايتي.

تملأ عيني أضواء المكان الملونة، كلما انطفأ لون أضيء آخر.

أصعد فوق درج رخامي بالغ النظافة، أشعر أنني على وشك الانزلاق من شدة العرق والوسخ الذي على جسدي، لا ثيابي ولا ذقني النابت ولا شعري المهوش تناسب هذا المكان، أتأمل اللافتة المكتوبة بحروف متلوية من الضوء، بجانبها رسم لبيانو تستند إليه فتاة عارية الصدر في ثوب أحمر، تدخن سيجارة طويلة لا يكف الدخان عن التصاعد منها، كل شيء مصنوع من خيوط الضوء، ينحني الرجل الواقف على الباب أمامي، لكنه يتردد، تبدو عليه الدهشة وهو يلحظ رثاثة مظهري، من حسن الحظ أنه لا يمنعني من الدخول. في الداخل الأضواء معتمة، هبات منعشة من هواء بارد، تحيط بي أنغام عذبة للبيانو، تخترق جلدي وتنفذ إلى روحي المتعبة، أدور ببصري حتى أرى البيانو فوق منصة مرتفعة، تجلس أمامه امرأة عارية الكتفين، تعزف بكل جسدها، تهتزّ رأسها ويتهدل شعرها مع كل ضربة تهوي بها أصابعها. تبدو مستغرقة، تتشرب الأنغام التي تصدر منها، بعيدة عن عالمنا، يقترب مني جرسون، يبدو أنه لم يرني جيدا بسبب العتمة لأنه ينحني أمامي، أذكر له أنني من طرف «أكرم البدري» فينتصب واقفا في احترام، يشير إلى منضدة قريبة من منصة البيانو، يصفق بيده عندما أجلس في مكاني، يأتي المزيد من الجرسونات، يبادروني بالسؤال عما أريد، عشاء، شراب، شمبانيا، كنت مجهدا، لا أفهم سر هذا الاهتمام، لم أطلب سوى الماء، وأصر كبيرهم على أن يضيف إليها عصير فواكه حين رأى صغر سني.

تعلو أنغام البيانو، تصعد فتاة إلى المنصة، ترتدي ثوبا قصيرا تحيط به «الكرانيش»، يتبعها شاب بالغ النحافة، يتقافز في رشاقة مع إيقاعات البيانو، يمد يده ويجذب الفتاة من خصرها، يضمها لصدره

يغرقها في جسده، يتوحد معها ويذوبان في الموسيقى، تحرك أصابع البيانو خلجات جسديهما،تتداخل خطواتهما في رقصة «التانجو»، كان جسدها كله في أحضانه بينما تتحرك أقدامهما، يصبحان كتلة واحدة تحركهما الموسيقى، تتصاعد النشوة، يتحول المكان المعتم إلى واحة للراحة في تلك المدينة الصاخبة. شربت عصير الفاكهة والماء، تخيلت ورد وقد استعادت روحها وبدأت خطواتها، تؤدي رقصتها للحياة، أول إشراقة من الأمل أشعر بها، تهدأ نفسي وأبدأ في التفكير، كان من الجيد أن أبقى وأقابل «أكرم البدري»، مهما قال ومهما أنكر فسوف تكون هناك فجوة ما، ثغرة أبدأ منها البحث من جديد.

يمرق أمامي أحد الفئران مسرعا، أتصلب في مكاني، توقعت أن تأتي بعده الثعابين والعقارب، لا يوحي المكان إلا بهذه الأشياء القاتلة، لو لم أمت من الجوع والألم فسأموت بلدغة ثعبان أو عقرب، تذكرت رعب «عبد المعطي» الذي كنت أسخر منه، أشعر الآن بدرجة الرعب والفزع نفسها، ظللت جالسا عاجزا، محدقا في الفتحة، لا أنتظر سوى الموت، من الذي أراد اغتيالي بهذه الصورة البشعة؟

تتوقف الموسيقى فجأة ويختفي الراقصان، أرفع بصري فأجد شخصا واقفا يتأملني مندهشا، كأنه يسأل نفسه إن كنت أستحق أن يضيع وقته في مقابلتي أو لا. يجلس أمامي من دون أن يخفي ملامح الامتعاض من على وجهه، رجل ضخم بعض الشيء، على جانب كبير من الأناقة والوسامة، على العكس مني، وجوده يبدو لائقا بهذا المكان، ثيابه فاخرة،شعره لامع وعطره فواح، يحدق فيَّ متسائلا عن

سبب إزعاجي له، أحدق فيه أنا أيضا في بلاهة متوقعا أن يخبرني لماذا أصر على مقابلتي، يتنهد أخيرا وهو يقول:

هكذا إذن، «ذكرى البرعي» هي التي أرسلتك إليَّ، وبدأت تستخدم وجوها جديدة.

سمعت صوتي يعلو وأنا أهتف معترضا:

لم يرسلني أحد، وليست لي صلة مباشرة بها، كل ما في الأمر أنني كنت أسال عن «حسن الرشيدي» وقد اعتقدت أنه يمكنك أن تساعدني.

يشيح بوجهه مبتعدا عن عيني، كأنه يسأل نفسه إن كان عليه أن يصدقني أو لا، يخرج من جيبه علبة سجائر فضية، يفتحها تحت أنفي، أهز رأسي معتذرا، يتناول واحدة منها ويشعلها، يشفط منها عدة أنفاس متتابعة، يقول:

إنها امرأة خطرة، دمّرت حياتي، وبرغم كل تجاربي وخبرتي بالنساء، استطاعت أن تفعل بي ذلك، ولكن ماذا عنك أنت؟ أنت صغير السن، وهي أكبر منك قطعا، أرجو ألّا تكون قد تورطت معها.

لا يستمع إليَّ، يحاول توريطي في أشياء لا علاقة لي بها، حاولت أن أتكلم، أحدد له بالضبط ما أريده منه، لعلي أبعد هذه السيدة عن خياله، على الأقل حتى تنتهي هذه المقابلة، لديَّ ما يكفي، وآخر ما أريده هو التغلغل في حياة الآخرين. يرفع يده ليسكتني، ينفث الدخان في عصبية وهو يقول:

أرجوك، أعرف أنك قادم من عندها، وربما نجحت في اجتذابك

إلى جانبها، هذا هو أسلوبها.. تقول لك كلاما تشعر أنه من قلبها، وربما تكون قد قبلتك أيضا.

تتصاعد الحمرة إلى وجهي، أحس بطعم قبلتها لاسعا على شفتي، لا أدري حتى الآن لماذا قبلتني؟ هل فعلت هذا حتى تكسبني إلى جانبها؟ ما أهمية ذلك؟ ولماذا يدور الجميع حولي من دون الاستماع إليَّ؟ أبدأ في الشك أنه كان يعرف «حسن الرشيدي». حقا؛ ربما ادّعت السيدة هذا لتسيء إليه، ربما كان هذا جزءا من الحرب الخفية التي تدور بينهما، يمكنهما أن يستخدما أي وسيلة، قاطعته أخيرا:

أرجوك يا سيد «أكرم»، لقد اتصلت بك من أجل هدف محدد، لا شأن لي بعلاقتك بهذه السيدة، كل ما قالته لي إنك أنت الذي اصطحبت «حسن الرشيدي» إلى بيتها، وقد استنتجت بذلك أنه صديقك.

قال منفعلا من دون داع:

إنها تعرف جيدا من هم كل أصدقائي.. هي التي حرضتهم جميعا ضدي وقلبتهم عليَّ.. سأريك واحدا منهم.

يمد يده إلى جيب معطفه الداخلي، يخرج ورقة مطوية ويفردها على المنضدة، يوجهها نحوي لأراها بشكل جيد، ورقة مقتطعة من إحدى الصحف، تتوسطها صورة لشخص ما، ملامحه باهتة ويغلب عليها السواد، لا تبدو واضحة، ولا أستطيع قراءة أي كلمة من المكتوبة بسبب العتمة، يهتف خابطا بكفه عليها:

لم يكن هذا الرجل صديقي فقط، بل كان شريكي في جانب مهم من عملي. بالطبع كنت أشطر منه في إدارة الأعمال؛ أشطر منهم جميعا، ولكنه بدا لي أشد إخلاصا من الجميع، أتعرف ماذا فعل بعد أن دخلت السجن؟ تزوج زوجتي؛ السيدة الفاضلة العفيفة. لا أدري ما الذي استهواها فيه، رفعت هي عليَّ دعوى للطلاق، وجاء هو بنفسه ليزورني في السجن ليطلب مني يدها، قال لي إن علاقتهما قد أصبحت أمرا واقعا.... وقد مارس معها بالفعل أوضاعا لم تمارسها معي على الإطلاق.

يلتقط أنفاسه بصعوبة، يوشك أن يختنق بتدافع الذكريات في داخله، يريد أن يخرج هذه الكلمات من صدره بأي طريقه ولأي إنسان، قلت له:

هل من أجل هذا نشرت الصحيفة صورته؟

يمسك الورقة ويلوح بها أمام وجهي مرتعدا:

نشرتها لأنه مات، انتحر، وجدته زوجتي التي أصبحت زوجته، مشنوقا داخل حمام منزله، كان عاريا، وعضوه مرتخيا، لن تقوم له قائمة بعد الآن، هل رأيت؟ هناك عدالة لا تنام، من المؤكد أنها هي التي قادته إلى الانتحار وكانت ستفعل بي ذلك.

لا أدري ماذا أفعل والموقف يتحول إلى غير ما هو متوقع. أشعر بالخوف، ولابد أن الجرسونات قد أحسوا بذلك، يقبلون حاملين أنواعا من المشروبات، مختلفة الألوان والأحجام، يضعونها حتى تزدحم بها المائدة، يشرب منها تباعا، كأنه بئر بلا قاع، يعاني من عطش لا يُروى، يمسح فمه بظهر يده وهو يتنهد

في ارتياح، أتوقع أن يحدثني أخيرا عن «حسن الرشيدي»، يعود إلى السؤال في ثقة:

ولكن.. من الذي أوصلك إلى «ذكرى»؟ كيف وقعت في طريقها؟

لا فائدة من أن أحتد، ولا جدوى من رفع صوتي لإقناعه، أحاول أن أعود بالأمور إلى وضعها الأول:

مجرد مصادفة، أستطيع القول إنها مصادفة بلا أهمية.. وجدت بطاقة تخصها في غرفة «حسن الرشيدي» في قلعة الكبش.

يقاطعني: كيف تقول إنك تقيم في غرفته وأنت لم تجدْه بعد؟

أشرح له كل ما مررت به باختصار، أستأثر أخيرا بانتباهه، أحدثه عن الرجل الذي جئت بحثا عنه، وعن الفتاة الجامدة التي تنتظر، وأهمية أن أسعى لبعث الحياة في جسدها، يظل ينظر إليَّ بوجه جامد، يظل صامتا حتى بعد أن أتوقف عن الكلام، قلت أخيرا:

والآن يا سيدي.. هل تعرف له مكانا آخر؟

يهتف مستغربا:

ومن قال إنني أعرفه أصلا، لا أعرف إلا شخصا واحدا اسمه حسن كان يعمل عندي سائقا وتركني منذ سنوات، ربما رأيت هذا الرجل الذي تقصده في الحفل، وربما ظنت «ذكرى» عن طريق الخطأ أنه معي أو أننا يعرف واحدنا الآخر، أنا حتى لا أذكر شكله.

أوشك أن أصرخ فيه: لماذا قابلتني إذن؟ هل لمجرد أن تحكي لي هذه الترهات؟ أتأمل وجهه، هل يكذب عليَّ؟ لماذا ينظر إليَّ بهذا

الوجه الجامد؟ يتجشأ أحيانا، ولكن عيونه فارغة لا تحمل تفهما ولا تعاطفا، هل أثر الشراب فيه؟ يقول أخيرا:

اسمع.. قصتك مؤثرة.. ولكن القاهرة ليست مكانا للسذج ولا لذوي النوايا الطيبة، إنها مدينة يتصارع فيها الجميع من مطلع الشمس حتى غروبها، ويعبق جوها بغبار النفوس الضائعة، لا مكان فيها للأوهام أو للجري وراء السراب، من المؤكد أنك تجري وراء وهم.. تبذل جهدا بلا طائل.. لماذا لا تعود إلى بلدتك وتلتفت إلى دراستك؟

ينهض واقفا وقد أغلق في وجهي كل الطرق، يستدير ويسير مبتعدا عني، يترنح بعض الشيء، ولكنه لا يلتفت إلى الخلف.

أخيرا.. أفيق من ألمي، أتحسس جيبي، الهاتف المحمول مازال موجودا، لا توجد سوى سمية أستطيع الاتصال بها، لا أدري كيف أحدد لها مكاني. لن أستطيع ذلك بالتأكيد، ولكني في أمس الحاجة لأن أخبر أحدا بورطتي. أضغط أرقامها في لهفة ولكن الهاتف لا يلتقط شيئا، بعيد أنا ومدفون في قاع الأرض، من دون إشارة أو وسيلة للاستغاثة. تبدد الأمل سريعا، أغلقت كل الطرق، تماما مثل بحثي اليائس عن حسن، أرى نقطة داكنة الصفرة تتحرك، تنحدر على الجدار متجهة نحوي، أعرف شكل العقرب جيدا، حفظت صورته الموجودة في كتاب أمراض المناطق الحارة، رأس وصدر كقطعة واحدة، أربعة أزواج من الأرجل تنتهي بمقرض صغيرة، وذيل مكون من حلقات في آخرها الإبرة التي يلسع بها، والتي يوجد بها كيس السم. أنهض

ببطء حتى لا يشعر بحركتي، أتراجع إلى الخلف، ولكن لا مهرب، سنبقى معا في المكان نفسه، وسيتحين اللحظة التي أغفل فيها ليلدغني. أبحث حولي حتى وجدت حجرا مناسبا، عليَّ أن أركز، لو أنه أفلت مني فسيختفي عن عيني، ويفرض عليَّ وجوده، أكتم أنفاسي وأركز قوتي في ضربة واحدة، أهوي عليه، أسمع صوت حرافيشه وهي تتهشم تحت وطأة الحجر، أهوي من جديد بكل ما في نفسي من حنق وغضب. يتفتت الحجر في يدي، أصرخ والألم يغمر جسدي كله، أرتمي على الأرض من دون أن أستطيع التوقف عن الصراخ.

تحملني عربة «السرفيس» إلى قلعة الكبش، سأقضي بها ليلتي الأخيرة، تتبدد اللحظات القليلة التي قضيتها أراقب «التانجو»، أدركت أن حياتي قاسية، خالية من الجمال، أشم رائحة الحريق وأنا أقترب من المكان، كأن هناك جذوة دائمة الاشتعال كامنة تحت الرماد. أهبط من السيارة، الوقت متأخر ومع ذلك تضاعفت أعداد رجال الأمن، لا وجود للعشش، كومة من الأنقاض يعلو من حولها صراخ وعويل وبكاء لا يهدأ، وجوه رجال الأمن جامدة وصارمة، تبددت بشائر الأمل والبهجة التي كانت تملأ صباح اليوم، خيم كابوس الكارثة على الجميع مرة أخرى، هل اشتعلت الحرائق من جديد؟ أسير وأنا أرتجف، وسط موجة من عويل لا تنتهي، كلما حاولت التوقف والسؤال امتدت يدٌ لتدفعني لمواصلة السير، لم أعد أستطيع التوقف.

الشقة مظلمة كما هي العادة، كنت متأكدا أن «عبد المعطي» في الداخل، منكمش في ركن من أركان إحدى الغرف، يعاني حالة من الفزع بسبب أصوات العويل المتواصل، أدق الباب وأنا أنادي وأذكر

له اسمي أكثر من مرة، بعد فترة أسمع صوته وهو يشد الرتاج، يفتح الباب بوجه ممتقع، يهتف حين يراني:

لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ ادخل سريعا.

الشقة المعتمة كعهدها، يغلق الباب بسرعة، ويعيد الرتاج إلى مكانه، يبدو عليه الإعياء أقول:

ماذا حدث؟ لماذا كل هذه العويل؟ كنت أعتقد أن المشكلة ستحل اليوم.

يهتف متوجعا:

لقد خدعوهم، الحكومة خدعتهم، أتذكر عندما أحضروا الحافلات في الصباح وجمعوا الرجال، وأكد الشيخ «مسعود» أنهم سيأخذونهم لتوقيع عقود مساكنهم الجديدة. لم تكن هناك مساكن ولا يحزنون، ألقوا بالرجال في الصحراء، وفي الوقت نفسه قامت البلدوزرات بهدم ما بقي من عششهم، وعندما عادوا في المساء اكتشفوا حقيقة الخدعة. إنهم يصرخون الآن من حدة الفجيعة، وهم غاضبون ويريدون الانتقام، وهم بالطبع لن يستطيعوا الانتقام لا من الحكومة ولا من رجال الأمن، سينتقمون منا، مني على وجه التحديد؛ لأنني أول واحد سيجدونه في طريقهم.

يمسح العرق من على وجهه، لا فائدة من الكلام معه، سكن الفزع خلايا جسده، لا أحد يستطيع أن يعيش طويلا في مكان مثل هذا من دون أن يصاب بهلع الوحدة، ليس لديَّ ما أقوله سوى الحديث عن فشلي:

لا أدري ماذا أفعل لك. لقد سدت الطرق في وجهي ويجب أن أرحل.

يجلس أمامي ويمد يده ويمسك ذراعي متوسلا:

لا ترحل..لا تتركني وحدي،. سيأتي.. لقد.. تحدث معي في الهاتف هذا الصباح.

كان يكذب، لا يوجد في الشقة أي هاتف، ولا يحمل هو هاتفا محمولًا، يحاول أن يقنعني أن أقضي معه هذه الليلة العصيبة، يزعم أن عامل المقهى هو الذي أخبره بالاتصال، كنت متأكدا أن حسن بعد كل ما مر به، لم يعد يبالي بتلك الحفرة الخانقة التي يجلس فيها «عبد المعطي»، ولكنه ظل يتوسل إليَّ:

ابق معي هذه الليلة،على الأقل حتى يخف صوت العويل، ليلة أخرى لن تضير أحدا.

نلتقي في نقطة ما بين تعبي وفزعه، أتخيل رحلة الليل الطويلة التي تنتظرني، أدرك الآن أنها كانت غلطة، حين نمت على الفراش الصغير في الغرفة الصغيرة، ما إن أغمضت عيني حتى أحسست بالاختناق، أيادٍ تمتد وتكتم فمي، تشل حركتي وتمنع مقاومتي، أشباح سوداء تحيط بي، وتملأ الغرفة من حولي قبل أن تضع عصابة سوداء على عيني.

أصرخ في وجه العدم الذي يحيط بي، أجلس بجانب العقرب المهشم وأجهش بالبكاء، ليس أمامي إلا انتظار العقرب القادم، بين نحيبي أسمع صوتا، أرفع رأسي فأرى كالوهم سلما من الحبال، يهبط

من الثغرة العلوية إلى الأرض، لا أصدق عيني، هل تمت الاستجابة لتوسلاتي أخيرا؟ أزحف مرتعدا، أمسك بالحبال وأتعثر محاولا أن أضع قدمي على أولى درجاته، أتشبث بها وأتلوى في الفضاء. يداهم الألم مفاصلي ولكني لا أكف عن الصعود إلى أعلى، نحو مصدر الضوء، أزفر من رئتي الهواء المترب، وأستنشق الهواء القادم من أعلى؛ كان ساخنا، مختلفا عن هواء المقبرة الراكد، أخرج رأسي من الفتحة أخيرا، الشمس الساطعة في مواجهتي ولا أرى أحدا، لا أصدق أنني أضع قدمي على الأرض المستوية وأرى زرقة السماء وأحس بأشعة الشمس، أرى حولي ظلال أطلال متداعية، وخلفها الصحراء ناصعة البياض،ممتدة ومتموجة.

أحاول أن أركز بصري؛ هناك شخصان يقفان في مواجهتي، لا أتبين ملامحهما ولكني أرتجف من حجمهما، عملاقان ضخمان، يحدّقان فيَّ بتحفز وقد عقدا أذرعتهما، لا بد أنهما هما اللذان قاما بخطفي وإنزالي إلى المقبرة، أحس بالضآلة وأنا جاثٍ أمامهما على الرمال، هل هما من رجال الشرطة؟ وما هذه الأطلال الذي تحيط بنا؟ حصن خرب من قرون غابرة، بقايا سجن بدائي؟ تقدم واحد من العملاقين حتى حجب الشمس. استطعت أن أرى ملامحه الغليظة؛ بعينيه الجاحظتين اللتين يحوطهما السواد، وأنفه الضخم ووجنتيه اللتين عليها ندوب قديمة، وقد التصقت بذقنه لحية قصيرة مدببة، يمكنه أن يسحقني بقبضة واحدة من يده، تهب ريح ساخنة محملة بالرمال، وتصدر الصحراء صوتا مفزوعا، لو أن رياحها تحملني بعيدا عن هنا! أأصرخ محتجا على اعتقالي ودفني حيا، أم أنه حريّ بي أن

أتوسل إليهما حتى يفرجا عني؟ يبدو واضحا أن كل محاولاتي ستبوء بالفشل، أحاول أن أقف ثابت القدمين؛ الشيء الوحيد الذي أقدر عليه لإظهار مقاومتي. يخطو العملاق في حركة مفاجئة ويركلني في ساقي، أرتمي على الأرض، أغمض عيني قبل أن تمتلئا بالرمال، أشعر بركلة أخرى مروعة في بطني، أوشك أن أتقيأ أمعائي، أسمع صوته الأجش يصيح بي:

لماذا تتبعنا يا ابن الزانية؟

تلويت على نفسي، أترقب الضربة الثالثة وأنا أدرك أنه سيكون فيها مقتلي، سمعت العملاق الثاني وهو يقول في احتقار:

هذا السافل ضئيل ومثير للشفقة، كيف يرسلون لنا شخصا بهذا الضعف؟

أحس بيده وهي تقبض على ثيابي، يرفعني من على الأرض وأنا أوشك على الاختناق، يحدق في وجهي بعينيه الجاحظتين، يهتف من بين أسنانه:

من الذي ألقاك علينا يا وسخ؟ من وضعك في طريقنا؟

لا أجيب، لا أستطيع الكلام ولا أعرف عما يتكلم، تتحشرج أنفاسي وينتفض جسدي، يقترب العملاق الثاني، يتناولني من الأول، يهوي على وجهي بلطمات متتابعة، أحس بطعم الدم يملأ أنفي وفمي، يلقيني على الأرض مرة أخرى، يقول للأول:

لم يحن موعد قتله بعد.

لكنه لا يتوقف، يواصل ركلي، لا أدري أين تقع الركلات. تحول جسدي إلى خرقة مهلهلة من الألم، أسمع صوته يصيح:

تكلم يا ابن الزانية.. تكلم.

لا يترك لي فرصة لأتنفس. أغمض عيني، وأغرق في ظلمة لعلها تنتزعني من هذا الألم، لعله الموت يتلقفني بيديه الرحيمتين، وليفعلوا بعد ذلك بجسدي ما يريدون.

يصطدم الماء البارد بوجهي، أفتح عيني مفزوعا، ينسكب عليَّ المزيد من الماء، أسعل بشدة حتى لا أختنق، أرفع رأسي قليلا، لم أكن في المكان نفسه، لم أعد في العراء ولا فوق الرمال، أرقد على حصير ممزق، في مكان ما داخل الأطلال، قاعة قائمة الجدار، لها سقف ونوافذ علوية، متداعية ومتساقطة الطلاء، عليها رسوم باهتة ومتآكلة، قديسون يمسكون الصلبان وملائكة وفرسان يحاربون التنانين، رسوم متربة وعتيقة، بقايا دير قديم،من الذي قادني إلى هذا المكان؟ أحرك عيني من دون أن أستطيع النهوض، شخص ثالث يجلس على مقعد خشبي مستند إلى جدار من الأحجار العارية، أحدق فيه متوجسا، برغم لحيته كان يبدو أصغر منهما سنا وأقل حجما، ولكنه ينظر إليَّ في حنق، يقول:

من أنت؟ ولماذا تبحث خلفي؟ أأنت من الشرطة.. أم من رجال الباشا؟

أشهق مبهورا، أرفع جسدي على ذراعي، أنسى الألم الممض الذي أعاني منه، لا أصدق أنني وصلت إليه برغم الوضع المزري الذي أنا فيه، أهمهم مبهورا:

أنت هو.. «حسن الرشيدي» أليس كذلك؟

قال في سخرية: الآن وقد تعارفنا، هل يمكن أن تخبرني من أنت بالضبط؟ أمامك لحظات تقول فيها كل شيء قبل أن تموت.

لا أفهم شيئا، لم يكن هذا هو الموقف الذي تخيلته، ولا صورة المعشوق الذي بحثت عنه، مجرد شخص غريب ينظر إليَّ بعينين ممتلئتين بغضا، ملامحه قاسية وهيئته تبعث على الخوف، ما الذي حوله إلى هذه الصورة الغريبة، ولماذا يقوم بإيذائي إلى هذه الدرجة؟ أقول:

لقد بحثت عنك طويلا.. لا أصدق أنني وجدتك.

ـ أنت لم تجدني، أنا الذي وجدتك وجئت بك هنا لأحسم أمرك، ما حدث لك ليس شيئا أمام ما ينتظرك إذا لم تتكلم حالا.. من أنت، ولماذا تطاردني؟

بدأ يصبح عصبيا، لم يكن لديَّ وقت لأضيعه، أقول في سرعة:

أنا لا أطاردك، أنا فقط أبحث عنك، وقد حكيت أسبابي لكل من سألتهم عنك، أنا من بلدتك،اسمي علي، طالب بنهائي طب، وجئت إلى القاهرة بسبب ما حدث لخطيبتك أو حبيبتك ورد.

للحظة لانت ملامحه،، تعبر وجهه مسحة من دهشة كرفّة جناح طائر، يحدق متشككا وهو يقول:

لا بدّ أنهم لقنوك ما ستقوله لي.

كنت مجهدا، لا أفهم إلى ماذا يشير، ولماذا لا يصدق حكايتي

البسيطة والمباشرة، وماذا نفعل جميعا في هذا المكان الغريب؟ ينهض طويلا ونحيفا ولكنه قوي، أحس بذلك عندما يمسك بثيابي، يجرني على الأرض وهو يهتف:

يجب أن أعرف أصلك وفصلك، من الذي دسّك عليَّ؟

أحاول أن أستجمع شتات نفسي، أحاول أن أوقف هذه السلسلة من الإهانات:

أريد ماء أولا.

ينظر إليَّ في دهشة، يترك ثيابي، أحاول أن أثبت أقدامي على الأرض، لم أعد خائفا منه، أستطيع التفاهم معه بعيدا عن بطش العملاقين، أشار لي في صمت. تلفت حولي، كنت قد لمحت بعض الوسائد المتناثرة، بجانبها بعض زجاجات الماء والأطعمة، أفلت من خناقه وفتحت إحدى الزجاجات وتجرعت كل ما فيها من ماء، أود لو أستطيع تناول بعض من الطعام، ولكني أريد أن أتجنب استفزازه، أقول:

لا أعرف من الذين تتحدث عنهم، ولا يهمني من الذين يطاردونك، ما أقوله لك هو الحقيقة، أستطيع أن أذكر لك أسماء أصدقائك.. عطية الحلاق والمخبر محروس وعزّوز المهرج، ولكن أهمهم هي ورد وما حدث لها بسبب سفرك. لقد تجمّدت في اللحظة التي غادر فيها القطار الذي يحملك، وهي الآن نصف ميتة، وأنت الوحيد القادر على إنقاذها.

أتحدث بسرعة وأنا ألهث، أخشى أن يقاطعني أو يفاجئني بضربة

مباغتة، يتطلع إليَّ بوجه جامد، لم يعد قادرا على تكذيبي، يظل صامتا ولكن يغمض عينيه كأنه يتمعن في كلماتي، يأخذ نفسا عميقا، يعود إلى الجلوس من دون أن ينظر نحوي، يقول بعد فترة:

يمكنك أن تتناول بعض الطعام وتقص عليَّ ما حدث بالتفصيل.

ـ لا رغبة لي في الطعام، ولا يوجد وقت، لقد قضيت وقتا طويلا وقاسيا في البحث عنك، ربما أحكي لك كل شيء ونحن في القطار، ولكني أريد أن آخذك إليها في أسرع وقت.

يحدق فيَّ طويلا، عيناه غائرتان، كأنه لا يراني، يهمهم من بين أنفاسه:

يبدو وكأنك قد أعددت فخا محكما، لا أستطيع أن أترك كل شيء وآتي معك بمثل هذه البساطة.

أحدق فيه مذهولا:

على الرغم من كل ما قلته لك، فإنك مازلت لا تصدقني، أو ربما لم تعد تحبها. لم تحبها قط.

ضحك في صوت خشن:

الحب والكراهية.. شيئان تافهان لا يعنيان شيئا، لا تعنيني على الأقل، لا أدري لماذا أرهقت نفسك بهذه المطاردة العبثية. الأمر لا يستحق.. هناك أمور أكثر أهمية.

تفاجئني كلماته اللامبالية، أشعر أنني أكرهه كما لم أكره أحدا من قبل، ليس هذا حسن الذي خرجت للبحث عنه، لكنه أشبه بزعيم

عصابة، مجرم هارب من وجه العدالة، وإلا لماذا يقيم في هذا المكان الموحش برفقة العقارب؟ أسأله من دون أن أخفي غيظي:

هل أنت.. أنتم هاربون؟

يقول في لهجة جافة: ليس هذا شأنك؟

استفزه سؤالي من دون أن أدري، جسدي مليء بما يكفي من الرضوض والجروح ولا أحتاج إلى المزيد، أقول له بصوت هادئ كأنني أحدث طفلا:

إذا كان هناك ما يمنعك من السفر معي، فسافر وحدك إذن، اختر الطريقة التي تريدها، ولكن يجب أن تشعر بالشفقة عليها قليلا، أنت تعلم أكثر مني كم هي وحيدة ورقيقة ولا تستحق هذا الموت المبكر.

يتأملني قليلا بوجه جامد، هل ماتت بالفعل مشاعره نحوها؟ أجرّ أقدامي متثاقلا، أقف مستندا بجانب باب القاعة، أبذل محاولتي الأخيرة، أقول:

لقد فشلت مهمتي؛ على أي حال، لن أستطيع أن آخذك إليها رغما عنك.

يظل وجهه جامدا، يقول في لهجة باردة:

لن تستطيع الانصراف من هنا، لن نسمح لك بذلك، لقد رأيت وجوهنا نحن الثلاثة وأصبح وجودك خطرا علينا.

أشهق مندهشا، أصيح فيه:

أنا لا أعرف شيئا عنكم، ولا أريد أن أعرف، لم أسأل عنكم ولا عمًّا

تفعلونه في هذا المكان، ولا يهمني ذلك، أنتم الذين أحضرتموني هنا رغما عني.

ظل جامد الوجه، لا جدوى منه، ألهث وأنا أحدق فيه، يثير في داخلي كل المشاعر المتناقضة، أحس بأهميته لأن ورد المسكينة قد أحبته؛ ولأنه بعث الأمل في حياتها، ويثير مشاعري بالشفقة عليه حين أعرف المعاناة التي لاقاها داخل السجن، والآن أحس بالخوف والكراهية له، هل ينوي قتلي؟ يظل يحدق في برود، لا يتحرك من مكانه، أعرف أن العملاقين يقفان بانتظاري في الخارج، لا أملك إلا أن أقول ساخرا:

لو قتلتني هنا، فهل تعدني أن تسافر إلى البلدة وتحاول أن تنقذ حياتها؟

يهز رأسه ويواصل تحديقه بجمود، يسألني فجأة:

هل تحبها؟

لم يكن سؤاله مفاجئا، فقد سمعته من الجميع، أقول:

من الغريب أن تسألني هذا السؤال، لم أعرفها إلا وهي نصف ميتة، وربما تكون قد ماتت الآن، في تلك اللحظة التي أتحاور فيها معك من دون جدوى، كل ما أردته أن أنقذ روحها، لم أبحث لنفسي عن مكان في حياتها، ولكني بحثت عن مكان لك أنت على الرغم من أنك لا تريده.. ولا أعتقد أنك تستحقه.

لم أكن خائفا منه، أشعر بالخوف فقط عندما يقتحم العملاقان

الباب، يدخلان ويقفان بجانبي في تحفز، تبدو على وجهيهما علامات نفاد الصبر، ينظر حسن إليهما في دهشة، يسأل أحدهم:

ماذا حدث يا آدم؟

ينظر العملاق ذو اللحية نحوي ببغض، أتراجع منكمشا، تذكرت الضربات التي كالها لي:

لن نقضي النهار في «الرغي»، علينا أن ننتهي من هذا الفأر حتى نعود إلى شغلنا.

هل حانت ساعتي؟ هل جاءوا إلى هذا المكان من أجل قتلي؟ يظل حسن صامتا، يقول العملاق الثاني:

يكفي أن نعيده إلى الجبّ وننسى أمره.

يصمت الثلاثة، أحدق فيهم بفزع، يبدو الحل سهلا وبسيطا، إلقائي في الجب مرة أخرى وترك الأمر للعقارب لتقوم بعملها، أنظر إلى حسن، لا أدري ماذا ينوي أن يفعل بي. إلى أي مدى قد تغير وتبدلت شخصيته؟ ظل وجهه جامدا، يقول أخيرا:

إنه ليس عميلا للشرطة، ولا من رجال الباشا، إنه قادم من بلدتي بالفعل، لقد تأكدت من ذلك، والأمر لا يخص عملنا من قريب ولا من بعيد.

تدهشني كلماته، تدهشهم أيضا، ربما لم يكن حسن القديم قد مات بأكمله، هناك بداخله بقية من ذكرى قديمة، عاطفة لم تخبُ بعد. ينظر العملاقان الواحد إلى الآخر مستغربين من هذه اللحظة الواهنة من الضعف، يهمهم آدم غاضبا:

لا يهم أصله وفصله، لقد تبعنا ورأى وجوهنا، من المستحيل أن نتركه طليقا، لقد اتفقنا قبل أن نجازف ونذهب لاصطياده من قلعة الكبش.

أنكمش في مكاني كضفدع مرتجف، أدير بصري بينهما حائرا، أظل صامتا، يتنفسون غضبا وهم يقررون مصيري. يتعلق بصري بوجه حسن، أيستطيع إيقافهم، أم يخضع لهم؟ ماذا يحاولون إخفاءه بالضبط؟ هل هم لصوص، مهربون، قتلة؟ أريد أن أصرخ فيهم باكيا ومتوسلا أنه ليس لي صلة بأي شيء، ولكنني أقف جامدا كالمشلول، يقول حسن في حزم:

سنضعه في الجب في الوقت المناسب، مازلت في حاجة إلى المزيد من المعلومات منه، إنه موجود هنا تحت أيدينا، لن يذهب بعيدا.

يزمجر الاثنان معا، كانا متشوقين لقتلي إلى درجة كبيرة، يشير حسن نحوي قائلا:

ستبقى هنا، لن تتحرك من هنا خطوة واحدة حتى نعود إليك.

لا يترك لهما فرصة للنقاش، أمامي على الأقل، ينهض واقفا ويخرج من الغرفة من دون أن يلقي نظرة على أحد. يخرج العملاق الآخر خلفه، يتمهل آدم قليلا في مواجهتي، وجهه غاضب، يضم قبضته متأهبا لسحقي، يلوح بها مهددا، قال:

يمكنك أن تترك هذا الدير المهجور وتهرب بعيدا، إذا لم تمت في الجب، فستموت في الصحراء.

يتركني وأنا أشد رعبا، أتكوم على الحصير وأستند إلى الجدار، أعرف أنهم في الخارج يتناقشون في تقرير مصيري، أتطلع إلى القاعة المتربة، سقفها متقوس، قبّة مليئة بالثقوب ينفذ من خلالها ضوء النهار الذي بدأ يصبح شحيحا، يوم طويل يوشك على الموت، مثلي تماما، أتأمل صور القدّيسين المذهبة؛ صورة العذراء تحمل وليدها، راهب يرفع ذراعيه عاليا، كتابات بحروف غريبة، كيف امتلأ مثل هذا المكان بالمجرمين؟ هل يفعلها حسن ويقتلني؟ يقتلني ثلاثتهم، ولكنهم خائفون؛ لذا لجئوا إلى هذا المكان القصيّ، متى تحول العاشق الذي كان معيدا في كلية الهندسة إلى مجرم؟ أفي السجن، أم في هذا الدير المهجور؟ أمازال في روحه شيء صالح لبعث الحياة في قلب ورد، أم إنه لا يحمل إلا مزيدا من الموت؟

لم يمنع انتظاري الموت إحساسي بالجوع. تناولت بعضا من الأطعمة الموجودة، من خبز وجبن وشرائح رقيقة من اللحم البارد وكثير من اليوسفي. أحب رائحة اليوسفي، من الأفضل أن أموت وأنا شبعان، أمر يدعو إلى السخرية، أبحث طويلا عن حسن حتى يكون سببا في قتلي. يبدو مترددا، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يقاوم إصرار العملاقين؟ لا مفر من انتظار مصيري، قوتي خائرة، وجسدي لا يقوى على محاولة الهرب، وبخاصة أن الصحراء متأهبة لابتلاعي. استلقيت على ظهري، من الخطر أن أستسلم للنوم في مثل هذا المكان، ولكن الإرهاق يتغلب على ألمي الجسماني. أغمضت عيني، أدخل في ظلمة قلقة خالية من الأحلام، أتوقع أن يأتوا إلى الغرفة في أي لحظة للقضاء عليَّ، ولكن هذا لا يعطل نومي.

يوقظني صوت صرخة، أنهض مفزوعا، هل هي صرختي؟ هل ألقوا

بي في الجب؟ مازلت في الغرفة المعتمة نائما على الحصير، بالقرب من بقايا الطعام، الصرخة قادمة من الخارج، تخص واحدا من الرجال الثلاثة، هل يتصارعون؟ هل يقتل بعضهم بعضا؟ حسن هو أملي الوحيد، لو أنهم قتلوه فسوف أخسر فرصتي الضئيلة للنجاة، هو الذي منعهم من قتلي، أرتجف من دون أن أفهم ماذا يحدث. أأذهب إليهم، أم أبحث عن مكان أختبئ فيه؟ لا شأن بالرجال الذين ينتوون قتلي، الليل يأخذ بخناقي ويجعلني عاجزا مشلولا في مكاني، ولكن باب الغرفة يفتح بعنف، يظهر حسن وهو يحمل مصباحا غازيا، يهتف بي:

تعال معي فورا.

يغادر الغرفة مسرعا، لا أجد بدّا من النهوض والعدو خلفه، ندخل أروقة مظلمة لا ينيرها سوى المصباح الذي يحمله، نمر بصوامع مخربة وغرف صغيرة، نخرج إلى الفناء الذي تلقيت فيه الضرب في الصباح، العملاق «آدم» مستلق على الأرض، جسده ينتفض في تشنجات متتابعة، يسيل لعابه كثيفا من فمه، تهتز لحيته مع كل انتفاضة، العملاق الثاني جالس على ركبتيه بجانبه،أقول مذعورا:

هل لدغه عقرب؟

أومأ العملاق، جسد آدم العملاق الذي أوقفني على حافة الموت نائم عاجز، عدت أسأله:

هل هرب العقرب؟

أشار العملاق قائلا: لقد لحقت به وقتلته، بقاياه موجودة هناك.

يضيق حسن بأسئلتي، يصيح متوترا:

تقول إنك طالب نهائي طب، افعل شيئا.

لا أبالي بصياحه، أمدّ يدي وآخذ المصباح من يده، أتأمل بقايا العقرب المهشم، لونه مائل الصفرة، وذيله أطول من العقرب الذي قتلته،أهتف بهما:

إنه العقرب الأصفر أخطر أنواع العقارب..يجب أن نتصرف بسرعة.

يشير العملاق إلى سروال «آدم» الممزق، تبرز ساقه العارية، في منتصفها توجد نقطة سوداء صغيرة تحوطها دائرة حمرة قانية، أشرت إلى العملاق ليمسك بالجسد المتشنج ويثبته في الأرض. أفك رباط حذائي وألفه حول ساق الرجل الملقى، أعلى مكان اللدغة. رأيت هذا المشهد كثيرا في الأفلام، ولكني في حاجة إلى مبضع حتى أخرج هذا الرأس الأسود،أنظر إلى حسن وأقول آمرا:

أنا في حاجة إلى مصل ضد العقارب وحقن للكالسيوم لأقلل من هذه التشنجات، وفي حاجة أيضا إلى دواء مخفض للحرارة.

مازال ينظر نحوي في ارتياب، يتساءل في بلاهة:

هل ينقذه ذلك؟

لا أريد الدخول في شرح التفاصيل، أشير برأسي مؤكدا، ينهض العملاق الآخر قائلا:

أستطيع الذهاب إلى أقرب منطقة للعمار، سأذهب وأعود بالسيارة في ثلاث ساعات، هل سيصمد كل هذا الوقت؟

لم أكن متأكدا من شيء، الجسد الضخم يرتجف ويحاول أن يتقيأ، تنسال من فمه عصارات صفراء بلا توقف، أقول:

سيؤخر الرباط وصول السم إلى بقية جسده، وسأرطب الجرح بالماء طوال هذه الفترة.

ينظر حسن إليَّ محذّرا:

اذكر له كل احتياجاتك كلها، لا تنس شيئا، لا نريده أن يموت هنا وسط الصحراء.

هل بدأ يثق بي ولو قليلا؟ هل سيؤخر هذا موعد موتي؟

تتزايد الانتفاضات ومحاولات التقيؤ، ساعتان أو ثلاث ستكون قاضية في حياة هذا العملاق الذي أصبح أشبه بخرقة كريهة الرائحة، يعدو العملاق الآخر مسرعا، أكتشف أنه كانت هناك سيارة «جيب» سوداء في ركن من الفناء، كيف لم أرها من قبل؟ زام المحرك في عنف واحتكت عجلاتها بالأرض مثيرة للرمال،أسرع حسن وفتح باب الدير الضخم، ظل ممسكا به حتى غادرت السيارة، يغلق الباب بإحكام وهو ينظر إليَّ، لم تكن نظرته بالقسوة القديمة نفسها، حلت بدلا منها نظرة حائرة، يكتفي بأن يقول:

هل ستبقى بجانبه؟

أومئ برأسي، يشيح بوجهه بعيدا، يجلس وظهره متوجه إلينا، لم يكن يطيق النظر إليه، عدت إلى العملاق الخائر، أنظف الجرح بالماء والصابون، يتصلب جسده مع كل لمسة من لمساتي ويصدر همهمات غامضة، كأنه يواصل تهديدي. لا يهدأ إلا بعد مضي بعض

الوقت، لا أدري إن كان السم قد سرى في عروقه أو لا، ولكنه كان مازال يحرك مقلتيه، لا يتوقف لعابه، أمسك ذراعه وأتحسس نبضه؛ كان متسارعا لم يتضاءل إيقاعه بعد، أراقب حركة مقلتيه، ذلك البريق هو بقية الحياة التي تنتفض في جسده. ظل حسن ينظر إلى الأمام بعيون غائبة، كأنه يحاول أن يعيد ترتيب أموره من جديد، أشعر بالخوف ولا أريد أن أشهد موتا آخر، يلتف حسن نحوى ويقول فجأة:

هل سيُشفى عندما يأتي الصباح؟

ـ إذا لم يمت الليلة، فسوف يستغرق وقتا حتى يتعافى، لماذا لا ننقله إلى أحد المستشفيات؟

ـ لا نستطيع ذلك، لا نريد أن نترك خلفنا دليلا بمثل هذا العجز.

ـ ماذا تدبرون، أعني غير قتلي؟ سرقة كبرى.. صفقة مخدرات؟!

لم أعد خائفا لذلك كنت أسأل بتهور، لم يكن ليقتلني، على الأقل حتى يفيق هذا العملاق من عجزه، يهز كتفه ويشيح بنظره عني، يقول:

نحن لا نصوّر فيلما، الأمر مهم، كنت أحتاج إليه كثيرا، خصوصا غدا.. أكثر من أي يوم مضى.

يتراجع من أمامي ويختفي داخل ظلمة الأطلال، يبدأ الجسد في الانتفاض، لا أبالي به، هذه فرصتي، لا شيء الآن يمنعني من الهرب. أهرع إلى الجزء المنخفض من السور، أصعد على الأحجار المتكسرة، تمتد الصحراء أمامي حالكة الظلمة، جسدا خرافيّا متراميا إلى حافة السماء، هضابا وتضاريس تتخللها الريح، تزوم كأنه صوت

أنفاسها، تغطيها آلاف النجوم البراقة، ويصعد إليها القمر من أبراجه النائية، هل أقفز من فوق السور؟ هل أسلم روحي لتلك المتاهة؟ أأجازف بحظي الذي كان سيئا حتى الآن، أم أنتظر ليقرروا موتي؟ اعتمدت على حافة السور، حاولت القفز من فوقه، أسمع صوت العملاق وهو يشهق، يجاهد ليظفر بالبقية المتاحة من حياته، التفت إليه، مزيد من اللعاب وسوائل التقيؤ يحيط به ويلوث وجهه. أعود وأمسح وجهه مما عليه من أوساخ، وأضع كمادات مبللة على وجهه وساقه لعلي أخفف قليلا من احتقان موضع اللدغة.

مع أضواء الفجر الأولى تعود السيارة معفرة بالرمال، كان جسد «آدم» مازال يقاوم، ارتفعت حرارته وزادت حدقتاه ضيقا، ولكنه ظل حيا. لم يكن سم العقرب بكميته الضئيلة قادرا على صرع هذا الجسد الضخم. أعطاني العملاق الثاني الأدوية التي اشتراها، كان قد أحضر مجموعة متكاملة من الأدوية المسعفة، ولابد أن الصيدلاني كان جيدا ومدّه بكل ما هو ضروري. أبدأ في حقن عروقه بمحلول «الكالسيوم» ببطء، أتبعته بخافض للحرارة. أتذكر الأيام التي كنا نهبط للريف لنتمرن على مداواة الفلاحين، كانت أرواحا رخيصة لا يهتم بها أحد، لم يكن أحد يحاسبنا على أخطائنا القاتلة، أما في هذه اللحظة فإن الأمر مختلف. كان هذا رهاني البديل عن محاولة الهرب، أن أقوم بإنقاذه حتى ينقذني، ربما يتروون قليلا قبل أن ينفذوا عملية قتلي. يظهر مفعول «الكالسيوم» سريعا ومؤثرا، ترتخي عضلاته وتكف عن التقلص، يتوقف اللعاب وتنقطع تشنجات التقيؤ، وتبدأ أنفاسه في الانتظام. انقشعت الأزمة مع انتشار الضوء، يسود سلام زائف على الجميع، يحمل حسن الجسد بالتعاون مع العملاق الثاني،

الذي عرفت أن اسمه «الزناتي»، إلى الداخل، يفردون جسده على الحصر، ويضعون وسادة تحت رأسه، ليس هناك ما نفعله غير انتظار الساعات القادمة. أنظر إلى حسن وهو جالس مستندا إلى الحائط، لا أعرف إن كان مستيقظا أو نائما، أستلقي في أحد الأركان وأستغرق في النوم من فوري. أغرق في أحلام مضطربة، الشيء المطمئن أنني كنت أسمع شخيرهم، لحظات من الهدوء في ليلة مجنونة، عندما استيقظت كانت الشمس تتسلل من فتحات السقف، اكتشفت أنه لا يوجد معي في الغرفة إلا آدم الذي كان حيا ويشخر في هدوء.

أجلس ملتفا حول نفسي وقد تيبّست كل أطرافي، أكتفي بمراقبة الجسد، أشعر أن من واجبي أن أعتني به، ربما يساعد وجودي بجانبه على توقف روحه عن محاولة الخروج من مكمنها. أظل أمسح بقايا الأوساخ التي كانت تحيط به وتلوث وجهه وثيابه، تخف الرائحة البشعة التي كانت تحيط به، أصبح إنسانا وليس مجرد جسد هامد، أغمض عيني قليلا وعندما أفتحهما أجده يحدق فيَّ باستغراب، حدقتاه متسعتان وتنفسه هادئ، كان مندهشا لأنني مازلت على قيد الحياة، وجالس بالقرب من رأسه، يقول في ضعف: أنا عطشان.

أنهض مسرعا، أحمل إليه زجاجة مياه، أسند رأسه لأساعده على الشرب، يواصل تأملي مستغربا، يمد يده ويرسم علامة الصليب على صدره بحركة واهنة، يحرك لسانه على شفتيه ويقول لاهثا:

لماذا مازلت على قيد الحياة؟ كان يجب أن تكون ميتا منذ زمن.

من كان منا أقرب إلى الموت؟ أقول مهوّنا عليه:

ما زال الأمر قائما، يمكن أن يقرروا ذلك في أي لحظة.

يرفع رأسه وينظر حوله، يشاهد الرباط حول ساقه والضمادات الموضوعة عليه، يقول:

هل فعلت كل هذا؟ هل نظفت كل شيء من حولي؟ كان يمكن أن أموت من رائحة نفسي، لماذا فعلت ذلك؟ لم أحسن معاملتك، وكنت أعتزم قتلك بالتأكيد.

ـ كنت فقط خائفا من أن تجذب السوائل مزيدا من العقارب.

يلوح على شفتيه شبح ابتسامة، يحاول أن يحرك ساقه المصابة فلا يستطع، ينظر نحوي:

هل أصيبت ساقي بالشلل؟

ـ مؤقتا، فقط حتى يتغلب جسمك على السم.

ـ اسقني، يخيل إليَّ أنني سأظل عطشانَ إلى الأبد.

أساعده على الشرب مرة أخرى، يمسح شفتيه بلسانه وهو يقول:

إنه طبع أصيل فيك إذن، أكره الذين لا يستطيعون الرد على الأذى بالطريقة المناسبة، العين بالعين، من أراد أن يقتلك يجب أن تعد له فخا.

ـ لست ماهرا في إعداد الفخاخ.

يدور بعينيه، يبدأ في تأمل الرسوم الموجودة على الجدران، يقول:

هذه الصور لأناس من طينتك نفسها،من الغريب أن نكون معهم

في المكان نفسه، أنا الذي اخترت لهم هذا الدير المهجور، كنا نهيم في الصحراء كالكلاب الضالة. عندما تذكرت هذا المكان الذي كنت أحضر إليه وأنا طفل مع أبي، لم أعد طفلا، ولم يعد الدير سوى أطلال؛ هذه الصور.. كانت مخفية وراء الطلاء.. أنا الذي ضربت الجدران وأظهرتها.

أرفع رأسي، أتأمل النقوش من جديد، كان على حق، الصور ليست ناقصة ولا متساقطة، ولكنها مخفية في معظمها تحت طبقة رقيقة من الجص. لا أدري لماذا يتم إخفاؤها بعد كل ما بذل فيها من جهد، الأجزاء الظاهرة منها مكشوطة، محاولة بدائية للكشف عنها، وربما كان سيتسبب هذا في إتلافها، استرد أنفاسه قليلا:

تأمل هذه الصور جيدا، تلك الوجوه المستديرة الباسمة، إنهم يحاولون أن ينسوا كل ما مر بهم من عذابات وأوجاع، ويبتسمون، من دون مبرر يبتسمون، يحاولون أن يظهروا أنهم فعلوا كل شيء من دون عناء يذكر، بينما هم متورطون.. لماذا ورطت نفسك معنا؟

ـ لم أكن أعرف أنني سأقابل شخصا غير الذي كنت أبحث عنه، كنت أتوقع عاشقا يعمل معيدا بكلية الهندسة.. أحبته فتاة صغيرة من بلدتنا.

يصمت قليلا ليستعيد قواه، كان مجهدا، ولكنه كان راغبا في الحديث معي، يقول:

إنه الشخص نفسه، ولكنه أصبح يائسا، واليأس مرض معد. عندما قابلته بعد خروجه من السجن، كان بريئا كعصفور، ولا يدري أين يوجه طاقة الحنق والغضب التي تتأجج في داخله، لم أفعل إلا أنني

ساعدته على اكتشاف ما يريد، كيف يحول طاقة الغضب هذه إلى ثأر؛ ثأر لنفسه وللآخرين. لم أدر أنني ساعدته على اكتشاف الوحش الذي بداخله، أنت في الموقف نفسه الآن، إما أن تدعه يكشف عن الوحش الذي بداخلك، وإما أن تأخذه إلى مدينتك، وهذه الفتاة التي تعشقه ربما تستطيع أن تغير شيئا.

أنظر إليه في دهشة، لم أكن أعتقد أنه قد استمع إليَّ أو حتى صدق قصتي، برغم ذلك كله كان مصرّا على قتلي، ربما لم يكن سمّ العقرب سيئا إلى هذه الدرجة، أقول وأنا أتذكر ما حدث لي:

هذا إذا لم يقتلني أوّلا.

ـ فات أوان قتلك، كان يجب أن يتم هذا بالأمس.. اسقني.

أنتفض عندما يفتح باب القاعة، يدخل «الزناتي» ممسكا في يده بندقية ضخمة أراها للمرة الأولى، لا بد أن رصاصها أضخم بكثير من البنادق العادية، طلقة واحدة كافية لتقسمني إلى شطرين، يبدو متحفزا، يدخل الاثنان، يستغرب أننا نتبادل الحديث معا، يهز رأسه وهو يقول:

كنت أعرف أنك ستنجو، لا يمكن لعقرب بريء أن يقدر على جسدك الضخم.

لا ينتظر ردا، يلتفت وهو يوجه البندقية نحوي، أدرك أنهما لم يغيرا رأيهما بعد، مازال قرار قتلي قائما، يحدق في «آدم» الملقى من دون أن يقول شيئا، هل سيقوم بالتنفيذ الآن؟ أنهض واقفا، استندت إلى الحائط في انتظار طلقته، سيتناثر دمي بالتأكيد على وجه رفيقه،

وربما يسعده ذلك، يكتفي «الزناتي» بهزّ البندقية مشيرا إليَّ أن أسير أمامه؛ أسير وساقي لا تكاد تحملني.

تهب ريح الصحراء، رطبة ومليئة بالخوف، أسير في الرواق الطويل وهو خلفي، تلامس فوهة البندقية عمودي الفقري، يقودني بحذر زائد لا يتناسب مع الفارق بين حجمينا. نخرج إلى الفناء، تبدو من خلف الأطلال ملامح شمس على وشك البزوغ، ألمح حسن واقفا في منتصف الفناء وظهره ناحيتي، كأنه يترقب مطلع الشمس. أتوقع أن يلتفت إليَّ ليوضح لي لماذا يفعلون بي هذا. يدفعني «الزناتي» بالقسوة نفسها في اتجاه فتحة الجب؛ القبر الذي خرجت منه بالأمس فقط، أتراجع صارخا في رعب، يعاود دفعي إلى حافة الفتحة، يصرخ في غلظة: انزل.

أرى السلّم معلقا، والهوة مظلمة لا يظهر لها قاع، أصيح وقد فقدت الثقة في كل شيء:

كلا.. أرجوكم لا فائدة من قتلي، لا أعرف عنكم شيئا، ولن أخبر أحدا بشيء لا أعرفه أصلا.

يدفعني بقسوة، أسقط على الأرض فيركلني في بطني، أصرخ متوسلا للشخص الذي يدير لي ظهره:

يا حسن أرجوك، لم آت إلى هنا إلا لإنقاذ هذه المسكينة.. ولإنقاذك أيضا.

لا يرد عليَّ، لا يدير وجهه ناحيتي، يصيح «الزناتي»:

انزل.. لا تكن جبانا فتضيع وقتنا.

سُلّم الحبال في مكانه منذ أن صعدت عليه، يدفعني حتى أوشك

أن أهوى إلى القاع، أتشبث باكيا بالحبال وأضع قدمي على أولى الدرجات. يضرب «الزناتي» أصابعي بمقبض البندقية، يضطرني إلى هبوط درجة أخرى حتى أبتعد عنه، أحاول أن أكبت صوت بكائي. ولكن الموت يزداد اقترابا مني، يقف بيني وبين الشمس، يوجه بندقيته نحوي، تحيط بي رائحة المقبرة العطنة، أجلس على كومة القش نفسها، يتحرك أمامي سرب من النمل مازال يحاول جاهدا حمل أعضاء العقرب المهشمة، متى سيبرز لي العقرب الآخر؟ لم يرفعوا السلم من مكانه، لم أعد أرى ظل «الزناتي»، ولكني أعرف أنهم في الأعلى يترصّدون لي.

أخيرا بعد وقت لا أدري مداه، أسمع صوتا آمرا قادما من أعلى: اصعد.

لا أصدق أذني، أنهض مسرعا، أقبض على الحبال وأواصل الصعود، يطل وجه حسن جامدا، الدرجة نفسها من البعد والمحايدة، يراقب صعودي في صمت، أشاهد أطلال الدير مرة ثانية، و«الزناتي» ببندقيته الثقيلة، أصعد من الفتحة وأزحف على الأرض، أقبض بأصابعي على الرمل، أتشبث به، لا أرفع رأسي حتى لا يروا دموعي ويدركوا كم أبدو ضعيفا وخانعا، أسمع صوت «حسن» يهتف:

لديك فرصة أخيرة، نريد أن نضمن ألّا تشي بنا، يجب أن تشاركنا فيما نقوم به.

أكان يريد أن يضمن سكوتي، أم يبحث عن بديل للعملاق المسجى في الداخل؟ أقول:

لا أعرف ماذا تريد، ولا كيف أساعدك. أنا مجرد طالب طب فاشل.

ـ عليك أن تنفذ ما أقول، من دون اعتراض أو محاولة للهرب، في مقدوري أن أقتلك في أي وقت أو مكان.

أنظر إليه حائرا، لا أدري إلى أين سيؤدي بي هذا الغرض. أنظر أيضا إلى البندقية المتحفزة:

لا أريد أن أتورط.

ـ أنت ورّطت نفسك عندما سعيت إلى البحث عني، هذا خيارك الأخير، ليس لك أن تسأل بعد الآن.

أحول رأسي بعيدا، الحفرة والبندقية والسلم المعلق، لا مهرب من الموت سوى بالاستسلام وقبول صفقة الشيطان التي يعرضها عليَّ، قلت في تردد:

وبعد ذلك.. هل ستطلقون سراحي حقا؟!

ـ بعد ذلك لن تجرؤ على التحدّث مع أحد عما فعلته معنا.

أخفض رأسي وأومئ بالموافقة، لا أجرؤ على النظر في عينيه، ربما لن أجرؤ بعد ذلك على النظر في عيني أي إنسان. مجرد موافقتي الصامتة جعلتني أشعر بالذنب، فماذا بعد أن أصبح شريكا في الجرم أيّا كان نوعه؟ يخفض «الزناتي» بندقيته ويتخلى قليلا عن تحفزه،أزحف فوق الرمل مبتعدا عن فتحة الجب، لا أطيق البقاء معهما في مكان واحد، أنهض متخاذلا وأسير إلى الداخل. الجسد المسجّى يتنفس في هدوء، أستلقي بجانبه، أي دور قذر سأقوم به بدلا منه؟

يمر الوقت بطيئا، أتوقع أن يأتي أحدهما ويحدثني عن الدور الذي سأقوم به، ولكنهما تجاهلاني، ويمنعني خجلي من نفسي أن

أستفسر عن أي تفاصيل. عندما يبدأ الضوء في الغروب عن فتحات القاعة يدخل الاثنان مرة أخرى، ينظر حسن إلى الجسد الملقى بوجهه الجامد وعينيه الباردتين، لا يبدي أدنى قدر من التعاطف، لكنه يشير نحوي:

حان وقت الانصراف.

أشعر برجفة تدب في أعماقي، يستدير فأنهض خانعا، يهمس العملاق العاجز في ضعف:

هل ستتركونني هنا؟

يحاول «الزناتي» أن يطمئنه:

سنعود إليك، ولكن حاذر أن يلدغك عقرب آخر.

فات الأوان، أتبعهما إلى الفناء، يشير إليَّ حسن فأركب في المقعد الخلفي لسيارة الجيب السوداء. كانت حارة وخانقة ولها رائحة الرمال، يجلس هو في المقعد الأمامي، بينما يقوم «الزناتي» بفتح بوابة الدير فيصدر صوتا كاستغاثة، يعود ويجلس خلف عجلة القيادة. أتذكر جسد العملاق المسجى في الداخل، هل سيعودون إليه حقا؟ وهل أستطيع العودة إلى الفتاة المنتصبة التي تنتظر في مدينتي؟ هل يمكن أن أرى «سميّة» من جديد؟ تزوم السيارة وتثور الرمال من حولنا، غلالة صفراء تحجب الرؤيا أمام عيني، كأني أنتقل إلى زمن آخر وحياة أخرى. تمتد الصحراء مثل متاهة، رمال رمادية وصخور جرداء وأشواك جافة، أشعر برهبتها وصمتها الذي لا تخدشه سوى الريح، أنزوي في ركن من المقعد، وبطرف عيني أرى حسن يفتح حقيبة سوداء صغيرة موضوعة على ركبتيه، يخرج مسدسا ضخما،

يشبه المسدسات التي كنت أراها في الأفلام، يقلبه قليلا كأنه يعيد استكشافه، أو يحدد نوع الضحية التي سيوجهها إليه، يخرج أنبوبة معدنية سوداء ويركبها على فوهة المسدس. لا أملك إلا أن أشهق في خوف ودهشة وانبهار، يلتفت حسن نحوي، يرمقني بنظرة تجمدني في مكاني، أرتد إلى الخلف وقد تبين أمامي كل شيء، نحن في طريقنا إلى القيام بعملية اغتيال، لا أعرف من ولا أين، ولكني مشارك فيها، أبواب السيارة مغلقة من حولي، ومحاولة القفز منها هو نوع من الانتحار، يتزايد خجلي من نفسي، أشعر بأنني أضعف من أن أقوم بحركة شجاعة. أختلق المبررات لأتبعه وأظل خلفه، يلوح من بعيد شبح أحد الجمال، يرعى العشب الجاف في سلام، يرفع رقبته المقوسة ويتأمل سيارتنا، والضجيج الذي نحدثه والرمل الذي نثيره. يكتشف أننا مجرد دخلاء، يحدق فينا مستنكرا بعينيه الواسعتين، لا يدري ولا يبالي بالورطة التي أنا فيها، ترى من ينوي حسن أن يقوم بقتله؟ كيف تصورت أنه قادر على بعث الحياة وقد تحول إلى أداة للقتل؟ أتأمل الصخور التي شكلتها الريح، أوجهًا مفزوعة، وأيادي مرفوعة، وأشجارا عارية تبدو كهياكل عظمية، تترك السيارة الرمال وتثب على أرض مفروشة بالحصباء، نمر بوديان جافة تمتلئ برواسب من حصى وصخور وملح، لا أدري بالضبط أين موقعنا من الخريطة، ولا أسمعهما يتبادلان كلمة واحدة، لا أجرؤ على التلفظ بأي سؤال، نجحا في بث الرعب في أعماقي، نواصل السير المحتوم، يظهر خط ملتوٍ كأنه مرسوم بالقلم الرصاص، يقسم موجات الرمل. تنقشع الذرات الصفراء ويبدو الأسفلت، يتبدد آخر شعاع للشمس، وتكتسب الصحراء مسحة من الحمرة الداكنة، تسابق السيارة الظلمة التي تتكاثف مع كل لحظة، تخفي المعالم كأنها قد غاصت في عالم

آخر، لا نلبث أن نخوض وسط ظلام دامس، لا يشقه إلا ضوء السيارة وهي تواصل السير. أفكر في الرجل الذي أصبح وحيدا في الدير المهجور، هل تمكن من الحركة؟ هل أصبح في مقدوره أن يقاوم هجوم أي عقارب جديدة؟ أفكر في ورد المنتصبة في المحطة، هل كان في مقدروها أن تصمد أمام هجوم الكلاب وعوامل التحلل؟

يظل الصمت مخيما، لا يبالي حسن بالنظر إليَّ، لا يفتحان المذياع، لا صوت إلا لعويل الريح والعربة التي تسبح في فراغ لا نهائي، كأننا قد انفصلنا عن الأرض، لا نسعى إلى غاية ولا نبحث عن هدف، وسأفتح عيني في أي لحظة لأجد نفسي في مدينتي، وكل ما مرّ بي كان كابوسا قاسيا، ولكن عجل السيارة يرتطم بالأسفلت مرة أخرى. أفتح عيني لأجد أننا في طريق رئيس، مضاء ومزدحم بالسيارات، واسم «القاهرة» مكتوب على لافتة جانبية وتحتها عدد الكيلومترات الباقية للوصول إليها. كنا على الرغم من كل شيء نقترب من المدينة الكبيرة، نسير بسرعة هائلة كأننا نسابق الزمن، تمرق من حولنا السيارات في كل اتجاه. رأيت الأضواء وهي تنعكس على صفحة وجه حسن؛ أضواء متتابعة، لا تتبدل ملامحه، ظل مقيما على يأسه القاتم، لا أدري كم واصلنا السير، ولكن العربة لم تخفف قط من سرعتها. تقترب المدينة وتحتل أضواؤها حافة الأفق، تضوي كنجوم صغيرة خلال الغبار، تكبر وتتضخم تقريبا مثل حيوان هائل، لا تهدئ السيارة من سرعتها إلا بعد أن اجتزنا بوابة دفع الرسوم، نصبح في الحيز العمراني، نتوقف على جنب ونفتح النوافذ الأربع، أخذنا نتنفس هواء الليل الذي كان مازال حارا ومعبقا بالرمل، أخرج حسن هاتفا صغيرا، ضغط على زر واحد فيه، يفتح الباب وينزلق خارجا من باب السيارة، أراقبه وهو يتحدث ويحرك يده من دون

أن أسمعه. يلتفت «الزناتي» نحوي ويسلط عليَّ عينيه، يراقبني ويثير الرعب في الوقت نفسه. يعود حسن إلى السيارة، يؤمئ برأسه إلى «الزناتي» الذي يناوله لفافة سوداء، يلبس قفازا أسود، ولابد أن الآخر كان يفعل الشيء نفسه، لا يحاول واحد منهما أن يقدم إليَّ شيئا، للحظة أحس أنهما لا يشعران بوجودي، أحرك مقبض الباب في حذر، لكن العربة محكمة الإغلاق، تعود إلى الانطلاق مرة أخرى، تجتاز السيارات التي تجاورها في الطريق، ثم تغوص في طرق جانبية.

تظهر الأهرامات الثلاثة دفعة واحدة، تضيئها أنوار خافتة، منظرها وديع ومهيب. قبل أن أتأملها قليلا تستدير السيارة بحيث تصبح في ظهرنا، تسير على طريق ضيق مليء بالحفر على حافة ترعة مظلمة، أتذكر أنني سرت على هذا الطريق نفسه من قبل، في النهار تبدو راكدة تثقل عليها الطحالب الخضراء وتنبع منها الروائح الكريهة. نتقدم خلف صف من أشجار الكافور، تبدو الأسوار التي تحتجز أشجار الفواكه والنخيل، نصبح فجأة وسط الفيلات والقصور والحدائق الزاهية ورجال الأمن المستريبين، فقط لم تكن الغربان موجودة، لا بد أنها ترصدنا من مكان ما، أعرف المكان والاتجاه اللذيْن تسيران فيهما السيارة، صحت كأنما استيقظت من سبات طويل:

نحن في المنصورية.

ولأول مرة يلتفت حسن نحوي ويقول في سخرية:

أجل.. سنقوم بزيارة صديقتك «ذكرى البرعي».

ذكرى البرعي - سيدة الأعمال

حسن.. حسن.. لماذا يلح عليَّ الاسم في هذه الليلة، ليست هذه ليلته ولا هذا وقته، هل السبب هو زيارة ذلك الشاب القروي وتلك الفتاة المحترفة، أو لأن الجانب المعتم من جسدي يتوق لمجيئه؛ الثعبان الذي أفتقده، اللذعة التي أنتظرها؟ تسألني الخادمة الفلبينية:

ماذا تريدين الليلة على العشاء يا مدام؟

أعرف معنى هذه الابتسامة المتواطئة التي تظهر على وجهها بصفرته الشاحبة، أقول:

لا يهم نوع الطعام.. المهم أن تنامي مبكرا وتضعي سدادة الشمع في أذنيك.

تنصرف من أمامي، ما زالت تبتسم، هذه الليلة بالذات أريد أن أجلس هادئة في حجرتي، عارية ومغرية ومهيأة للافتراس، أتذكر أمي وهي تتساءل بلهجتها الإسكندرانية: «أيوووه يا خلق.. أنا اللي عملتوا كدا في نفسي.. ولّا المقدر والمكتوب؟».

لم أعط للولد والبنت الإجابة الصحيحة. أجل. أعرف «حسن الرشيدي»، ولا أعرفه أيضا؛ كان قاسيا وودودا وأليفا ومراوغا، مثل

كل الرجال، يظهرون أفضل ما عندهم حتى يدخلوا تحت «الكلوت». ما علينا، الذي كان يهمني أن أعرف أكثر عن هذه الفتاة القروية المتجمدة؛ ربما لهذا السبب لم يكن جسده خالصا لي.

لم تحرقني رغبتي في حسن كثيرا، ولكن الذي حرقني بجدّ هو «أكرم البدري»، قبل أن يقود حسن إلى بيتي، كان قد قلب حياتي وحولني إلى هذه المرأة التي أراها في المرآة، كل يوم بوجه جديد، لا تستطيع العثور أبدا على وجهها الأصلي، مهما عشت فلن أنسى ذلك اليوم الذي شاهدته فيه، من لحظتها وأنا لا أعرف رأسي من قدمي، حتى علاقتي به لم أعرف منها حد الرغبة من التملك، ولا كيف اختلطت الشهوة بالشراسة، أدار حياتي وأيقظ رغباتي وحدد مصيري من دون أن أعلم كثيرا مما فعله.

وجه جميل، وحظ قليل، هذه هي التعاسة بعينها. كانت أمي تردد هذه الكلمات على مسامعي كلما نظرت في المرآة، ألف رحمة عليك يا أبي، لماذا مت مبكرا هكذا، ألم يكن عليك التمهل قليلا لترى ماذا سأفعل وحدي في هذا العالم؟

شيء مثل سطوع برق خاطف على بحر إسكندرية، هذا ما حدث حين رفعت رأسي ورأيت عيني «أكرم» تحدقان فيَّ. من أول نظرة عرفت كم هو جميل، الرجال الذين يهبهم الله كل شيء بسخاء، فارع الطول، فخم الثياب، يقف أمامي ويعيد وضع النظارة الشمسية ليخفي لمعة عينيه،ومكمن شهوته، يتأملني ببطء وتمعن ونهم، متوسط العمر، أقرب إلى الامتلاء، وجهه مستدير ومن دون شارب، طابعه طفولي، وبخاصة شفتاه الرفيعتان، واثق ومتحكم، يمتلك الفراغ

الذي يقف فيه، شعرت بالخوف منه، أدركت أنه شخص مهم على نحو ما، وضعت على وجهي ابتسامة متكلفة وأنا أقول له:

أي خدمة؟

اقترب أكثر، شممت رائحة عرقه مختلطا برائحة عطر غريب، غالي الثمن، قال:

أريدك أن تتجولي معي في المحل وتساعديني على اختيار بعض الهدايا.

صوته أيضا له رنة تملأ الأذن، لم أملك إلا أن أطيع أمره، أصر على أن أسير أمامه، أشعر بعينيه وهما تنفذان إلى مؤخرتي. الزبون على حق دائما، يسير كما يريد وينظر إلى ما يحب، طفت به كل الأقسام، واشترى من كل البضائع الثمينة تقريبا؛ أغلى ربطات العنق من «كومو»، وساعة ضخمة ماركة الباشا، وحزام جلدي ودبابيس مطعمة بالماس، وزجاجات عطر باريسية، وإسكارفات من الحرير والكشمير، وضبطت دهشتي وأنا أشاهده يفحص باهتمام ملابس داخلية نسائية من فيكتوريا سكريت، كان يبدو أكثر مني ألفة بالمكان، والبائعات يعرفنه أفضل، ويتدللن عليه بشكل واضح وصريح، كان زبونا دائما في المتجر إذن، أدركت ذلك بعد برهة، فلماذا إذن اختارني لمرافقته، ولماذا يشتري بكل هذه المبالغ دفعة واحدة؟ من أنا حتى يريد إبهاري؟ ابتعدت قليلا وهو يخرج بطاقة «الماستر كارد» ليدفع الحساب، لم أرد أن أطيل التحديق فيه حتى لا يضبطني متلبسة. جاء أحد العاملين في المتجر ليحمل الأكياس، ووقفت العاملات في جنب يتأملن حركاته في انبهار، توقعت أن يخرج بالزهو نفسه

الذي دخل به، ولكنه اتجه إليَّ مرة أخرى، هز رأسه ولاحت على وجهه ابتسامة وهو يضع أمامي ورقة مطوية، لم يقل شيئا، هز رأسه فقط واتجه نحو باب الخروج. تناولت الورقة وفردتها بسرعة، كانت ورقة بمائة جنيه، وكان مكتوبا على ظهرها وسط زحام الإشارات الفرعونية الملونة «تناولي معي العشاء اليوم» وتحت الكلمات رقم هاتفه. شهقت، كنت أعرف أنهن يتأملنني جميعا، لم أضيع وقتا في التفكير، عدوت خلفه، كان تقريبا عند الباب الخارجي للمتجر عندما رفعت صوتي: «يا بيه..» وعندما التفت إليَّ متسائلا قدمت له الورقة وأنا أقول:

لقد نسيت هذه.

لم يمد يده، خلع النظارة وتأملني قليلا وهو يبتسم، أكان يختبرني، أم يسخر مني؟ مد يديه وتناول الورقة وأعطاها للعامل الذي كان يحمل مشترياته وواصل السير.

لم تمض لحظات إلا وثلاث من العاملات الفضوليات يقتحمن المكان الذي أقف فيه، يردن أن يعرفن ماذا يريد هذا الرجل الفاخر مني، ماذا كان يمكن أن يريد؟ ألم يكن هذا واضحا؟ لم أحدثهن عن دعوة العشاء، جذبنني نحو نافذة المتجر لأرى سيارته وهي تتحرك؛ «مرسيدس» سوداء شديدة اللمعان، لا يظهر شيء من خلف زجاجها المعتم، عرفت منهن أنه واحد من أشهر رجال الأعمال وأكثرهم نفوذا، في مصر ودبي ودول أخرى، يعمل مثلهم جميعا في الإتجار بأنواع كثيرة؛ يأتي إلى الإسكندرية غالبا ليشرف على تخليص معاملاته الجمركية، إنه حوت ضخم من الصعب اصطياده

كما أشارت إحداهن، لم أكن أنوى اصطياد أحد، كنت أكثر ضآلة وأقل مهارة من أن أفكر في ذلك، لا بد أنك قد لفتَّ نظره بشدة، قالت الثانية من بين أسنانها، ولكن الثالثة لم تنس أن تحذرني: لا تلعبي معه، إنه شديد المهارة مع النساء، لو حاولت اصطياده فسيصيدك. انصرفن من أمامي وهن يتضاحكن، وحاولت أن أشغل نفسي مع الزبائن المعتادين، ولكنني ظللت أشم رائحة عطره، وأحس بنظاراته تحرق جلدي. كنت أرتعد، أدركت لماذا رددت إليه النقود، كنت خائفة منه، ومن نفسي، ومن الآخرين، لا حد للمخاوف، حتى عندما جاء المساء كنت مازلت أحس بالحرقة وعدم الراحة.

سرت إلى بيتنا الخانق في غيط العنب، تغوص قدمي في الطين، وتوشك بيوت الحي الضيقة الواطئة أن تغرق في الطين أيضا، أمي والمحروس زوج أمي في انتظاري، لم تكن الجدران ضيقة فقط، ولكن زوج أمي جعل الدنيا من حولي خانقة. يضعني دائما في دائرة نظراته الشرهة، يرصد جسدي في كل مكان أذهب إليه وكل حركة أقوم بها، دائما ما يجد ثقبا ليطل عليَّ من خلاله؛ ثقبًا في غرفة نومي وفي باب الحمام الضيق، وعندما يلاحقني تبرق عيناه وينفتح فمه رغما عنه ويبدأ لعابه في السيلان. قرف لا ينتهي واشمئزاز بلا حد، لا أجرؤ على العودة بعد إغلاق المتجر، أظل أتسكع في «محطة الرمل» ولا أعود إلى البيت إلا مهدودة القوى، ليست غرفتي إلا تابوتًا، يضم جثتي في كل ليلة، ولا أستعيد روحي إلا في الصباح، كان يجب أن يكون لي مكاني الخاص، ولكن كيف؟ كان الأمل في أن أتزوج وأستقل بنفسي شيئًا بعيد المنال، كل الذين عرفتهم يعيشون في عالمهم الخانق، لا يملكون إلا وعودا زائفة، ولم أكن أريد أن

أكون «ضرة»، أسرق واحدا من فوق أخرى، كنت أتخبط وسط زنقة لا فكاك منها.

بعد أن يئست من عودته، ظهر «أكرم البدري» بعد ثلاثة أسابيع، دخل المتجر من دون أن يبالي بي أو ينظر في اتجاهي، لم يختر واحدة بدلا مني، كان يمتلك المكان بالفعل، ولا يحتاج إلى مَنْ يقوده، تابعته بعيني وهو يتنقل في الأقسام المختلفة، ورأيتهن يتنهدن أمامه في حرقة زائفة، لم أرد من أحد أن يلحظ اهتمامي، لم أكن أريد أن أكون رخيصة ومتهالكة. ظل مشغولا بتأمل البضائع، واختيار الثمين منها بنهم واضح، هل سيتجاهلني، أو أنه لم يشعر بي منذ البداية؟ كنت واقفة من دون إرادة مني في انتظاره، ولابد أنه شعر بي أخيرا فقد سار نحوي متمهلا. ملأ الفراغ من حولي، كان منهكا كأنه لم يكف عن عقد الصفقات منذ الصباح، تفحص البضائع التي أمامي من دون أن يتفحصني، لم يختر منها شيئا، قال في صوت خافت ولكنه حازم:

الليلة ستقبلين دعوتي للعشاء، سأنتظرك في مطعم «ميرا» بالعجمي في الثامنة.

استدار منصرفا من دون أن يسمع ردي، غادر المتجر وخلفه العامل يحمل أكياس مشترياته، ظللت واقفة مشدوهة، حدث الأمر للمرة الثانية من دون أن أعرف ماذا أفعل. كنت رغما عني أتوق لاهتمام رجل بي؛ رجل لا يختلس النظر إليَّ من ثقوب الأبواب، أو يسيل لعابه من أجل متعة مختلسة. تأملت وجهي في المرآة، شعري المشدود إلى الوراء، ووجهي الخالي من الزينة، ورقبتي العارية من قطعة زينة، وثوبي الرخيص المخفي خلف زي المتجر، كيف يمكن

أن أذهب إلى موعده بهذه الهيئة البائسة؟ اقتربت مني «فوزية»؛ أقرب صديقاتي من العاملات، كانت تسكن في «كرموز» لذلك كنا نترافق في معظم طريق العودة، قالت في همس:

هل ستذهبين في الموعد؟

ألتفت إليها في فزع، هل كان صوته عاليا إلى هذه الدرجة؟ تلفّتُّ حولي، كن جميعا يتأملنني في ترقب، يريدون أن يعرفوا ماذا سأفعل، قلت لها: كيف عرفت؟

قالت: لقد اقترب منك خصيصا ليتكلم معك، طبيعي أن يدعوك بشكل مباشر ومن دون أن يضيع وقته، إنه رجل أعمال متمرس وليس عاشقا مراهقا.

تطلعت إلى وجهها، كانت تحاول أن تضع أمامي أصول ممارسة اللعبة، قلت:

أنت على حق، إنه ليس عاشقا بسيطا، أنا حتى لا أملك إمكانية الذهاب إلى مثل هذا الموعد، لا ثوب لائق ولا حذاء جيد.

نظرت إليَّ لترى إن كنت عبيطة أم أستعبط، قالت:

من السهل تدبير هذه الأشياء، أنت تعملين في متجر مليء بها، ما أعنيه هو أمر آخر.

بالتأكيد لم أكن أريد أن أبيع جسدي رخيصا، كنت أستعد لدخول هذه اللعبة وأنا أعرف مخاطرها، سمعت ذات مرة من أحدهم، أنه لا يتم الوصول إلى الروح إلا عبر الجسد، وعليَّ أن أدافع عن جسدي حتى اللحظة الأخيرة. أعرف أني لست بالذكاء الكافي لأقاوم حيله

وإغراءاته، ولكني بنت حواري الإسكندرية، تمرمطت فيها واكتسبت خبرة الشقاء والفكاك من فخاخ الفقر المنصوبة على نواصي الأزقة.

كان المطعم داخل أحد المنتجعات على شاطئ العجمي، لم أحلم يوما بالدخول إليه، وكنت أرتدي ثوبا لم أتصور أنه يلمس جسدي، فعلت أنا و «فوزية» كل الحيل الممكنة لنخرجه من المتجر من دون أن يلحظ أحد، تزينت في منزلها، وخرجت من عندها مباشرة إلى العجمي. كنت أرتعد، أشعر أنني عارية تحت الثوب المسروق، برغم أن المطعم كان غارقا في العتمة. استطعت أن ألمح كثيرا من النساء والرجال، لم أكن أستطيع المنافسة، وكنت أتوقع أن يتم طردي في أي لحظة، ولكن «أكرم البدري» تلقفني بصخب جعل الجرسونات ينحنون أمامي، وارتفعت من مكان ما موسيقى «طلعت يا محلى نورها». قادنا مدير المطعم إلى منضدة بجوار النافذة، امتد أمامنا بحر مظلم ولا نهائي، يفور سطحه بالزبد كأنها رغبات مكبوتة، ظللت أرتجف من شدة الإثارة، تحدث هو في أغلب الوقت ولم يطلب مني شيئا محددا، لم يحاول حتى أن يمسك بيدي، أحسست بالأمان وأنا أجلس معه، وعندما أصر على أن يوصلني ارتحت في جلستي على مقعد السيارة بجانبه، تصبح الإسكندرية امرأة ساحرة حين تغسلها قطرات المطر، يفترش الضوء أرضها المبتلة كحصيرة مشعة، خجلت من أن أدعه يوصلني إلى غيط العنب، أخذني فقط إلى كرموز حيث منزل «فوزية»، لم أكن أريد أن أغادر السيارة سريعا، وفهم الأمر من فوره فبدأ يقبلني، قاومته قليلا، ولكني كنت أسيرة السحر الذي صنعه من حولي، لم أفق إلا وهو يلتهم شفتي ويحاول أن يدخل لسانه في فمي، أحسست بطعم النبيذ الذي ظل يتجرعه طوال

الليل، اشتعل جسدي، ولكني استطعت التخلص منه في صعوبة. اختبأت في مدخل البناية حتى انصرف، ركبت إحدى سيارات الأجرة إلى غيط العنب، لم أشعر بالطين الذي تخوض فيه قدماي، ولا برائحة البول التي تشع من بيتنا، ولا بأصابع زوج أمي التي حاولت أن تمسك بفخذي، أغلقت باب حجرتي بإحكام، ونمت عارية في الفراش من دون أن أكف عن تحسس نفسي.

أقف بجوار النافذة، أراقب الظلام وهو يزحف على الشوارع المحيطة بالمنزل، كنت أعرف أنه لن يظهر إلا بعد أن يهدأ كل شيء، ويخلو الشارع تماما من المارة، دائما ما يتركني في ترقب حتى اللحظة الأخيرة، أغرق في ذكرياتي مرة أخرى.

لم أتلق من «أكرم البدري» وعودا، ولم أهبه سوى شفتي، برغم أن كياني كله كان مضطرما، لا أدرى إلى متى يمكنني أن أقاوم، ولا إلى متى سيقنع هو مني بهذا القليل. يغيب عني أياما طويلة، يستغرقه عمله في القاهرة وزوجته التي لا يحدثني عنها، أقرأ عنهما معا في صفحات المجلات الملونة، رأيت صورتها بجانبه في حفلة زفاف، كانت أكبر مني في السن، وأقل مني جمالا، ولكنها تمتلكه، تقف بجانبه أمام الجميع، يضحك بفم واسع، بينما تنظر هي أمامها بشرود، كأنها ليست معه في الحفل، ربما كانت تتفحص بقية النسوة في الحفل لتكتشف من منهن على علاقة بزوجها، لم أشعر بالغيرة، كل واحدة منا كانت تنتمي إلى عالم آخر، وهذا الرجل يربط بيننا برباط واه، ساءلت نفسي وأنا أتأمل الصورة: هل يحدث ذات يوم أن أجد لي مكانا بجانبها، أو على الأقل أقف على الجانب الآخر منه؟

انتظرت أياما طويلة حتى عاد إلى الإسكندرية، كان البحر يهدر من خلف زجاج المطعم، وأنا أرتعد في كل مرة يصطدم فيها الموج بالزجاج، كنت قد جلست في انتظاره كل هذه الأيام، وأُجْهِدت من سرقة الأثواب المختلفة في كل مرة أقابله فيها، من دون أن أسمع منه كلاما يبل الريق، كل ما فعله هو أنه أمسك بيدي ونظر في عيني وقال:

اسمعي.. أنا أتحدث بجد.. أنا جائع جدا.

حاولت أن أبتسم: كان يجب أن تتناول طعامك في القاهرة، إنهم يتأخرون في هذا المطعم قليلا.

قال من دون مواربة: أنا جائع إليك.. إلى جسدك.

احمرّ وجهي وتقطعت أنفاسي، قلت في صوت خافت:

يمكنك أن تفعل بي ما تريد.. لم يلمسني أحد قبلك، احتفظت بجسدي للرجل الذي أريده، يمكننا أن نتزوج.

ـ لا أستطيع، أتمنى ذلك طبعا.. ولكني لا أستطيع، أنت لا تعرفين زوجتي ولا نفوذ أهل زوجتي، لا أجرؤ على تحديهم، سوف يمسحونني من فوق ظهر الأرض.

كم صفرا يوجد أمام أرقام حساباته، وكم ثقبا ينظر من خلاله زوج أمي، وإلى مدى يمكن أن أتراجع قبل أن يصطدم ظهري بالحائط؟ قلت:

لا أريد أن أضغط عليك ولا أورط نفسي.. يمكن أن يكون زواجنا سرا.

قال في حزم: ولا حتى عرفيّا، لا أستطيع أن أوقع على أي ورقة من هذا النوع.

يبقى الأمر إذن في حدود النزوة، طياري، قلت في صوت مختنق:

ماذا تحسبني، تريد أن تأخذ جسدي مقابل عشاء في مطعم؟ لا يهمك مستقبلي، حياتي، سمعتي.

نظر حوله خوفا من أن يكون هناك من يتابع حوارنا، قال:

يمكنك أن تتركي الإسكندرية نهائيا، لا يوجد ما يربطك بهذه المدينة التعيسة، في القاهرة حيث لا يعرفك أحد، ستكون لك شقتك الخاصة، وحياتك الخاصة أيضا.

ـ عبدة عندك تخصصها للجنس.

سحبتُ يدي من تحت يديه، كان يجب أن أنهض وأنصرف، أحسست بالعرق يغمر جسدي، قال:

سيكون ثمنك غاليا، سأفتح لك حسابا في البنك، ومن يدري، ربما تمتلكين متجرا للملابس وتصبحين سيدة أعمال بدلا من أن تظلي بائعة، في مدينة كالقاهرة يمكن أن يحدث كل شيء.

كان يقدم عرضه بلهجة باردة ومرتبة، أعدّ كل الكلمات، لم يكن فيها إلا أقل القليل مما توقعته، زال السحر وتبدد الوهم، تناولت حقيبتي ونهضت واقفة، نظر إليَّ في دهشة، قلت:

يمكنك أن تكمل عشاءك وحدك.

سرت مسرعة، رن صوت حذائي عاليا، لم تستطع الموسيقى أن

تخفيه، التفتت نحوي الرءوس، تابعتني بنظراتها، خرجت من باب المطعم، كان الهواء باردا، وكنت أرتجف، ولم تنقذني سوى إحدى سيارات الأجرة.

لم أعرف ماذا أفعل، ولا كيف مر عليَّ الليل وأنا ساهرة في فراشي. كانت غرفتي عارية إلا من صورة وحيدة؛ صورة بالأبيض والأسود للريس برعي، قبل أن تلتهمه نوة البحر وتختطفه من عالمي، كان يحدق فيَّ بعينيه المتسائلتين، ووجه المتجعد وذقنه النابت، ماذا فعلت بنفسك يا ابنتي؟ قلت له في صوت خافت: أنا مهانة يا أبي، كان الطمع والتوق للخلاص بأي ثمن هي الثغرة التي نفذ منها «أكرم البدري».

ذهبت إلى المتجر في الصباح، أعدت الثوب من دون أن يشعر بي أحد، ورن الهاتف عند الظهر، سمعت صوت «أكرم البدري» على الهاتف الذي أعطاه لي، والذي لا يتلقى سوى مكالماته فقط، صاح بي غاضبا:

كيف تجرئين على تركي في المطعم هكذا؟ كيف تعرضينني للإحراج وسط الذين يعرفونني؟ لم تجرؤ امرأة على فعل ذلك من قبل، من تحسبين نفسك؟

فوجئت بثورته، هو الذي يبادرني بالهجوم، أغلق الهاتف قبل أن أرد بكلمة واحدة، ظللت أنصت لصوت الصمت من الجانب الآخر، كنت أعرف أن سبب غضبه الحقيقي هو أنني رفضت عرضه، لم يتعود أن يرفض له أحد عرضا، جلست مذهولة، توقعت أن يتصل مرة أخرى، لم يفعل، أنا أيضا لم أجرؤ.

مرت ثلاثة أيام كاملة، استدعاني المشرف إلى مكتبه، نظر إليَّ في قرف وقد ضاقت حدقتاه، قال فجأة:

كم ثوبا أخذت؟ كم ثوبا أتلفت؟ هل نسيت نفسك؟ كيف تعتقدين أنك قادرة على خداعي؟

هناك من وشى بي، وهذا بالضبط ما كان ينقصني، انصرفت من أمامه من دون أن أجد كلمة واحدة أدافع بها عن نفسي، تحاشاني الجميع، حتى «فوزية»، وعندما جاء أحد عمال المتجر يحمل خطابا لي، كنت أعرف مضمونه من دون أن أفتحه. ظللت واقفة مشلولة، جاءت عاملة أخرى لتتسلم مكاني، تحركت في صعوبة، وغادرت المتجر، حتى «فوزية» لم تلق نظرة عليَّ، هل هي التي وشت بي؟

تحولت الإسكندرية إلى مكان ضيق ومعاد، كل ما فيها من مكاتب وشركات وإدارات مزدحمة بوجوه تحملق فيَّ، يستمعون إليَّ ولا أحد منهم يفهم ما أقول؛ يفهمون معنى أن أبحث عن عمل بينما هم مستقرون في أماكنهم. أبدأ يومي بمحاولة إيجاد مكان لي وسط كل ما يتوفر أمامي من مواصلات؛ أتوبيسات مزدحمة بمن يحاولون الالتصاق بي من الخلف، وسيارات «المشروع» المتهالكة ونظرات السائقين الشرهة، وترام بطيء أسلاكه خالية من الكهرباء، أجلس في طابقه الثاني المعطل، أتأمل أعشاش العصافير وسط أغصان الشجر، بداخلها أفرخ صغيرة عارية من الريش، عزلاء مثلي وقليلة الحيلة، أعود إلى البيت وقدماي متقرحتان، تفوح منهما رائحة كريهة، أستلقي على فراشي مثل جثة هامدة، تطل عليَّ الصورة، صامتة وعاجزة، النوة عاتية عاصفة يا ريس برعي وتوشك أن تغرقني. أستيقظ مفزوعة في

منتصف الليل، ثقل يطبق على صدري، زوج أمي راقد فوقي، لعابه اللزج يسيل على وجهي، وأصابعه تندس تحت ثيابي الداخلية. أنظر إليه في دهشة، ماذا يفعل هذا الكائن فوق جسدي؟ كيف لم يلحظ أنني متعبة ومنهكة مثل «فرخة» دائخة؟ ألم يشم رائحة قدمي؟ كيف دخل غرفتي الموصدة؟ هل جعلني التعب والإرهاق أتخلى عن حذري؟ امتدت أصابعه اللزجة إلى مناطق حساسة من جسدي، تخشبت وتصلبت عضلاتي، ثنيت ركبتي ودفعتها في خصيته بكل قوتي، تأوه عاليا وانقلب من فوقي على الأرض متأوها، سحبت الغطاء على جسدي وأدرت له ظهري، توجع مثل كلب مصاب وهو يبرطم بالشتائم، يسبني ويسب أمي، وعندما انسحب من الغرفة وجدت نفسي أضحك، في صوت خافت أولا، ثم ارتفع صوتي متواصلا أمسكت بطني وأنا أتقلب على الفراش من شدة الضحك.

بحر «القبّاري» على وشك الموت، بقع من الزيت الكثيف تغطي سطحه وتخنق موجاته، قارب الريس برعي كان ميتا بالفعل، كتلة من أخشاب متكسرة ومهتدئة؟ من الملح، مجاديف محطمة، وصارية ملقاة كجثة بعد أن انتزعت من مكانها، اسم القارب كان مكتوبا على الحافة العلوية، لم يبق منه إلا حرف الذال..أول حروف اسمي، كتبه على حافة القارب في اليوم الذي ولدت فيه، هكذا قال لي، يومها كان الرزق من عند الله والسمك الفضي وفيرا لا يكف عن التراقص في الشباك، ولم يكن هناك موت. قفز فأر من جوف القارب ولكني ظللت ممسكة بحافته، ورف أحد طيور النورس في سماء باهتة، قرأت الفاتحة وبكيت، وظل القارب صامتا. ارتعدت وأنا أخرج الهاتف من حقيبتي، امتد البحر أمام عيني مسجى كمن يترقب غريقا،

كنت أختنق، لا توجد نسمة هواء أستطيع تنفسها،أخطأت في الرقم في المرة الأولى والثانية، وظل الجرس يرن طويلا حتى حسبته لن يرد، وعندما جاء صوته أخيرا، قلت في إيجاز: أنا موافقة على القدوم إلى القاهرة، قال في إيجاز أيضا: كنت أعرف ذلك.

أخلع ثيابي قطعة قطعة، مثل راقصة تعر محترفة، أجلس بجانب النافذة منزوية قليلا خلف الأستار، أراقب المدخل الأمامي للمنزل من دون أن يراني أحد. مازلت جالسة في انتظاره، يخيفني الصمت الذي يحيط بي، وأسمع عواء غامضا من الصحراء القريبة، ولكني أعرف أنه سيأتي متخفيا في ظلال هذا الصمت.

عندما هبطت من الأتوبيس المكيف لم أجد أحدا في انتظاري، لم يكن لديَّ سوى عنوان تلقيته بواسطة الهاتف، أي سائق أجرة سيأخذك إليه، قال «أكرم» لي. لم يكن يوجد مكان في حقيبة السيارة، وضعتها بجانبي، فتحت نافذة السيارة قليلا، لم يعد هناك هواء، لا هنا ولا في الإسكندرية، لا وجوه أليفة أيضا، بيوت داكنة الصفرة، وشوارع مكسوة بالتراب، تضيق وتتسع والتاكسي يواصل السير، لا يكف السائق عن محاولة جري في الكلام، يعدل المرآة ليتأمل ساقي وأنا جالسة في المقعد الخلفي، والمدينة غابة من الطرقات والحواري يسهل الضياع فيها، توقف أخيرا أمام إحدى البنايات العالية، أعطيته بعض النقود فنظر إليَّ مهددا، اضطررت أن أضاعفها وأنا أزفر في غيظ.

هل أجد مكانا آمنا، ربما أجد «أكرم» في انتظاري، يحمل لي ولو زهرة صغيرة، لا يحاول أن يفرض شروطه ويرغمني على قبولها.

في هذه المدينة الغريبة كنت في أمس الحاجة إلى لمسة من المودة، حملني المصعد إلى الدور الرابع، تماما كما هو مكتوب في الورقة، عمارة نظيفة، ومصعد له رائحة عطرة، لا شيء يشبه غيط العنب؛ لا رائحة الطين المتخمر ولا البول المحبوس، نباتات داكنة الخضرة أمام الشقة، لا أدري من سيستقبلني، كل ما قاله إنني سأكون في أيدٍ أمينة. وقفت مترددة بجانب الباب، ألم يكن من الممكن أن يأتي لاستقبالي بنفسه؟ ضغطت الجرس وأنا أرتعد، غير قادرة على التحكم في نفسي، ظللت واقفة طويلا، اضطررت إلى دق الجرس للمرة الثانية، هذه المرة فتح الباب وظهرت امرأة أخرى، لم تكن خادمة بالتأكيد، كانت ترتدي قميص نوم يكشف عن صدرها وفخذيها، شعرها بني أشعث وعلى وجهها بقايا مساحيق ودائرة حمراء حول شفتيها، أخذت تفرك عينيها وتتأملني في بلاهة تحاول التعرف إليَّ، هل أخطأت العنوان؟ قلت في إحراج:

أنا ذكرى.. ذكرى البرعي جئت من طرف..

لم تدعني أكمل، قلت في صوت مجهد:

أهو أنت.. الفتاة الإسكندرانية.

انسحبت من أمامي من دون أن تدعوني إلى الدخول، تركت باب الشقة مفتوحا، لم أخطئ العنوان ولكني لا أفهم شيئا، دخلت خلفها، كانت تهرش مؤخرتها وهي تتثاءب. غاصت قدمي في سجاد كثيف وأحاطت بي قطع من الأثاث المذهبة، وواجهتني مرآة كبيرة تكشف عن شكلي البائس وحقيبتي المتسخة، اجتازت المرأة الصالة الواسعة من دون أن تتوقف. كانت الستائر المسدلة تلقي ظلا من العتمة،

تجعلني لا أرى التفاصيل بوضوح، كأنني أسير منومة داخل حلم، دخلت خلفها إلى طرقة طويلة، كأنها تقودني إلى متاهة غامضة، كانت هناك غرفة يتوسطها سرير ضخم، عليه كومة من الأغطية، أشارت إلى داخلها وهي تقول:

هذه هي غرفتي.. غرفتك هي التالية.. يجب ألَّا تخلطي بينهما، لا أحب أن يقلق نومي أحد.

وقبل أن أقول شيئا كانت قد ارتمت على السرير، وظل ظهرها وساقاها مكشوفين أمامي. استغرقت فورا في النوم؛ لأنها لم تتحرك، ولم تحاول أن تجذب الغطاء على جسدها العاري، كانت هذه هي المرة الأولى التي أقابل فيها «ثريا».

من هي، ولماذا جعلني «أكرم» أنزل في شقتها؟ هل سيحضر لي شقة مستقلة مثلها، أو أن الوعود القديمة قد تبخرت بعد أن جئت إليه صاغرة؟ جلست على سرير الغرفة الخالية، متعبة ومحبطة وحائرة، شيء واحد فقط كنت أعرفه، أنني قطعت صلتي بمدينتي وحياتي القديمة وأنا الآن في مقامرة لا أملك من رصيدها سوى جسدي، وليس أمامي سبيل إلى التراجع.

نهضت والظلام يسود الغرفة، ظللت للحظات عاجزة عن تحديد أين أنا، في فراش غريب بشقة غريبة وسط مدينة غريبة، تلمست طريقي في الظلام. فتحت باب الغرفة وسرت مع الضوء القادم، لم تكن المرأة موجودة في غرفة نومها، سمعت صوتها قادما من الصالة، تتكلم قليلا وتضحك كثيرا، تقدمت بحذر، لم أرد أن أستمع إلى شيء من حديثها، ولا أستطع أيضا أن أبقى حبيسة ظلمة غرفتي،

أريد أن أعرف ماذا ينوي أن يصنع بي «أكرم البدري»؟ كانت بملابس النوم نفسها، عارية تقريبا، شعرها المتهدل يجعل من الصعب تأمل ملامحها، تتلوى في مقعدها وتتوقف عن الحديث لتستغرق في ضحكات طويلة، ظللت واقفة متوجسة، التفتتْ نحوي وأشارت بيدها تطلب مني الجلوس في مقابلها، لم تهتم إن كنت أستمع إليها أو لا. تهمس وتلعب في خصلات شعرها وتحرك ساقيها، وتبدو عليها علامات المتعة وهي تتلقى كلمات الطرف الآخر، جسدها كله يشارك في المكالمة، وأخير ختمتها بضحكة طويلة، وكان هذا أفضل ما فعلته؛ ضحكة منطلقة وساحرة وحرة، لم أتصور أن تأتي لحظة أضحك فيها بهذه الطلاقة، التفتت نحوي ورفعت الشعر الذي يغطي وجهها، استطعت أن أرى ملامحها بوضوح، فمها الصغير المطلي بحمرة باهتة وأنفها الدقيق وعينيها الواسعتين المليئتين بالتساؤل:

ماذا قلت لي اسمك مرة أخرى؟

وعندما رددته عليها، عادت تتساءل: هل ستحتفظين به، أو ستغيرينه؟

قلت في دهشة: لماذا؟

نهضت وهي تقول: الأسماء هنا كلها مزيفة يا حبيبتي، والوجوه أيضا، هل أنت جائعة؟

اتجهت إلى مطبخ مفتوح على الصالة، لا يفصله عنه إلا حاجز صغير، كنت بالفعل جائعة، ولكني كنت أكثر جوعا لأن أعرف من هي، ولماذا جاء بي «أكرم» إلى هنا. وضعت أمامي عدة أطباق صغيرة عليها أطعمة متنوعة وهي تقول:

ستتناول طعاما خفيفا، نحن مدعوتان الليلة إلى حفلة كبيرة.

لم أمد يدي إلى الطعام، ولكني انفجرت في وجهها بكل ما أحمل من أسئلة. ظلت تستمع إليَّ وهي تضغط أزرار الميكروويف لتسخن قطع الخبز، فعلت ذلك ببطء كأنها تتعمد إثارتي، قالت:

عندما تقابلين «أكرم البدري» في الحفل.. قولي له كل أسئلتك، لست مدرسة إلزامية يا نور عيني لأجيب عن كل هذه الأسئلة، أنا فقط صاحبة هذا البيت، وأنت ضيفة عندي، صاحبت «أكرم» ذات مرة وتفرق الأصحاب.

كانت حادة، أحسست بالضعف والتخاذل، قلت وأنا أمسك الدموع حتى لا تنهمر من عيني:

لم يكن هذا اتفاقي معه، قال إنه ستكون لي شقتي الخاصة، وسيعطينى ما أحتاج إليه من مال.

ملأت كأسا صغيرة بنبيذ أحمر، دفعتها نحوي، هززت رأسي وأنا أعض على شفتي، وبرغم كل محاولاتي للمقاومة هبطت دموعي، تناولت هي رشفة صغيرة وقالت معترضة:

أووره.. لا تبدئيها بالبكاء، ولا تثقي في وعود الرجال، ولا تراهني على جواد واحد، هذه قوانين العالم الجديد الذي دخلته.

عجزت تماما عن التحكم في دموعي:

لا أريد هذا العالم، ولا أريد رجلا غيره، جئت من الإسكندرية من أجله فقط، أريد أن أكون لرجل واحد مهما كان نوع العلاقة التي بيننا.

نظرت إليَّ في دهشة ممتزجة بالأسى، وقالت:

يا رحمن يا رحيم.. هل مازلت عذراء؟

أومأت برأسي في صمت، قالت:

يا ربي، لماذا يقحمني الملعون «أكرم» في هذا الأمر؟ لم يكن ينقصني إلا أنت، اسمعي نحن مازلنا على البر، إذا أردت أن تعودي إلى الإسكندرية الآن.. فسأتكفل بذلك.

نظرت إليها بسهوم، هل كانت تنصحني، أو تحاول دفعي بعيدا؟ خفضت رأسي حتى لا تحدق في عيني، لم أكن أستطيع العودة، لا يوجد ما أعود إليه، تفحصتني طويلا،قالت بتمهل:

تناولي طعامك إذن، ودعينا نستعد لحفل الليلة.

كان الطعام مرا، والنبيذ لاذعا، أخذت أسعل، مدت يدها بمنديل ورقي ومسحت دموعي، ضحكت وهي تراقب وجهي المحتقن، نظرت في عيني وقالت في جدية:

مع «أكرم البدري» أو غيره.. تذكري أنها مجرد مهنة، مثل كل المهن، تمارسينها بعقلك، لا بنصفك الأسفل، لم أرث هذه المهنة عن أمي، ولكني اخترتها بنفسي لأنها تعطيني بالضبط ما أحبه وأحتاج إليه، المال والرجال، لا توجد مهنة أخرى يتوفر فيها هذان الشيئان.

كان كلامها جارحا وصريحا ومؤلما، ورأيت انعكاس صورتي في المرآة مثيرا للشفقة، إنها بنت من عالم آخر تحاول مخادعة نفسها، في انتظارها عالم لا تملك الخبرة اللازمة لمواجهته، كنت مرعوبة من كلامها، من الطريق الذي بدأت بالسير فيه، رأت نظرة الرعب في عيني، ولكنها قالت في بساطة:

ستحافظين على نفسك وتتصرفين بالغريزة، في النهاية، هذه مهنة النساء وليس الرجال.

ذهبنا إلى الحفل في سيارة سوداء، يقودها سائق جامد الوجه، كان واقفا في انتظارنا أمام البيت، لم ينظر إلى وجوهنا ولا ثيابنا الغريبة، لم أتصور أنني سأجرؤ على ارتداء هذا الجلباب من القطيفة، في حمرة النبيذ الذي لم أستسغ طعمه، مطرز بالخرز والترتر اللامع، أمسكته في خجل وتردد ولكن «ثريا» قالت في حسم:

«ملس» فلاحي.. إنه المطلوب لهذه السهرة بالذات.

فور أن انسدل على جسدي أحسست بالخجل، كأن عشرات الأيادي تزحف عليه، فتحة الصدر عريضة أكثر من العادة، يظهر من خلالها المربع الأبيض من لحمي وتكشف عن منبت ثديي، اكتشفت أيضا أنه مشقوق من جنب، يكشف عن ساقي العارية كلما تحركت، تقف «ثريا» أمامي وقد ارتدت ثوبها، بلون الكهرمان، كانت بطولها الفارع، وشعرها البني المائل إلى الحمرة، وطلاء شفتيها القاني الحمرة رمزا صارخا للأنوثة. شعرت بالخجل والثوب ينزلق على جسمي، وصدري الصغير لا يكاد يرفع فتحة الثوب إلى أعلى، بالطبع كانت هي المتفوقة، تسير أمامي كملكة، حتى إن بواب العمارة نهض واقفا وهو يضرب لها تعظيم سلام. كنت أتعثر خلفها خوفا من أن يشاهد ساقي العارية، رأيت نظرات السائق مسلطة علينا من دون أن ينطق بكلمة واحدة. فتح باب السيارة، وانطلق بها فور أن ركبنا، لم أعرف إلى أين تسير بنا، ولكن أضواء المدينة بدأت في الاختفاء، امتد أمامنا طريق شبه مظلم وخال، نظرت إلى «ثريا» في قلق وأنا أتساءل:

أين هي هذه الحفلة؟ لقد غادرنا المدينة.

ضغطت على زر صغير في ظهر المقعد الأمامي، انفتح غطاء المقعد وبدت فجوة مضيئة بداخلها زجاجة خمر، وعدة أكواب من البلور. كانت تعرف خفايا السيارة كما تعرف كل شيء، هززت رأسي رافضة الكأس التي قدمتها لي، لم يكن ينقصني المزيد من الدوار، تجرعت هي كأسها في تمهل:

ألم تلاحظي الثوب الذي ترتدينه؟ نحن ذاهبتان إلى عزبة «راتب باشا» في الأرياف، إنها «فلاحين بارتي»، يحضرها الرجال من دون زوجاتهم، وتحضرها النساء من دون ملابسهن الداخلية، ويمكن أن يحدث فيها أي شيء.

استغرقتْ في ضحك صاخب، وكالعادة لم توضح شيئا، وظل هواء المكيف البارد يثير الرعدة في جسدي، أخذت السيارة ترتفع وتنخفض بنا فوق الطريق غير الممهد، وثريا تجلجل بالضحك مع كل اهتزازة، أحاطت بنا أشجار الشربين العالية، وحلقت طيور مفزوعة في الظلام، أوشكت أن أتقيأ كل ما كان في جوفي، وأخيرا لاحت من بعيد أضواء «العزبة» التي نتجه إليها.

سور من الأحجار، تمتد عليه عناقيد من المصابيح الملونة، تطن حولها حشرات الليل ويصطف أمامه عدد من السيارات الفارهة. ينام كل سائق بداخل سيارته، مجموعة من الفلاحين الأشداء يمسكون البنادق ويقفون في حراسة الباب. ترتفع من الداخل أصوات الطبول والمزامير، أرتعد وأنا أستعد للدخول تحت أنظار الحرس المتحفزين،أضع يدي لأداري صدري العاري، وأحاول

لململمة الثوب حول ساقي، أقف مترددة وأنا أشعر بالخوف منهم، خائفة من وجوههم الجامدة وهي تتأملني،، تهبط «ثريا» مترنحة من السيارة، تجذبني من كتفي، تهتف بي:

لا تحملقي فيهم كثيرا حتى لا يستثاروا.

تضحك بصوت عال ويحمر وجهي، يفتح واحد منهم البوابة أمامنا، يدق الأرض بقدميه ويرفع يده «تعظيم سلام». تجذبني «ثريا» إلى الداخل، أنتقل فجأة إلى عالم آخر، حديقة ممتدة، في وسطها قصر أبيض صغير، لؤلؤة متفردة، الأضواء المسلطة عليه تجعله ساطعا وسط الظلام، رجال ونساء يتجولون في أزياء غريبة، يرتدون ملابس الفلاحين، ولكنهم ليسوا بفلاحين، كلها زائفة كالملابس التي نرتديها، أتأملهم في دهشة، ولكن «ثريا» تعاود جذبي:

قبل أن ترى أي شيء، يجب أن يراك أولا الباشا الكبير.

نسير وسط حلقات صاخبة من الرجال والنساء، يضحكون ويرقصون ويتقافزون، نساء مثلنا، يلبسن ثيابا مكشوفة الصدور، ويضعن مساحيق فاقعة تخفي أعمارهن، ومن المؤكد أنهن بغير ثياب داخلية، ورجال ضخام الحجم، تبدو عليهم ملامح الصحة والامتلاء؛ بعض منهم يقبل «ثريا» على شفتيها والبعض الآخر يقرص صدرها البارز بأصابعه، لا أحد يصافحها، يلقون عليَّ نظرة عابرة، يتطلعون إلى صدري العاري أكثر مما يتطلعون إلى وجهي، نظرات قوية مقتحمة، تريد أن تعريني من ثيابي، لا يبالي أحدهم بسؤالي عن اسمي، يحاولون فقط أن يضعوا أيديهم على مؤخرتي، وفور أن أبعدها كانوا يفقدون اهتمامهم بي. تجذبني

«ثريا» وتواصل التقدم، نخوض وسط زحام من السيقان العارية وتتبادل «ثريا» الأحضان والضحكات والقبلات، أتلفت حولي فلا أعثر على الرجل الذي أريده؛ «أكرم البدري» فقط والآخرون إلى الجحيم. في جانب من الحديقة يوجد فرن من الطين، في داخله تتلوى ألسنة اللهب، وأمامه تجلس بعض الفلاحات جالسات وهن يخبزن الفطائر، كن حقيقيات، ثيابهن سوداء ووجوههن شاحبة، بجانبهن تقف عدة حيوانات، حمير عيونها واسعة وحزينة، وجاموسة سوداء تحرك فكيها وهي تلوك شيئا ما، مثلي تماما، لا تفهم شيئا مما يدور حولها، تقودني «ثريا» إلى مركز كل هذا الخليط، نار موقدة، يطقطق الحطب المشتعل وتتصاعد منها شرارات متصلة، خلف النار يجلس رجل ضخم على أريكة خشبية، مستندا إلى الحشايا والوسائد، يدخن الشيشة في نفثات متتابعة من الدخان، يراقب بعينيه الجاحظتين كل الحركة التي تدور في الحفلة الصاخبة، تجلس حوله بتراخ مجموعة أخرى من النساء، فلاحات زائفات، تتألق ألسنة اللهب على سيقانهن العارية البيضاء، تتقدم «ثريا» وتنحني أمامه، تلمست الأرض بركبتيها وهي تمتم:

سيدنا الباشا الكبير.

كف عن الدخان نفسه والتفت نحوها، وضع يده على رأسها كأنه يباركها، لا تجرؤ على الاقتراب منه أو محاولة تقبيله، قال في صوت أجش:

الليلة أنا لست باشا، أنا العمدة؛ عمدة هذا الدوار المليء بالمسخرة.

ضحكت النسوة المحيطات به في صخب، أشارت «ثريا» نحوي وقالت:

هذه ذكرى يا باشا.. أقصد يا عمدة.. وجه جديد «أوريجنال»، يريد منك أن ترضى عنه وتباركه.

التفت نحوي، أحاطني بعينيه الجاحظتين، طاف بهما فوق جسدي قبل أن يشير لي أن أقترب. تجذبني «ثريا» لأجثو أمامه على الأرض، يرتدي جلبابا من الصوف، وعلى كتفيه عباءة سوداء، مستند إلى وسادة موضوعة في حجر امرأة بحيث يكون ثدياها فوق رأسه. مد يده داخل جيبه وتناول منديلا، قدمه لي وهو يقول آمرا:

امسحي هذا الطلاء، أريد أن أرى ملامحك بوضوح.

لا أدري كيف أتصرف، أحس بعينيه وهما تنفذان خلف جلدي، تخطف «ثريا» المنديل، تمسح به وجهي بحركات سريعة متتابعة، لا أجد بدا من الاستسلام لها. تأملني مرة أخرى، هبط ببصره من وجهي إلى صدري الصغير، أمسكت بمقدمة ثوبي، أحاول أن أقلل المساحة المعروضة من صدري،تذكرت أني رأيت تمثالا شبيها به في المتحف الروماني في مدينتي، مد أصابعه ولمس وجنتي تحسس بشرتي ربما ليتأكد من وجودي وقال:

لا بأس بك هكذا.. على الأقل مازال وجهك طازجا لم يمس.

لم تضحك واحدة منهن، نظرن نحوي ساهمات، تلفت حولي لعل هناك من ينقذني، فيما يشبه الحلم أو الوهم، رأيت وجه «أكرم البدري»، واقفا خلف الدخان المتصاعد من ألسنة اللهب.

عدوت إليه وأنا ألهث، تعلقت بعنقه، أحسست بدفء جسده أخيرا، لف ذراعيه حولي، ووجد طريقه إلى شفتي بسهولة كما تعود، حملني بذراعه من فوق الأرض وابتعد بي عن النار الموقدة وعن العينين الجاحظتين، ضربته بقبضتي على صدره وأنا أهتف في حنق:

لماذا فعلت بي كل هذا؟ لقد جئت من أجلك، لماذا لم تنتظرني على الأقل؟ لماذا أرسلتني للإقامة مع هذه المرأة المحترفة؟ أنا لست مثلها.

كنت غاضبة منه بالفعل، ولكني واصلت تقبيله، نظر حوله في إحراج حين رأى كثيرين ينظرون إلينا، أدهشتني حماستي الطفولية، كانت كل النساء الموجودات محترفات، لا يعلن عن عواطفهن بهذه البساطة، أخذني من ذراعي بعيدا إلى ركن في الحديقة، خلف الحيوانات والفرن المشتعل، قال:

كل هذا مؤقت، مجيئك إلى القاهرة كان مفاجئا، أحتاج إلى بعض الوقت حتى أرتب الأمر، ولبعض السرية أيضا، والآن يجب أن تهدئي، لا لزوم لعواطف زائدة أمام الجميع، بعد الحفلة، سنتسلل إلى سيارتي وسنذهب إلى مكان خاص بنا، ستكون هذه أول ليلة نقضيها معا.

قلت في تردد: أسيكون هذا مكاني، أم أنني سأعود إلى شقة «ثريا» مرة أخرى؟

قال في نفاد صبر: قلت لك.. أحتاج إلى بعض الوقت.

هل فقدت كل أوراق المساومة؟ هل أنسحب من أمامه كما فعلت من قبل؟ جذبني من ذراعي:

هيا نختلط بالناس، لا أريد أن تبدأ أحاديث النميمة حولنا.. إنها حفلة لا تتكرر.

تركني وسار إليهم، ظللت أتأملهم وأنا أختنق بغصة في حلقي. عدد المدعوين يتزايد والحفلة تزداد صخبا، تتواصل الرقصة الخفية بين الرجال والنساء، لا يبقى رجل مع امرأة طويلا، ولا امرأة تخصص نفسها لرجل واحد، يدورون حول بعضهم بعضا، يشربون ويتكلمون ولا يكفون عن تبادل القبلات؛ قبلات عابرة في منتصف الحديقة، وطويلة وساخنة في الأركان شبه المظلمة، تتداخل فيها الألسنة وتنسحق فيها الحلمات، لا أحد يخص أحدا، كل النساء كن مشاعا لكل الرجال، كيف يمكن أن أحتفظ بالرجل الذي أريد وسط كل الهياج؟

دخلت فرقة من العازفين، يحملون الطبول والمزامير، غجر جوالون، على عيونهم عصابات سوداء تجعلهم لا يرون ما يدور حولهم، يتخبطون ويتعثرون في سيرهم، قطط عمياء لا تتوقف عن العزف، أثار دخولهم إيقاعا جديدا للحفلة، سيطر عزفهم على بقية الأصوات، «ثريا» كانت أول من استجاب لهم، وضعت حزاما حول خصرها، دارت راقصة حول كومة النار، طقطق الحطب وتصاعد الشرر كأنه يتجاوب مع سخونة الرقص. التف المدعوون في دائرة حولها وهم يصفقون، حاولت أن أندمج معهم، صفقت وأنا مبهورة بكمية الأنوثة التي تشع من جسدها، تحركه بحرية وانطلاق غير مبالية بالأعين التي تحاصرها، تستجيب فقط للرغبات الكامنة في داخلها، أكتشف أن «أكرم البدري» كالعادة لا يقف بجانبي، كان الباشا الكبير هو الذي يقف بدلا منه؛ يقف منتصب القامة كتمثال قديم، بالجلباب

الصوفي والعباءة وفي يديه عصا ضخمة. لم يكن يصفق، ولم يكن يتأمل «ثريا»، كان يتأملني، يتفحصني بعينيه الجاحظتين شعرت فجأة بالخوف منه، بحثت بعيني عن «أكرم» فلم أجده في مكان قريب، أحسست بذراع «الباشا» وهي تحط على كتفي، تقبض أصابعه عليَّ وتقربني منه قليلا، مال عليَّ وسمعته وهو يهمس في أذني:

هل أنت حقا.. مازلت عذراء؟

جف حلقي وأصبحت النار أكثر اشتعالا، لا بد أنها ثريا ولسانها الفالت، لم أمض في الحفل إلا لحظات قليلة، ومع ذلك باحت له بأسرار جسدي، نظرت نحوه في إحراج، عيناه تلمعان بشدة:

العذارى نادرات هذه الأيام، لم أقابل عذراء منذ مدة طويلة، حتى زوجتي، عندما تزوجتها، لم تكن عذراء.

أغرق في الضحك فجأة في صوت صاخب، أعلى من صوت الموسيقى، التفتت الوجوه نحونا، التفتت «ثريا» وهي ترقص، بدت على وجهها ابتسامة متواطئة وهي ترى ذراعه حول كتفي، تقدمت وأخذت ترقص أمامه. لم يتخل عن كتفي، ولم يصفق، تلفت حولي، فأرة صغيرة داخل مصيدة ضخمة، يزيد «الباشا» من الضغط على كتفي، يجذبني بعيدا عن الدائرة إلى عمق الحديقة، نحو البيت الأبيض الذي يتألق في المنتصف، يقبض عليَّ بإحكام ويقودني كأني غنيمة سهلة، قال في صوت كالفحيح:

ربما لا تعرفينني جيدا.. ولكنني شديد الكرم مع الذين أفضلهم.

أفلت من بين أصابعه، نظر إليَّ في دهشة، عدوت مبتعدة عنه

من دون أن أدري إلى أين أتجه، كل ما استطعت أن أحدده هو باب الحديقة الضخم، سأخرج منه وليكن ما يكون. مررت على «ثريا» التي تواصل الرقص، تخبطت بين المدعوين كبومة عمياء، الباب بعيد والهواء ثقيل والموسيقى صاخبة، ولكن ما إن أصبحت في الخارج حتى فوجئت بيد تمسك بي. التفت في فزع لأجد «أكرم البدري» أخيرا، يارب أخيرا وجدت من يمكن أن أتعلق بعنقه.

هتفت فيه: أين كنت؟ لماذا تركتني؟

قال: لم أذهب إلى مكان، فقط كنت أتحدث في الهاتف.. إلى أين تسرعين هكذا؟

كنت أنتفض، وأشعر بفتحة صدري واسعة، وبجسدي عاريا، أشرت إلى الداخل وأنا أكاد أبكي:

لقد تركتني لهذا الرجل.

من دون كلمة زائدة عرف من أعني، ظل وجهه جامدا، من دون غضب أو تعاطف، قال ببرود:

منذ أن عرف أنك مازالت عذراء وقد جن جنونه.. إنه يريد أن يكون أول من...

قاطعته في حدة: يريد أن يكون ماذا. وأنت ما رأيك؟ هل أعطيت له موافقتك؟

ارتفع صوتي فنظر حوله في إحراج، ظلت وجوه الفلاحين الحرس تنظر إلينا بجمود، كأنها لا تفهم اللغة التي نتحدث بها، حاول أن يمسك بذراعي ليبعدني عنهم، جعل ظهري لحائط السور ووقف أمامي، كأنه يسد العالم من أمامي، قال في هنة من الاستعطاف:

إنه رجل قوي يا ذكرى، يتحكم في كل هؤلاء الرجال، نحن رجال أعمال بالاسم فقط، نحن في الحقيقة مجرد دمى، يتحكم فينا بنفوذه وسلطته، إنه ناب أزرق مليء بالسم، لا أستطيع أن أخالفه، ولا أنت أيضا، لن يعطيك مبلغا من المال فقط، ولكنه سيفتح هذه المدينة في وجهك.

قلت وأنا أبكي: أنا لست عاهرتك تبيعني لمن تشاء، لا أريد شيئا منك، أريد أن أعود إلى الإسكندرية.

قال: أنت دائما تختارين الطريق الخاطئ..

ابتعد عني، حسبت أنه سيتركني ويعود إلى الجميع في الداخل، لكنه استند فقط إلى إحدى السيارات وعقد ذراعيه على صدره، جاءت «ثريا»، وقفت بجانب الباب وهي تراقبني بحذر، لم يعد هناك كلام، بدت الموسيقى بعيدة والعالم الذي تنبعث منه بعيدا أيضا، فقط رأيت لمحة منه، بدأت أجري، تركت السور والحرس والسيارات وراء ظهري، أصبحت في الخلاء، يحيط ظلام متسع وشاسع بلا نهاية، يوشك أن يحتوي جسدي الضئيل وينثره في ذرات صغيرة. هب الهواء باردا كما لم يكن من قبل، نفذ من فتحة صدري ومن شق ثوبي ودخل في عظامي، ضممت يدي حول صدري وصرخت، ضاع صوتي في الظلام، لم أكن وحيدة هكذا من قبل، ما الذي قادني إلى هذا المكان النائي؟ لم يكن هناك رجل عابر، ولا سيارة تائهة، لا أحد يمكن أن يمد يد المساعدة لي، ظللت واقفة، أدركت أنني لن أجرؤ على الذهاب إلى أي مكان.

عدت إليهم بخطوات بطيئة، أنتزع قدمي من الأرض الترابية، كانا

واقفين في انتظاري، وجهاهما خاليان من أي تعبير، يعرفان أنني لن أذهب بعيدا، وقفت أمامهما عاجزة عن رفض ما أكره، ساقاي غير قادرتين عن حملي بعيدا، وجه «أكرم» غرق في الظلمة، لا أرى التعبير المرتسم عليه، تقدمت «ثريا» مني بسرعة، أحاطتني بذراعيها قبل أن أسقط على الأرض، سارت بي إلى الداخل مرة أخرى، إلى الفخ المزين بالأضواء، قالت:

تعالي يا عيني، سنعدل من زينتك قليلا.

سارت بي إلى داخل الحديقة الصاخبة، إلى القصر الأبيض الصامت، من دون أن يتبعنا أحد، تركت أقدامي آثارا من الطين فوق الرخام الناصع، كانت الدموع تملأ عيني، والرجفة تهز جسدي، ولكني رأيت لمحة من المكان الذي يحيط بي؛ أوانٍ من الخزف المنقوش، نجفة متدلية من السقف، سجاد فاخر راقد في نعومة على الأرض، لوحات معلقة على الجدران، وخادم أسمر اللون يرتدي ثوبا أحمر موشى بالذهب ينحني أمامنا، يقودنا إلى الطابق العلوي، تجذبني «ثريا» إلى صدرها، أشم رائحة عرقها مختلطا بالعطر، تصعد بي سلالم الرخام، ممر طويل مليء بغرف مغلقة الأبواب، تسير في ثقة من يمتلك المكان، تعرف جيدا إلى أين تذهب، تظهر خادمات آسيويات، ينحنين من دون أن يعترضن سبيلنا، تقودني إلى غرفة نوم واسعة، فراش واسع عليه أغطية بيضاء، منقوش على زواياه رءوس أسود متحفزة، أضواء تبدأ خافتة ثم تزداد سطوعا، تقودني إلى حمام ملحق بالغرفة، تدخل كل مكان من دون تردد وتحفظ أدق التفاصيل، توقفني أمام المرآة، شكلي مزرٍ وشعري أشعث، ووجهي ملطخ ببقايا الطلاء وثيابي مضحكة، لا أنتمي إلى

هذا المكان البالغ النظافة، رغما عني كنت أنتمي إلى غيط العنب بما فيه من طين وروائح عفنة.

غسلت «ثريا» وجهي وسرحت شعري، أجلستني أمام منضدة للزينة في غرفة النوم الواسعة، خلعت عني الثوب الغريب وأحضرت لي ثوبا أبيض كان معلقا في أحد الدواليب؛ كان ثوبا غريبا، طويلا يصل إلى أسفل قدمي، مغلق حتى عنقي، يترك فقط ذراعيَّ عاريتين، كان هذا أجمل ثوب وأبسطه ارتديته في حياتي، عقصت شعري إلى الوراء، ووضعت على شفتي طلاء براقا زاهي الحمرة، وتأملتني من خلال المرآة. كف جسدي عن الارتجاف، وتسرب إليه شيء من دفء الاستسلام، أجلستني على حافة الفراش، وجثت أمامي على ركبتيها، قالت:

كانت أمي تعتقد أن المرأة لم تخلق لتكون لرجل واحد، جسدها أكثر أهمية من ذلك، هناك حكاية كانت تحكيها لي دائما، كانت من بنات أفكارها بالتأكيد، كانت أمي تمارس المهنة نفسها إن كنت لا تعرفين، تقول إن الرجل لم يخلق أولا، فهذا غير منطقي، خلقت المرأة أولا حتى تلد الرجل، وعندما تزوجته ظلت كلما ضاجعته شعرت معه بالذنب، لم تنس قط أنها تضاجع ابنها، وعندما ظهر الثعبان في حياتها أخيرا ارتاح بالها، خف شعورها بالذنب وعاد إلى ذاتها بعض من التوازن، تعرفين.. كل امرأة في حاجة إلى ثعبان.

لم أع ما تقوله تماما، وربما سمعت الحكاية بطريقة خاطئة، لست قادرة على الكلام، كان الاستسلام قد قاربني للحظة الموات، نهضت من أمامي، سارت إلى باب الغرفة، التفتتْ نحوي وعادت تقول:

اسمعي، الرجال في عز شهوتهم يعدون بكل شيء، فلا تصدقيهم، لا شيء صادق فيهم غير شهوتهم؛ لذلك خذي حقك مقدما، دعيه يكتب لك «الشيك» قبل أن يضع إصبعه عليك، لا أحد يدفع ثمنا لشيء قد حصل عليه مقدما.

خرجت من الباب وأغلقته خلفها، تركت لي مهمة القيام بالمساومة على جسدي، وهل كانت لي فرصة للمساومة وأنا أجلس في مكان غريب أرتدي ثوبا غريبا؟ لا أملك إلا أن أحدق في تمثال برونزي لامرأة عارية، يضوي وجهها في وهن، جسدها مستسلم مثل جسدي، ما كل هذا الصمت؟ هل انتهت الحفلة الصاخبة فجأة، أو أن هذه الغرفة معزولة عن كل الأصوات الخارجية؟ لا يهم، لن يجدي الصراخ، المهم هو أن أنجح في المساومة.

لم تغادر الرجفة جسدي عندما فتح الباب ودخل الغرفة، توقف بطوله الفارع وهو يعبث بشاربه الكث، شفتاه منفرجتان، وفتحتا أنفه متسعتان، وأذناه مائلتان إلى الأمام، لم ينقضّ عليَّ كما توقعت، ظل في مكانه يتشرب وجودي، يتأكد أنني أسلمت نفسي له طائعة بكامل كياني، ظللت جالسة في مكاني عاجزة عن التحرك، ألقى العباءة من على كتفه وخطا نحوي، وضع يده على كتفي، قال:

هذا الثوب يبدو لائقا بك، ولكن بالتأكيد ستكونين أجمل عندما تخلعينه.

كانت هذه ليلتي الأولى معه، كم ليلة مرت منذ ذلك الحين، وما حساب الليلة في عدد الأيام؟ الآن تجتاز سيارته البوابة، أضواؤها تمتد مثل سهمين، أعرف أنه لا يوجد معه إلا سائقه وحارسه الشخصي،

ويعلم أنني أجلس خلف نافذتي المضاءة عارية، أرتجف في انتظار لمسة منه.

لم تكن هناك حاجة إلى التظاهر بالمقاومة، ولم يضيع هو وقته في أي لمسة عاطفية، تمت الصفقة بموافقة كل الأطراف، لولا أنني لم أكن قادرة على مساعدته أو التجاوب معه. تكفل بتجريدي من ملابسي، وحملني للفراش كلعبة أطفال، ولم يتوقف كثيرا ليتأمل مفاتن جسدي، همه المؤكد كان اختراق هذا الغشاء الذي لم يصادفه من قبل، هبط عليَّ بكل ثقل جسمه، أوشكت أن أختنق، أغمضت عيني حين اخترقني الألم، تحول جسدي إلى كائن آخر، تغيرت خلاياه وانقطعت صلته بذكرى القديمة.

بعد فترة خفت حدة الألم من دون أن أشعر بالمتعة، يهتز السرير تحتي وأنا أنتظر أن يَحدث شيء ما، فورة الجسد التي حدثتني عنها رفيقاتي كثيرا، الانتفاضة التي تفوق أي نشوة، الذروة التي يتوق إليها أي جسد، لم يحدث أي شيء، حتى السائل الدافئ الذي ملأ داخلي لم يشعرني بأي دفء. لم أصرخ في نشوة ولا ألم، هو الذي صرخ، مسح بأصابعه الدم الذي سال بين فخذي، رفع أصابعه الملوثة باللون الأحمر وهو يصيح في انتشاء: هذا هو. وضع علامة منه على جبينه وعلى وجنتي، هاهي علامتي، انتصاره المدوي فوق جسدي، سار إلى النافذة، كأنه يبحث عن أحد يريه هذه العلامات. مسحت وجهي، وتأملت أصابعي ولم أصدق أن هذا بالفعل دمي.

ما حدث بعد ذلك كان متشابها، ظل يلهث فوقي، وضعت يدي حول عنقه في إشفاق، مسحت العرق المتجمع على جبينه، هل كان

يحاول أن يرضيني، أو أنها مبالغة منه في إثبات رجولته؟ تحولت مشاعري من الاشمئزاز إلى الخوف عليه، لم يكن الأمر يستحق هذا المجهود، تحسست ظهره، اقتربت بفمي من أذنه، طلبت منه أن يهدأ قليلا، رفع رأسه، حدق فيَّ قليلا، تساءل: هل تستمتعين؟ أغمضت عيني لأحبس دموعي، أومأت برأسي مجيبة، سمعته يتنهد في ارتياح: تريدين أن تطول المدة إذن، وعاد يلهث فوقي، أدرت رأسي، تركت له جسدي، ولكن يدي ظلت تتحسس ظهره ليهدأ، أريد منه أن يترفق بي قليلا.

نهض من فوقي أخيرا، ارتمي بجانبي وهو يلهث، حسبته سيلفظ أنفاسه، عاد يقول في إصرار: هل استمتعت؟ لم أعرف لماذا هو مصر على معرفة الجواب، كنت أريد فقط أن أغطي جسدي، أستر نفسي بأي غطاء، ولكنه رفع رأسه معترضا: ابقي هكذا، أريد أن أتأملك وأنت عارية، قلت في توسل: أرجوك، جذبت الغطاء، ولكنه لم يكن ينظر إلى جسدي، كان ينظر إلى بقعة أخرى من الدم فوق الفراش، نظر إليَّ في امتنان:

لم يكن في الأمر خداع، كنت عذراء حقيقية، وكنت أنا رجلك الأول، أنا الذي حولتك إلى امرأة.. أليس هذا مدهشا؟ ستتذكرين هذا طوال حياتك.

وقفت بجانب الفراش وأنا أستر جسدي العاري بثيابي، شعرت بالسائل اللزج وهو ينزلق على فخذي، قلت:

أريد أن أنصرف.

كان قد اكتفى مني، يعرف أنه غير قادر على المزيد، قال:

ادخلي الحمام، نظّفي نفسك، سأدع السائق يجهز لك السيارة.

كان رقيقا وراضيا ومستمتعا بانتصاره على جسدي الصغير.

في مرآة الحمام، لم أستطع التعرف على وجهي؛ شعري أشعث، وعيناي ملوّثتان بالسواد، وشفتاي مقلوبتان إلى الخارج، وأنفي مفلطح، من الذي شوهني هكذا؟ داريت وجهي، تمنيت أن أطفئ النور واغتسل في الظلام، كنت فقط أريد أن أتخلص من السائل اللزج الذي ينزلق على فخذي، مسحته بسرعة، أخفيت جسدي داخل ثيابي الأصلية، الثوب الفلاحي الزائف، خرجت إليه، كان واقفا بجوار مكتب صغير في نهاية الغرفة، لم أفطن لوجوده من قبل، اقترب مني مبتسما وهو يقول:

لقد نسيت أن تطلبي مني شيئا.. ألم تنبهك «ثريا» إلى ذلك؟

كان يلوح بورقة صغيرة في يده، «الشيك» الذي نسيت أن أطلبه، قلت:

نبهتني.. ولكني خجلت.

ضحك في صوت أجش:

إنها متخصصة في إفساد كل ما هو بريء، لقد ضاعفت المبلغ الذي كنت سأعطيه لك لو أنك طلبت، ربما كانت براءتك هي التي جعلتك تتصرفين بشكل أفضل.

ترددت قليلا وتناولت منه الشيك، أمسك وجهي وقبلني على خدي بخفة، قال:

اتصلي بي إذا مللت من هذا الولد، أستطيع أن آخذك منه رغما عنه، ولكني أريدك أن تأتي بمزاجك.

وضع رأسه على الوسادة، أغمض عينيه وبدت على وجهه ابتسامة راضية، سرت في أروقة المنزل الصامت. كان السائق ينتظرني في نهاية الدرج، لم يعاملني بوقاحة، ولم يبد أي إشارة احترام، تعامل معي بجمود وحيادية باردة، سبقني لمقعده في السيارة، وأشار لي أن أجلس في الخلف. كان المقعد باردا، مغطى بندى الليل البارد، وأصبحت السماء رمادية، انتشر الضوء ببطء شاحب، حطت على الحقول الخضراء غلالة هشة من أنفاس الفجر، شفافة مثل بكر لم تمس. كنت أعرف أن هذا السائق الصامت المحايد يراقبني، لم أرده أن يرى دموعي، ظلت السيارة تعلو وتنخفض بي وأنا أحدق ذاهلة في كل ما يحيط بي، كان يعرف الطريق جيدا إلى بيت «ثريا»؛ الطريق الذي لم أستدل عليه بعد.

حملني المصعد إلى باب شقة «ثريا» للمرة الثانية، أصبحت امرأة مختلفة عن التي جاءت من قبل، عليَّ أن أضغط على الجرس طويلا حتى تستيقظ وتستجيب لي، لم أشعر بشفقة لإقلاقها، لم يكن عليها أن تنام بعد كل ما فعلته بي، لا مفر من الانتظار مهما طال، لا يوجد مكان آخر أذهب إليه، وأخيرا فتحت الباب. بدت كعادتها عارية وشعثاء كأنها قد انتهت للتو من مضاجعة، حدقت فيَّ كأنها تحاول أن تتذكرني، تأملت وجهي وشعري، مدت يدها ومررتها على جسدي، قالت أخيرا:

أنت أخيرا.. لم أتوقع عودتك الليلة.. هل أنت بخير؟

قلت وأنا أتنهد: مازلت على قيد الحياة.

لوحت بيدها وسارت مسرعة، كانت في حاجة إلى العودة للفراش، دخلت غرفتها من دون أن تبالي بإغلاق الباب، كانت الشقة في حالة واضحة من الفوضى؛ زجاجات خمر وأطعمة وحشايا ووسائد، هل كانت «ثريا» تمارس الجنس في الصالة؟ سرت إلى الغرفة التي أقيم بها، توقفت وأنا أتطلع إلى جسد «ثريا» العاري، لم تكن وحدها في الفراش، بجانبها رجل عار، مستغرق في النوم، توقفت مذهولة وأنا أرى «أكرم» يضع ذراعه العارية على نهدها، يضغط عليه بحركة لا إرادية، ظللت أتطلع إليهما مشدوهة، عاجزة عن الحركة، ماذا كنت أعتقد؟ ماذا كنت أنتظر؟

تقلصت معدتي، أوشكت أن أتقيأ فوق سجادة الغرفة وعلى الفراش الذي يناما عليه، عدوت مسرعة للحمام، دفنت رأسي في «التواليت» وحاولت أن أفرغ كل ما في بطني، لم يكن فيها إلا مجرد عصائر صفراء اللون، ولكن ألم معدتي كان قاسيا، أخذ يرج جسدي من دون أن أتمالك نفسي. كنت مبللة بندى الليل وعرقي وعصارة جسدي وبقايا عرق الرجل الذي امتطاني، غلاف من السوائل الباردة يجعلني لا أكف عن الارتجاف، جلست منزوية في ركن من «البانيو» الخزفي وتركت الماء يتساقط على جسدي، لم أهدأ، ولم تتوقف رجفتي، ولم يغسلني الماء من الوسخ الذي أشعر به في داخلي.

لا أدري كيف انتهت هذه الليلة، ولكن «ثريا» كانت تهزني لأستيقظ، كنت متكومة على فراش مبلل، وثيابي مبللة، نظرت إليها في دهشة، رأيت صدرها المفتوح، وجسدها العاري لا يستره إلا

«روب» صغير، جلست في الفراش وأنا أجذب الغطاء على جسدي، تتطلع إليَّ ببساطة، كأن الأمس لم يكن، قلت:

لقد رأيته عاريا في فراشك.

قالت في استهزاء:

تعنين «أكرم البدري».. وماذا في ذلك، أنت أيضا كنت عارية في فراش رجل آخر.. هيا انهضي معي إذا كنت تريدين تناول الطعام.

غادرت الغرفة، لا يستحق الأمر حتى النقاش، سألت نفسي في حرقة: لماذا جاء بي من الإسكندرية إذن؟ هل لمجرد أن يقدمني إلى الرجل العجوز؟ لماذا جعلني ألعب هذا الدور المهين؟ لماذا لم يحتفظ بي خالصة لنفسه؟ هل أراد ألّا يربط نفسه معي بأي التزام؟ نهضت من فراشي وسرت خلفها، تطلعت إلى فراشها، لم يكن متكوما عليه سوى الملاءات، وضعت أمامي الأطباق الباردة نفسها، قالت بالدرجة نفسها من الاستهانة:

لا تغرقي نفسك في هذه المشاعر القديمة، لم يعد لها وجود، كلنا مررنا على «الباشا»؛ تيس عجوز مازال متمسكا بحق الليلة الأولى، وكلهم يرضخون له، ويهللون من أجل فحولته. هذه هي اللعبة، الجسد مقابل المصلحة، ولا يهم لمن ينتمي هذا الجسد أو بماذا تشعر صاحبته.

حاولت أن أهدأ وآكل، لم يحدث شيء ذو بال، عليَّ فقط أن أحسبها بطريقة أخرى، كل الأطراف متعادلة، الكل استفاد ولا أحد يلوم الآخر، حاولت أن أقنع نفسي بأن شيئا لم يتغير، وأنه لا أحد

يشعر بالوجع الذي بين ساقي، وضعت الشيك أمام «ثريا»، تأملته وهي تلوي شفتيها، قالت:

بداية قوية، كان ثمني أقل من ذلك بكثير، سنهبط الآن ونشترى لك ثيابا لائقة، نوع من الاستثمار.

ـ أعرف الأسعار الحقيقية للثياب الثمينة، وهذا المبلغ هو كل ما أملك، لن يبقى منه شيء إذا اشتريت ما أريد، لا تنسي أنني مفلسة في هذه المدينة.

قالت «ثريا» وهي تصب الشاي:

لن نمس هذه النقود، سأقودك إلى المحال المناسبة ونرسل الفواتير إلى «أكرم البدري».

«ثريا» امرأة مختلفة، تدرك الدور الذي تلعبه، لا يهمها من يشاركها الفراش مادام هناك ثمن مناسب؛ ربما من أجل هذا وضعني «أكرم» معها في المكان نفسه، أراد أن يعلمني ألَّا أضع كل رهاناتي على رجل واحد، خصوصا عليه. كانت جولتي القصيرة مع «ثريا» وسط الشوارع والمحال كافية لتظهر لي كم كنت ساذجة حين اعتقدت أنني يمكن أن أكون له وحده، ولكن هل أستطيع حقا أن أصبح صورة منها؟

لم أره إلا بعد أيام طويلة، توارى عن نظري حتى يتبدد من داخلي بقايا غضبي عليه، ويتحول إلى شوق لرؤيته. كانت «ثريا» قد سافرت لمدة يومين في نزوة مع رجل مجهول، وعندما دق جرس الباب وجدته في مواجهتي. كعادته كان ساحرا وساخرا، يشع من وجهه المستدير ذلك البهاء الصبياني، شفتاه الرفيعتان تتحركان بكلمات اعتذار خافتة لا تكاد تسمع، وجبهته البارزة قليلا لامعة، تسبقه في

الدخول وتخفي نواياه، كنت أريد أن أتراجع إلى غرفتي وأغلق بابي من دونه، ولكني ظللت مسمرة أمامه، تملصت من أحضانه وأنا أقول له في حنق:

بعد كل ما فعلته بي في تلك الليلة.. عدت لأجدك نائما في فراشها.

قال في سخرية:

هذا لا شيء، أنا أنام في فراش زوجتي أيضا.. أحيانا فقط.. لا أود النوم في فراش خال.

جلس على أحد المقاعد فجلست أمامه، حانت لحظة التفاوض، وليس في مصلحتي أن أؤجلها، قال:

أحيانا تكون البدايات خاطئة، كنت غاضبا في تلك الليلة ونفست غضبي في جسد «ثريا». الله خلقها من أجل هذه اللحظات، فلننس كل ما حدث، ولنبدأ من جديد، بلا أخطاء هذه المرة، سنذهب معا للساحل الشمالي، أنا وأنت فقط لمدة ثلاثة أيام، خالية من العمل، ومن زوجتي، يمكننا أن نتفاهم على كل شيء.

كان عرضا ساحرا، أهم ما فيه أننا سننسى الليلة تلك التي تمزقت فيها أشياء كثيرة؛ غشاء بكارتي وثقتي به، جعل من ابتسامته الساحرة راية بيضاء يرفعها أمام عيني. ظللت جالسة صامتة أمامه، تذكرت كلمات «ثريا» ألا أضع رهاناتي على رجل واحد، ولكني كنت في حاجة إلى أن أجرب؛ إلى هدنة حتى يمكن أن نتفاهم، ربما أقلل من إحساسي بالخسارة، قلت:

متى؟

ـ اليوم، الآن، السائق ينتظر في السيارة أسفل العمارة.

حقيبتي صغيرة، كحقائب الغجر، حيث لا مستقر، منذ أن غادرت غيط العنب وكل الأماكن سواء. نهضت واقفة، يبدو أنه فوجئ باستسلامي السريع، نهض واقفا وحاول احتضاني، ولكني رفعت يدي لأمنعه وأنا أهتف في حسم:

ليس هنا.. ليس في المكان الذي ضاجعت فيه «ثريا».

ذهبت إلى الغرفة التي أقيم فيها، بدأت اللعبة وعليَّ أن أمضي فيها إلى النهاية، جلست أمام المرآة لتهدأ أنفاسي، تأملت وجهي حتى لا أجده وقد تغير عليَّ مرة أخرى. لم تكن حقيبتي قد تغيرت، وضعت فيها بعضا من ثيابي الجديدة، قلت له في إيجاز: أنا جاهزة، ترك لي الفرصة لأسير أمامه، وحملنا المصعد معا، لم يحاول الاقتراب مني.

كانت السيارة في انتظارنا أمام باب العمارة، السائق يقف مستندا إليها. هرع مسرعا ليتناول الحقيبة من يدي، رفع رأسه فرأيت وجهه المائل إلى السمرة وملامحه المتناسقة وأنفه البارز، كان يبدو منكسر الخاطر، لم يحدق فيَّ ليتأمل وجهي، وضع الحقيبة في خلفية السيارة، وأمسك بالباب مفتوحا حتى أركب، قال «أكرم» وهو يركب من الناحية الأخرى:

إلى الساحل الشمالي يا حسن.

بدا السائق مترددا كأن الأمر كان مفاجئا له، عض على شفته وظل واقفا عاجزا عن إغلاق باب السيارة للحظات، لم يلحظ «أكرم» ذلك

ولكني لاحظته؛ كانت رحلة لم يردها، فكرت في نفسي، لا بد أنه يكرهني، التقت عيني بعينيه، كانت فيهما نظرة حزينة بلا لوم ولا ضغينة، تحركت بنا السيارة.

تركنا طرقات المدينة المزدحمة، وامتد أمامنا الطريق الصحراوي، كان «أكرم» يتحدث وأنا أستمع إليه بنصف أذن، مهما قال، لم يكن قد حقق لي أي وعد، اكتفى فقط بأن باع جسدي لسيده الأكبر، وليتني أعرف الثمن الذي قبضه، تحدث طويلا عن صفقاته وأعماله، كنت قد استمعت إليه كثيرا، ولم يعد هذا يبهرني كما يتصور، قلت له السؤال الذي حيرني طويلا:

ما أهمية هذا المدعو الباشا؟ لماذا تخافونه جميعا وتحرصون على إرضائه إلى هذه الدرجة؟

لا أدري لماذا فاجأه السؤال، أشاح بوجهه عني وهو ينظر إلى الصحراء، هل كان خجلا من الصفقة التي عقدها على حسابي؟ حسبته لن يجيبني، ولكنه بدأ يتحدث في تردد وبصوت بالغ الخفوت:

أنت محقة في هذا السؤال، لقد رأيتني في موقف صعب لا أحب لأحد أن يراني فيه، لن أقول لك إنه يتحكم في كل أعمالنا وفي السوق التي نلعب فيها، ولن أقول لك إنه يمكن أن يقضي على أي واحد منا بضغطة زر، ولكنه أقوى من ذلك كله، إنه صديق شخصي لرئيس الدولة، يقال إنه شريك لأولاده في أعمالهم، ربما كان هذا صحيحا، وربما يشيع ذلك حتى يرهبنا جميعا، ولكنه ناجح في ذلك حتى الآن.

توقف عن الكلام، أكان يحاول أن يخيفني، أم يقدم تبريرا لتخليه عني؟ تشاغلت بتأمل رأس السائق الذي يقود السيارة. لم يبد عليه

أنه كان يسمعنا، كان يقود بمعدل ثابت ككل السائقين المحترفين، ولكني لا أدري إن كان الطريق يثقل عليه كما هو الحال معي. ألتفت أراقب الصحراء، كنت أريد أن أصرخ غاضبة في وجه الرجل الذي يجلس بجانبي، ولكن لم أرد أن يسمع السائق شيئا عن المهانة التي تعرضت لها.

تظاهرت بالنوم، لم يكن أمامي إلا أن أفعل ذلك لأستجمع أشتات نفسي. استيقظت والسيارة تعدو على طريق الأسفلت المحاذي للبحر، دخلت بنا إلى أحد المنتجعات الممتدة في عمق الشاطئ، مبانٍ بيضاء، راقدة في وداعة الحمائم على الشاطئ الأزرق، طالما تطلعت إليها بأسى، وأنا أمرق من أمامها في سيارات «السرفيس»، لم تكن تخصنا، ولكن تخص آخرين أكثر أهمية منا، لم أصدق عيني عندما رأيت المبنى الأنيق الذي توقفت أمامه السيارة، كان مكسوا بالأحجار البيضاء، حلما حقيقيا يقف متجمدا في انتظار قدومي، نزلت مبهورة الأنفاس، اجتزت حديقة صغيرة زاهية الخضرة، وأزهارا وشجيرات قصيرة، وحمل حسن السائق حقيبتي وسار خلفي صامتا، وهب الهواء القادم من البحر على وجهي باردا وصافيا، أطار خصلات شعري، وبعث في داخلي بالثقة. أنا سيدة هذا المكان، تقدمت إلى الداخل، الصالة بها أثاث فاخر، وهناك مساحة للفراغ ولنباتات الظل، صعدت مسرعة إلى الدور الثاني، عدة غرف للنوم، اخترت واحدة منها لها شرفة تطل على البحر، وقفت فيها أتأمل أول غروب حقيقي للشمس، وهبات الهواء تتخلل خلايا جسدي.

في الأسفل كان «أكرم» واقفا يتحدث مع السائق، حمل إليَّ الهواء بعضا من كلماتهما، يقول السائق:

سيادتك لا تحتاج إليَّ الليلة، سأعود إلى القاهرة، أدبر أمور ابني وأجد من يرافقه ثم أعود سريعا. الفيلا هنا جاهزة من مجاميعه، من المؤكد أنك لست في حاجة إليَّ الليلة.

قال «أكرم»:

لا تستطيع أن تكون لك قدم في الشرق وأخرى في الغرب، تزوج يا حسن هذا أفضل لك، ولابنك.

قال السائق: التساهيل على الله.

هز «أكرم» رأسه موافقا واتجه إلى الداخل. أحسست بالراحة وأنا أرى السائق يتجه إلى السيارة، كأن رحيله يعني أنني قد امتلكت المكان، جاء «أكرم» ووقف خلفي، التصق جسده بظهري، أحاطني بذراعيه، فرد كفيه وقبض بهما على ثديي، كان جسدي منهكا من طول السفر، وجائعا من طول الانتظار، في حاجة إلى من يخرجه من وحدته، لم يكن الوقت ملائما للوم ولا للشكوى من الخديعة.

انساب ماء «الدش» على جسدينا معا، تغسلنا وتطهرنا وتعيد ربطنا معا، أمسك منشفة واحتوى وجهي بين يديه وجفف شعري. وقف أمامي بجسده العاري، ما أجمل أجساد الرجال وهي تضوي في عتمة الغرف المغلقة، مليئة بالوعود، وحافلة بالرغبة. شد جسدي إليه بعضلاته القوية، ملأ فمي بأنفاسه الحارة، شعرت بطرف لسانه وحفيف أسنانه على جلدي، وظل بطنه المستدير يضغطني إلى أسفل، يجعل كل عضلات الحوض تنفتح رغما عني، بينما تمسك قبضته بمؤخرتي في إحكام، أعض بفمي على منابت الشعر في صدره، ويقتحمني هو بعنف ورقة، أدرك منذ اللحظات

الأولى أن ثديي هما نقطة ضعفي، ظل يديرهما بين أصابعه ويضغط على الحلمتين النافرتين ويدفع بي إلى جنون الرغبة، حتى عندما يهدأ، وينام قليلا، يبقى الضياء المعتم نائما على جلده، يختفي بين طياته إلى أن يتمطى بجانبي على الفراش. كانت هذه تجربتي الأولى؛ تجربتي الحقيقية التي أشعر فيها بالامتلاء، أصبح الجو شديد البرودة، ومرقت الريح في صوت عال ولكني كنت مفعمة بالدفء، بطنه ملتصق بظهري، وذراعه تحيط بي، وأصابعه تمسك بنهدي في إحكام، ننام لنستيقظ، لا يسمح لنا الوهج الذي يشتعل في داخلنا بالاستغراق في النوم لفترات طويلة، ما إن تبدأ البرودة في التسلل إلى أطرافنا حتى ننهض، ويدخل جسدانا في إيقاع مشترك لنشتعل من جديد. كان الفجر قد بدأ يبزغ، وذابت الظلمة في ماء البحر، جلسنا على الفراش منهكين نراقب مولد الضوء المشبع بالقطر من بين حركة الموج، موجات متتابعة كل واحدة بلون جديد، كان يحس بالجوع، تبعته؛ برغم أن جسدي كان شبعانَ، جلسنا متجاورين عاريين نتناول الطعام، كان شهيا، مادمت أجلس عارية ملتصقة به فكل شيء شهي، قلت له:

أريد أن أظل في هذا المكان ولا أغادره أبدا، أريد أن أكون وحدي معك، كما وعدتني، لي مكاني الخاص معك، لا أريد «ثريا»، ولا أريد أن أعود إليها، ولا أريد أن أراك مرة أخرى في فراشها مرة أخرى.

قال ضاحكا وهو يقضم قطعة رقيقة من الجبن الرومي:

«ثريا» كانت غلطة عابرة، أنا لست متعودا عليها بالمناسبة؛ لأن فيها رائحة كل معارفي، والعمارة التي تسكن فيها يوجد فيها بعض

من أصدقائي؛ لذلك هناك مبرر للتردد عليها أحيانا، من دون أن تتسرب الأخبار إلى زوجتي.

قلت في فزع: هل يعني هذا أنه لن يكون لي مكان معك أبدا؟

رد في سرعة: من قال هذا؟ سيكون لنا مكاننا الخاص، ولكن خارج القاهرة، في ضاحية ما.. المهم أن أنجح في إخفاء أثري جيدا. هذا وضع مؤقت، ثقي في ذلك، بعد كل ما حدث بيننا الليلة، لا أعتقد أنني أستطيع الاستغناء عنك أبدا.

نمنا قليلا واستيقظنا ونحن أكثر نشوة، كانت ليلة حب متصلة تمنيت ألَّا تنتهي، لم يكن أمامي إلا أن أصدقه، كانت رغبتي فيه أقوى من أن أقاومه، ضعفت إرادتي، أصابتني النشوة المتكررة بالوهن، كان الحل الوحيد أن أضع جسده تحت أسر المتعة، أصل به إلى ذروة لم يعرفها مع امرأة أخرى، لم تكن لي الخبرة الكافية، ولكن خلايا جسمي كانت مفعمة بشهوة جامحة، لن يضاهيها جسد آخر؛ المتعة هي سلاحي الوحيد.. والأخير.

لم تستغرق الأيام الثلاثة إلا نصف يوم، وربما أقل، جلسنا صامتين والسيارة تقودنا إلى القاهرة، كان قد دسّ في حقيبتي حفنة من الأوراق المالية، عليها مآذن وأقنعة فرعونية، لا أدري إن كان يدفع لي لأنه كان مسئولًا عني، أو أن هذا ثمن لمتعته. لم أعترض، كنت أحس بغصة ولكن جسدي الشبعان وحقيبتي العامرة قد أقنعاني أن أؤجل كل شكوى.

ولكن وعوده ظلت تتأجل، لم يكن جسدي قادرا على إرغامه أو رفضه، وبيت «ثريا» مثل شبكة عنكبوت من الصعب الإفلات منه، تسري في أرجائه ثعابين من كل صنف، ولكني حافظت على جسدي،

لم أهبه إلا له، ولم أستجب إلى أحاديثها عن الثعابين التي لا يمكن الاستغناء عنها، لم نفعلها في القاهرة، ولكن السائق حسن كان يأتي بسيارته السحرية، ويقودني دوما إلى عالمنا الخاص؛ حيث ينطفئ جوعي، وتنحل إرادتي، في كل مرة كنت أريد أن أرفض، أريده أن يأتي بنفسه، على الأقل؛ ليأخذني، ولكن ما إن أجد السيارة واقفة في انتظاري حتى يشتعل جسدي بالرغبة.

حدث هذا اليوم، كما يحدث في كل مرة، عندما هبطت كان حسن واقفا بسيارته أمام باب العمارة، لم أجلس في المقعد الخلفي. جلست بجانبه، كانت الرحلة سخيفة بما يكفي، وكنت أريد أن أشعر برفقة شخص ما. كان يبدو متعبا، جاء للتوّ من الإسكندرية، وكانت تعليماته أن يحملني عائدا مرة أخرى إلى الساحل الشمالي، أحسست بالأسف من أجله، قلت له:

أنا آسفة؛ لأنني السبب في إرهاقك.

نظر إليَّ بوجهه الأسمر الغريب، بدا كأن كل واحد منا يرى الآخر للمرة الأولى، لا ألمح في عينيه نظرة لوم ولا عتاب، قال ببساطة:

هذا أكل عيشي.

شعرت بالخجل من نفسي، نحن الاثنين نأكل العيش من مصدر واحد، ولكن شتان بين عيشي وعيشه. كانت الشوارع مزدحمة وخانقة كالعادة، الطريق الوحيد الذي ينفذ إلى الطريق الصحراوي مغلق بأكداس من الشاحنات. ظللنا واقفين، عاجزين عن التقدم أو التراجع، سمعت صوت جرس هاتفه النقال، نظر إليَّ معتذرا، تناول الهاتف من جانبه، حسبت أن «أكرم» يسأل عن سبب تأخرنا،

أو موقعنا الحالي، ولكني سمعت امرأة تتحدث من الجانب الآخر؛ كان صوتها حادا وغاضبا حتى إني سمعت نبراتها واضحة، تختلج من شدة الانفعال. حاول أن يهدئها، ولكنها ظلت تواصل الصراخ، لم يجد بُدّا من إغلاق الهاتف، وظل يحدق إلى الأمام في عجز حقيقي. انفتح الطريق، بدأ يقود السيارة وهو خارج عن الوعي، قلت له فجأة:

هل تريد أن نعود؟

التفت إليَّ وكأنه قد اكتشف وجودي بجانبه، أشار إلى الهاتف وهو يقول:

إنها أخت زوجتي، تقوم على رعاية ابني الصغير عندما أكون خارج القاهرة، وهي في العادة هادئة، ولكن الارتفاع المفاجئ لحرارة الولد جعلها تفقد أعصابها.

قلت في بلاهة: وأين زوجتك؟

قال: هذه هي المشكلة، لقد ماتت منذ عدة شهور، تركته معلقا في رقبتي ومضت.

ظللت أحدق فيه ساهمة، أراقب يده وهي تحرك عجلة القيادة، قلت في تصميم:

لابد أن تعود، وتذهب به إلى الطبيب، لا بد أنه في أمس الحاجة إلى وجودك.

قال في حيرة: ليس لدينا وقت.. سنتأخر وسيغضب مني البيه.

قلت: ستندم أكثر لو لم نرجع، اترك لي غضب البيه، سأقول إنني السبب، سنفكر في عذر ما، استدر وخذ طريق العودة.

كانت لهجتي حازمة، وكان في أمسّ الحاجة إلى هذا الأمر، استدار فجأة بالسيارة ودخل إلى الجزيرة الفاصلة بين الطريقين. كان الطريق العكسي مفتوحا، لم نتبادل كلمة واحدة، خضنا كل النقاط المزدحمة، لم أنظر في ساعتي، لم أضغط عليه بأي إيماءة، تركنا الشوارع، بدأت الحارات تضيق من حولنا، والبيوت تزداد ضآلة وبؤسا، ظهر غيط العنب أمامي من جديد، كأنني في طريق العودة لبيتنا بعد يوم متعب، وسيخرج زوج أمي في أي لحظة ولعابه يسيل. واصلت السيارة تقدمها، وحسن لا يرفع يده من فوق النفير، يحاول أن يزيح أكوام البشر وعربات «الكارو» التي تعترض الطريق، ظهرت أمامنا حارة ضيقة كشق الثعبان، فرجة ضيقة بين البيوت المتلاصقة والمواجهة، قال:

لا يمكن التقدم بالسيارة أكثر من ذلك، أرجوك انتظريني هنا، سأذهب وأعود سريعا.

فوجئت بنفسي وأنا أقول في حزم: سآتي معك.

نظر إليَّ في فزع، ولكني كنت قد هبطت من السيارة، لا أدري لماذا أفعل ذلك. أحسست فجأة أنني أعود إلى عالمي القديم، عندما كان جسدي بكرا، ورأسي ملئ بالأحلام، لم يكن هناك وقت نضيعه في النقاش، سار وسرت خلفه، دخلنا شق الثعبان، أطلت العيون علينا، تتفحص جسدي وتتأمل ثوبي، لم أعد البنت البائسة القديمة، كنت أرتدي ثوبا فاخرا، ولكني في داخلي كنت أكثر بؤسا، قالت لي بنت صغيرة تحمل طبقا من الفول: الله.. أنت حلوة يا أبله. خففت من توتري، سار مسرعا وأنا أعدو خلفه، كان بيته صغيرا كبقية البيوت،

لم يدعني إلى الدخول ولكني اندفعت معه، صعدنا عدة درجات، وفتح باب شقة صغيرة، وقفت مترددة، أحسست أني قد تجاوزت حدودي، اقتحمت خصوصياته من دون داع، سمعت صوت طفل وهو يصرخ في وهن: حسن. وجدت نفسي أخطو داخلة من باب الشقة، رأيت غرفة النوم في مواجهتي، وطفلا صغيرا، بديع الوجه متعلقا برقبة حسن. انتابتني مشاعر غريبة، كان وجه الطفل محمرا بشدة، مغمض العينين، يحتضن أباه وقد أحس أخيرا بالأمان، ظهرت من ركن الغرفة امرأة أخرى، أكبر سنا ونظرتها أكثر حدة، لا بد أنها شمت عطري، اتجهت نحوي مباشرة، ضربت صدرها في استنكار وهتفت:

من هذه المحروسة التي جاءت معك؟

جذب أحد الأغطية ليحيط بها جسم الولد، وقال لها في حدة:

احفظي لسانك، إنها زوجة البيه.

انكمشت المرأة من فورها، ولكنها ظلت ترمقني في شك، قال وقد فرغ من لف الولد:

سآخذه إلى الطبيب

وسار خارجا، وسرت خلفه، سرنا عبر الشارع الضيق مرة أخرى، فتح الغلام عينيه وألقى عليَّ نظرة غائمة، وصلنا أخيرا إلى السيارة، فتح الباب واستعد لوضعه على المقعد الخلفي، قلت له:

سأجلس بجانبه.. أخشى أن يسقط من فوق المقعد.

قبل أن يعترض كنت قد انزلقت بجانبه، ووضعت رأسه على

حجري، فتح عينيه، نظر إليَّ مستغربا، أدخلت أصابعي في خصلات شعره فأغمضها مستسلما، كان مبللا ومتشابكا وخشنا بعض الشيء، تأملت ملامحه، تشبه أباه ولكن بصورة أكثر رهافة، هل كان يمكن أن أنجب طفلا مثل هذا، أن أترك عنان جسدي براحته لرجل ما، أثق أنني سأقضي معه عمري، فيهبني مثل هذا الطفل الواهن القوي، أحرسه من الهواء الطائر وأغذيه من حبي ليصير رجلا؛ الرجل الوحيد الذي سأمتلكه؟ أحسست بحنين وجوع، بدا جسدي معطلا ولا أهمية له، الرأس النائم في حجري ساخن، يبعث في داخلي نوعا من الدفء.

لم تسر السيارة طويلا، توقفت أمام أحد المساجد القديمة، حمل حسن طفله وسار مسرعا، خلف المسجد كان هناك بناء حديث أبيض اللون ملحق به عيادة طبية، استقبلتنا ممرضة سمينة وطلبت منا الانتظار. كان ثوبي، وزينتي الصارخة لا تتناسبان مع جو المكان، والنساء العابرات يرمقنني بنظرات مستطلعة، ظللت جالسة بجانب حسن، والطفل نائم على ذراعه، هل يمكن أن يعتقدوا أننا مجرد أسرة صغيرة؟ هل كان من الممكن أن تكون لي أسرة كهذه، قليلة الدخل بحيث لا تجرؤ إلا على الذهاب إلى مثل هذه العيادات الخيرية؟ هل كان عليَّ أن أتقبل هذا المصير بجذل وسعادة؟ خرجت الممرضة وهي تشير إلينا بالدخول، نهض حسن ورأيت نفسي أتبعه، لا أدري لماذا وجدت نفسي مرتبطة بوجه هذا الطفل الغارق في الحمى. وقفت في ركن الغرفة مرعوبة وخائفة. كان الطبيب شابا صغيرا، أعتقد أنه لم يرنا؛ لأنه نظر إلى الطفل وعليه علامات الانزعاج، وضعه على منضدة الكشف، قاس نبضه وسرعة قلبه ودرجة حرارته، فعل ذلك بسرعة ليصل إلى نتيجة حاسمة، التفت في انزعاج نحو حسن وهو يقول:

لقد تأخرتم كثيرا.. يجب أن نخفض درجة الحرارة فورا.

أشار الممرضة التي تقف بجانبه، تقدمت وحملت الطفل، قال:

ضعيه في حمام مثلج لنخفض درجة الحرارة، بعد ذلك يمكن للأدوية أن تعمل.

التفتَ نحو حسن وهو يكمل كلامه:

ابق معي لأصف لك كيف تستخدم الدواء، يكفي أن تذهب أمه معه.

هرعت خلف الممرضة، كانت تحمل الطفل وتمضي مسرعة، دخلت بسرعة إلى حمام جانبي ضيق، فيه حوض معدني ملئ لمنتصفه بالماء. طلبت مني أن أخلع عن الطفل ثيابه بسرعة، كان صغيرا وضعيفا غير قادر على إبداء أي مقاومة، أحسست بالشفقة عليه وأنا أرى الممرضة تخرج قوالب الثلج وتضعها في الحوض المعدني، قبل أن أعترض كانت الممرضة قد حملت جسده العاري الضئيل، ووضعته وسط الثلج بلا تردد. صاح في فزع، حاول أن ينهض، يتشبث بأي شيء، أمسكته الممرضة في إحكام، غمرت جسده كله في الماء البارد، وبدأت تضع قطع الثلج على رأسه أيضا، كانت قاسية، بدأ اللون الأحمر ينسحب من جسده، أصبح شاحبا ومستسلما، ظللت واقفة، جامدة ومفزوعة، قالت لي الممرضة محاولة أن تهون عليَّ:

يبدو أن هذا هو طفلك الأول، قلبك خفيف وخبرتك قليلة.

صرخت في جزع: ولكنه يرتجف.

قالت في هدوء: سوف ينجو.

ظللت أرتجف معه، أشعر بالبرودة تزحف على جسده، تغير لون جلده ولم يعد قادرا حتى على الصراخ، شهقت في ارتياح وهي ترفعه أخيرا، لفقته في الأغطية وضممته لصدري، كان طفلي في أمس الحاجة إليَّ، قالت الممرضة: الآن يمكن لجسمه أن يستجيب للدواء، وقبل أن أتحرك كانت بالفعل قد فكت «البوسا» من الدواء ودسته بإحكام في فتحة الشرج، خرجت وأنا أحمله بين ذراعيَّ. كان حسن واقفا في انتظاري، لونه مخطوف كأنه تعرض هو أيضا لعملية التثليج، سرنا معا، توقف ليشتري الدواء المكتوب في «الروشتة»، مرة أخرى جلست بجانبه في المقعد الخلفي، كان الشحوب والبرودة قد بدآ يغادران جسده، والدفء يعود إليه، وأنفاسه اللاهثة تصبح طبيعية، قلت له مطمئنة:

إنه بخير، لقد تحسن أخيرا.

امتلأت عيناه بالدموع، توقفنا مرة أخرى أمام شق الثعبان، تناول مني الطفل واحتضنه، قال:

أرجوك.. ابقي هنا وسأعود سريعا.

قلت: يمكنك أن تبقي للعناية به، أستطيع أن أجد طريقا إلى الساحل وحدي.

قال في فزع: هل تريدين فصلي من العمل؟

قلت له: لا تخش شيئا، سأنتظرك وأحمي ظهرك.

نظر إليَّ في امتنان، حمل ابنه واختفى في شق الثعبان.

لم نصل إلى المنتجع إلا ليلا، لم أشعر بالرحلة الطويلة، ولم يكف حسن عن الحديث عن زوجته وقصتها الحزينة، كان السرطان قد أكل خلايا مخها، تماما بعد أن أنجبت طفلها الصغير، لم تتح لها أيام العذاب المتواصلة الفرصة لترضع صغيرها ولو قطرة واحدة من صدرها. كان فراقها عذابا حقيقيا، إلى درجة أنه لم يفكر في الزواج مرة أخرى، حتى لو من أجل رعاية الصغير. كبر في داخله إحساسه بالذنب؛ لأنه لم يستطع أن ينقذ أمه من الموت، وددت لو أمسح الدموع التي تسيل على وجنتيه، أو آخذه في أحضاني، لو أن أحضاني كانت لائقة بحزنه..

كان البحر غاضبا يهدر عاليا، وتصورت أن «أكرم» سيكون بدرجة غضبه نفسها. بقي حسن في الخارج، كان الأمر صعبا عليه، ولن يستطيع الكذب بشكل جيد، لم يكن «أكرم» وحده، كانت هناك أصوات تشاركه ضحكاته، وقفت مترددة، كنت أعتقد أن هذا عشنا الخاص، لا يعرف سره سوانا، قال لي أكثر من مرة إنه شديد الخشية من تسرب الخبر إلى زوجته وأهلها، لم أدر ماذا أفعل، هل أستدير وأنصرف، أختفي كأني شبح لا وجود له؟ شعرت فجأة أنني لم أعد في حاجة إلى البقاء في الظل أكثر من ذلك، ليس لديَّ ما أخسره، تقدمت حتى توقفت أمامهم جميعا، كانوا ثلاثة بالإضافة إلى «أكرم»، ليست معهم امرأة أخرى، كنت المرأة التي ينتظرونها، أمامهم منضدة مليئة بالزجاجات والكئوس وأطباق «المزة» المتنوعة، رفع «أكرم» رأسه ونظر إليَّ قائلا:

أخيرا حضرت، لقد حسبنا أن السيارة انزلقت بكما في منخفض القطارة.

انفجر الباقون في ضحكات صاخبة، لم أشاركهم الضحك، المهم أنه لم يكن غاضبا كما تصورت، كنت متعبة، لم أعرف ماذا يريد مني بالضبط، أأنتظر في غرفتي حتى ينصرفوا، أم أن عليَّ أن أجلس بينهم وأوانسهم؟ أومأت لهم برأسي من دون كلمة وانصرفت من أمامهم. انسحبت إلى الغرفة الداخلية، ومن خلال النافذة رأيت حسن جالسا داخل السيارة يتحدث في الهاتف، ترى كيف حال ابنه الآن؟ ظللت واقفة أراقبه من دون أن يراني، ولكن «أكرم» دخل الغرفة ووقف أمامي. كان وجهه مختلفا وتعبيراته غاضبة، وعيناه تحدقان فيَّ بقسوة، لم يحاول الاقتراب مني، قال من بين أسنانه:

كيف تجرئين على إحراجي هكذا؟

كانت نبراته مخيفة، مليئة بالتهديد، قلت:

كانت «ثريا» مريضة، ولم تخبرني أن لديك ضيوفا.

ـ لم يكن عليَّ أن أطلب الإذن منك لأدعو من أشاء.

ـ حسبتك تريد أن تحافظ على علاقتنا سرية وخاصة.

ـ إنها كذلك، هؤلاء شركائي في العمل ولا أخفي عنهم شيئا، عليك أن تتعاملي معهم كأنهم أنا.

لم أفهم ماذا يقصد، هل هذا تطور في علاقتنا، أو نكسة مهينة؟ قال في حزم:

ستحاسب فيما بعد، غيِّري هذا الثوب المترب وانضمي إلينا.

خرج وتركني من دون أن ينتظر ردا، جلست على حافة الفراش

وأنا حائرة، شعرت بالخوف من اللهجة التي حدثني بها، نهضت وبدأت في تغيير ثوبي، ولكن أي ثوب أرتدي؟ ما المطلوب مني؟ هل سيقتصر الأمر على تقديم الطعام والشراب، أو سيتجاوز الأمر حدود ذلك؟ هل كانت دعوته لهم إلى سهرة في ضيافته فقط، أو إلى اقتسام جسدي؟ أحسست برعب قاتل. هل يجرؤ على فعل هذا؟ هل يكرر ما فعله أول مرة؟ ماذا يدبرون جميعا؟ لم أعد أسمع صوت ضحكاتهم المجلجلة، كانوا يتحدثون بلهجة جدية وفي صوت خافت، هل يدبرون الأمر لاقتسامي؟ اقتربت من الباب الذي يفصل بيني وبينهم، وضعت أذني في فتحة صغيرة، فكرت في أن خطوتي التالية هي أن أقفز بعدها مباشرة من الشرفة، لم أكن لأسمح له أن يمتهنني بعد ذلك. كان «أكرم» هو الذي يتكلم بصوت خافت ومحدد، لم يكن يتحدث عني، هناك شيء ما حول صفقة قادمة. تنهدت في ارتياح، لست موضوع الصفقة بالتأكيد، أوشكت أن أغلق الباب وأذهب لتغيير ثوبي، ولكن سمعته يردد اسم راتب؛ الباشا الكبير، توقفت، هل سيحكي لهم ما فعله معي؟ كان يقول:

إنه يحتكر كل شيء تقريبا، ولا يسمح لنا إلا بالصراع على الفتات، نحن لسنا سوى صبيان نشتغل تحت يده، إذا أردنا أن نكبر في أعمالنا، فلا بد أن نتخلص من سيطرته.

قال أحدهم في لهجة مليئة بالرعب:

توقف يا «أكرم» لقد نسيت عمّن تتحدث.. إنه الحوت.

قال «أكرم»: أعرف جيدا عمّن نتكلم.. ولست مجنونا حتى أواجهه في العلن.. المهم أن تكونوا معي.

اعترض آخر: هذا جنون.. إنه يعرف ما هو معلن وما هو خفي.. البلد كلّها تحت أمره.

عاد «أكرم» يقول في إصرار:

عندما يعلم سيكون قد فات الأوان، لن ألوث يدي، ولا أحد منا سيفعل شيئا، تماما كما يدبر كبار رجال الأعمال أمورهم، نتفق في سرية تامة مع قاتل محترف، نعطيه أجره ويخلصنا منه بكفاءة.

خيّم عليهم صمت مفاجئ، تراجعت أنا أيضا خائفة، ولكن في جانب مني كنت مأخوذة بما قاله، بعدم رغبته في الاستسلام، مهما كانت أسبابه، فسوف يرد على الإهانة التي لحقت بي، هل كان يضعني في اعتباره وهو يخطط لهذا الأمر؟

غيرت ثوبي، لم أحاول أن أكون عارية أو مبتذلة، سأجلس بينهم، وعليهم أن يفهموا أنني لا أخص إلا رجلا واحدا، إنه شيء أشبه بالزواج حتى لو لم يكن رسميا. خرجت إليهم، كانوا مازالوا يتكلمون، مشدودين بأكملهم تجاه «أكرم»، ظللت واقفة لبرهة، سمعت بعضا من التفاصيل غير المهمة، قررت أن أبتلع غضبي منه وجلست بجواره، ملتصقة به وفي حمايته، تناولت قليلا من الطعام والشراب، وشعرت أخيرا بالاسترخاء. بدأ تعب اليوم في الذوبان، خفت حدة الكلمات التي أطلقها «أكرم» في وجهي، كان الثلاثة يضحكون في صخب بفعل الشراب، عليَّ أن أعترف بأنهم كانوا لطفاء. خفت درجة تحفظي معهم قليلا، ولكن لم أتخل عن حذري. نهض «أكرم» ووضع أحد أقراص الموسيقي الراقصة فصفقوا في مرح، تمايل على الإيقاعات، مد يده يدعوني إلى الرقص معه، كان

الرقص بجانبه تحت أعينهم يزيد من إثارتي. أخذت أدور حوله، تركته يحتضنني ويقتنص قبلات خاطفة من شفتي، لمسات واحتكاكات ملأت الجو بنبضات حسية. نهض واحد منهم وبدأ يرقص معنا، انتهز الفرصة ولمسني بخفة فلم آبه به، نهض الثاني وجلس «أكرم»، تركني بينهما غير قادرة على الانسحاب، لا أريد أن يشعرا بالإهانة، ولا أريد أن يعاود «أكرم» غضبه عليَّ، أصبحا أكثر جرأة؛ أخذت أياديهم تنتظر الفرصة لتسرح فوق جسدي، تحاول أن تمسك ثديي، أو تتحسس مؤخرتي، كنت أتقلب بينهما وجراءتهما تزداد، نظرت نحو «أكرم»، كان يصفّق منتشيا، جميعهم منتشون إلا أنا، حتى الإثارة لم تخفف من موانعي، يحاصرانني بجسديهما، فتية ومشدودة وراغبة، ولكني لم أكن أرغب في التمادي مع أي منهما. نظرت مستغيثة إلى «أكرم» فلم يأبه بي، نزعت ثديي من يد أحدهم، وأبعدت مؤخرتي عن البروز الموجود في حجر الثاني، وانسحبت لأختبئ خلف «أكرم» ولكنه نظر إليَّ شزرا. انكمشت داخل جلدي، وابتعدت عنه قليلا، ألحّ الاثنان عليَّ بالنهوض لأسدّ الفجوة الموجودة بينهما، أومأ إليَّ «أكرم» برأسه أن أنهض فلم أتحرك من مكاني، بدا عليهما خيبة الأمل، رأيت نظرة الغضب في عينيه من جديد، وتوقفت الموسيقى فجأة، وظل جو الغرفة متوترا، قال «أكرم» فجأة:

أتدرون يا جماعة كيف تعرفت على ذكرى؟

ابتلعت غصة كانت واقفة في حلقي، ماذا ينوي أن يفعل، يتسلى أو ينتقم؟ ركزوا جميعا أنظارهم عليَّ، عاد يقول في نبرات هازئة:

كانت تشتغل في أحد المتاجر الكبرى بالإسكندرية، من أول

نظرة بهرني جمالها، اعتقدت أنها لؤلؤة مدفونة وسط ركام الملابس، تعرفت إليها ودعوتها للعشاء، ولكنها رفضت، أرادت أن تفهمني أنها حرون وصعبة المنال.

حدّق الجميع في وجهي باهتمام، أكدوا في كلمات متفرقة أنني مازلت جميلة بالفعل ومازلت حرونة بالفعل، خفضت رأسي ولكني كنت مازلت قلقة، عاد يقول:

عندما ظفرت بموعد للعشاء معها أخذتها إلى أفخر مطاعم العجمي، كانت ترتدي فستانا رائعا، قلت لنفسي: من المؤكد أنها دفعت ثمنا كبيرا في هذا الفستان. في تلك الليلة رفضت إغراءاتي، لم أظفر منها إلا ببعض القبلات، التقل صنعة كما يقولون.

ضحكوا، نظرت نحوه في عتاب، قلت: أرجوك، أدركت إلى أين سينتهي الحديث، ولماذا اختار هذه اللحظة ليكشف تاريخ علاقتي به. لم يأبه بتحذيري الخافت، كنت أضعف من أن أعارضه، واصل القول:

في المرة الثانية..كان الثوب أكثر فخامة، ودهشتي أشدّ، لم أكتشف السر إلا في نهاية العشاء عندما وجدت بطاقة السعر عالقة في ذيل الفستان، كانت في كل مرة تسرق فستانا من المحل لتقابلني به.

انفجروا جميعا في الضحك، قلت في ضعف وقد احمر وجهي:

لم أسرقها.. كنت أستعيرها فقط.

لم يستمع أحد إلى اعتراضي، واصل الكلام وواصلوا الضحك:

عرضت عليها أن نعيش معًا، تأتي معي إلى القاهرة وأنقذها من

مهنة البائعة ولكنها رفضت، وبدلا من ذلك طلبت مني أن أتزوج بها. تصوروا.. لمجرد أنني كنت راغبا فيها، حاولت أن تفرض عليَّ شروطها، لم أحاول إقناعها، كان هذا صعبا، قمت بالأسهل، اتصال هاتفي صغير مع مدير المتجر، أطلعته على سر الفساتين «الشيك» التي تتسلل بها.. وفي ثانية وجدت الست «ذكرى» نفسها في الشارع.

أغرقوا جميعا في الضحك، حدقت فيه وأنا مصدومة، نهضت واقفة، أدرت ظهري لهم وعدت إلى الغرفة، ظللت أسمع صوت ضحكاتهم المتواصلة، وكان حسن داخل السيارة جالسا مستسلما، لماذا لم يذهب ليكون بجوار ابنه؛ وقريبا من قبر زوجته؟ أوشكت أن أفتح الشرفة وأصرخ فيه أن يأخذني بعيدا، ولكن باب الغرفة فتح ودخل «أكرم»، كان هو الغاضب:

ماذا بك يا بنت؟ هل أنت مصرة على أن تعكنني علينا هذه الليلة؟

صحت فيه: لا تحاول أن تهينني.. لقد رأيت بعينك ماذا كانا يفعلان بجسدي.

هز كتفه وهو يقول:

هذا طبيعي، فهم يريدانك، ولا بد أن يشعرك هذا بالإطراء، لقد طلبا مني مضاجعتك، وهي ليست المرة الأولى على أي حال.

أحسست بالاختناق، قلت: كيف تفعل بي ذلك؟

لوّح لي بإصبعي وهو يقول مهددا:

اسمعي يا بنت، لا أحب هذا النوع من المسرحيات، لا وقتي ولا دماغي يسمحان بذلك، لا تثيري المشكلات وافعلي ما يطلب منك.

قلت: من منهما تريد أن يكون الأول، أو ربما تريد أن تفعلوها أنتم الثلاثة معي في الوقت نفسه؟ هل ستشاركهم، أو ستكتفي بالفرجة؟ وهل هذا مجاني، أو أنك ستقبض الثمن؟

أغمضت عيني وأنا أشعر بيده ترتطم بوجهي بعنف، ترنّحت وأوشكت أن أسقط على الأرض، تماسكت، أصررت أن أظل واقفة أمامه، كان الأمر قد انتهى، ظل واقفا يلتقط أنفاسه بصعوبة، أدرت وجهي حتى لا يرى آثار أصابعه عليه، قال:

إذا لم تفعلي ما أقول.. فالصحراء واسعة أمامك.

استدار وتركني، عدنا معا إلى نقطة البداية، لم يتغيّر شيء، ولا وقت للتردد أو مراجعة النفس. عبرت الصالة تحت أنظارهم المندهشة، هبطت السلم مسرعة، كانت السيارة السوداء واقفة أمام المدخل، لم أكن في حاجة إليها، لست في حاجة إلى أحد، عدوت فوق العشب الطري الذي يحيط بالفيلا. كان البحر مظلما وغاضبا، والهواء باردا محملا بالرذاذ، واصلت العدو من دون توقف حتى أصبحت خارج الأسوار، وقفت على طريق الأسفلت؛ الطريق العام، سأستقل أول سيارة عابرة مهما كان الاتجاه، المهم أن أغادر هذا المكان. لم يعد هناك مجال للتراجع، استندت إلى إحدى الصخور الموجودة على جانب الطريق، بكيت بأعلى صوت، الإسكندرية في الطرف الآخر من هذا الطريق، هل أعود إلى غيط العنب، أو إلى المدينة التي لم تمنحني مأوى أو أمانا؟ كنت نقطة صغيرة ضائعة في ذلك الظلام الهائل الذي يحيط بي.

سمعت ضجة إحدى السيارات، مسحت الدموع من عيني، كانت

قادمة من داخل المنتجع، والضوء الذي يشع منها هو الضوء الوحيد في هذا العالم، توقفت بجانبي، وفتح حسن الباب، قلت له بصوت مرتجف:

لن أعود معك.. اذهب.

قال: لم آت لذلك، سأوصلك إلى المكان الذي تريدينه.

قلت: لا أريد شيئا منك، ولا من صاحب السيارة.

قال: أنا الذي سعيت خلفك، من الخطر أن تكوني وحدك وسط هذا الخلاء المظلم، اركبي السيارة يا سيدتي، سأحملك إلى أي مكان تريدين.

لهجته الهادئة جعلتني أشعر بالثقة به. ركبت بجواره، وعندما بدأ السير بكيت في صوت خافت، أحسست بلسعات من نار على وجهي، بألم في مكان كل إصبع من أصابعه، هل يراها حسن؟ كانت على الجانب الآخر، لم يكن ينظر إليَّ، أو يحاول التحدث واستجلاء ما حدث، كل أنظاره متجهة إلى كتلة الظلمة التي علينا أن نخوضها معا، الصحراء الممتدة شاسعة أكثر مما ينبغي، متراكم عليها طبقات كثيفة من الظلمة، من الصعب أن تخترقها أضواء السيارة وهي تزحف ببطء.

على مدى ساعتين واصلنا السير من دون أن نتبادل كلمة واحدة، غرقت في غفوة سريعة، وعندما استيقظت اكتشفت أن جزءا من الظلام قد تبدد، وبدت الصحراء رمادية،، وكل ما فيها من صخور جافة ومسنونة الحواف، تماما كذلك الفجر الذي داهمني وأنا أغادر عزبة «الباشا»، ولكنه هذه المرة أكثر قسوة. نظرت إلى وجهه، ابتسم لي كأنه يهنئني على تلك الوصلة من الراحة التي أخذتني من الظلمة

إلى النور، الفجر يأتي دائما، تبدأ الشمس في تلوين كل ما يحيط بي، السيارة تزحف في الطريق إلى القاهرة على الرغم من أنني لم أخبره عن وجهتي، وعلى الرغم من أنه لا يوجد لي فيها أحد، قلت:

أود أن أذهب معك.

لم يفهم ماذا أقصد، قلت:

أريد أن أرى ابنك، أريد أن أطمئن على صحته.

قال في سرعة: إنه بخير، لقد تحدثت مع خالته، حالته مستقرة.

قلت وأنا أكتم رغبتي في البكاء:

أريد أن أراه، أريد أن أتحسس جبهته بيدي وأطمئن على أن الحرارة قد زالت عنه، لا أريد أن أشعر بأنني السبب في مرضه.

نظر إليَّ مندهشا، ظل صامتا لبرهة، ثم قال:

لست السبب بالتأكيد.. ولكن الطلب بسيط.. أنا أيضا أريد الاطمئنان عليه.

ازداد ضوء الصباح، وازداد زحام السيارات من حولنا، لم أعد أشعر بالوحشة إلى هذا الحد، وبدت بيوت المدينة تحيط بها غلالة من الغبار. مرة أخرى عادت السيارة تجوس في الحواري الضيقة، ارتفعت إلى أنفي رائحة غيط العنب، سرت خلفه في شق الثعبان، لم نجد كثيرين ليتلصصوا علينا.

كان الطفل وحيدا، نائما في دعة، ومصباح الشقة مضاء، وقال حسن في إحراج:

لا بد أن خالته قد ذهبت لإعداد الإفطار لأسرتها.

ارتحت لعدم وجـودهـا، تحسست جبهة الطفل ففتح عينيه،مستديرتين وصغيرتين وساحرتين، تأملني بالنظرة الحائرة نفسها، لا أدري إن كان قد تعرف إليَّ أو لا، هل لاحظ أثر اللطمة الموجودة على وجهي؟ احتضنه أبوه وقبله في حنان، رمقني بحذر من فوق كتفه، ثم أشار نحوي، همس في أذنه ولكني سمعته بوضوح:

هل هذه ماما؟

قال حسن: واحدة من صديقاتها.

أجلسه على الفراش وأخذ يتحدث إليه، وبين الفينة والأخرى كان الطفل يرمقني بنظرته الحائرة والمتشوقة، كان الصبح قد أشرق وكل شيء أصبح واضحا، وعليَّ أن أمضي وحدي.

على الرغم من إصرار حسن، فقد رفضت أن يحملني بسيارته مرة أخرى، كان هذا يكفي، تكفل فقط بإخراجي من شق الثعبان لآخذ سيارة أجرة، لم أعرف مدى العقاب الذي سيحل عليه، لن يفوتها «أكرم» له؛ فقد حرمه من متعة أن يراني عائدة إليه صاغرة وخائفة من وحشة الصحراء. ركبت سيارة الأجرة وأنا أتذكّر عيني الطفل وهما تنظران إليَّ، كنت متعبة، غير قادرة على التفكير في أي شيء، قادتني السيارة إلى العمارة التي تقيم فيها «ثريا»، شعرت بأنني حائرة، مثل اليوم الأول الذي جئت فيه إلى القاهرة، ولكن عندما دخلت إلى الشقة وجدت «ثريا» مستيقظة. لم تكن هذه عادتها، بدا واضحا أنها لم تكمل نومها وأنها جالسة في انتظاري، جلست أمامها وأنا أعرفه ماذا ستقول، لم تحتج لسؤالي عما حدث، قالت في لهجة تقريرية:

«أكرم» اتصل بي من الساحل الشمالي وهو مجنون من شدة الغضب، لا أريد أن أعرف تفاصيل ما حدث؛ لأنني أعرف «أكرم» أفضل منك، وهو نذل وجبان و«واطي»، ولكنه يريد مني أن أطردك الآن، هو سافل كما قلت لك ولكني لا أستطيع أن أخالف كلامه.

هذا هو أسلوبه المعتاد معي على أي حال، تلقيت الخبر بثبات، قلت:

ـ سأنهض لأجمع ثيابي.

ـ أنا لست نذلة مثله، يمكنك البقاء حتى تدبري أمورك.

أعدك ألّا أحرجك، لن أبقى هنا طويلا.

دخلت الغرفة التي كانت تؤويني، الجدران التي كانت تسترني، تأملت وجهي في المرآة، آثار لطمة «أكرم» زالت تقريبا، لا وقت أضيعه، وقفت تحت الماء الساخن، أريد أن أغتسل من كل ما مر بي وأن أصبح أجمل امرأة في الوجود، غير مهانة ولا مبتذلة، اخترت أجمل أثوابي، وعندما خرجت إلى الصالة مرة أخرى، كانت «ثريا» نائمة على الأريكة، هادئة ووديعة ملطخا وجهها بالأصباغ. غادرت العمارة، تركت رأسي وشعري للكوافير، تركته يلوي خصلاته كما يريد، ويضع على وجهي كل ألوان الزينة التي يريدها، وعندما نظرت إلى المرآة لم أعرف شكلي، إنسانة غريبة، ترتدي قناعا ملونا، يخفي ما في داخلي من أوجاع وأوساخ.

كانت كل حواسي مشحوذة وأنا أركب سيارة الأجرة. أستعد للّعب بورقتي الأخيرة، توقفت السيارة كثيرا وسط زحام الشوارع المجنونة،

ولكني ظللت ثابتة حتى أصبحت خارج المدينة. كان المبني الزجاجي الأزرق ممتدا على حافة الصحراء، متألقا تحت ضوء الشمس، حيوانا متربصا، فخا مغريا، لم أكن قد حضرت هنا من قبل، ولكني كنت أعرف مكانه وأحفظ صوره التي تنشرها إعلانات التليفزيون، وكان داخله باردا معزولا عن العالم، سماء خاصة، يسكنها إله خاص، قادني واحد من حراس الأمن إلى حافة مكتبه، رمقني مدير مكتبه بنظرة متفحصة، كان هناك كثير من الزوار الذين ينتظرون المقابلة، أناس مظهرهم مهم، ولكن مدير المكتب أشار إليَّ قبلهم جميعا. دخلت إلى حجرة زرقاء أخرى بلا سحب، لوحات فنية كبيرة الحجم تحتل الجدران، مليئة أيضا بخطوط زرقاء، وخلف مكتب زجاجي كبير ممتد، كان يجلس، مثل كل الآلهة القدامى، ينتظر أن يسعى الجميع إليه، ظل يتأملني وأنا أقترب منه ببطء، لم ينهض ولم يمد يده، يكفي أنه سمح لي بدخول مكتبه والوقوف في حضرته، لعلني كنت أذكره بانتصاره الصغير على جسدي، قال بعد فترة من وقوفي أمامه:

هل مللت من هذا الولد؟

بلعت ريقي قبل أن أقول:

كان عليَّ أن أختار يا باشا، ربما كان «أكرم» ولدا حقا، ولكن له نفسية قاتل.

قال في دهشة ممتزجة بالسخرية: هل حاول هذا المجنون أن يقتلك؟

ـ إنه يدبر لقتلك أنت، لقد سمعته بأذني وهو يتحدث عن نيته لاستخدام قاتل مأجور لهذا الغرض.

هزّت ضحكته المكان، نهض من خلف المكتب، وضع يده على كتفي وضغط عليه وهو يقول:

واضح أنك صدقتِه لأنك ترتجفين، شكرا لتحذيري، ولكنني قادر على حماية نفسي، كنت أفضل أن تأتي من أجل غرض آخر.

قلت في تصميم وأنا أعني كل كلمة أنطقها:

لم تعد لي به أي علاقة، لقد غادرت شقة «ثريا» ولن أعود إليها مرة أخرى، أريد أن أستقل بنفسي، ولا أريد لأحد أن ينفق عليَّ، أريد أن أنفق على نفسي.

نظر إليَّ متفحصا، قال: يعجبني هذا، هل فكرت كيف تفعلين ذلك؟

ـ كنت بائعة في محل لبيع الثياب، أنا أجيد هذه المهنة.

ـ فلنكن منطقيين، ستبدئين بمشروع صغير، وأمامك الفرصة أن تكبري، وسيكون لك مكانك المستقل؛ شقة بمفتاحين فقط؛ واحد معي، وواحد لك، لا مفاتيح إضافية، وسيبقى كل شيء سرّا، كلمة واحدة وينتهي كل شيء.. هل هذا مفهوم؟

قبلته على شفتيه قبلة سريعة، وأنا أهتف من قلبي:

أنت تأمر.

لم أتوقع أن أصل إلى مثل هذا الاتفاق السريع، مسح شفتيه ليزيل آثار طلاء شفتي:

هذه آخر مرة تزورين فيها الشركة، وستنفذين فقط ما أقوله، لا

تذكري اسمي لأحد مهما كان الأمر، ولا أريد أن نتقابل خارج شقتنا ولو بمحض المصادفة، وأخيرا عليك ألَّا تحاولي تقبيلي رغما عني.

كنت أريد أن أقبّله مرة أخرى ولكني تراجعت، وخرجت بسرعة من تحت هذه السماء الزرقاء، أحلم أن أكون حرة ومستقلة، وأن أكبح رغبة جسدي الذي لم يبق منها إلا إحساسي بالإهانة. لم يخلف الباشا وعده معي، لم يظهر في الصورة، ولم تشعر «ثريا» بأي شيء، كانت الاتصالات قصيرة وخاطفة بمدير مكتبه، يوجهني في أوامر مقتضبة كالتعليمات العسكرية، بعد يومين فقط ذهبت وحدي إلى عمارة بعيدة عن الأعين في مدينة نصر، كان البواب في انتظاري ومعه المفتاح وعقد ينتظر توقيعي، فيها الأثاث الذي أحتاج إليه. سكنت فيها من فوري، أغمضت عيني وأنا أشعر بالأمان للمرة الأولى، لم أذهب إلى شقة «ثريا» لآخذ حقيبة ثيابي، لم تكن معي إلا صورة الريس «برعي» التي لم تفارق رحلتي، علقتها على حائط الصالة لتكون أمامي طول الوقت، ظللت أتجول في شقتي عارية وسعيدة، وبعد أسبوع واحد أصبحت مالكة لمحل صغير لبيع الملابس. تم الأمر بالطريقة المباشرة والبسيطة نفسها؛ سمسار عقارات اتصل بي وكان معه المفتاح الصغير نفسه والعقد الذي يحتاج إلى التوقيع، وحتى النقود جاءت إليَّ بالطريقة نفسها البسيطة، حقيبة صغيرة حملها البواب وسلمها لي من دون أن يعرف ما فيها. كان المحل صغيرا حقا، ولكن موقعه كان ممتازا، كتبت على واجهته ذكرى للأزياء، وسافرت إلى تركيا خصيصا حتى أملأه بالملابس، وبالطبع اشتريت لنفسي مجموعة منها، ولكن الباشا لم يأتِ لزيارتي إلا بعد شهر كامل، بعد أن تمّ القبض على «أكرم البدري».

لم أر «أكرم» إلا بعد مرور ثلاث سنوات كاملة، ولم أفكر في زيارته في السجن، ولم أذكر سيرته مع الباشا ولو مرة واحدة، ولكني كنت موقنة في أعماقي أنه قد تغذّى به أولا، وأنني السبب المباشر وراء ذلك. أحسست بقليل من الذنب وأنا أشاهد صورته المنشورة في صفحة الحوادث،مكتوبا تحتها عدة تهم. إدخال مواد غذائية فاسدة، تهرّب ضريبي، استيلاء على أراض، لائحة التهم المعتادة، مركبة خصيصا على مقاس «أكرم»، كلما أفلت من واحدة واجهته الأخرى. لم أشعر بالذنب تجاهه، ولكن كان جسدي يستصرخني في احتياج إليه، كان قد أيقظ جسدي على الرغم من نذالته، ظلت خلاياي، رغما عني، تحن إلى من يهينها ويستغلها كما فعل «أكرم» معي.

كان يوم زيارة الباشا أتعس أيام الأسبوع؛ لأن الموت يظل مخيما بظله على غرفة النوم حتى الصباح، يحملق فيَّ من خلف قطع الأثاث ومن تحت ملاءات السرير،كنت أرتعب من صوت أنفاسه وهو يلهث فوقي، كأن روحه المتيبسة على وشك أن تخرج مع كل نفس، وعندما يسترخي بجانبي أظل ملتصقة بصدره؛ حتى يبقى جسده لصيقا بشيء حي، كان يدهشه ذلك، ويظل يسألني إن كنت قد استمتعت، ولكني كنت لحظتها أنصت بانتباه إلى دقات قلبه، وبعد انصرافه كنت أشعر بالجوع والوحدة وهما تأكلان جسدي، ولكني كنت خائفة من الدخول في أي مخاطرة مع رجل آخر، كنت أعرف أنه سيعرف ذلك، ولن يتغاضى ولن يغفر.

أحيانا كنت أسأل نفسي: هل كانت «ثريا» تزوره في السجن؟ وهل فقد ذلك البهاء الصبياني الذي يشع من وجهه؟ هل يعرف أنني

سبب ما حل به؟ لم أحاول البحث عن إجابة. توقف الزمن من حوله، مؤقتا على الأقل، ولكن لم يتوقف الزمن بالنسبة إليَّ. اتسع المحل الصغير واشتريت المتجر الذي يجاورني وضممته إلى المحل، ثم اشتريت الشقة التي في الخلف وزدت من عمقه. لم أعد بمفردي ولكن أصبحت عندي عاملات، ولم أعد أسافر إلى تركيا ولكن إلى باريس وميلانو، وقادتني الصفقات الأكثر رقيا إلى السفر إلى أمريكا. كان الزبائن لا يتوقفون، تدفعهم يد خفية إلى محلي، وإلى الشراء بأي أسعار أطلبها.

خرجت من العتمة، من الحياة الخفية حيث يمكن أن أباع رغما عني أو أهان، أصبحت واحدة من سيدات الأعمال، تأتي البضائع حتى عتبة محلي، وتنتظر المحال الأصغر فتات البواقي التي ألقيها إليها، وهناك مصانع تعمل لحسابي في تفصيل الأزياء المقلدة وتضع عليها الماركات الأجنبية نفسها، اشتركت في أكذوبة الأعمال الكبرى التي يعيشها الجميع، في بلد لا تنتهي فيه الأكاذيب، والأهم من ذلك أنه كان يجب أن أخرج من شقتي الصغيرة؛ لأكون في وسطهم، في المنصورية؛ حيّهم الراقي بالقرب من الهرم.

لم يكن الانتقال في صمت لائقا بي بوصفي أحد نجوم المجتمع، لا بد من حفل ضخم، أعلن فيه عن وجودي وسط هذه المنطقة المحتشدة بالناس المهمين، لم يعد في حياتي أحد غير مهم، كلهم اجتمعوا حولي تحت أضواء البيت، بدأ المدعوون في التوافد منذ وقت مبكر، كلهم ماعدا الباشا، لم أفتقده كثيرا برغم أنني لم أدخل رجلا غيره إلى فراشي. كنت واقفة في صالون منزلي وسط هذه الوجوه المشهورة التي توجد دائما على أغلفة صفحات المجلات،

لحظات المجد الخاصة لفتاة غيط العنب. في هذه اللحظة بالذات، حدث ثقب في الجدار المظلم الذي كان يفصلني عن الماضي، وتمنيت أن يكون «أكرم» هنا ليشاهد لحظة سطوعي وتوهّجي، أغمضت عيني، وشممت عطرا ليس غريبا عن أنفي، وحين فتحتها رأيت وجه «ثريا» شاحبا، كانت تتحرك متجهة نحوي ببطء، لم أكن قد دعوتها، ولابد أنها قد قرأت الخبر في جرائد الصباح، أحسست بوجنتها باردة وهي تلمسني، وسمعتها وهي تطرقع قبلتها في الهواء، وعندما انزاحت قليلا وجدت «أكرم» واقفا أمامي.

كان هو الشخص القديم نفسه، لم يعد له ذلك الوجه الطفولي، ضاع كثير من سحره وحلت بدلا منه بعض تجاعيد وخصلات من الشعر الأشيب. نظر إليَّ طويلا؛ ربما ليقارنني بتلك الفتاة التي جاءت من الإسكندرية لتقدم جسدها قربانا لسحره. أنا أيضا كنت أرتجف، كل الجوع الذي في داخلي يتصاعد، لم أكن أريده أن يلمسني بأي حال من الأحوال، أحسست بركبتيَّ وكأنهما على وشك الذوبان، ولكنه أمسك بيدي، قبض عليها كأنه يعيد امتلاكي، حاولت أن أسحبها منه، ولكنه كان قد امتلكها بالفعل، حسبت أنه سيحاول احتضاني، ولكنني فوجئت به ينحني ويقبل يدي، أحسست بشفتيه على جلدي مثل دبابيس صغيرة، وتذكرت آثار أصابعه على خدي، قال:

لقد نجحت يا «ذكرى»، لم أتوقع أن أرى هذا المستوى المرتفع؛ هذا البيت.. وهذا الحفل.

حاولت أن أسحب يدي من بين أصابعه وقلت في صوت مكتوم:

لم أوجه إليك الدعوة.

رفع حاجبيه مستغربا:

وأنا الذي اعتقدت أنك أقمتها بمناسبة خروجي من السجن، سأعتبرها كذلك على أي حال، ولكن اسمحي لي أولا أن أقدم لك ضيفا آخر، جاء هو أيضا من دون دعوة؛ «حسن الرشيدي».

من فوري تذكرت السائق حسن، وطفله الصغير، ورحلتنا المرعبة في صحراء وادي النطرون، توقعت أن أرى وجهه المائل إلى السمرة، وقامته المرفوعة وصدره العريض، ودهشت لأنه ظل مرتبطا به برغم فترة السجن. التفتّ إلى حيث أشار ولكني وجدت شخصا آخر، يشبه حسن ولكنه ليس هو، أصغر سنا وأكثر وسامة، ولكنه كان نحيفا ومتوترا ويشع من عينيه بريق مليء بالقلق، تطلعت إلى طوله الفارع، وجسده الذي يبدو قويا برغم نحوله، يقف وقفة مستقيمة كأنه عود صلب لا ينكسر، حتى عندما قبض على يدي، أحسست ببرودة أصابعه، وبقسوتها التي بعثت فيَّ بالرعدة.

كانوا قد أتلفوا حفلتي، ولم أكن قادرة على طردهم، وضعت على وجهي ابتسامة باهتة واعتذرت لهم بانشغالي ببقية الضيوف، ابتعدت عنهم جميعا، توقفت أمام الباب المؤدي إلى الحديقة وأنا أحاول التنفس والبحث عن نسمة من الهواء النقي، بدا ثلاثتهم مثل عصابة جاءت تسرق فرحتي بالبيت الجديد، هل يمكن أن أتصل بالباشا، وأطلب منه أن يفعل شيئا يعيد «أكرم» إلى السجن مرة أخرى؟ كانت «ثريا» قد اندمجت في الحفل، تتحدث إلى موظف كبير، زوجته زبونة دائمة عندي، بالطبع كانت تحاول اصطياده، و«أكرم» يتحدث إلى بعض المسئولين، بالطبع يحاول أن يخدعهم

بصورته، لم أجد الشخص الثالث الذي كان معهما؛ الشخص الغريب المدعو «حسن الرشيدي»، انشغلت قليلا بالقبلات والأحضان وكلمات المجاملة، وبدأ «أكرم» يشرب بشراهة ولا يكف فكّاه عن المضغ، كأنه يعوض أيام السجن، أخذت أشجع ضيوفي على استخدام البوفيه الذي قام بإعداده أفخر فندق في البلد، حاول «أكرم» الاقتراب والانفراد بي فلم أعطه الفرصة، ربما لو جاء لي وأنا وحدي في منتصف الليل فلن أستطيع مقاومته، رأيت نظرة غريبة في عينيه وهو يراقب حركتي، كنت قد بدأت أشعر بقلق بالغ، وبأن هناك شيئا يدبر. بحثت بعيني عن هذا الشخص الغامض الذي اختفى فجأة، تركت صالة الحفل وأخذت أسعى إلى الأروقة الداخلية، هل أتعرض للسطو؟ هل هو أحد رفاق «أكرم» في السجن؟ وجدته في الطرقة الداخلية، متجمدا أمام صورة أبي القديمة، مأخوذا بها من دون أن يشعر بوجودي أو بخطواتي وأنا أقترب منه، كنت غاضبة لأنه تجرّأ وتوغل داخل البيت، ولكني توقفت صامتة، التفت إليَّ وقد احمرَّ وجهه، قال:

أنا آسف، كنت أبحث عن حمام، ولكن الصورة شدت انتباهي.

قلت: هل تريد أن تقنعني أنك واقف هنا، بعيدا عن الجميع من أجل هذه الصورة؟

تغاضى عن نبرة الاتهام والشك في صوتي، قال بلهجة غريبة لم يحاول أن تكون عاطفية ولا انفعالية:

إنه يشبه أبي، كان في مثل عمره وهيئته، الفارق الوحيد أنه في

الصورة يلبس ملابس الصيادين، أما أبي فقد كان عاملا في مصنع النسيج.

ظللت صامتة، أدور ببصري في الطرقة بحثا عن شيء يدلني عمّا كان يفعله، ولكنه التفت نحوي مواصلا كلامه:

إنه أبوك على ما أعتقد، مادمت تعتزين بوضعه في هذا المكان، ولكن الحق لله.. هو يشبهني أكثر مما يشبهك، هل مازال على قيد الحياة؟

تنهدت أخيرا وحاولت أن أنحي غضبي جانبا: كلا.. مات وأنا صغيرة.

قال من فوره:

وانهار العالم من حولك كما حدث معي.. قتلت الشرطة أبي وهو يحاول الدفاع عن المصنع، بعد ذلك اقتحموا بيتنا ودمّروا كل ما فيه من أثاث، لم يتركوا لنا حتى صورة واحدة.

تبدّد غضبي، حدّقت في عينيه القلقتين وقد امتلأتا بالحزن، قلت:

مات أبي غرقا في «نوّة» عنيفة ضربت بحر «القباري»، أصرَّ على الخروج في ذلك اليوم؛ لأن البيت لم يكن فيه قرش واحد.

توقفنا عن الكلام، كل منا يحمل حزنه الخاص، لم أكن قد تحدثت مع أحد عن أبي، وعن الانكسار الذي تركه في داخلي، وعن العالم الذي تدمر عندما توقف مركبه عن الإبحار، كنا نقف في طرقة بيتي الفاخر، وعلى الرغم من ذلك أشعر بافتقاد بيتنا الصغير في «القباري»، اضطررنا إلى هجره بعد أن غاب أبي، ولكن الشكوك عادت تستيقظ في داخلي من جديد نظرت إليه متسائلة:

ولكن ما صلتك بـ«أكرم البدري» و«ثريا»؟ هل أنت صديقه حقا؟

ـ جئت معه ولكني لست صديقه، في الحقيقة لا أدري لماذا جاء بي إلى هنا. في الأمر خدعة على ما أعتقد. أنا مهندس، وقد قدمني لـ«أكرم» صديق مشترك، قال لي إنه يبحث عن مهندس يشرف على مشروعاته، بالأحرى يحاول أن يستعيد له هذه المشروعات مرة أخرى، كانت الليلة هي موعده معي لنجلس ونتفاهم على هذا الأمر، ولكنه غيَّر رأيه ودعاني لركوب سيارته، حسبت أنه سيأخذني إلى مكان هادئ نجلس فيه براحتنا، ولكني فوجئت به وهو يحضرني لهذا الحفل، لم يقل لي أصلا إلى أين يذهب بي.

لم يكن هذا بعيدا عن تصرفات «أكرم»، ابتسم في خجل، كانت ابتسامته جميلة، قال:

يمكنني أن أنصرف إذا كنت تريدين ذلك، وسأفعل ذلك في الحال، ولكن بعد أن تحققي لي رغبتي.

رفعت حاجبي في دهشة، ماذا؟ هل يرغب في أن يقبلني؟ عاد يشير إلى الصورة مرة أخرى:

أريد نسخة منها، سأضعها على الكومبيوتر، بعد أذنك طبعا، سأخلع عنه ثياب الصيادين وأجعله عاملا؛ بذلك ستصبح عندي أخيرا صورة لأبي.

هزتني كلماته رغما عني، أشحت بوجهي حتى لا يراه، دخلت بسرعة إلى غرفة جانبية كنت أستخدمها كمكتب لتأدية أعمالي، فتحت أحد الأدراج وأخرجت البطاقة الخاصة بالمحل. كانت

عليها صورتي وبعض من تليفوناتي، تأملتها قليلا، وجدتني أتناول قلما وأضيف إليها رقم الهاتف المحمول الخاص بي، لا يعرفه إلّا القليلون، عدت إليه وقدمته له وأنا أقول:

هذا غريب، ولكن يمكننا ترتيب ذلك، اتصل بي.

كنت من دون أن أدري قد أصبحت قريبة منه، لم يتناول مني البطاقة فقط، ولكنه تناول يدي وقبلها، لم يقبلني على ظهر يدي، ولكن في بطن كفي، كأنه قبل جزءا عاريا من جسدي، سرت رعدة خفية في داخلي، تمنيت ألّا يشعر بها، سحبت يدي محرجة:

علينا أن نعود إلى الضيوف، ماذا سيقولون عن اختفائنا كل هذه المدة؟

خرجت مسرعة من الغرفة، سمعت صوت خطواته خلفي، كنت محتارة، منزعجة ومستثارة، اضطرب جسدي فجأة، وذاب قناع الثقة الهشّ، رأيت «أكرم» يراقبني من بعيد، و«ثريا» ترفع حاجبيها مستغربة وهي تراه يتبعني. حاولت الاندماج في الحفل، ولكن بصري ظل يتحول إلى حسن، كان يقف وحيدا، لم يحاول أن يقترب منهما، قلت لنفسي: ربما لو بقي بعد انصراف الجميع لأمكننا أن نجلس قليلا ونتحدث؛ أحدثه أكثر عن الريس برعي، وأستمع إليه وهو يتحدث عن أبيه الذي لا أعرف اسمه، كانت هذه حماقة بطبيعة الحال، فهو حتى لم ينتظر، اكتفى فقط بأن هزّ رأسه من بعيد، واتجه إلى الباب الخارجي وغاب في الظلام.

لم أسمع صوته إلّا بعد مرور أسبوع كامل، كنت قد نسيت أمره، أو خيّل إليَّ ذلك، ولكني تذكرت كل شيء منذ أن سمعت صوت

تنفسه، سألني عن الصورة، كنت أرتجف من دون مبرر، ومن دون أن يكون هذا لائقا بي، لم تجهز الصورة بعدُ، لم أتصور أن الأمر جديّ، وأنه بالفعل يعني له شيئا، الصور القديمة عادة ما تكون متشابهة، قال:

ما رأيك في أن تحضري الصورة، وأدعوك إلى العشاء في مقابل ذلك؟

قلت بسرعة: لا أستطيع. لم أكن أستطيع الظهور مع أي رجل في مكان عام، لم أكن أجرؤ على المجازفة، ولكنه ظل ممسكا بالهاتف ينتظر أن أغيّر رأيي، ظللت أنا أيضا ممسكة بالهاتف، كل واحد منا يسمع صوت أنفاس الآخر، قلت له: انتظر قليلا، وضعت الهاتف وابتعدت قليلا، كان الشارع مزدحما بالسيارات، والبائعات منشغلات مع الزبائن، وأنا وحدي، حتى الباشا كان في رحلة خارج البلاد، عدت وأمسكت الهاتف، قلت بقليل من التردد:

أنت تعرف الطريق إلى بيتي.. أليس كذلك؟

في المساء لم أكن قد أعددت الصورة بعد، ولم يسأل هو عنها، لم نتناول إلا قليلا من الطعام الذي أعددته، ولم نتبادل الأحاديث التي كنا ننوي أن نقولها، كل شيء كان غائما، ونحن نتحرك حول بعضنا بعشوائية محاولين أن نتجنب القيام بخطوة خاطئة، كانت هناك لمسات لا بد منها، وكان الجو كله متوترا. كنت أنا خائفة ومترقبة، وأوشكت الدموع أن تطفر من عيني حين أحسست بشفتيه وهما تتناولان شفتي السفلى وتضغطان عليها، بكفيه تجذبان خصري إليه، بساقيه تدخلان بين ساقيَّ وترفعان جسدي إلى أعلى؛ فلا أقدر على ملامسة الأرض، بعد ذلك تسارع كل شيء، وجدت نفسي

عارية من دون أن أدري كيف ذهبت ثيابي، ولا كيف صعدنا إلى غرفة النوم أعلى الدرج. كان الفراش مازال جديدا، لم يمسه رجل من قبله، كان هو جائعا ومتحكما وعنيفا بعض الشيء، لم أدر من أين استمد جسمه كل هذه الصلادة. كان يدهس لحمي، ويقتحمني من دون تردد، ويصل إلى أماكن لم أحس بوجودها من قبل، تجعلني أشهق وأعض كتفه وأغرس أظافري في ظهره، لم يكن يصدر صوتا، لم تتلاحق حتى أنفاسه، أنا التي أصدرت كل الأصوات، أرى تلك اللمعة الخاطفة التي يحدثها في العتمة، أفكر في حرقة، لماذا لا تضوي أجسادنا هكذا؟ لماذا لا تحتوي على تلك الدفقات السخية التي يمنحوننا إياها؟ لم يهدأ جسدي إلا قرب الفجر، أجهدت تماما وكنت في حاجة إلى بعض النوم، كان مريحا أن يضع ذراعه الثقيلة عليَّ ويضغطني إلى جسده، أحسست بنوع من الدفء والخدر يشل كل أطرافي.

عندما استيقظت كانت الشمس تتسلل من بين ستائر النافذة، ولم يكن هو موجودا، كانت هناك آثار جسده على الأغطية، والحفرة التي صنعتها رأسه في الوسادة، لكنه لم يكن موجودا في أي مكان، تذكرت حكاية «ثريا» القديمة، كنت أعرف أنه الثعبان.

كنت موقنة أن هذه الليلة لن تتكرر، لم يتصل بي، وحتى لو فعل فلن أجرؤ على الاستجابة له، سيعود الباشا ويفرض حصاره على جسمي، لن أقدر على رفضه ولا مقاومته، سأجلس عارية في انتظاره كما أفعل الآن، أسمع خطواته على الدرج، وأرى حارسه وهو يحوم حول البوابة، أستلقي على الفراش حين يدخل الغرفة، أقول له: «نورت يا باشا»، من دون رغبة ومن دون أمل في الفكاك، كل

لمسة باردة كالثلج، وكل قبلة لا تترك على جلدي إلا بقايا اللعاب، والموت رابض في حشرجة الأنفاس.

أرتاح قليلا حين يغط في النوم، أظل جالسة أداعب ظهره وأحدق في الظلام، أغمض عيني فأتذكر أن هذه ليلة حسن، ولكنه لم يأت، ولن يأتي، أسمع ضجة خافتة، يخيّل إليَّ أنني أحلم، وأنه يعرف الطريق صعودا إلى غرفة نومي، أفتح عيني لأتأكد أنني أحلم، ولكني أجده أمامي؛ الثعبان الذي أنتظر لدغته، يلبس السواد ويضع لثاما على وجهه، ولكني أعرف أنه هو، هل أتي ليمارس الحب معي برغم أنف الباشا، إلى جانبه على الفراش؟ أوشك أن أصيح فيه، ولكنَّ صوتا مكتوما يسبقني، يخترقني الألم ويصيبني بالفزع، ماذا فعلت بي؟ في يده مسدس، وهذا الصوت المكتوم كان صوت رصاصة، الباشا يستيقظ وهو يحمل أيضا مسدسا، كان يضعه تحت الوسادة من دون أن أراه، الجميع مستعدون للقتل ما عداي، أنهض مترنحة، إلى أين أذهب، ولماذا يزحف عليَّ كل هذا الظلام؟ أين أنت ياريس برعي؟ أين أنت يا أبي؟

علي ـ نهائي طب

أنا الشاهد الأخرس الذي لم يحرك ساكنا، أخطأت قدماي السبيل وانزلقت إلى الجحيم، لم أحرك ساكنا عندما وجدت نفسي في دائرة القتل، وتركت الفزع يشل إرادتي، هل كشف حسن عما يمور في داخلي من رغبات مظلمة؟ تزحف السيارة في الحي الساكن وأنا أتمنى أن تضل طريقها، أمنية عاجزة، يظهر البيت الذي أعرفه في مكانه، لم يبدِّل موقعه، أو يحاول التخفي، لا تحيط به الأضواء. صامت ومترقب ونصف مظلم، ولكنه هدف محدد، لا يخطئه أحد، تتوقف السيارة على الجانب المقابل من البيت، أكتم أنفاسي في انتظار ما يحدث، نظل جالسين ونحن نلهث، كانا ينتظران خلو المكان النهائي من أي عابر، ليس هناك إلّا بعض كلاب الشوارع، تنظر إلينا في توجس ثم تبتعد، يهبط «الزناتي» من خلف عجلة القيادة، يسير بثبات نحو باب الفيلا، لا يدق الجرس ولكنه يطرق بأصابعه على البوابة الحديدية، يمسك في يده ورقة ويدخلها بين القضبان، يقف على الرغم من حجمه الضخم في وداعة شخص ضائع يريد أن يعرف إلى أين يتجه، بعد برهة يبرز من خلف قضبان البوابة شخص ما، واحد من رجال الأمن يمسك بندقية سريعة الطلقات، لم أشاهده

في زيارتي السابقة، لا أسمع الحوار الذي يدور بينهما بسبب نوافذ السيارة المغلقة، ليظل الحارس متباعدا، ينظر إلى «الزناتي» في شك، يشير إليه بالبندقية أن يبتعد، يقف «الزناتي» مصرًّا، أخيرا يستسلم الحارس للإلحاح، يدرك أن الرجل لن ينصرف ولن يخاف من السلاح الذي في يده، يتناول الورقة منه ويستدير مبتعدا بعض الشيء. أسمع صوت حسن وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، عاد الحارس مرة أخرى، يرخي سلاحه قليلا، يتحدث إلى «الزناتي» مشيرا إلى مكان ما، ولكن «الزناتي» يبدو غير فاهم، يحني رأسه ويدس وجهه بين القضبان، يحاول أن يجيد السمع، يقترب الحارس قليلا، فجأة.. في لمح البرق، يمد يده ويقبض على عنق الحارس، قبضة حديدية خانقة، يحاول الحارس التملص أو رفع سلاحه، ولكن «الزناتي» يزيد من ضغطه على رقبته حتى تجحظ عيناه، أجلس عاجزا أتابع عملية القتل التي تتم أمام عيني، أصرخ عاليا:

كلا.

كابوس لا يحتمل، يلتفت حسن نحوي، يلصق فوهة مسدسه في رأسي، يتمتم من بين أسنانه:

ولا صوت.. لا تفسد كل شيء.

ترتخي عضلات الحارس، تتطلع عيناه الجاحظتان نحو سماء لا تبالي به، يرفع «الزناتي» يده فينهار على الأرض، أنفجر باكيا ويزيد حسن من ضغط المسدس على صدغي. يرتقي «الزناتي» البوابة الحديدية ويصبح في الداخل، يربض على جثة الرجل مثل دبّ ويأخذ في تقليب جسده، يزيحه من الطريق، ينهض واقفا ويفتح

البوابة الحديدية، أظل جامدا وحسن يدفع بالمسدس أكثر في وجهي، يهتف بي:

انزل.. غادر السيارة.

أواصل البكاء وأنا عاجز عن الحركة، كيف لا يشعر بما هو مروّع وقاس في هذا الموت؟ يلطمني بقبضة المسدس، ضربة مؤلمة، ولكنها ليست في فداحة عملية الخنق البطيء، يصيح:

لا تبك كالنساء.. انزل.

أتشبّث بالمقعد رافضا التحرك من مكاني، يهبط وهو يتقد من الغضب، يفتح الباب الخلفي ويجذبني، أتوسل إليه:

أرجوك لا ترغمني.. يكفي ما رأيت.. لم آت قط لهذا الغرض..

قال فجأة:

أنت لم تر شيئا بعد، إذا كنت تريد أن أذهب معك إلى بلدتك التعيسة، فانزل واحم ظهري.

أحدق فيه مندهشا، هل يغريني، يعقد معي صفقة، يخادعني، يورطني؟! أظل متشبثا بالمقعد ولكن الحيرة دبّت في نفسي، أصبحت عاجزا عن التصرف، يؤلمني خدي وأشعر أنني عاجز عن التفكير، يعود «الزناتي» فجأة يجذبني من السيارة ويلقيني أرضا، يهتف:

لا وقت لدينا، يا ابن الزانية.

يمسك بخناقي ويرفعني من على الأرض، أنظر إليه في ارتياع، أشعر بالخوف منه أكثر من خوفي من المسدس المشرع أمام رأسي،

يدفعني في اتجاه البوابة وأنا عاجز عن التقاط أنفاسي، ألمح قدمي حارس الأمن وقد تم إخفاء بقية جسده تحت دغل من الأشجار، يقول حسن آمرا وهو يدفعني:

اتركه لي.. اذهب وضع العربة في مواجهة البوابة وأبقها دائرة.

لماذا يحاول أن يشركني وليست هناك أهمية لوجودي؟ من المؤكد أنه اكتشف مدى عجزي وسذاجتي، لكنه يصرّ على أن يجعلني على شاكلته. نجتاز الحديقة الخالية حتى الباب الداخلي، يخرج من جيبه عددا من المفاتيح، لا أدري من أين أحضرها ولا كيف ضبطها. أنظر إلى الخلف، يجلس «الزناتي» في العربة التي تسدّ مدخل البوابة بالفعل، يتم فتح الباب بسهولة كأنه يدعونا إلى الدخول، أرى البيت للمرة الثانية غارقا في العتمة ولكني أعرف تفاصيله،أقول متوسلا:

أرجوك.

يدفعني من الخلف، ويقول في نبرة خافتة ولكن حازمة:

لو تراجعت خطوة واحدة، فسيقتلك «الزناتي».

أتقدّم رغما عني إلى داخل المنزل، الآن أصبحت شريكه بالفعل، ضوء خافت في أحد الاركان ولكن المنزل يبدو خاليا كمقبرة. أنظر إلى الدرج المؤدي للدور العلوي، أتوقع أن تهبط «ذكرى» في أي لحظة، تماما كما فعلت في المرة الأولى، يستدير حسن نحوي، يلمع أمام عيني نصل سكين في العتمة، أتراجع مذعورا، ولكنه يدير السكين في يده بحيث يصبح المقبض في اتجاهي. يناولني السكين،

لا أستطيع أن أرفع يدي، أصابعي متقلصة ولا تستطيع الإمساك بشيء، أقول في همس مرتعد:

لا أستطيع.

يصر من بين أسنانه، يقول:

خذها؛ فستقف هنا أسفل الدرج، إذا استيقظت الخادمة الفلبينية، فعليك أن تمنعها من الصعود.

ـ لا أستطيع أن أفعل بها شيئا.

ـ فقط.. عليك ألّا تتحرك من هذا المكان.

يصعد الدرج من دون أن يحدث صوتا، وقفت واجفا، سكين لامع في يدي، وجثة في الحديقة، وقاتل يسد الباب، وآخر يصعد للطابق العلوي، وأنا مجرد ذبابة مرتجفة وسط شبكة من القتلة، أفكر في عرضه بالعودة معي، هل من المجدي أن أحضر قاتلا لينقذ روحا بريئة؟ هل يمكن أن تصدقني الشرطة وأنا بوضعي المزري هذا؟ أحاول أن أرى انعكاس وجهي على صفحة السكين، وبرغم العتمة أرى وجها غير الذي جاء إلى المدينة منذ بضعة أيام، هذا الكابوس المرعب شوّه ملامحي، هل قادتني فتاة نصف ميتة إلى كل هذا، أو أنني الذي ورطت نفسي؟ حماقة،جنون، قلة نضج، أسمع صوتا، أتخيل أن الخادمة الفلبينية قادمة، عليَّ أن أرفع السكينة وأبدو شرسا. أتلفت حولي فلا أرى أحدا، ولكن الصوت قادم من أعلى، امرأة تصرخ، صوت «ذكرى» وقد عثر عليها، صرخة ملتاعة يليها صوت طلقة مكتومة، خافتة مثل انفجار الهواء، لم تمضِ

لحظات حتّى سمعتُ صوت طلق ناري آخر، واضحا وصريحا، يدوي في البيت الخالي والضاحية الصامتة، لا بد أن الجميع سمعوه وسيتحركون،أتراجع صوب الباب، لا يهمني العملاق الذي ينتظر، المهم أن أبتعد.

أسمع صوت خطوات مترنحة، أرفع رأسي إلى أعلى لأجد «ذكرى» واقفة مستندة إلى السور العلوي، تميل برأسها المنفوش الشعر، تحدق نحوي بعيون فارغة، كأنها مستغربة من وجودي في هذا المكان، عارية تماما، يشع من جسدها نوع من الوهج في عتمة المكان، رأيت ثديها الأيمن مشرئبا بوضوح، بينما تضع يدها على الناحية اليسرى، تضغط عليه كأنها تحاول منعه من الانفجار، أريد أن أعتذر لها، ولكني كنت ممسكا بسكين ومشاركا في جريمة قتل ضدها. تجمدت في مكاني، أصوات صراع صادرة من خلفها، أشياء تتحطم، وصرخات مكتومة، وصراع محتدم، وفي تلك اللحظة سمعت صوت الطلقة الثالثة، كانت مكتومة، ولا بد أنها انطلقت من مسدس حسن، ولكن على من أطلقها؟ هل هناك شخص آخر؟ تحركت «ذكرى» من مكانها، خطت في اتجاه السلم متجهة نحوي، تراجعت خائفا من أن تتهمني بمحاولة قتلها، أتذكر قبلتها الحنون، أوشك أن أبكي، أن أجلس أمامها وأستغفرها. فوجئت بها تخور فجأة، تنثني ركبتاها تحتها ولا تستطيع التشبث بحاجز الدرج، تهوي ويرتطم رأسها بشعره المنفوش بحواف الدرج، درجة إثر أخرى، ضربات مكتومة ومتوالية، لا يتوقف جسدها عن الارتطام إلا بعد أن يصل إلى الدرجة الأخيرة، أهرع نحوها رغما عني، أراها تحدق فيَّ بعينيها الجاحظتين، وفمها المفتوح من الدهشة، وأسفل ثدييها

في الناحية اليسرى توجد فتحة صغيرة، تحيط بها بقعة سوداء من أثر البارود، ينبثق منها الدم، لم يقلل هذا الموت المروع من جمالها، أمد يدي المرتعدة وأغلق عينيها، وهذا كل ما قدرت أن أقدمه لها.

أنظر إلى الأعلى، هدأت الحركة وساد صمت متردد، لا أعرف كيف تمّ حسم المعركة. لم يظهر حسن، هل تغلب عليه الخصم الآخر؟ أسمع حركة أخرى بالقرب مني، أنظر حولي مرعوبا. من خلف الأستار التي تغطي الطرقة الداخلية أرى وجه الخادمة الفلبينية يطل عليَّ مرعوبا، إنها شاهد أخرس مثلي تماما، لا تجرؤ على الحركة أو الصراخ، يحدّق كل واحد منا في الآخر مفزوعا؛ هي ملتصقة بالحائط تخشى السقوط لو ابتعدت عنه.. نحن نعيش معا الكابوس نفسه، يظهر حسن أخيرا، يهبط الدرج مسرعا، يقفز من فوق جسدها المسجى بلا مبالاة، يمد يده ويمسك بثيابي من الخلف، يجذبني من على الأرض ويعاود دفعي أمامه، أحاول المقاومة ولكني ألمح المسدس الذي يمسكه باليد الأخرى، لا أنظر ناحية الخادمة الفلبينية حتى لا ألفت نظره إلى وجودها، أسير أمامه مستسلما، نخرج من البيت الملعون أخيرا، آخر ما أراه هو قدما جثة الحارس المخفية، كم جثة تركنا خلفنا في هذه المذبحة؟

لم يكن يحتاج إلى دفعي إلى السيارة، أريد أن أبتعد، كل البيوت التي تحيط بنا أضاءت أنوارها، وبدأت الكلاب الصامتة في العواء، لم يخرج أحد منهم إلى الطريق، كلهم بقوا خلف جدرانهم وأسوارهم، يجلس حسن في المقعد الأمامي، تنطلق السيارة قبل أن يحكم إغلاق الباب. نسير عبر شوارع مقفرة، تبدو «المنصورية» مثل مقبرة ضخمة، مضاءة وصامتة، لا يعترض سبيلنا أحد، نسير على حافة الترعة

السوداء، تتصاعد رائحة الطحالب العطنة، أملأ صدري منها لعلها تخفي رائحة الدم، تصدر السيارة صوتا مزعجا، تعلن عن جريمتنا، نصل أخيرا إلى الطريق السريع، تبدو الأهرام في لمحة خاطفة، وتلقي الأضواء الداكنة الصفرة أشعتها على وجه حسن فإذا به بالغ الشحوب، يضغط بأسنانه على شفته السفلى كأنه يحاول أن يكتم تأوهاته، أشعر بالاختناق، ولكني لا أجرؤ على التفوّه بكلمة. كنت خائفا منهما، لم أتصور أن يتم القتل بمثل هذه السهولة، حتى في أشد الحروب ضراوة لا يتم الأمر بهذا الدم البارد، يتكلم «الزناتي» أخيرا وهو ينظر ناحية حسن في قلق:

كان هناك صوت لطلق ناري، من دون كاتم للصوت..ماذا حدث؟

يقول حسن بصوت غريب:

العاهر العجوز كان يحتفظ بمسدس تحت الوسادة، حاول أن يقاوم.

ينظر إليه «الزناتي» بتمعن، تهتز السيارة فجأة وكأنه قد فقد سيطرته عليها، يقول مذعورا:

أنت تنزف.

ـ جرح سطحي، الرصاصة مرقت فقط بجوار كتفي.

ـ هل تستطيع الصمود حتى نصل إلى الدير؟

يصمت حسن، يبعد وجهه ويتظاهر بتأمل الطريق خارج السيارة، يلتفت نحو «الزناتي»، أسمعه يقول في صوت محدد وباتر:

لن أعود معك إلى الدير، عليَّ أن أذهب إلى مكان آخر، أوصلني فقط إلى محطة القطار.

مرة أخرى تهتز السيارة، أرتجف وأنا قابع في مكاني، يصيح «الزناتي»:

مستحيل أن تفعل ذلك.. أنت تعرِّضنا جميعا للخطر، ستنقلب الدنيا بعد لحظات، سينتشر رجال الأمن كالأرز على كل مداخل المدينة ومخارجها، يجب أن نختبئ بضعة أيام، كما تعودنا دائما.. بضعة أيام بعيدا عن الأنظار حتى يهدأ الحال بعد ذلك، ويمكنك أن تفعل ما تريد..

أكتم أنفاسي، لا أريد لأي واحد منهما أن يشعر بوجودي، لا أريد لهذا «الزناتي» حتى أن يربط بيني وبين رغبة حسن في الرحيل، ويصب جام غضبه عليَّ، يقول حسن:

سأدبر عملية الاختباء هذه المرة بطريقتي.

يزوم «الزناتي» غاضبا: أنت تجرّنا جميعا إلى الانتحار.

لكنه لا يتوقف، ولا يخفف من سرعته، ندخل في زحام المدينة الذي لا ينتهي، تتوقف السيارات جميعا عند مدخل المدينة حيث صفّت الحواجز، يبدو أحد ضباط الشرطة ومعه بضعة عساكر، دورية تتفحص السيارات المارة، أتنفّس في راحة، انكشفت الواقعة بسرعة وسيمسكون بنا. كنت في أمس الحاجة للوقوع في أيدي الشرطة، سأعترف بكل شيء، حتى بإمساك السكين وأنا واقف أسفل الدرج، ولكن الضابط يتفحّص وجوهنا مليا ثم يسمح لنا بالمرور، يصيح «الزناتي» متبرما:

أرأيت، هذه المدينة مزدحمة بالدوريات اللعينة، فماذا بعد أن ينتشر الخبر؟ سيتحفزون جميعا كالذئاب للإمساك بنا، يجب ألّا نغير خططنا..علينا أن نعود إلى الخلاء.

يقول حسن: نحن وجوه مجهولة وسط الزحام، لم يتعرف إلينا أحد.. واصل طريقك.

قال «الزناتي» متبرما:

لا بدّ أن هناك شاهدا ما، دائما هناك شاهد يرى كل شيء ولا يراه أحد.

أعرف أنه على حق، هناك شاهد ما، ولكن هل له القدرة على الشهادة بكل ما حدث؟

نواصل الزحف في شوارع خانقة، من السهل الضياع وسط هذا الزحام، يبدو النيل ممتدا، تتراقص الأضواء الملونة على صفحته، لونه الداكن يحتوي على أسرار الحياة والموت، نهبط من فوق الجسور الأسمنتية، تختلط السيارات بالناس، ويسير الناس محنيّ الرءوس، شاعرين بثقل الذنوب التي أحملها، أخيرا.. لا أصدق عيني ونحن ندخل إلى ميدان المحطة، أشم روائح خانقة، أطعمة محترقة وبقايا إطارات السيارات وكثافة العوادم، تشق السيارة طريقها بصعوبة وسط الباعة الذين يحاصرون الطريق المؤدي إلى باب المحطة، يهتف العملاق وهو يوقف السيارة:

لا بد أن أقول لك إنها خطوة خاطئة، سأذهب إلى آدم.. سأنقله إلى مكان لن تعرفه أبدا.

ينظر الواحد إلى الآخر، يبدو حسن غاضبا لفقدان الثقة، يتحرك «الزناتي» في مقعده ويأخذ في خلع معطفه بصعوبة، يقدمه لـحسن قائلا:

ارتد هذا حتى لا يرى أحد آثار نزف الدم، تذكر أنني حذرتك.

أسمع أقفال السيارة وهي تفتح، أهبط مسرعا قبل أن يغير «الزناتي» رأيه، ابتعد قليلا عن حسن، لم أكن أريد أن يستند إليَّ أو حتى يلمسني، يتحرك في وهن ولا يبدو في حاجة إليَّ، يضم المعطف ويسير فأسير خلفه بقليل، يراقبنا «الزناتي» وهو مقطب الوجه، متوقعا أن يتردد حسن أو يستدير عائدا، ولكنه لا يفعل، أسمع صوت عجلات السيارة وهي تحتك بالأرض، ينقشع عنا ظل «الزناتي» أخيرا، أزفر في ارتياح بينما يتوقف حسن مترددا، هل يسأل نفسه إن كان قد اختار الطريق الصحيح أو لا؟ يضم المعطف بيده، أرى يده الأخرى وهي خالية، لا تحمل مسدسا، هل تركه في السيارة، أو خبأه في ملابسه؟ يتحسس الأرض بقدميه، كأنه يبدأ خطواته الأولى إلى عالم غريب، بين زحام الوجوه المسافرة، ورجال الشرطة النائمين مستندين إلى الحائط كخيول متعبة، لو تخليت عنه في هذه اللحظة فلن يستطيع اللحاق بي. أستطيع أن ألجأ إلى شرطة المحطة وأروي لهم تفاصيل الواقعة، قبل أن يهرب سأكون قد أوقعت به، أقف مترددا، أراقب ظهره وهو يبتعد ببطء، أتذكر أنه قد جاء معي، استجاب لطلبي على الرغم من الثمن الذي يمكن أن يدفعه في سبيل ذلك، يلتفت إليَّ فجأة، يحدق فيَّ بعينين نافذتين كأنه يقرأ أفكاري، أقول في خجل:

لا يمكن أن نركب من دون تذاكر.. سأذهب حالا إلى الشباك.

لا يتكلم، يجلس مجهدا على مقعد خشبي نصف متكسر، يسلط عينيه عليَّ، أضع النقود أمام قاطع التذاكر بأصابع مرتعدة، يناولني إياها بلامبالاة، يعطيني تذكرتي ذهاب بلا عودة، أطبق يدي عليهما وأرفع بصري لساعة المحطة، أرى وجه ورد بدلا منها، لست قادرا على حرمانها من فرصتها الأخيرة، أعود إليه من دون أن أحاول الجلوس بجانبه، نصف مقعد لا يكفي اثنين من القتلة، لست قاتلا ولكني على الأقل شريك لقاتل. تنعكس أضواء المحطة على وجهه فتزيد من شحوبه، لا أدري مدى عمق الجرح الذي يعاني منه، ولا كمية الدماء التي نزفها، ولكنه فقد كثيرا من قوته وشراسته، وحتى تلك النظرة القاسية التي كانت تطل من عينيه قد تبددت، ولابد أن حسن الذي أحبتْه ورد المسكينة كان يشبه قليلا هذا المخلوق.

لم يظهر القطار بعد، على الرصيف توجد رزم من الصحف والمجلات متراصة في أعمدة طويلة، هل تحمل صفحاتها أنباء المذبحة التي حدثت، لو لم تنشرها اليوم فستفعل غدا بالتأكيد، ربما ينشرون صورتي أنا أيضا، تصدر من حسن أنّة خفيفة، ألتفت نحوه متسائلا:

هل أنت بخير؟ هل مازلت تنزف؟

يقول: يمكنني أن أقاوم.

يخيم علينا صمت متوتر، أضواء المحطة باهتة ومثيرة للشجن، أسمع صوت هاتف يرن في مكان ما، من عالم آخر، أتلفّتُ حولي، لا يوجد أحد بجواري، ينظر إليَّ حسن متوجسا، أمد يدي إلى جيبي

وأخرج الهاتف، «سميّة» تتحدث إليَّ، ومن يمكن أن يكون غيرها؟ هل مازالت تتذكرني؟ ظللت مترددا في الرد عليها، لم أكن أريدها أن تحدثني وأنا في هذه الحالة، محملا بذنب القتل، ولكني كنت في حاجة إلى أن أسمع صوتها، كنت ممتنّا للحظات التي وقفتها بجانبي، من الطرف الآخر، أسمع صوتها وهي تهتف:

أخيرا يا علي سمعت صوتك.. أين أنت؟

ابتعدت عن حسن، ليس كثيرا حتى لا أثير شكه، أقول لها:

مرّت أحداث كثيرة، ولكنني الآن في محطة القطار، أستعد للعودة إلى مدينتي.

يهتف صوتها وقد انتابها بعض من الحماسة:

هل عثرت عليه، أو أنك عائد وحدك؟

ـ لا أصدق أنني وجدته، ولكن هذا ما حدث.. إنه معي الآن.

تصمت قليلا، تقول بصوت فيه بعض من السخرية التي تشوبها المرارة:

لقد حقّقت ما جئت من أجله إذن، ولكنك بذلك ستضيع الفتاة التي أحببتَها.

ـ لم أكن أريد أن أستأثر لنفسي بفتاة نصف ميتة، من الأفضل أن تكون حية، فعلت ذلك كله حتى تظفر بحياتها.

ـ كنت أتمنى أن أعثر على شخص مثلك، يفعل من أجلي شيئا ما، يهب روحي بعضا من الأمل، يبدو أننا تقابلنا متأخرين يا صديقي.

صوتها متهدج، كأنها تحاول أن تمنع نفسها من البكاء،أقول:

أنت تبالغين، أنت بالتأكيد تستحقين من هو أفضل مني، أنت فتاة غير عادية وقد قدمت لي أشياء كثيرة.. ولا أنكر أنني استمتعت بصحبتك كثيرا.

تصمت قليلا، بدا أنها تحاول أن تبحث عن كلمات تقولها لي من دون أن تنفعل:

من الجيد أنك وجدته، يمكن أن تضيع منك هذه الفتاة، ومن المؤكد أنها لن تتعرف إليك، ولكنك ستستعيد حياتك، أنا أيضا أحاول أن أستعيد حياتي، لستُ بخير حاليا، ولكني سأنجو. لقد أفقتُ في الوقت المناسب، ونزفت كثيرا من الدماء. لست آسفة على هذا النزيف برغم أنه أوقفني على حافة الموت، ولكن أشعر الآن أن شرايين جسدي قد أصبحت أنظف، يمكنني الآن أن أبدأ حياتي بلا ذكريات ولا هواجس.

لا أفهم ماذا تعني، كلام غامض ومخيف، أقول في قلق:

كلامك يخفيني، هل وقع لك حادث ما؟ هل أنت بخير؟

ـ أنا أتحدث إليك الآن، هذا يعني أنني على قيد الحياة، الحوادث تقع والأخطاء ترتكب، ولكننا نحيا برغم ذلك.

ـ هذا أفضل، آسف لأنني مضطر إلى الرحيل من دون أن أودعك. كنت أتمنى ذلك فعلا.

ـ لا جدوى من الوداع يا صديق فلا يعقبه سوى الفراق، عدني أنك ستعود بعد أن تنتهي من كل هذا، عد إلى المدينة للبحث عني هذه

المرة، سأكون في انتظارك.. ربما نجلس ونتحدث بصراحة أكثر...

ـ أعدك بذلك.

يقبل قطار بالغ القدم، تماما كما يظهر في الأفلام القديمة، غير أنه لم يكن ينفث دخانا، كأنه خرج لتوه من أحد المتاحف، تدب الحياة في المحطة، أرى بعضا من سكان مدينتي وهم يقفون على الرصيف. يحملون الحقائب وعلى وجوههم أمارات الصبر المجهد كعادتهم، يبدأ الحمالون في رص ربطات الجرائد والمجلات، يسترعي انتباهي حمالون آخرون على كواهلهم صناديق غريبة، مصنوعة من شباك معدنية، داخلها طيور غريبة الشكل، نائمة على نفسها، تصفق بأجنحتها مفزوعة كلما تحركت الصناديق. حدقت فيها مندهشا، من أين جاءوا بها، هل هي طيور مهاجرة أوقعها الحظ السيئ في شباك الصيادين؟ يتدافع الجمع إلى القطار، يظهر فجأة بعض من رجال الشرطة، لكنهم يسيرون على الرصيف في تكاسل،لا أحد يلتفت نحونا، كنت أرتجف وأوشك أن أصرخ معترفا بالذنب، يظل حسن جالسا مذهولا يحدق في شيء لا أراه، أريده فقط أن ينهض حتى نختبئ في ظلمة القطار، أظل واقفا بجانبه خائفا أن يكون قد غيّر رأيه، يفكر في العودة والاختباء داخل الدير.

يتم شحن كل شيء كان موجودا على الرصيف، ويركب الجميع، لا يبقى إلا أنا وهو نقف بجانب الباب. يقبل الكمساري بثيابه الخضراء من بعيد، يسير متمهلا بخطوات غير منتظمة، كان هناك عرج في ساقه اليسرى، ينظر إلينا مستغربا قبل أن يركب القطار، يسير حسن في تثاقل، تضاءل حجمه بعض الشيء، من الممكن الآن أن أتعامل

معه من دون خوف، برغم أنني لا أعرف أين خبّأ مسدسه، يصعد إلى القطار وأنا خلفه، يسير إلى آخر الممر، نصل إلى مقعدين منفردين، يجلس على أحدهما وأجلس بجانبه، أحرص على ألّا أتلامس معه، كنت حذرا حتى لا تولد أي مشاعر من التواصل والمودة بيننا. تهدأ رجفتي، أحس أننا أصبحنا خارج هذه المدينة على الرغم من أن القطار لم يتحرك من موضعه. ألمح رجال الشرطة يشربون الشاي على الرصيف، كنا خارج تناولهم، في الوقت الحالي على الأقل، يظل الصمت مخيّما علينا، وبدا أن الركاب جميعا قد غرقوا في النوم، أقفاص الطيور المحبوسة مرصوصة فوق الأرفف، تنتفض أجنحتها في فزع كلما انطلقت صفارة القطار، يقبل الكمساري، أناوله التذكرتين، يقول:

هذه الرحلة طويلة ومحطات التوقف كثيرة؛ لذلك جئت مبكرا لأترك لكما فرصة للنوم.

أقول له، لمجرد الكلام: هل سنسافر طوال الليل؟

يمدّ الكمساري رأسه ويتشمم الهواء الذي يهب من النافذة، يقول:

لم يبق من الليل إلا قليل، ولكن الهواء يبدو ثقيلا ورطبا، يمكن أن يأتي الصباح بضباب ثقيل..ربنا يستر ولا تغيب الرؤية من أمامنا.

لا ينظر حسن ناحيته، ينصرف الكمساري وهو يعرج، أرى عددا كبيرا من رجال الشرطة يتجمّعون على رصيف المحطة. في هذه اللحظة يبدأ القطار في التحرك، أتنهد في ارتياح، ينزاح عبء المطاردة من فوق صدري، أفطن في هذه اللحظة إلى أنني أفكر بمشاعر المجرم الهارب نفسه، تصر عجلات القطار وتصطدم مؤخرات العربات

بعضها ببعض، ترتج فوق القضبان كأنها لا تسير على أرض مستوية، لا ينتظم الإيقاع إلا حين تختفي البيوت والأضواء ونصبح خارج المدينة. يظل حسن صامتا، لا يتحرك، ولا يعدل جلسته أو يأخذ راحته، أسمع صوت أنفاسه وهو يلتقطها بصعوبة وبصدر مجهد، ينهض رجل من الركاب، يسير في الطرقة متلفتا حوله، ينظر من نافذة مفتوحة، يهتف مفزوعا:

لقد ركبت القطار الخاطئ.

لا أحتمل صمت حسن، ولا أطيق ذلك الغموض الذي يحيط بي، كنت مشحونا بالأسئلة والمخاوف، أقول في صوت خافت، ومن دون أن أنظر إلى وجهه:

لم أشاهد مثل هذه المذبحة المروعة في حياتي، لن أنام بعد اليوم من دون أن تهاجمني الكوابيس.

تمرّ فترة من الصمت، حسبت أنه لم يسمعني، ولكن سمعت صوته أخيرا وهو يقول:

أنت لم تر شيئًا إذن..

لا أحد منا ينظر إلى الآخر، ليس أمامنا إلا جوف العربة المظلم، القطار كله غرق في الظلمة واختفت المعالم من حولنا، أشعر أننا أصبحنا وحيدين في العالم بلا رقيب، يمكن أن نسأل كل الأسئلة مهما كانت مرارة الإجابات، أقول له السؤال الذي حيرني طويلا:

لماذا فعلت كل هذا؟

يقول بنبرة من السخرية:

تعني لماذا تحولت من معيد بكلية الهندسة إلى قاتل محترف؟ هل تتصور أن هناك إجابة بسيطة ومباشرة لذلك؟

تشجعت لأنه يرد عليَّ، ولأن كل واحد منا لا يرى وجه الآخر:

كانت لديك أشياء كثيرة، كل شيء إلا قليلا؛ وظيفة مرموقة، وفتاة تحبك، ومستقبل مفتوح.

ـ كان ينقصني شيء واحد، الخنوع.. كان يجب أن أحني رأسي وأشكرهم على كل ما فعلوه بي وما فعلوه بأبي من قبل، أظهر امتناني لأنهم قتلوه تحت أحذيتهم، ودمّروا مستقبلي من بعده، ألعق الأحذية التي داست عليَّ، وأقبّل الأيدي التي أَغلقت عليَّ مزاليج السجن، هل جربت السجن من قبل؟

أهزّ رأسي نافيا، لا يراني ولكنه يواصل كلامه:

ما حدث لي لم يكن سجنا عاديا، كان جحيما، وضعوني حتى يدفعوني إلى حافة الانتحار، دخلت السجن فقط بتهمة التظاهر والدعوة إلى التغيير، ولكنهم تعاملوا معي بكل قسوة، رفدوني من وظيفتي، ووضعوني تحت الحبس المشدد، وأضافوا إلى التهمة السابقة تهما أخرى خطيرة جعلتهم يعتدون عليَّ في السجن كل يوم، ماذا كنت تتوقع مني أن أفعل؛ أن أستسلم لهم وأتركهم يغتالوني كما فعلوا بأبي؟

أعرف أنه على حق إلى حدّ ما، تذكرت كلمات «عبد المعطي»، ولكني قلت معترضا:

ولكنك تحوّلت إلى قاتل، مستحيل أن يتحول المرء إلى قاتل بمثل هذه البساطة.

كان هذا أفضل من أن أصبح خانعا، كان يجب أن أفلت من دائرة الخنوع الذي كان أبي يدور فيها.

ولكنك لم تقتل من رفدوك ولا من سجنوك، قتلت ذكرى البرعي، هل كنت تكرهها إلى هذه الدرجة؟

نغرق في الصمت، ويرتفع صوت صفارة القطار كأنها تحذر من شيء ما، ظهرت فجأة أرصفة محطات غير معلومة، أسماؤها مكتوبة بلغة لا تقرأ، يقف عامل «البوفيه» يحمل صينية عليها أكواب من الشاي، يقلب فيها وهو يردد: شاي ساخن..سكر حلو، لا نلتفت إليه، ينصرف يائسا، أسمع حسن وهو يقول ببطء:

كانت المرأة الوحيدة التي اشتهيتها، أعطتني جسدا متوهجا بالرغبة، وكنت ما أزال أحمل في أعماقي جوع السجن، قضيت في فراشها أمتع اللحظات التي عشتها، المشكلة أنها كانت عقبة علينا أن نجتازها، وكان لا بد من قتلها.

ـ لماذا؟ كانت تبدو مفتونة بك، كان هذا واضحا من كلامها عنك، لماذا فعلت بها ذلك؟

لا أدري إن كان سيجيبني بصراحة أو لا، ولا أدري إن كان يتأوّه من جرح كتفه، أو من أسئلتي المباشرة، ينهض الرجل يصرخ مرة أخرى في الجميع من جديد أن هذا ليس قطاره، والمحطة التي يريدها لن يصل إليها أبدا. يحاول بائع الشاي أن يعطيه كوبا، ولكنه يصيح أنه يفضل السم على تغيير وجهته، تخف الظلمة قليلا، يتسلل إلينا ضوء شحيح من أعمدة بعيدة، تنتمي إلى أرض أخرى، أتأمل جانبا من وجهه، يظهر جبينه اللامع المغطى بالعرق، يبدأ في الكلام

مرة أخرى، حديثه غير منتظم، يقول جملا متصلة أحيانا، وكلمات متقطعة غالبا، تتوقف أسئلتي لأنني أدرك أنه لن يستمع إليَّ، يبدو وكأنه ترك جسده جالسا بجانبي، وعاد خلف قضبان السجن، عن غير قصد كان يسد الثغرات التي لم أعرفها، يتحدث عن اللحظة التي غيّرت مسار حياته:

الشاويش حمزة.. شارب ضخم وكتلة من السفالة وقلة الأدب. أكره أن يقترب مني.. يقشعر بدني.. ولكنه يتحدث معي بنعومة.. ياباشمهندس.. يسير بجانبي من دون أن يحاول دفعي.. لا أدري إلى أين يقودني.. من دون شك كان يقودني إلى زنزانة الحبس الانفرادي.. ليس أقل من ذلك.. ماذا تفعل بسجين طعن سجينا آخر؟ لم أحتمل استفزازه ومحاولاته للتحرش الجنسي مع صديق تعرفت إليه في السجن.. صديق خانع.. ضعيف الشخصية.. فرخة كما كانوا يطلقون عليه.. كرهت أن أراه خانعا ولم أتحمّل أن أراه وهو يُغْتَصَب.. طعنت الرجل طعنة خفيفة ليرتدع.. لم أقصد قتله طبعا.. ولكن انظر كيف تغيّرت.. السجن زرع في داخلي «حَسَنا» آخر.. جعلني أفكر بطريقتهم.. أقتل حتى أنجو.. حتى لا يسحقني أحد.. هذا الشاويش كشفني بعينيه الخبيرتين.. لم يتعود سوى على مخالطة القتلة.. يعرفهم جيدا.. لذلك اكتشف مؤهلاتي الدفينة.. استعدادي للعنف دفاعا عن نفسي إلى حدّ الدم.. عدم مبالاتي بالإيذاء البدني.. نسير معا بعيدا عن عنبر الانفرادي... نعبر مساحة واسعة من الأرض الضحلة.. نخوض وسط طين وأعشاب وطحالب عفنة وحشرات لا تكفّ عن الطنين.. منطقة عازلة لم يحاول أحد إصلاحها أو ردمها.. حاجز طبيعي بين عالم السجناء الحقراء وذلك العالم البعيد الغامض.. برغم أنه كان معنا

في السجن نفسه.. كنت أنا والشاويش حمزة نسعى إليه.. نقف أمام باب عنبر.. مطلي من الخارج بالجير الأبيض الذي تخالطه الزرقة.. طلاؤه غير متساقط، ولا ينشع بالرطوبة مثل عنبرنا.. أقف مستندا إلى الحائط.. خائفا ومندهشا ولكني لا أظهر ذلك، الشاويش حمزة يتهامس مع بعض العساكر، أغمضت عيني.. تذكرت ورد في لحظة خاطفة.. جسدي المهان لم يعد صالحا لها.. فتحت عيني مع صوت الباب وهو يفتح.. خرج شخص.. الشخص الذي أنتظره ولم أقابله من قبل.. ومع ذلك أعطيته مفتاح حياتي.. لا يرتدي ملابس السجن الخشنة التي أرتديها.. ولكن «تريننج سوت» أزرق واضح الفخامة ومن ماركة معروفة.. كان حجمه ضخما بوجه طفولي بالغ الوسامة.. كأنه لم يكف عن رضع الحليب إلا بعد سنوات طويلة.. يسير أحد العساكر خلفه في طاعة.. تحفزت حين رأيته..لماذا يريد مثل هذا الشخص مقابلتي؟ المسألة فيها شذوذ وهذا ليس طريقي.. الانفرادي أحسن.. توقف الرجل وأشار آمرا للعسكري.. ابتعدْ أنت.. ابتعدْ من فورك.. أكره العساكر عندما يستأسدون علينا ويتخاذلون أمام هؤلاء الناعمين، ولكن الشخص يتقدم ويمد يده إليَّ قائلا: «أكرم البدري».

لا أستطيع أن أكتم شهقتي، هذا الرجل ذو الوجه الطفولي كذب عليَّ، استدرجني لرقصة «تانجو» وأخذ مني كل ما يريده من معلومات، عرف أنني أقضي الليل على فراش حسن في «قلعة الكبش»، لا بد أنه هو الذي أوقع بي وأرشدهم إلى مكاني، أرادهم أن يتخلصوا مني حتى يخفوا أثرهم تماما، ما كلّ هذه الظلمة التي تحيط بنا، لا يفطن حسن لشهقتي، كان ينبوع الكلام قد انساب في داخله ولم يعد من الممكن إيقافه:

بداية غريبة..أليس كذلك؟ اثنان من الغرباء يخترقان قوانين السجن.. سار معي وقدم عرضه لي من فوره، قال: أنت هنا تحت حمايتي..لن يجرؤ أحد على رفع إصبعه في وجهك وأنا موجود. تلقيت كلماته بسخرية، كان هو نفسه تحت العقاب، هل كان يغريني.. يراودني عن نفسه؟ ولكني اكتشفت فيما بعد أنه كان على حق، لم يجرؤ أحد على الاقتراب مني، لا السجناء ولا الحراس. تصور.. حتى السجين الذي شوهت وجهه تلقّى أمامي علقة موت.

لم يطلب مني شيئا محددا في المقابلة الأولى، وفي المرة الثانية أخبرني أنه كلف محاميا شهيرا، على صلة ممتازة بمباحث أمن الدولة، سيفتح ملفي مرة أخرى ويرفع قضية للمطالبة بالإفراج عني، وفي المرة الثالثة سألته مباشرة عما يريد، قال لي من فوره: أريد أن أنتقم من كل الذين خانوني، ستساعدني على أخذ ثأري، وأساعدك على نيل ثأرك، هكذا طرح الأمر بصراحة ووضوح، تحدث عن كل الذين تكاتفوا من أجل إدخاله السجن. من الغريب أنني وجدت عرضه منطقيا، كان يحمل شحنة الغضب نفسها التي أحملها، يمتلئ العالم من حوله بكل الذين خانوه وتألبوا عليه؛ الرجل القوي الذي استغل سلطته السياسية ليلقي به في السجن، وشريكه في العمل الذي انفرد بعمله واستولى على نصيبه، والصديق الألد الذي استولى على زوجته الأليطة، كيف يمكن أن تستقيم الحياة وهم على قيد الحياة، تحدثنا طويلا عن حياته وقدراته التي سيوجهها للانتقام، فقد كثيرا من ثروته، ولكن ليس كل شيء، لديه حساب مكون من عدة أصفار، وعقارات ورثها عن أهله.. لم يقدر أحد على انتزاعها منه، سيضع كل ما لديه تحت أمري حتى أخلص عالمه من هؤلاء الثلاثة، ولكن

الأهم هو أن يتم الأمر بعيدا عنه، لا تحوم حوله شبهات من أي نوع، لا يريد أن يعود إلى السجن مرة أخرى. كنت أشاركه غضبه وحنقه، في داخلي رغبة حارقة في الانتقام، ولا أعرف أين أوجّه انتقامي، الذين قتلوا أبي، مُخْبِر الجامعة الحقير الذي أوقع بي، ضباط أمن الدولة الذين امتهنوني، إدارة الجامعة التي تواطأت معهم ورفدتني من عملي، لم يترك «أكرم البدري» لي فرصة للتراجع أو التردد، سيساعدني أيضا في الانتقام منهم جميعا، توحدت رغبتي معه، أصبح أعداؤه أعدائي، جميعهم إفراز لنظام فاسد كرهته منذ أن مات أبي. كان لا بد من قتل هؤلاء الثلاثة كمقدمة.. تمرين للتخلص من بقية الفاسدين.

خرج هو من السجن قبل أن أخرج، ولكن بعد خروجه بيومين فقط جاء أحد المحامين وقابلني، أول مرة أشعر أن هناك من يهتم بي ويسعى لإخراجي من هذا الجحيم، ولكن الخروج النهائي لم يتحقق إلا بعد شهر كامل.. خرجت وأنا لا أصدق أنني عدت إلى دفء الشمس ورطوبة الليل بعيدا عن الزنازين، وكان «أكرم» في انتظاري وقد أعد كل ترتيبات فريق الخلاص؛ الرجال الذين سيتعاونون معي، والمخبأ الذي سألجأ إليه عقب كل عملية.. ما أشدّ سهولة القتل.. ليس هناك أفضل من أن يتخلص الكون المزدحم من زائدة دودية.. العملية الأولى أزالت من داخلي كل تردد.. كان شريك «أكرم» السابق مرعوبا حين أيقظناه من النوم ورأى أسلحتنا مصوبة لصدره، بدأ يبكي ويتوسل ويحاول أن يقبل أقدامنا، وحين علقناه في حبل المشنقة وارتجف جسده رجفة الموت الأخيرة، أحسست أنا أيضا برجفة تسري في جسدي، بقوة ونشوة تمتصانني من خوف

الضحية، تتحول داخلك إلى طاقة إضافية، لا بد أن مصاصي الدماء كانوا يشعرون بذلك. كان هذا الشريك حقيرا ويستحق الموت وقد سهل هذا من عملية موته كثيرا.. المشكلة الحقيقية كانت في الوصول إلى الرجل الكبير؛ الباشا الحوت كما كانوا يطلقون عليه، كان حذرا، لا يسير إلا في ظلّ حراسة مشددة، يعلم أن كثيرين يتوقون إلى موته، لكنهم أعجز عن ذلك، هو الذي يبادرهم دائما، ليست له نقطة ضعف يمكن النفاذ منها، إلا وهو في فراش «ذكرى»، مبالغته الشديدة في التخفي وهو ذاهب إليها جعلته لا يصطحب معه من الحرس إلا واحدا، أما هي فقد كانت تخلي البيت من الشغالين، لا تبقى إلا على شغالة فلبينية واحدة، معلومات كثيرة كان يجب أن أعرفها قبل أن أخطو خطوة واحدة، متى يأتي الباشا، ومتى يغادر؟ ما مسالك بيتها؟ وأي غرفة يلتقيان فيها؟ وكيف أنفذ إلى داخلها من دون صوت؟ ولأعرف ذلك كله لا بد من الوصول إلى فراشها.. للسخرية كان «أكرم البدري» هو الذي قادني إليها، وتركني بعد ذلك أقوم ببقية العمل.. كانت امرأة فاتنة، لم أر أجمل من جسدها العاري، كان ممتلئا لحافته بالرغبة والجوع؛ لذلك انقاد بسهولة لجسدي الأشد جوعا وكأنه كان في انتظاري، يخيّل إليَّ أحيانا أنها كانت تعرف أنني سأكون سبب موتها، وأنها استعذبت هذا الموت، ذروة المتعة هي أدنى درجات الضعف، لم تسلم لي جسدها فقط ولكن أسلمت كل أسرارها، هذه الحمقاء.. نسيت أن «أكرم البدري» هو من قدمني إليها، أقنعت نفسها بكل التبريرات الواهية التي قدمتها لها، هل كانت تتمنى موتها على يدي؟ هل كانت تدرك أنه لن ينقذها من مضاجعة الباشا المحنط سوى الموت؟

توقف عن الكلام لاهثا يسود صمت وتعلو أصوات العجلات، يصرخ القطار في البرية، ألمح الرجل الذي أخطأ في ركوب القطار وقد جلس مجهدا، وعلى الرغم من كثرة المحطات التي توقف بها القطار لم يفكر في النزول، أتساءل في حيرة:

لماذا أرغمتني على أن آتي معك إذن؟ كان يمكن لوجودي أن يفسد كل ما خططت له، هل أردت فقط أن تجعلني شريكا لك، أو فقط لترغمني على الصمت؟

ـ أردت أن تراني كما أكون.. من دون أوهام.. وأن تعرف أنك أيضا لست بريئا كما تتظاهر، يمكن أن يستيقظ الجانب المظلم في داخلك في أي لحظة.. عند أول ضغط.. الجانب الذي لم تره من نفسي.. كنت متأكدا من أنك لن تفسد شيئا.. لأنك لم ترفض مشاركتي بالدرجة الكافية.. تظاهرت فقط بالمقاومة ولكنك قمت بأداء كل ما هو مطلوب منك..أليس كذلك؟

كان كريها..لا تبدو عليه ذرة من ندم، وعلى الرغم من أنه جاء معي طائعا فقد شعرت فجأة بالخجل من صحبته. بدأت تلوح على بعد أضواء خافتة لإحدى القرى، لم تكن كافية للتغلب على الظلام، هل كان هذا كل ما أسعى خلفه؟ إذا كان الأمر هكذا فلن يحدث ما تصورت أن يحدث، ولن تعيد الحياة إلى جسدها الواهن لمسات من قاتل محترف، أسمع صوته وهو يقول في تردد:

أشعر أنني قد مضيت بعيدا، أبعد مما كنت أتوقع، من أجل هذا جئت معك، ربما لو انقلبت الآية واستطعت أن أنقذها من الموت، ربما تنقذني هي من لعنة القتل وتطفئ داخلي حرقة الانتقام.

صوته واهن مليء بالتردد،هل هو تردد الندم، أو وهن النزيف؟ أعرف أنه لن يكون قادرا على إيقاظها، كل ما أتمناه أن يواصل القطار سيره بلا توقف ولا تأتي بلدتي أبدا. أنظر إلى وجهه، كان قد أغمض عينيه، وغرق في النوم، يسود العربة صمت وترقب، ويبدأ الظلام في التحلل ببطء. تظهر طبقة رقيقة من الضباب نائمة فوق الأرض المزروعة، يتنفس الصبح ويتسلل ضوء شحيح للعربة، تنحسر غلالة الظلمة عن ملامح الركاب الغارقين في النوم، معظمهم كهول وجوههم شاحبة، كأن العربة تسعى إلى مستشفى العجزة. أنهض واقفا لأحرك مفاصلي التي تيبست، تحدق في عيون الطيور الصغيرة المستديرة، استيقظت مثلي، تحاول أن تحرك أجنحتها ولكنها يرتطم بعضها ببعض، لونها رمادي، مثل كل شيء حولي. أتجه إلى الرجل الذي ركب القطار خطأ، يجلس منكس الرأس، أربتُ على كتفه، يرفع إليَّ وجها مغطى بالدموع، أقول له:

إلى أين تقصد يا بلدينا؟

يقول في صوت هامس: لم أعد أذكر يا بني.. لم أعد أذكر..

أتجوّل قليلا في الطرقة الممتدة، بعض الركاب يغمغمون وهم نيام؛ بعضهم يضحك وبعضهم يئن، في نهاية العربة يجلس الكمساري البدين فوق رصّة الجرائد، أخرج واحدة منها وأخذ يقرأ فيها باهتمام، حين اقتربت منه يرفع رأسه نحوي وهو يقول:

تصوَّر في كل يوم أتوقع أن أقرأ خبرا عن تصادم هذا القطار، ولكن هذا لا يحدث، كل القطارات تتصادم في كل مكان في العالم، فلماذا لا يحدث شيء لهذا القطار المنحوس؟

أقول له مستغربا: هذا فأل سيئ.. لماذا تريد أن يصطدم القطار؟

ـ إما موتٌ، وإما إجازةٌ مفتوحة.. أي شيء أفضل من هذا الوضع..

أتناول منه الجريدة وألقي نظرة سريعة على الصفحة الأولى، لا أجد شيئا عن مذبحة المنصورية، أعيدها إليه، يعود إلى القراءة وهو لا يكف عن التعجب، خلفه يجلس عامل البوفيه على الأرض، يضع يده على خده وقد استغرق في النوم، وعلى حاجز صغير من عربة القطار توجد صينية الشاي، مليئة بأكواب الشاي البارد. واضح أنه لم يستنفع من الزبائن بأي شيء، يقف أمامها جندي حراسة القطار وهو يشرب كوبا إثر آخر، أتأمل قوامه الهزيل، وبندقيته الخشبية، كنت متأكدا أنها خالية من الطلقات، ولا فائدة من إبلاغه بأي اعتراف، أعود مرة أخرى إلى حسن مغمض العينين، لا أدري إن كان نائما أو يراقبني من تحت جفونه، لحيته نابتة، وشعره متموج الخصلات، ولا تشي ملامحه بأي شيء مما قام به، مستكينا لأنفاس الضباب التي بدأت في التسلل من النوافذ، تحيط بوجهه، وتمحو ما عليه من تجاعيد القلق والغضب والحنق، شوائب المدينة التي حولته من عاشق.. إلى قاتل، ترى هل لاحظ كيف تغيّر طعم الضباب وأصبح أكثر كثافة، وهل أحس أن رطوبته قد زادت وأنه أصبح معبقا بنتف القطن وروائح الأصباغ وعرق العمال وقليل من عطن المدينة؟ تعود الرائحة لتعبق رئتي من جديد، لو أنني مددت يدي من النافذة فستترسب عليها ذراتها، باردة ولزجة بعض الشيء.

تتزايد كثافة الضباب، تتوارى الحقول خلف القطار، ندخل الآن أطراف البلدة، لا أراها ولكني أشعر بها، مرسومة في ذاكرتي،

بيوتها المتراصة مبنية بالطوب الأحمر، باقية هكذا من دون طلاء لسنوات طويلة، شوارعها مليئة بأطفال صغار، يبحثون عبثا عن أبواب مدارسهم وسط الضباب. يسير القطار وسط سديم من البياض، تستقبلنا المدينة بوجه محايد خال من التفاصيل، تهدأ العجلات ويقل احتكاكها بالقضبان، وتكف العربات عن الاصطدام بعضها ببعض، تخفت الأصوات ويواصل القطار سيره سابحا متوحدا على قضبان لا ترى، أحس بكل جروحي تلتئم، يتبدد عن نفسي عناء الأيام الماضية، أتخيل بيتنا وغرفتي وسريري الصغير عليه غطاء من وبر القطن الناعم، وجمجمة فارغة الحدقتين فيهما زهرتان ذابلتان، كلها تنتظر عودتي، أفكر في ورد الواقفة على رصيف المحطة، هل يمكن أن يمر القطار وسط هذا الضباب فلا نراها ولا ترانا؟ نمضي جميعا إلى مصير مجهول لا نتعرف فيه على وجوهنا ولا ندرك مصائرنا. يصفر القطار أخيرا، صفارة وحيدة وقصيرة كصرخة استغاثة، يفتح حسن عينيه، لم تكونا قاسيتين كما تعودت أن أراهما، كانتا لامعتين كأنهما ممتلئتان بدموع ترفض الانحدار، يسأل:

هل وصلنا؟

أقول كاذبا: لا أعرف، لا أرى شيئا.

يقول في تأكيد: لقد وصلنا.

كان مثلي يحس بنبض البلدة القديمة، ولكن هل أحس بوجود ورد؟ تباطأت سرعة القطار وواصل توغله في الضباب الشاحب الهش، يبدأ قلبي في الخفقان سريعا عندما يتوقف القطار نهائيا، تصرّ العجلات في صوت واهن ثم تسكن عن الحركة، نظل جميعا

جامدين في أماكننا، لا توجد الضجة المعهودة للمحطة، لا نرى هجوم الحمّالين، ولا نسمع أصوات تدافع الركاب. يحدق حسن في النافذة بعيون فارغة، للحظة أتخيل أننا جميعا موتى، وهذا الضباب كفن هائل يحيط بنا جميعا، نفيق جميعا عند سماع وقع أقدام ثقيلة، تهزّ أرضية العربة الساكنة، يبرز عم جمعة ناظر المحطة بحجمه الضخم من بين الضباب، يحمل في يده فانوسا مضيئا، يرفعه عاليا ليتأمل وجوهنا، لا تبدو عليه الدهشة من وجودي أو وجود حسن، يهز رأسه فقط ببطء كأنه يقول لنا: وصلتم أخيرا. أنهض وينهض حسن في إعياء، ألمح جزءا من قميصه الذي يغطيه لون داكن، دم جاف، يضم معطفه حتى يخفيه عن العيون، أشير إليه فيسير أمامي، نهبط من باب القطار وينزاح الضباب قليلا إلى الوراء. يسير عم جمعة أمامنا، يشق طريقه بواسطة فانوسه المضيء، يظهر أمامنا عزّوز المهرج، يبدو شكله واضحا بسبب ثيابه الفضفاضة الملونة، ووجهه المغطى بالأصباغ وأنفه الملتصق به كرة حمراء. يحدق فينا ونحن نمر أمامه، لا يحاول أن يخدش الصمت بكلمة واحدة، فقد تبدو على وجهه ابتسامة واسعة وحزينة، بعد ذلك يظهر «عطية الزماني» الحلاق، يرتدي معطفه الأبيض، ويبدو شعره شديد اللمعان من كثرة «الفازلين»، يراقبنا بعيون محملقة، ويبدو شكله غريبا وهو صامت، ثم يظهر محروس المخبر منزعجا، يبرم شاربه في قلق ويضرب معطفه الأصفر بالخرزانة، ولكن ما يدهشني أكثر من الجميع هو الدكتور «أمشير» الطبيب الشرعي؛ يقف متماسكا يحاول أن ينصب قامته. من المؤكد أنه لم يشرب هذا الصباح، لو أنه شرب قليلا لكانت حالته أفضل. ينظر نحونا ويتمتم بشيء ما،

ربما كانت تعويذة قديمة، أو يعيد على نفسه قسم «أبقراط»، ثم ظهر الضابط شخصيا بملابسه الرسمية، لا أدري ماذا جاء به، ولا ماذا يفعل هنا. ينقبض قلبي وأحس أن هناك مصيبة، كان يقف عاري الرأس، وقد وضع غطاء الرأس تحت إبطه، لا أدري لماذا حضروا جميعا، ومن الذي أخبرهم بموعد وصولنا. يواصل جمعة السير وينزاح الضباب أكثر، أرى الأب جالسا على الأرض وأمامه كومة من الحطب المطفأ وكوز الشاي فارغا، ينهض واقفا عندما يرانا، يسير خلفنا حتى نصل جميعا للمظلة الخشبية، أرى شبح ورد وهي تقف تحتها، معجزة صغيرة أخرى، مازالت موجودة، واقفة وعلى وجهها غطاء رقيق. لا بد أن عم جمعة قد حاول أن يحمي وجهها من تقلبات الجو، ترتدي بقايا معطفي، تحول إلى هلاهيل معلقة على جسدها، يظهر جزء من فستانها ذي الأزهار، هو أيضا في حالة يرثى لها، يزيح جمعة القضبان الحديدية التي تلتف حولها ثم يتنحى جانبا، أقف أنا أيضا على الجانب الآخر، نترك حسن في مواجهتها، يتطلع إليها مشدوها، كأنه يحاول أن يرى محبوبته القديمة خلف هذه الأسمال. يتطلع نحوي ونحو عم جمعة، ووجهه شديد الشحوب ولا يستطيع التحكم في رعدته، لا أدري إن كان نزيفه قد توقف أو لا، يتغلب أخيرا على تردده، يخطو نحوها، يصبح أقرب ما يكون إليها، يمد أصابعه المرتعدة ويمسك الغطاء الذي يغطي وجهها، يرفعه ببطء، أغمضت عيني حتى لا يفاجئني منظر وجهها، أخشى أن أرى الموت وقد شوّه هذه الملامح الرقيقة، أتوقع أن أسمع عويل حسن وتفجعه، ولكن الصمت المتوتر ظل سائدا. أفتح عيني وأراه يحدق فيها مذهولا، ملامحها مازالت واضحة، جامدة كأنها ترتدي قناعا

من الشمع، غارت وجنتاها وأصبحت عيناها أكثر جحوظا كأنهما على وشك الخروج من محجريهما، شفتاها رفيعتان مضمومتان الواحدة إلى الأخرى، كأنهما قد يئستا من طول الانتظار، تجرأ حسن ومد أصابعه مرة أخرى ولمس شعرها المسترسل، تهرأ الشال الذي يغطيه، يزيح آخر بقاياه، يتخلل خصلات شعرها بأصابعه، يزيل ما علق بها من قش وخيوط عناكب وحشرات جافة،لا يبدو عليها أنها قد أحست بوجوده أو بلمساته، هل كنت مخطئا؟ هل ضاعت رحلتي هباء؟ أنظر إلى جمعة وهو يرفع مصباحه عاليا لينير وجهها، يلقي عليها شعاعا من حياة، يساهم بما هو مطلوب منه من دون تردد، لا يتراجع حسن ولكنه يقترب منها أكثر، لا بد أن أنفاسه الآن تلامس وجهها. يمد يده ويتحسس وجنتيها وجبينها وطرف أنفها وشحمة أذنيها وشفتيها وذقنها ورقبتها، ينقل إليها بعضا من دفئه، لعلها تتذكر لمساته، لا أعتقد أن أحدا قد جرؤ على الاقتراب منها إلى هذا الحد، يدخل يده في شعرها مرة أخرى، يمسح عليه قليلا بباطن كفه، ثم يفاجئنا جميعا وهو يميل عليها. يمد شفتيه ويلمس شفتيها؛ أشهق في دهشة، لا يبالي بالموت ولا بالبرودة، يواصل قبلته، يحاول أن يجعلها تشعر بشفتيه، كان واثقا أنه حتى الموت سيجعلها تحس بقبلته، وأنها لا تقف جامدة هكذا إلا من أجل انتظار هذه القبلة. سمعت أصوات عصافير تغرد من مكان ما، وانزاحت السحب قليلا فلمحت شيئا من زرقة السماء، ورفرفت طيور القطار الغريبة وقد هربت من أقفاصها، أسمع فجأة صوت شهقة، ألتفتُ نحوها، ينتفض جسد ورد في وهن وهي تحاول أن تلتقط نفسا آخر، وجه جمعة مغطى بالدموع، ولكنه مازال يرفع مصباحه. اتسعت الفتحة التي تبدو منها زرقة السماء، ولمعت شهب غريبة، استضاءت وانطفأت

مثل حلم عابر. يمد حسن ذراعه ويلفه حول وسطها، يأخذ جسدها الجامد كله في أحضانه، ينقل إليها بعضا من دفئه وشوقه وتوقه ورغبته وحياته، يحرك يده على ظهرها ليزيد من ضمها إليه، يترك الفرصة لخلاياها حتى تتشرب هذه الدفقة الجديدة من الحياة، بعد برهة يختلج جسدها من جديد، يذوب تصلبه، يرتاح صدرها على صدر حسن ويميل رأسها قليلا على كتفه، أرى وجهها بوضوح أمامي؛ يتغير لونه، يذوب قناع الشمع الذي يكسوه، يمتصه جلدها الآخذ في الدفء، ترتد عيناها الجاحظتان إلى الخلف، تسكنان في محجريهما مرة أخرى، ثم تنسدل الجفون عليهما، أخيرا أصبحت لها القدرة على أن تغمض عينيها المتعبتين اللتين أمضّهما الانتظار. يصفر القطار عدة صفارات متتابعة، ويتراجع الضباب وينتفض جسدها مع كل صفارة، أحس بيد الأب تمسك بيدي وتضغط عليها بشدة مؤلمة، كان على وشك السقوط لولا أنه تشبث بي، كنت أنا أيضا في حاجة إلى من أتشبث به، أنصت إليه وهو يتمتم في صوت خافت: سبحانك ربى! تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي. يتقدم عزّوز، يخرج كريّاته الملونة ويقذفها في الهواء، ثم يتلقفها مرة أخرى، يزيد في سرعتها حتى تكوِّن ما يشبه قوس قزح، يطل الركاب كلهم من النوافذ، يتابعون ما يحدث من دون صوت، تستند ورد إلى كتف حسن، يحيطها بساعده ويبدآن في التحرك معا، يساعدها على السير وهي تخطو مثل طفلة حديثة العهد بالمشي، لا أطيق السكوت أكثر من ذلك، أصرخ بأعلى صوتي:

إنه ليس هو.

يتوقّفان عن السير، تفتح ورد عينيها وتنظر نحوي باستغراب، لا

يبدو عليها أنها قد تعرفت إليَّ، أو أنها كانت تعلم بوجودي أصلا، أصيح بها مرة أخرى:

إنه ليس حسن الذي أحببتِه، إنه قاتل، ليس قاتلا عاديا، ولكنه قاتل محترف يقتل بدم بارد، وربما تكونين أنت ضحيته القادمة.

تنظر نحوي باستغراب، يتابع حسن كلماتي وعلى وجهه علامات السخرية، أواصل الصياح وأنا على وشك البكاء:

أقسم إنني صادق في كل ما أقول، إنه لا يحمل إلّا الموت، كل ما يلمسه يموت، كان يجب ألّا تستيقظي مع لمسته، إنه لا يستحق انتفاض الحياة فيك.

تشعر ورد بالخوف من صياحي، بالخوف منّي، تحتمي بصدر حسن الذي يلفّ ذراعه حولها ويجذبها مبتعدا، لا ينسى أن يلتفت إليَّ وعلى وجهه ابتسامة بريئة لا تشوبها شائبة وخلفهما يسير عزّوز المهرج وهو ما زال يواصل اللعب بالكريات الملونة.

سفح جبل مونتريال

٦/ ٥/ ٢٠١١

أنا عشقت

علـى رصيف المحطة، وقفت ورد لتودع حبيبها حسـن قبل الرحيل. وقفت هناك.. ولم تتحرك بعد ذلك ثانية. وقفتها المتسمرة تلك دفعت ببطل الرواية في رحلة من مدينته الصغيرة إلى القاهرة التي تغلي من شـدة القهر، ورغما عنه يهجر براءته ويدخل إلى عالمها المليء بالقسـوة والصراع لحافة الموت، ينتقل من الأحياء العشوائية إلى ضواحي القاهرة الفخمة التي يحتمي سكانها خلف الأسـوار، من الجامعة حتى السـجون المكتظة بكل أنواع البشر كبطن الحوت، يشـاهد كيف تموت البراءة ويسـحق الإنسان ويظهر أسوأ ما فيه من خصال، هل سيتطيع «علي» أن يبقى متمسكا برمق الصدق الأخير؟

وكعادته، يبرع محمد المنسـي قنديـل هنا في تصوير أدق خلجات النفس، وأكثرها شـفافية وتعقيدا، بلغة شاعرية تزاوج بين الواقع والحلم، فيقدم لنا مدينـة حبلى بكل عوامل الثورة وتوشـك على الانفجار بينما ينتظر أناسـها البعث الجديد.



محمد المنسـي قنديل، روائي مصري، ولد فـي المحلة الكبرى عام ١٩٤٩. تخـرج من كلية طب المنصورة عام ١٩٧٥، ولكنه انشـغل بإعادة كتابـة التراث فاعتزل الطب وتفرغ للكتابة. صدر له عن دار الشـروق رواية «قمر على سـمرقند» التي فازت بجائزة «ساويرس» لـلآداب (٢٠٠٦) وتُرجمت إلى الإنجليزية، و«يوم غائم فـي البر الغربي» التي وصلت للقائمة القصيرة في جائزة البوكر للرواية العربية (٢٠١٠).



ISBN 978-977-09-3097-7

دار الشروق
www.shorouk.com